وزارة الثقافة والارشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

نافخ البوق

تأليف
توماس هاردي

ترجمة : محمد مفيد الشوباشي
مراجعة : علي أدهم

نافخ البوق

تأليف
توماس هاردى

ترجمة
محمد مفيد الشوباشي

مراجعة
على أدهم

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

Trumpet Major

by

Thomas Hardy

مقدمة

ظهرت هذه القصة لأول مرة عام ١٨٨٠ ، ضمن السلسلة التى كانت تصدر باسم « كتب جيدة » ، ويرسم « جون كوليار » لها الصور . وقد نشرها سميث الأكبر فى نفس العام كذلك فى ثلاثة أجزاء . وظهرت على غلاف الطبعة الأولى صورة بريشة هاردى نفسه .

وقد ظل هاردى مدة طويلة مهتما اهتماما شديداً بحروب نابليون ، وتوجد له مفكرة مكتوبة تتضمن مواد عن هذا الموضوع خاصة بأزمنة مختلفة ، رجع إليها فى كتابة « نافخ البوق » أو « جاويش البروجى » ، وقصة « الأمراء الحاكمون » التى كتبها بعد ذلك بما يقرب من خمسة وعشرين عاما وقد استمدوا من « جاويش البروجى » مسرحية درامية ، وقام بتمثيلها فى دوشستر عام ١٩١٢ ممثلون محليون . وكان من المصادفات الأليمة أن ماتت زوجة مستر هاردى الأولى يوم مثلت تلك المسرحية لأول مرة .

وقد جرت أحداث القصة فى أوفركمب ، وفى الأماكن المجاورة لويماوث ، وجرت أحياناً فى البلدة نفسها . وأطلق هاردى على كل أماكن القصة أسماء موطنه ويسكس الأصلية ، ولكن الكاتب أقدم ، فيما يختص ببلدة بودسماوث ، على تسميتها باسمها العادى ، وهو ويماوث ، عند تحدثه عن مجىء الملك جورج الثالث إليها ، ومغادرته لها .

التاريخ يعيد نفسه ، ولن يكون هناك شىء أدل معنى من قراءة قصة هاردى المسماة «جاويش البروجى» ، لهؤلاء الذين قضوا أشهر الصيف عام ١٩١٤ فى قرية إنجليزية . فإن عبقرية هذا الكاتب تخلق الجو نفسه من جديد ... تسلل إحساس جديد بالتدريج إلى الريف الحقيقى المستسلم للنوم . . . وقيم متغيرة ، وأشخاص يخرجون من بؤرة تجمع النور ظاهرين هم وحياتهم العادية . . . وأشباح غريبة تتربص حيث لم يكن أحد يتوقع إلا حلول غد عادى مريح ، ونظراً إلى أن قلمه قلم أستاذ فى فن الكتابة فإن كل شخصية فى قصته تصدق فى تمثيل نموذجها .

القصة بسيطة، وأشخاصها ينتظمهم ترابط وثيق، فهناك ميلر لفدى (صاحب الطاحون) وولداه جون، وهو جاويش البروجى، وأخوه بوب الملاح. وقام صاحب الطاحون بتأجير جانب منها إلى الأرملة جارلاند وابنتها آن، وقد ظلت عالقة بهما نفحة عاطرة من رقى الحسب وورثاها من رسام المناظر الطبيعية، الفقيد جارلاند. وتدور القصة حول هؤلاء الأشخاص الخمسة.

وكان جون، وهو جندى نظامى فى صفوف المتطوعين المختلفى الأزياء والألوان ينظر إلى غزو الفرنسيين المظنون على أنه مسألة تخص رؤساءه كلية، ودوره فى ذلك إطاعة الأوامر فحسب. وفستوس دريمان المزارع الشاب المختال الفارع الطول، بحسبانه أحد الفرسان فى فرقة الأشراف المتطوعين، يزداد اختيالا، على الأرجح، عن ذى قبل، فى حين أنه لا يكاد يستطيع أن يصبح أفرغ رأساً. والأرملة وابنتها تلعبان نفس الأدوار التى لعبت فى كثير من القرى منذ أقل من عشرين عاما، كانتا تمنحان كل ما هو عسكرى دون تمييز، آيات تقدير... ملىء بالإعجاب، وتمنحان حنانهما العاطفى لدى كل بادرة توحى بالخطر، وكرمهما الحماسى لكل المحاربين المجاهدين سواء بسواء. والفارس المتطوع الشاب الهادىء الذى نوى أن يؤدى واجبه دون أن يكثر من الكلام، برغم علمه بأن آلافاً من الرجال الشجعان سيلقون حتفهم قبل تأدية ذلك الواجب.

ولعل هاردى كان يردد آراء «فارسه المتطوع» فى قصيدته التى نشرت فى صحيفة التايمز يوم ٩ سبتمبر من عام ١٩١٤ بعنوان «الرجال الذين يرحلون إلى الحرب»، وهى:

«إننا نرى جيداً ما نحن صانعون».
«وإن كان كثيرون غيرنا لا يرون!».

* * *

«ونعتقد من سويداء قلوبنا».
«أن النصر يتوج الصادقين».
«ومن الإيمان والجبر الكافى فينا».
«خلق الرجال الذين يرحلون ...».

يسأل الجاويش الذى يقوم بتدريب الجنود :

ـــ ماذا يقول ذلك الرجل الواقف فى الصف الخلفى ؟

ويتجلى الحرص الوطنى على تنفيذ كل أمر عسكرى فى الرد :

ـــ عن إذنك ياسيدى ، أنا أنتونى كريبلسو الذى يريد أن يعرف كيف يقضم طرف خرطوشه بينما لم تبق فى فكيه سن واحدة ؟

ـــ عفواً ياجاويش ، ولكن ماذا ينبغى لنا أن نصنع ، نحن مشاة الفرقة غير المدربة ، إذا جاء بونى (يقصد نابليون) قبل أن نحصل على بنادقنا ؟

ـــ خذ حربة كغيرك من العاجزين ؟ .

هذه هى أيضاً أحاديث القرية عام ١٩١٤ عن نفس الأمور المتوقعة ، والذاكرة المرتدة إلى الماضى تقارن بين كلمة العاجزين ، وكلمة « المستخف بهم » المشابهة لها نطقاً فى اللغة الإنجليزية . أما اليوم فهى كلمة تشريف فى عين كل أولئك الذين يذكرون أصحابها عند العمل . ونحن نكاد نستطيع أن نتصور جندياً مستجداً من فرقة ذلك الجاويش المكونة من العاجزين يرقب العدو من فوق الصخرة العالية بوجهه المنفرد المصطنع ، ونكاد نرى أن الحوار يلائم الحالين القديمة والجديدة .

الكولونيل : ـــ هل تعرف لم أنت هنا ؟

ـــ لأصد العدو ياسيدى .

الكولونيل : ـــ وهل تظن أنك تستطيع تحقيق ذلك وحدك ؟

ـــ لست أدرى ياسيدى ، لكنى أدرى أنى سأحاول ذلك محاولة جادة ملعونة .

أما عن فتيات القرية ، فبرغم أن فتيات عام ١٩١٤ كن أكثر تحفظا ، فيما يجاهرن به ، عن فتيات عام ١٨٠٤ ، فإن قلوبهن لابد كانت تردد صدى قول آن وهى فى بيتها الويسيكسى(١) « : وددت يابوب لو أننا كنا نقطن فى شمال إنجلترا لنكون على بعد شاسع من المكان الذى سينزل العدو فيه » .

(١) نسبة الى اقليم ويسيكس بجنوب إنجلترا .

وهذه القصة لم تحو إلا القليل من فلسفة هاردى الدنيوية التى تتناول الجانب الأشد ظلمة من طبيعة البشر ، والتى خيمت على حياة « تيسى » و « جود » ، وقصص كثيرة أخرى . وهنا نجد صورة بلغت حد الكمال عن « دورستشاير » . عندما كان الملك جورج الثالث يحضر إلى ويماوث لقضاء عطلته ، مصطحباً زوجته الألمانية ، وذريته الكثيرة العدد ، بينما كانت أوربا كلها تنتفض خوفا من « الغول الكورسيكى » ، من الرجل الصغير الهائل الذى كان « أقل من مخلوق بشرى فى شعوره ، وأكثر من مخلوق بشرى فى إرادته » . وبذلك بقيت الحراسة إلى جانب المنارات المنعزلة ، وجرى تدريب الرجال الدرد عسكريا ، وتخزين الحراب فى الكنائس ، وتهديد الأطفال الأشقياء ، فيما إذا لم يتوبوا ، بالمصير المفزع ، وهو أن « بونى » سيأخذهم .

وويماوث ، المنتزه البحرى الملكى ، معروف لأناس كثيرين ، وقد شاهد بعضهم المسرحيات التى قام بتمثيلها على المسرح هناك خلفاء جاك بانيستر ، مع أنه لم تقطع مجرى تمثيلها أنباء مفاجئة كتلك التى باغتت الملك ، والتى باغتت جماعة لفدى مساء . ولكن روح هاردى أطالت المكث ، بحق أى حق ، فى صميم الريف ، تحت شجرة الغرغار التى علق عليها الإعلان الملكى مرة ، وهى الواقعة فى أحد الحقول بين أوفركمب وضيعة دريمان ، حيث اعتاد المعجبون بآن أن يقطعوا عليها طريقها . . . أو أطالت المكث إلى جانب المياه المصقولة الصفحة فى حوض الطاحون حيث سقى فرسان الملك جورج خيولهم ، « فشربت الحيوانات الظامئة ، وضربت الأرض بأرجلها . وانتفضت ، وعادت إلى الشرب ثانية . . . بينما كان « ميلر لفدى يتطلع إليها من فوق سياج حديقته ، والفلاحون المعجبون بها يتجمعون حولها » . « والنساء فى بساتين الفاكهة أو أمام أبواب أكواخهن ، والرعيان فى التلال النائية ، وعازفو اللفت فى الأراضى المحيطة المخضرة ، المائلة إلى الزرقة ، الواقعة على بعد أميال » . « وفى داخل حديقة الطاحون حيث كانت آن تقضى جانباً كبيراً من وقتها ، والعصافير اللطيفة تغرد لها ، والفراشات المبهجة تحط على قبعتها ، والنمل المفزع يجرى تحت جواربها صاعداً هابطاً » . « وكان القمر قد غاب ، وظلت نجوم الصيف وحدها تلقى أضواءها على الحديقة الكبيرة الرطبة » . حيث خيل إليها ، وهى تستلقى مستيقظة على فراشها ، أنها تسمع أصواتاً .

وصاحب الطاحون لفدى شخصية لطيفة بحكمته النافذة، ونظرته واسعة الأفق، وبجاملته الطبيعية البسيطة . وقليل من الناس ، عدا الأرملة جارلاند نفسها ، ينظرون إليه نظرة من هم أرقى اجتماعياً منه ، فعقليته وأساليبه وحديثه ، بل وملبسه ، بلغت جميعها الغاية فى نوعها ، فهى جديرة بالسلسلة الحافلة بأسماء أجداده الطحانين الذين انتقلت إليه الطاحون عن طريقهم . وفلسفته اللطيفة تفصح عن تربيته . « لا ضير فى أن يتودد المرء لقوم حتى إذا كانوا لا يحتملون كل الاحتمال » . وهو يتغلب على صعوبة إيواء الببغاوات التى جاء بها بوب ، والتى تقذع فى سبابها ، برأى أوحت به الطاحون نفسها : « لا ضير فى أن يسمع الطحان سبابها ، لأنه لن يتعلم منها سبابا أقذع مما يعرفه حالياً » . وهو يجيب على أقوال ماتيلدا المشوشة المتعالية عن وضعها الحقيق فى حياتها البيتية المستقلة : « هذا حقيق إلى حد كبير ، وستقولين ذلك عندما تعيشين هنا فترة وأنت سيدة المنزل ، وتتجشمين مشقة تنظيف الرياش » . وهناك كبرياء الرجل المتواضع فى تأكيد لفدى لابنه بوب أن هروب ماتيلدا الفجائى لم يكن بدافع سوء سلوكه : « أحسب أنى لا أعلم ما قد أكون ارتكبت فصدمت شعورها ، وعلى ذلك سأتناول طعامى الدسم فى غرفة الخبيز ، وأكتفى بكسرة وقطرة خمر أتناولها فى حضرتها بجاملة » . وحتى بوب الذى كان محطم القلب لفترة قصيرة ، أقر بقوله : « أنت لم تكن تستطيع أن تفعل أكثر من ذلك » .

ولم تكن السيدة جارلاند ، التى تزوجته بعد ترملها ، كفؤا له قط ، برغم تمسكها بين الفلاحين والسادة بوضعها الطبقى على أســـاس إلمامها بالقراءة ، واستطاعتها كتابة الرسائل ، وتوضيحها لجيرانها أنباء الصحيفة « التى كانت تجد سبيلها عرضاً إلى القرية » . وهى لم تكن قط على يقين مما تريد سواء فيما يتعلق بمن يطلبون الزواج بابنتها ، أو بالملابس التى يجدر أن ترتديها ، ولكنها كانت عنصراً مريحاً فى الحياة المنزلية بالطاحون . كانت متأهبة لتلقى أنباء العالم الخارجى دون ما هياج لا مبرر له ، ولأن تقول لدى رؤية الملك جورج وأسرته وهم فى طريقهم إلى ويماوث : « شكراً لله ، فقد رأيت الملك » . ولأن تقترح رفع معنوية أسرتها فى ليلة أحد ، عندما لم يجد أفرادها أغنية يغنونها ، بترتيل أناشيد

دينية على أساس أن اختيار اللحن المنتعش ، دون ما التفات إلى معانى كلماته ، لا يكاد يقل حسناً عن الأغنية الشعرية » .

وقد ورثت آن عن أمها طبيعتها المتذبذبة . وإن سرعة تحولها من طالب زواج إلى آخر ، تحير بعض الشيء أحيانا . اجتذبها جاويش البروجى ، رفيق صباها ، وهو خير نموذج لجندى بريطانى تتوق إليه الفتاة فى قرية من القرى . ثم يأسر بوب خيالها بما يحيط به من سحر البحر ، ومن مهارته فى التسلق إلى النوافذ للدخول والخروج منها ، وإعداد الموائد ، وخلط صفار البيض ببياضه . بل إن فستوس دريمان ، وهو جبان فى زى فارس من الفرسان المتطوعين ، فاز إلى حين بحظوتها التى لا تبقى على حال . وذلك خلال فترة شكها فى شعور الأخوين لفدى ، وشعورها هى . ودريمان الهرم ، عم فستوس ، ند له فى صفاته الكريهة . فالجشع والوقاحة من ناحية أحدهما لا تضارعهما إلا الخسة اللئيمة من ناحية الآخر . ولكن أجمل شيء فى القصة هو الحب المتبادل بين أفراد أسرة لفدى الثلاثة . فصاحب الطاحون يتلهف على مساعدة ولديه فى السراء والضراء ، وفى الكبائر والصغائر .

ويرغب كذلك فى إقامة حفلة عرس لماتيلدا التى جيء بها فجأة ، وانتظارها لتناول الإفطار مهما طال تأخرها ، واحتجابه بعد وقوفه من تلك السيدة على حقيقة أخلاقها التى أدت إلى هروبها على عجل ، « احتجابه فى أشد مخابىء الطاحون امتلاء بالدقيق حيث اعتاد أن يلتجىء كلما أزعجه أمر » . وكان عطفه على بوب الحزين لا يحد « فقد تعجل الزواج بالسيدة مارتاجارلاند حتى لا يضيع الجهد الذى بذلته تلك السيدة لحفلة عرس بوب هباء . فمن تنظيف للبيت تنظيفاً متقناً ، ومن إعداد كميات كبيرة من الفطائر والحلوى والخمر ، ولكنه تلهف على حضور ابنه إلى تلك الحفلة حتى ينال نصيبه من المأكول والمشروب الوفيرين ، فلعله يجد فى ذلك نوعاً من العزاء .

« سأجد وسيلة لترتيب الأمر يابوب لجعل حفلة العرس أكثر احتشاماً حتى تصبح مكفهرة إلى الحد الذى يمكن أن تتطلبه . . وبمجمل القول إنها ستصبح كالجنازة تماماً . . . سأفعل ذلك إذا وعدتنى أن تبقى وتحضرها » .

وحب كل أخ من الأخوين للآخر كان من هذا النوع كذلك ، فإن كلا منهما كان راغباً بدوره فى التنازل عن آن التى يشتهيها لنفسه .

قال بوب : « حاول أن تفوز أنت بها ، فأنا أستطيع أن أبحث فى مكان آخر » . ولكن جون هو الذى بذل التضحية الأخيرة .

ووراء القصة يقوم السند التاريخى الذى يضيف قيمة كبيرة إلى أهميتها ومقرها . فهى تعود بنا إلى عام ١٨٠٤ ، عندما كان توقع الشر يغلى فى كل مكان كالمرجل . وفى العام أو العامين الأخيرين من ذلك العهد لم يكن يفصل الوطن الإنجليزى الهادىء عن جيش العدو الذى يبلغ مائة وخمسين ألف مقاتل إلا مضيق ضحل عرضه خمسة وعشرون ميلا . . وراقب الإنجليز بونابارت . . وراقب بونابارت الإنجليز ، وقد انتظمت القصة فى دقة خطته الخيالية الساذجة لغزو انجلترا ، وأشعرتنا فى كل صفحة من صفحاتها اشتداد الروح العسكرية مختلطة بمخاوف الإنسان الطبيعية .

والنبأ الذى أبلغ الملك جورج فى مسرح ويماوث كان نبأ إخفاق نابليون فى خطته ، وانتصار سير روبرت كالدار ، بالقرب من رأس فينيستر ، على أسطول الأميرال فيلنوف العائد من رحلته التضليلية إلى جزائر الهند الغربية . وبعد تشتيت السفن الفرنسية ، وارتدادها إلى ميناء فيرول ، ثم إلى قادس ، قضى على الأسطول الذى كان سيحمى السفن المسطحة القاع فى اجتيازها للخليج الإنجليزى مقلة الملاحين الغزاة .

وتظهر فى القصة شخصيتان تاريخيتان أحدهما الملك جورج نفسه وهو يتجول ناحية البحر بالقرب من قصره فى ويماوث ، ويحى آن الباكية بعبارته التاريخية : « ماذا ؟ ماذا ؟ » وثانيهما كابتن هاردى ، أحد أسلاف الكاتب ، وكان له « منزل صغير فى بوسهام ، على بعد أميال قليلة من أوفركمب ، حيث اعتاد أن يقضى فترات راحة بين رحلاته البحرية الحربية » . وهو الذى أتاح لبوب أن يعود إلى مهنته البحرية عودة مشرفة ، وأن يشغل إحدى الوظائف المرغوب فيها على ظهر السفينة « فيكتورى » . ونحن نسمع أنباء موقعة الطرف الأغر ، وموت نلسون الفاجع ، إلى جانب وصف الفرحة التى غمرت جون لدى اطمئنانه إلى

سلامة أخيه ، واختياره « واحـداً من الثمانية والأربعين ملاحاً الذين ساروا أزواجا أزواجا فى موكب الجنازة » .

وبرغم أن القصة لا تعد تاريخية بالمعنى الدقيق ، إلا أنها قصة تحيى من جديد ، إلى حد بعيد ، جو جنوب انجلترا وقتما كان نابليون يتمتع بأوج سطانه .

ولـكن فتنة هـذه القصة خاصة بها نفسها ، وهى تطالعنا نضرة من سن قلم مبدعها ، متحلية بين سلسلة متسقة من أشجار الكراز ، وتحت أضواء الشمس الساطعة ، ومن خلال العواطف البشرية ، رقيقها وبسيطها ، وضيعها وكريمها . وهى تبلغ ذروة التضحية المكتملة فى وصف خلق جاويش البروجى نفسه . وهاردى لا يخطىء سخرية الحياة قط ، ولا يصطنع لقصصه خاتمة سعيدة كخواتيم قصص العهد الفكتورى . وبرغم أن صاحب الطاحون يفوق زوجته فى الخلق والسلوك إلى حد كبير ، فهى التى تتنازل فى القصة لتتزوج به ، وابنتها آن تختار أسوأ الرجلين قطعاً . أما عن جون فهو يتصف كأبيه بإباء فطرى لا يتخلى عنه أبداً . والحب الذى وهبه لآن كان أسمى هبة سنحت لها فى حياتها ، وكرم الخلق الذى دارى به ذلك الحب كان فوق متناول إدراكها . بيد أن بوب ، الأشد إخلاصاً للحياة ، هو الأكثر ملاءمة لها . وهـذا الملاح المرح ، الحاد المزاج ، الهوائى الشعور ، الذى أخلص لـكل من آن وماتيلدا ، راغباً فيمن تـكون منهما أسهل منالا ، متعثراً دون تذمر بفعل الحظ السيء أو الحظ السعيد ، متمتعاً بالمهارة الكافية لتضليل « عصبة اصطياد الملاحين » ، هذا الملاح لا يرتفع مع ذلك إلى سمو الخلق الذى أبداه كل من أبيه وأخيه جون .

ولـكن بوب هو أسعد الأخوين حظاً . فهو يعود إلى الحياة البحرية فى اللحظة الحـاسمة ، ويخوض المعركة ويخرج منها سالما ، ويفوز بآن حين يرغب فيها ، ويشيع هو وآن أخاه جون ونفيره بابتسامة وداع . . . ولن تتردد نغمات ذلك النفير ثانية فوق تلال ويسكس محيية انجلترا والملك جورج ، عندما ينتهى القتال الرهيب الدائر خلال غزوة « شبة الجزيرة » ؟

سيرة توماس هاردى

من السهل ذكر الوقائع المتعلقة بحياة « توماس هاردى » ، ولكن لابد للمرء من قراءة الصفحات التى كتبتها أرملة هاردى ، « فلورنس إميلى » ، عن سيرته ليرى نفس الرجل الذى :

« كانت حياته عملا متصلا ، ولغته » .

« تزخر بالأمثال القوية المنحوتة من صميم الحياة ... »

وتوماس هاردى يحيى ثانية هناك فى فصول من مذكراته ويومياته المكتوبة بقلمه ، مشتملة على تفصيل ماكان يقوم به من عمل « روتينى » فى لندن ، وفى القارة الاوربية ، وفى موطنه ، ويسكس ، على الأغلب ببلدة « ماكس جيت » القريبة من دوشيستر .

وكان هاردى ثالث ثلاثة من أفراد أسرته توارثوا اسم « توماس هاردى » . وقد ورث كفاءته الموسيقية عن كل من أبيه وجده ، وكان يعزف على الكمان ويرقص وهو بعد طفل فى الرابعة من سنه . وكان مولده يوم ٢ من يونيو عام ١٨٤٠ فى « هاير بوكهامبتون » بالقرب من دورشستر المسماة فى قصصه باسم « كاستربريدج » . وكان أرق بنية من أن يجتاز الحقول الشاسعة لتلقى العلم ، ولكن المعلم بمدرسة دروشستر قام بتلقينه قدراً غير قليل من الدروس ، وظل يتردد على تلك المدرسة حتى سن السادسة عشرة . ومن ثم تركها ليتدرب على فن « المعمار » بمكتب مستر جون هيكس فى دوشستر . ورحل بعد خمس سنوات من ذلك الحين إلى لندن حاملا توصية إلى آرثر بلومفيلد الذى منح فيما بعد لقب « سير » . ولم يلبث هاردى أن أصبح مساعداً له . وقد تميز فى عمله ، وفاز بعدة جوائز من المعهد الملكى « للمعماريين » البريطانيين . وقضى فى ويماوث ردحا من الزمن يعمل مع أحد أصدقاء جون هيكس فى ترميم الكنائس ، وألف هناك منطقة بودماوث على نحو ما وصفها فى قصة جاويش البروجى ، فمن الجو الجميل » إلى نزهة المراكب فى الخليج ، إلى تخوم « شاطىء شيزيل » المشهور بجماله .

وفى عام ١٨٧٤ اقترن بزوجته الأولى « إما جيفورد » التى قابلها بأبرشية « سان جوليوت » عند زوج أخته فى « كورنوول » بالقرب من « بوسكاسل » ، حيث ذهب لينظر فى أمر ترميم الكنيسة هناك . وقد كتب قبل زواجه ، قصصه الثلاث : « العلاج اليائس » و « تحت شجرة الغابة الخضراء » و « عينان زرقاوان » ولم تلق هذه القصص إلا قبولا فاتراً . وكان قد نشرها باسم مستعار ، وكذلك فعل عند نشر قصته « بعيداً عن الزحام الذى يورث الجنون » وقابل الجمهور هذه القصة الأخيرة بحماسة ، وحولها « كومينزكار » إلى دراما مسرحية عام ١٨٨٢ ، وأخرجها هو نفسه لأول مرة فى ليفربول ، ثم على مسرح « جلوب » فى لندن .

كان هاردى كاتباً مجداً فى إنتاجه ، فقــــد صدرت له اثنتا عشرة قصة ، تلا بعضها بعضاً فى فترات منتظمة ، وظهرت له مجموعة « أشعار ويسكس » عام ١٨٩٨ ، وقصة « الأمراء الحكام » ما بين عامى ١٩٠٤ و ١٩٠٦ . واعتاد أن يقضى جزءاً من كل عام فى لندن بين أدباء العصر الفكتورى المشهورين الذين كان له بينهم أصدقاء عديدون ، ولكنه كان يقضى الجانب الأكبر من وقته فى « ماكس جيت » ، وهو المنزل الذى شيده على جانب طريق ويرهام الممتد من دوشستر ، وهناك كان ينفق أيامه بين أهالى ويسكس الذين عرفهم تماماً ، وأحبهم كثيراً . وماتت زوجته الأولى عام ١٩١٢ ، فتزوج عام ١٩١٤ « ليلى دوجديل » التى كتبت سيرته المشار إليها . وفى عام ١٩١٣ نال «وسام الاستحقاق» ، ولم يمض على ذلك عامان حتى منحته الجمعية الأدبية الملكية نوطها الذهبى . وفى عام ١٩٢٠ منحته جامعة أوكسفورد لقب « دكتور فى الآداب » ، وفى نفس الليلة التى فاز فيها بهذا اللقب قامت جمعية التمثيل فى جامعة أوكسفورد بتمثيل مسرحية « الأمراء الحكام » فى مدينة أوكسفورد .

وهكذا مرت السنون ، وبدا أنها لم تحدث إلا تغييراً ضئيلا فى القوة الفكرية التى كانت تؤثر فى انجلترا آنذاك . وكانت لهاردى قدرة كبيرة على استمالة جيل الشباب ، وقد تلقى فى عيد ميلاده الواحد والثمانين رسالة تبجيل مذيلة بتوقيع مائة وستين كاتباً من كتاب الشباب . وظل محتفظاً بعاداته الدائبة . وكانت قامته القليلة الانحناء ، ووجهه الصغير ذو العينين العميقتين المتأملتين ، كانا معروفين

لأصدقائه فى كثير من غرف الاستقبال بلندن كما كانا معروفين فى دروب ويسكس.
وفى يوم ٩ من سبتمبر عام ١٩٢٦ شاهد تمثيل قصته « عمدة كاستربريدج » على مسرح ويماوث بعد أن صاغها « جون درينكووتر » من جديد للتمثيل المسرحى.

وكان قد وصف فى قصة « جاويش البروجى » حضور الملك جورج الثالث إلى هــــذا المسرح نفسه . ومشاهدته الممثل بانيستر فى قيامه بتمثيل إحدى مسرحيات كولمان .

وتوالى اضمحلال قواه فى هدوء ، وتوفى فى بيته ذاته يوم ١١ من يناير سنة ١٩٢٨ وقد بلغ السابعة والثمانين من عمره .

وتم واجب تكريمه بإقامة مأتم عام فى كنيسة « وستمنستر أبى » حيث دفن رفاته ، ولكن قلبه نقل إلى كنيسة أبرشيته فى بلدة « ستينفورد » تلك الكنيسة التى عرفت فى كتبه باسم « ملستوك » .

وقد جادت عليه الآلهة بهبة جزيلة فرد لجيله هذه الهبة إرثاً كبير القيمة . بيد أن قلة من الناس تستطيع أن تزعم أنها فهمته فهما تاما . ولعلنا نستطيع أن نكون أدنى قرباً من طبيعته الحزينة الغريبة إذا قرأنا شعره الذى أودع به أثمن قيم كتاباته .

ومن أواخر الأسطر التى كتبها قوله : « إن الذى تعلمته لن يعرفه مخلوق » . ولكننا لا نجهل أنه ملأ لنا ويسكس بأناس خلقهم خلقاً جديداً . وأولئك الذين يقفون فى كنيسة « ملستوك » ، الخافتة الضوء ، حيث يستريح الآن قلبه ، يكادون يلمحون طلعة جاويش البروجى تقف كالشبح إلى جانبه ساهرة عليه ، وتكاد آذانهم تلتقط أصداء نفيره تعزف لحن انصراف الجند لآخر مرة فى نبرات الأشباح ؟

الأخ الأكبر

نافخ البـــوق[1]

« كانت تراه العين من النافذة »

« المطلة على المرج »

فى الأيام التى كانت النساء ترتدى خلالها الزنانير العالية ، والقمصان الشفافة . أيام كان التجنيد يجرى فى البلاد على نطاق واسع ، ويسبب الرعشة للجنس اللطيف . فى تلك الأيام عاشت فى قرية قريبة من ويسكس سيدتان سيرتهما حسنة ، وإن كانت مواردهما لسوء الحظ محدودة . كبراهما كانت السيدة « مارثا جارلاند » ، وهى أرملة مصور للمناظر الطبيعية . والأخرى ابنتها الوحيدة « آن » .

كانت آن جميلة . . . كانت جميلة جداً من حيث المفهوم الشعرى ، ولكن كان لها من حيث البشرة ذلك اللون الخاص الحائر بين لون الشقراء والسمراء ، ذلك اللون الذى تركه الناس على نحو غير ملائم دون اسم . . . كانت عيناها صادقتين مستقصيتين ، وفمها منحوتا نحتا نظيفا ، وبرغم ذلك لم يكن كلاسيكيا . وموضع الوسط من شفتها العليا قلما ينحدر إلى الحد الذى كان من الحق أن ينحدر إليه ، حتى أن أجزاء من اثنتين أو ثلاث من أسنانها البيض تظل مكشوفة للعيان لأقل خاطر سار يخطر للفتاة ، ناهيك عن أية ابتسامة ، سواء أرضيت عن ذلك أم لا . . وبعض الناس قالوا عن ذلك إنه جذاب جداً . . كانت رشيقة هيفاء . وبرغم أن طولها لم يزد عن خمس أقدام إلا قليلا ، فقد كانت تستطيع أن تنصب قامتها لتبدو طويلة . وكانت فى سلوكها ، وفى جيئاتها وروحاتها . وفى قولها « سأفعل هذا » ، أو « سأفعل ذلك » ، كانت تجمع فى هذا كله بين الوقار والعذوبة على نحو لم تستطعه فتاة أخرى قط . وأى جماعة من الشبان الغرباء المرهفى الحس

---

(١) رئيس « جوقة » عازفى البروجى (شرح الأصل) . وقد سمى فى هذه القصة جاويش البروجى كما يسمى عندنا فى الجيش .

الذين يمرون بها كانوا يتلهفون على أحاديث تتساقط منها ، ويرون فى الوقت نفسه أنهم لن يفوزوا بها . وبمجل القول أنه كان يكمن وراء كل ما هو جذاب وبسيط فى هذه الفتاة ، حزم حقيقى ، لا يلحظ لأول وهلة ، فهو كشائبة اللون تكمن غير ملحوظة فى قلب أشد زهر المقدونس شحوبا .

كانت تلبس منديلا أبيض تستر به جيدها الأبيض كذلك ، وتضع على رأسها قبعة ملفوفة بشريط وردى معقود على نحو مائل من أمام ، وكانت لديها أنواع منوعة من تلك القبعات الملفوفة بالأشرطة ، إذ كان الشبان المغرمون بإرسالها إليها على سبيل الهدية يواصلون ذلك حتى يقع الواحد منهم نهائياً فى حبائل حبيبة معينة فى ناحية أخرى ، وعندئذ يقلع عن القيام بذلك : وعلى الحد الذى تلتقى فيـــه قبعتها بجبينها تدلى صف من الجدائل الكستنائية الملفوفة الشبيهة بأعشاش الطير تحت رفارف الأسطح .

كانت تعيش مع أمها الأرملة فى جزء من بناء قديم كان فيما مضى قصراً منيفاً ولكنه يشتمل الآن على طاحون ، ولما كان البناء أكبر بكثير مما تحتاج إليه الطاحون ، فقد رأى صاحبه أن من الأنسب تقسيمه ، وتخصيص جزء منه لهاتين الساكنتين المتمتعين باحترام كبير ، وكانت أذنا كل من السيدة جارلاند وآن تنعمان فى هذا المسكن صباحا وظهرا ومساء بوقع موسيقى الطاحون ، فقد كانت عجلات الطاحون ودواليبها المصنوعة من خشب تحدث أنغاما قد تستحدث فى ذهنيهما شبها بعيدا بالأنغام الخشبية الناتجة عن فساد ميزان النغم فى الأرغن . وعندما يعمد صاحب الطاحون إلى غربلة القمح(١) تضاف إلى تلك الأنغام المتواصلة قرقعة القادوس المبهجة التى لم تكن تحرمهما الراحة إلا عندما يظل القادوس دائراً طوال الليل . وكانتا تنعمان فوق ذلك كله بمتعة علمهما بأن غبارا طفيفا من الدقيق الشديد النعومة يتسرب إلى مسكنهما من غرفه الطحن نافذا من خلال كل شق وباب ونافذة مهما أحكم إغلاقها . . . كان غباراً لا يرى قط ، ولكن وجوده يدرك على مر الزمن بما كان يخلعه على أبهى أثاث من منظر شاحب طينى . وغالبا ما كان صاحب الطاحون يعتذر لساكنتى بنائه عن تطفل ذلك الضباب الجاف الخبيث ..

(١) تمرير القمح فوق غربال دائم الاهتزاز . (شرح الأصل)

ولكن الأرملة كانت ذات طبيعة ودود شكور ، وقد قالت إنها لا تهتم به أبداً نظراً إلى أنه ليس بالشيء القذر القبيح ، ولكنه عماد الحياة المبارك .

كانت السيدة جارلاند تظهر بهذا المزاج الرضى ، وبوسائل أخرى ، صداقتها لجارها الذى ارتبطت به هى وآن ارتباطا بلغ حد لم تتوقعه قط من قبل فى بدء انتقالها إلى هناك من منزل أكبر فى الناحية الأخرى من القرية ، وقد أغراها بذلك انخفاض قيمة الإيجار بعد موت زوجها . . . والذين عاشوا فى أماكن نائية يدركون التقارب التاريخى هناك بين أقدار الناس ، ذلك التقارب الذى حدث فى هذه الحالة بتضحية نبل الحسب من جانب أسرة من الأسر . وكانت الأرملة تتكدر فى بعض الأحيان إذ تجد لدى ابنتها سرعة استعداد فى التقاط بعض كلمات من لغة صاحب الطاحون وأصدقائه ، أو من لهجتهم . ولكن هذا الأخير كان رجلا طيباً صادق الشعور جداً ، وكانت هى على قدر كبير من سماحة التفكير ، ومن القناعة ، إلى حد أنها لم تكن لتجعل حياتها حياة عزلة لمجرد أسباب تقوم على التعنت . وكانت تجد ، فوق كل شيء ، أساساً قوياً لظنها أن صاحب الطاحون يعجب بها سراً ، وقد أضاف هذا طعما حريفاً للموقف .

١

وفى صباح صيفى جميل ، بينما كانت أوراق الشجر دافئة تحت أشعة الشمس ، والنحل الأكثر جداً فى العمل يغطس خارج خليته فى كل كوب أزرق وأحمر يمكن أن يعد زهرة . كانت آن تجلس فى النافذة الخلفية الواقعة فى ذلك الجزء من البناء الخاص بأمها ، وتقيس أطوال خيطان الصوف لنسج البساط الذى تقوم بصنعه . وكان ملقى بالقرب منها ، وقد تم صنع ثلاثة أرباعه . وبرغم أن صنعه كان باهراً من حيث التلوين فقد كان مضنيا . إن بساط المسكن شيء لا يمكن للمرء أن يعكف على نسجه من الصباح حتى المساء . كان يلتقط ثم يوضع ثانية . ونجده ملقى على المقعد أو على الأرض ، أو فوق «الدرابزون» .. أو تحت السرير . وقد يطوح به هنا ركلا أو هناك . ويوضع ملفوفا فى الخزانة ، ويؤتى به ثانية . وعلى نحو قد يكون أكثر خضوعا للنزوة من صنع أية أداة منزلية أخرى . وليس هناك من يتوقع إتمام نسج بساط فى مدة محددة ، فالصوف الذى تم نسجه فى بدء صنعه يصبح باهتا قديما قبل إتمامه . والشعور بهذه الطبيعة الأصيلة فى

نسج الأبسطة هو الذى حمل آن ، أكثر مما حملها الكسل ، على أن تكرر النظر نوعا ما من النافذة المفتوحة .

وبدا أمامها مباشرة حوض الطاحون الكبير طافحا منسلا خلال السياج إلى الشارع . كان الماء بما يحمل من أوراق الشجر وسقط المتاع يتسرب تسرب الزمن مبتعداً تحت القنطرة المظلمة ليتعثر بالعجلة الكبيرة الدقيقة الدائرة داخلها . وكان فى الناحية الأخرى من حوض الطاحون مكان طلق يسمى « ذى كروس » لأنه على شكل ثلاثة أرباع صليب ، يتقابل فيه دربان وطريق للماشية . . . كان مكانا عاما لتلاقى المتواعدين ، وساحة يجتمع فيها أهل القرية المحيطة به . ومن وراء ذلك ارتفع إلى السماء جرف شديد الانحدار ، ينتهى إلى صعيد طلق من الأرض ، وقد تناثر فيه الآن عدد من الغنم جز شعره أخيراً . وهذا الصعيد يحمى بسموقه كلا من الطاحون والقرية حماية تامة من ريح الشمال ، ويجعل من الربيع صيفا ، ويحيل الشتاء إلى مثل جو الخريف ، ويتيح للآس أن يزدهر فى الهواء الطلق .

وجثمت الظهيرة بثقلها على المشهد ، وتوقفت الغنم بتأثيرها عن الاقتيات . ولم يكن هناك أحد فى « ذى كروس » إذ أن السكان القلائل كانوا وقتذاك يتناولون غداءهم داخل دورهم . ولم يكن كذلك مخلوق فى المرج ، ولا يبدو أن هناك عينا كانت ترمقه ، أو اهتماما تعلق به إلا عين آن واهتمامها . وظل النحل يؤدى عمله ، ولم تهدأ الفراشات عن تجوالها . ويبدو أن صغر حجمها ظل يحميها مما كان لركود هذه اللحظة — لحظة تحول اليوم — من أثر فى المخلوقات الأكبر حجماً . وكل شىء عدا ذلك كان ساكناً .

نظرت الفتاة إلى المرج والغنم لغير ما سبب معين . وكان حد المرج المنحنى ، والأقحوان الممتد فوق الأسطح والمداخن ، وأشجار التفاح ، وقبة كنيسة القرية البادية أمام الفتاة . كان هذا كله يبدو من حيث تنظر متاخما للمشهد . ولابد أن تقع عينها على ناحية ما حين ترفعها بينما كانت تنهمك فى نسجها ، وتتوقف على نحو ما ذكرنا ، واسترعى انتباهها قيام الغنم الجاثمة فى المرج فجأة وجريها بعيداً . وأعقبت ذلك أصوات وقع خطى ثقيلة على الأرض المعشوشبة الصلدة التى جلت عنها الغنم . وصحب وقع تلك الخطى صليل معدنى . ودارت بعينيها

إلى أبعد ، فرأت جنديين من الفرسان ، مدججين بالسلاح ، يصعدان فى التل على صهوة جوادين أشهبين ضخمين ، يقصدان بقعة إلى اليسار انحدارها أسهل نسبياً . وكانت سلاسلهم المصقولة ، ودروعهم وألواحهم الزخرفية ، تسطع كأنها مرايا صغيرة . ولم تبهت الألوان الزرق والحمر والبيض بفعل الجو ولم ترث .

كان الفارسان يركبان جواديهما فى زهو ، وكأن ذهنيهما الفاخرين لم يهتما بشيء أقل شأناً من التيجان والإمبراطورية . ووصلا من التل إلى تلك الناحية المنبسطة أمام الفتاة مباشرة حيث رابطا هناك . وظهرت من ورائهما ، بعد دقيقة أخرى ، ثلة تبلغ زهاء ستة جنود من نفس الطراز . وأقبل هؤلاء ، وتوقفوا وترجلوا كما فعل زميلاهم .

ثم سار جنديان معاً إلى أمام ولم يلبث أحدهما أن توقف ، وتقدم الآخر إلى مسافة أبعد ، ومد بينهما شريطاً أبيض أخرجه من لفافة . وسار جنديان آخران إلى ناحية أخرى بعيدة حيث ميزا الأرض بعلامات . وعلى هذا النحو تجول الجند فى الأرض وقاسوا المسافات طبقاً لخطة معينة مرسومة كما هو واضح .

وفى آخر مسرح هذه العمليات المنسقة بدا فارس منعزل عن الباقين — هو الضابط المكلف بالعمل ، إذا كان الحكم على بزته العسكرية لا يخطىء وهو على هذا البعد — وقد انطلق بجواده إلى أعلى التل ، وسار فى الأرض المقيسة ، وفحص بنظره ما قام الآخرون بعمله ، وظهر عليه أنه وجد ما رآه طيباً . ثم سمعت الفتاة أيضاً أصواتاً لوقع أقدام ، ولصلصلة أعلى مما سبق ، ورأت طابوراً كاملاً من الفرسان يصعد فى نظام من حيث صعد الآخرون . وتصاعدت على بعد وراء هؤلاء سحابة من الغبار تلف مزيداً بعد مزيد من فرسان تعكس أسلحتهم وأرديتهم أشعة الشمس خلال الضباب فى ومضات خفيفة ، وشرار كالنجوم ، وخيوط من نور . واقترب الجيش كله فى بطء من الهضبة الممتدة فى أعلى التل .

وألقت آن بنسيجها . وقالت وقد تركت بصرها عالقاً بجموع الفرسان المقتربة ، وخيوط الصوف تتعقد كما شاءت أن تتعقد : « أماه ، أماه ! ، تعالى ! فهنا أى منظر بديع ! ما معنى هذا ؟ ماذا يمكن أن يصنعوه فوق التل هناك ؟ » .

وصعدت الأم ركضاً إلى الدور العلوى عندما سمعت هذا التضرع ، وتقدمت صوب النافذة . وهى امرأة حادة العين والفم ، غير متحمسة الطبع ، لطيفة السماء عموماً ، معتمة قليلا من حيث المظهر الخارجى . ولكنها لا تقل كثيراً عن ابنتها من حيث الشكل .

وكانت آراء الأرملة جارلاند هى نفس آراء زمانها . وقالت وقد أعدت نفسها لحالة من أشد حالات الفزع :

— أيمكن أن يكونوا الفرنسيين ؟ أيمكن أن يكون هذا العدو الأكبر للإنسانية قد نزل أرضنا فى نهاية الأمر ؟

والذى لابد من ذكره أنه كان هناك وقتذاك عدوان أكبران للإنسانية . . الشيطان كالعادة ، وبونابارت الذى قفز وخسف منافسه الذى يكبره سنا خسفا تاما . وكانت السيدة جارلاند تشير بالطبع إلى السيد الأصغر سنا .

وقالت آن :

— لا يمكن أن يكون هو ذاك . آه ! إنه « سيمون بردن » الذى يرقب التل ، فهو سيعلم بما هناك .

ولوحت بيدها لهيكل رجل متقدم السن لا يختلف لونه عن لون الطريق ؛ وقد بدا فى التو من وراء حوض الطاحون . وكان برغم نشاطه منحنياً إلى درجة يخجل معها الرجل الحساس الذى يراه من انتصاب قامته . وجعله حضور الجند يفيق من القليل من الخمـــر التى شربها فى « ديوك أوف يورك » . لقد اجتذبه حضورهم كما اجتذب آن . وعبر جسر الطاحون على إثر ندائها ؛ وأقبل صوب النافذة .

وسألته آن عما يعنى هذا كله . ولكن سيمون بردن واصل مشيه دون أن يجيب . . . واصله منفرج الفم . محلقاً فى الفرسان ليشبع رغبته خاصة ؛ ومهما ذلك الاهتمام الذى يبديه الناس غالبا بشأن ظاهرة مؤقتة عندما يمكن لمثل تلك الأمور أن تؤثر فيهم مدة وجيزة ليس إلا . . .

وقالت آن لسيمون بردن :

— ستقع فى حوض الطاحون ! . . . ماذا يصنعون ؟ لقد كنت جندياً منذ

سنوات عديدة خلت ، وجدير بك أن تعلم .

وقال الحطام المتبقى من الجندية ، مسنداً جسده إلى الحائط عضواً بعد عضو :

— لاتسأليني يا آنسة آن . فأنا لم أكن إلا جندياً فى سلاح المشاة كما تعلمين، فليس لى إلمام واضح بشأن الخيول . نعم . وقد أصبحت شيخا متقدما فى السن ولا أستطيع الآن أن أحكم على الأمور » .

وحمله مع ذلك شيء من دافع إضافى على زيادة البحث فى مخزن أفكاره المتآكل . ووجد أنه يعرف ما يحدث على نحو مبهم لا يركن إليه . فلا بد أن الجنود قد حضروا للمرابطة هناك . وهؤلاء الرجال الذين ظهروا أولا هم واضعو العلامات . وقد سبقوا غيرهم لقياس الأرض . والذى رافقهم هو أمين الميرة . . . ثم أضاف قوله :

— وهكذا ترين أنهم أتموا تخطيط الأرض وقتما حضرت الكتيبة . ثم إنهم بعد ذلك سيقدمون على . . . حسن أيتها العزيزة ! من ذا الذى كان يتوقع أن « أوفر كومب(١) » ستشهد يوماً كهذا ؟

— وبعد ذلك سيقدمون على . . .

وقال سيمون :

— بعد ذلك . . . آه لقد عاودنى النسيان . أوه ، وبعد ذلك سيقيمون خيامهم كما تعلمين ، ويقيدون خيولهم فى المرابط(٢). هذا هو الأمر . هكذا كان .

وفى هذه الأثناء كان طابور الجند قد صعد فى التل وأصبح ظاهراً كل الظهور . وشكل الفرسان منظراً جميلا وهم يخبون بجيادهم على طول الهضبة فى سير منتظم ، والسماء ذات الزرقة الشاحبة تسندهم من خلف ، والشمس الساطعة تضيئهم من الجنوب ، وكانت بزاتهم العسكرية مشرقة جذابة .. سراويل بيض من جلد الغزال وأحذية ترتفع إلى ثلاثة أرباع الساق ... وقلنسوات(٣) حمر المطرزة ، وشواربه

---

(١) قرية تقع فى الشمال الشرقى من خليج ويذاوث (شرح الأصل) .

(٢) أوتاد تدق فى الأرض لقيد الخيل يسميها الجند « بيكتس » (شرح الأصل)

(٣) تسمى القلنسوة من هذا النوع « شاكس » وهذا الاسم مستمد من كلمة لساكو المغولية التى تطلق على القبعة المخروطة الشكل ، القصيرة المزينة بريشة (شرح الأصل) .

مشمعة إلى حد أن أصبحت أطرافها كالدبابيس . وفاقت ذلك كله تلك السترات الزرق الغالية الزينة ، المغطاة ، التاريخية(١) . وكانت جذابة فى عين النساء ، وحملا ثقيلا للابسها .

وقال سيمون بردن الذى أشرق وجهه كبصيص الجمرة الخابية حين يثار :

هؤلاء من فرقة « فرسان يورك » وهم من الأجانب . كانوا ينخرطون فى الجيش منذ عهدى بالجندية . ولكن يقول عنهم الناس إنهم زملاء طيبون مخلصون كغيرهم ممن نجدهم فى خدمة جيش الملك .

وقالت السيدة جارلاند :

— هاهو عدد آخر منهم يختلف عن الباقين .

وكان هناك جنود آخرون يصعدون فى التل خلال الدقائق الأخيرة ، قادمين من ناحية أبعد ، وقد أصبحوا الآن قريبين . كانوا يختلفون فى وزنهم وبناء أجسامهم عن الآخرين ؛ فهم أخف وزنا ، ويرتدون خوذات مزينة بريش أبيض .

وقالت آن :

— لست أدرى أى الفريقين يعجبنى أكثر من الآخر . . . أظن هؤلاء على أية حال .

الآن قال سيمون الذى كان يحدق فى الفريق الآخير: إنهم فرقة « الدراغون » رقم . . وأضاف الرجل المسن .

— كلهم إنجليز . وكانوا فى ثكنات بودماوث منذ بضع سنوات خلت .

قالت السيدة جارلاند .

— كانوا هناك فعلا . أنا أتذكر ذلك .

وقال سيمون :

— كثيرون من شبان هذه النواحى هنا انخرطوا وقتذاك فى سلك الجندية ، وأستطيع أن أذكر أنه كان . . . آه ، لقد خانتنى الذاكرة ثانية . وعلى أية حال فإن ذلك كله أصبح الآن قليل الشأن .

---

(١) هى أشبه بالعباءة ، وتسمى « بيليس » وهـذا الاسم لايؤدى معناه الجلد لشارة إلى الفرو الذى يحيط بأطرافها (شرح الأصل) .

ومر جنود الدراغون أمام هؤلاء النظارة كما فعل الآخرون . وإذا ريش خوذاتهم الزاهى الذى كان مدلى فى تكاسل أثناء صعودهم ، يترامى صوب الشمال لدى ارتقائهم إلى أعلى التل ، دالا على أن نسيما نقياً يهب على القمة .

وقالت آن :

— لكن انظر عبر التل .

وكانت قد جاءت إلى التل من ناحيه أخرى عدة أورطات من المشاة يرتدى أفرادها سراويل من الكشمير(١) ، وأغطية أحذية من القماش . وبدا عليهم التعب لمسيرهم مسافة طويلة . وقد أصبحت أحذيتهم وأغطيتها السود ، بيضاً رمادية بفعل الغبار . ثم أقبلت فى الحال عربات نقل الكتيبة ، وعربات بضائع المقصف الخاص بالمعسكر ، تتبع آخر القافلة .

واحتل الآن بقعة الأرض الخالية أمام الطاحون سكان القرية جميعهم تقريباً . وكانوا قد أقبلوا منزعجين ، وبقوا رغبة فى متعة المشاهدة ، والتمعت عيونهم اهتماما بما شاهدوا . ذلك أن الزخارف ، والأردية العسكرية ، وخيول الحرب ورجالها تكاد تكون هنا أبهة وعظمة ، وهى فى المدن مجرد تسلية .

اصطف الفرسان صفوفاً ، وترجلوا ، وخلعوا عدتهم فى سرعة ، ولفوا لباس جلد الغنم ، وربطوا خيلهم ، ونزعوا ألجمتها ، واستعدوا لإقامة خيامهم على أثر المجىء بها إليهم من عربات النقل . وعندما تم ذلك ارتفع قماش الخيام من الأرض المعشوشبة على إثر إعطاء إشارة ، ومن ثم أصبح لكل رجل مكان يستطيع أن يرقد فيه .

وبرغم أنه كان يبدو أن أحداً لم يكن يشاهد ما يحدث غير القلة الواقفة وراء النافذة وفى شارع القرية ، فقد كانت هناك عيون كثيرة فى واقع الأمر عالقة بإقبال أولئك الجنود وهم على ما هم عليه من مكانة سامية مرموقة ، هذا مع إغفال النظرات التى كانت تصوبها إليهم الطيور والمخلوقات البرية الأخرى .

كان الرجال فى الحدائق البعيدة ، والنساء فى بساتين الفاكهة وعلى أبواب

(١) نسيج من الصوف النقى ، ذو لون خاص ، خشن الصنع (شرح الأصل)

الأكواخ . والرعاة فوق التلال البعيدة ، « والعازقون » فى حقول اللفت وهم محاطون على بعد أميال بالزرقة المخضوضرة . وضباط السفن بنظاراتهم المقربة فى عرض البحر . .

كان هؤلاء يشاهدون المنظر باهتمام . لقد جاء أولئك الرجال الذين يبلغون ثلاثة آلاف رجل أو أربعة آلاف ، ويتحركون معاً كحركة الآلة الواحدة . وبعضهم من قارعى الدروع(١) بطبيعتهم ، والآخرون لهم ، ولا شك ، الاستعداد الهادىء لمهنة البيع فى الدكاكين ، وقد ارتدوا البزة العسكرية على غفلة منهم . . . لقد جاءوا جميعاً من حيث لا يعلم أحد ، ولذلك كانوا موضع فضول كبير . وقد بدوا للنظرة العابرة أنهم ينتمون إلى طراز من المخلوقات يختلف عن أولئك الذين يقطنون الأودية الراقدة تحت التل . وكانوا يبدون كذلك غافلين غير عابئين بما يضطلع به العالم كله خارج هذا المكان بينما ظلوا منهمكين انهماكا رائعا فى إقامة مأوى لهم على هذه البقعة من الأرض التى اختاروها .

كانت السيدة جارلاند ذات عقل يميل إلى الابتهاج والحيوية . .كانت امرأة سرعان ماتثور وسرعان ما تهدأ . ومجىء الكتيبة أثارها كل الإثارة . وقد ظنت أن هناك سبباً يدعوها إلى ارتداء أحسن قبعاتها ، ثم ظنت أنه ليس ثمة سبب من هذا القبيل . . وأن عليها أن تسرع إلى تناول الغداء وتخرج بعد الظهر . . . ثم ظنت أن عليها قبل كل شىء ألا تقدم على أى عمل غير عادى ، أو أن تظهر أى انفعال سخيف مهما كان الأمر ، مادام ذلك لايليق بأم وأرملة . وبعد أن حددت السيدة جارلاند مقاصدها إلى حد أن خفت حدتها وتحولت إلى إنسانة عادية فى سن الأربعين ، اصطحبت ابنتها إلى أسفل الدار لتناول الغداء قائلة :

ـــ سندعو الطحان لغدى توآ ، ونسمع رأيه فى هذا كله .

(١) قارعو الدروع هم الجند الذين اعتادوا قرع دروعهم لإحداث ضجة تخيف الأعداء (شرح الأصل) .

شخص يطرق الباب . .
ويدخل .

(٢)

كان الطحان « لفدى » يمثل أسرة عريقة من طاحنى القمح ضاع تاريخها بين ضبابات القدم وكانت سلسلة نسبه تعاصر أسلاف « دى روس » و « هوارد » ، « ودى لازوش » ولكن أسماء أفراد سلفه ، وزيجاتهم المتشابكة ، لم تسجل خلال القرون الوسطى نظراً إلى بعض عيب تافه كان يشوب ملكية دار « لفدى » . وعلى ذلك كان تاريخ حياتهم الخاصة فى أى قرن بعينه غير محقق . ولكن كان معلوماً أن الأسرة صاهرت عدداً من الفلاحين غير قليل كل القلة ، وفى إحدى المرات صاهرت دباغاً ينتمى إلى طبقة الأشراف ظل سنوات عديدة بعد موت أفرادها يشترى خيول أرقى أشراف المقاطعة . . . جياد مطهمة كان ثمنها ، وهى فى ريعانها ، يقدر بمئات الجنيهات .

وكانوا يؤكدون أيضاً أن طبقة آباء جدوده بلغت ثمانية أعضاء ، وطبقة جدود جدوده بلغت ستة عشر عضواً ، وأن كل واحد من هؤلاء عاش حتى سنوات نضج رشده . وكلما رجعنا إلى طبقة أعلى من طبقات جدوده وجداته وجدنا أفرادها يتضاعفون ويتضاعفون حتى يصبحوا لدى الطبقة العليا طائفة كبرى من السيدات والسادة القوطيين(١) ذوى المكانة ، المعروفين باسم «سيوريل»(٢) وقد كانت لهم الأهمية الواسعة فى البلاد ، وتشعبوا فى ثنايا تاريخ انجلترا غير المكتوب . وقد زاد أبوه المباشر من قيمة مسكنهم زيادة كبيرة ببناء مدخنة جديدة ، وإضافة حجرين من حجر الرحى إلى طاحونه .

---

(١) المقصود هنا القبائل الأولى التى غزت انجلترا فى القرن الأول ، والقرنين الرابع والخامس (شرح الأصل)

(٢) هم أحط فئات الناس من غير العبيد . ثم استعملت الكلمة بعد ذلك اسما للأقنان . والمقصود السخرية . (شرح الأصل)

تعرض علينا طاحون أوفركومب من أحد طرفيها مظهر بيت تجارى ، دائب العمل ، ينزلق إلى النهر ، ومن الطرف الآخر منزلا متكاسلا لطيفاً ، يكتسى نصفه فى هذا الأوان من العام بالأشجار المتسلقة ، وليس له علاقة بالطحين . وله سقف مقوس بدلا من أن يكون هرمى الشكل ، وهذا يجعل له منظراً مستدير الأطراف ، وله أربع مداخن لا يتصاعد منها دخان ، وصدعان متعرجان فى حائطه ، ونوافذ متعددة ، وبه فى الداخل مرآة هنا ومرآة هناك تبدى ظهره المقوس للدارة . وبه كذلك ستائر من « البفتة » الهندية فى لون الثلج تتموج لدى هبات النسيم . وللطاحون بابان أحدهما فوق الآخر . والباب العلوى يمكن المرء من أن يخطو منه إلى فضاء يعلو عن سطح الأرض بمقدار عشر أقدام . وهناك قنطرة فاغرة الفم ، تقىء ماء فى النهر ، ورجل نحيل ، طويل الأنف ، يطل من مدخل باب الطاحون . هذا هو الطحان الأجير . وهو هناك دائماً إلا إذا احتل نفس المكان رجل منبعج يزن مائتين وعشرة أرطال إنجليزية ، وهو الطحان نفسه .

وظهرت وراء باب الطاحون أرقام مكتوبة بالطباشير مجموعة ومطروحة ولا تبدو لمجرد عابر سبيل لم يزر الأسرة . وكثير منها محسوب فى الأصل خطأ ، وقد مسحت أرقامه مسحا خفيفا وصححت وحولت أرقام الصفر إلى تسعة ، والواحد إلى اثنين ، هذه كانت حسابات صاحب الطاحون الخاصة . وفى نفس المكان كتبت بالطباشير أيضاً صفوف وصفوف من خطوط تشبه أوتاد السياج المكشوف ، وهى تمثل حسابات الطحان الذى لم يصل فى تعليمه الرمزى أيام صباه إلى معرفة الأرقام التى يكتبها بالطريقة العربية .

وكان فى الفناء الأمامى حجرا رحى متآكلان . وقد أمكن جعل كل منهما ذا فائدة من جديد بوضعهما فى مستوى الأرض ، فهنا كان الناس يتوقفون فى الجو الموحل ، فيدخنون ويتدبرون الأمور ، وكانت القطط ترقد فوق سطحهما النظيف عند اشتداد الحر . وفى ركن الحديقة أقيمت على جذع شجرة تفاح (١) ضخمة ، ركيزة من خشب التنوب اللاريسى اشتراها صاحب الطاحون مع أشياء أخرى من سوق بيع الأخشاب الصغيرة فى « داميرز وود » خلال أحد أسابيع

---

(١) هى فى الواقع نوع من التفاح . (شرح الأصل)

عيد الميلاد . وقد قامت على الأفرع العليا للشجرة دوارة ريح على شكل نوتى ممدود الذراعين ، وارتفعت قدر ارتفاع الشراع فى مركب صائد أسماك ، مركزة فى أعلاها . وإذا أضاءت الشمس وجه ذلك النوتى أمكن التحقق من أن ملامحه قد امحت ، وأن الطلاء قد زال عن جسمه إلى حدظهر معه أن ذلك النصب كان يمثل جنديا فى رداء أحمر قبل أن يصبح نوتيافى رداء أزرق . وكانت صورته فى الواقع هى صورة جون ، أحد أشخاص القصة الذين سيأتى ذكرهم ، ثم تحولت إلى صورة روبرت ، وهو واحد منهم أيضاً . وإن هذه القطعة من النصب الدوار لايمكن الاعتماد عليها فى الدلالة على اتجاه الريح نظراً إلى التل المجاور الذى يحدث تيارات مختلفة من الرياح .

وجناح الطاحون المغطى بالشجر ، الأكثر هدوءاً ، هو الجزء الذى تقطنه السيدة جارلاند وابنتها اللتان تعتاضان فى الصيف عن ضيق مسكنهما بالإسراع إلى الكراسى والمقاعد فى الحديقة ، وأرض ردهة المسكن ، أو غرفة الطعام المبينة من حجر . وهذه حقيقة حاولت الأرملة إخفاءها بأن سترتها بغطاءين حتى لا ينقص قدرها وقدر ابنتها فى نظر الناس . وهنا استمر تناول الغداء وقت الظهر فى هوادة ورشاقة ، كما يحدث عادة عندما لا يكون ثمة رجل جشع من آكلى اللحوم يستبق ألوان الطعام حوله . وإذ أوشك الغداء على الانتهاء دخل شخص الممر وسار فيه حتى صدع باب الغرفة ، وطرق الباب . . . وقد اختار هذا التصرف غالباً بقصد أن يتحاشى إزعاج سوزان ، رفقاً بها . وهى ابنة الجيران الشقراء التى تساعد السيدة جارلاند فى العمل صباحا . ولكنها الآن مشغولة على الأخص بالوقوف على حافة ماء الحوض محلقة فى الجنود وقد اتخذ فمها وضع المبهور الأنفاس ، واستدارت حدقتاها .

وحدث اضطراب فى غرفة الطعام الصغيرة . . . فشدة الحساسية عند من يعتادون العزلة تحدث لهم الخفقان لأسباب بسيطة غير مألوفة لهم ، وأخذت الأم وابنتها تحزران من يكون الزائر . لعله سيد من العسكريين قدم من المعسكر ؟ . . لا ، هذا مستحيل . إنه القس ؟ لا فما كان القس ليحضر وقت الغداء . إنه الرجل الخبير بالأمور الذى يتجول بين البلاد متاجراً فى الأجواخ ، وفى أجمل أقراط برمنجهام ؟ . . . أبداً فميعاد حضوره لا يحين قبل الساعة الثالثة من يوم الخميس ،

وقبل أن يذهب بهما الفكر إلى أبعد من ذلك تقدم الرجل خطوة أخرى ، واستطاعت السيدتان أثناء الغداء أن تلمحاه من خلال نفس الصدع المعوان الذى مكنه هو أيضاً من مشاهدة مائدة الغداء ببيت جارلاند .

— أوه ! إنه لفدى ، ليس إلا .

هذا التقدير الذى لا يساوى شيئاً ، كان لصاحب الطاحون المذكور آنفاً . وهو رجل قوى البنية ، يبلغ من العمر الخامسة والخمسين أو الستين . . . قوى فى كل بضعة منه كما هو شأن كثيرين فى تلك الأيام . فهو ليس بمجرد رجل مموه بحمرة اللون من أثر المأكولات والمشروبات ، ولو أنه لا يزدرى هذه الأخيرة بحال . ووجهه الآن أقرب إلى الشحوب من المعتاد فعلا ، لأنه كان قادماً على التو من الطاحون . إن هذا الوجه قادر على أن يحدث فى تعبيره تغييرات كبيرة ، وتحركه هو لباب ذلك التغيير ، فإن طية واحدة من لحمه تحدث نصف قنطرة صغيرة على كل من جانبى أنفه ، وأخدوداً عميقاً يمتد بين شفته السفلى والركام الذى تمثله ذقنه . وهذه القطع من اللحم تتحرك فى خفية ، وكأنما تقوم بذلك من تلقاء نفسها كلما استثير خياله .

وعندما وقع بصره على غطاء المائدة والصحاف واللحوم وجد نفسه فى موقف يبتعث حرجاً محسوساً فى رجل متواضع يود دائماً ألا يحضر إلى فتاة ذات أساليب لطيفة مثل آن جارلاند إلا فى الأوقات الملائمة ، هذه الفتاة التى تستطيع أن تجعل التفاح يبدو كالخوخ ، وأن تخلع على « شلناتها » فتنة الجنيهات عندما تدفع له ثمن الدقيق .

وقالت الأرملة عندما رأت حاله :

— انتهى الغداء ياجارنا لفدى ، تفضل بالدخول .

وغمغم صاحب الطاحون شيئاً عن اعتزامه العودة بعد قليل . ولكن آن ألحت عليه فى البقاء مع حركة رقيقة من شفتها وقفت على حافة ابتسامة متوجسة دون أن تنفرج عن ابتسامة كاملة . وكانت هذه عادتها الطبيعية عندما تتكلم .

ورفع لفدى قبعته غير العالية وتقدم . ولم يكن قد أتى هذه المرة للتحدث عن الخنازير والدجاج :

— إنك كنت تنظرين ولا شك ياسيدة جارلاند ، نظرنا نحن جميعاً ، إلى

حشود(١) الجند الذين صعدوا فى التل ؟ حسناً ، إن إحدى كتائب الفرسان هى كتيبة الدراغوان رقم . . . إنها كتيبة ابنى جون كما تعلمين .

وبرغم أنهم اهتموا بهذا البيان إلا أنه لم يحدث التأثير الذى يبدو أن أبا جون توقعه . ولكن آن التى تحب أن تلاطف فى القول أجابت :

— كان الدراغون أبدع منظراً من المشاة ، ومن الفرسان الألمان أيضاً .

وقال صاحب الطاحون فى لهجة غير المهتم :

— إنهم مجموعة حسنة الشكل من الرجال . حقاً إنى لم أعلم بمجيئهم ، ولو أن النبأ قد يكون مذكوراً فى الجريدة طوال الوقت . بيد أن دريمان العجوز يحتفظ بالجرائد عنده مدة طويلة حتى أننا لا نعرف الأمور إلا إذا أصبحت ملء فم كل إنسان .

ودريمان هذا كان نصف نبيل يقطن فى مكان غير بعيد . وهو يتميز ، على الأخص ، فى هذا الوقت الذى يشبه أوقات الحرب ، بأن ابن أخيه فارس من الفرسان المتطوعين .

وقالت آن :

— أنبئنا أن الفرسان المتطوعين ساروا أمس فى طريق بوابة المكوس ، ويقال إن منظرهم كان بديعاً ، وعسكرياً تماماً .

وقال لفدى ، صاحب الطاحون ، متحاشياً النقد الأشد عنفاً على أساس أنه لاداعى له :

— آه حسناً إنهم غير نظاميين .

ولكنه وقد اشتعل حماسة لمجىء فرسان الدراغون ، وكان ذلك هو السبب المثير الذى دفعه إلى هذه الزيارة ، ولم ينصرف ذهنه إلى الفرسان المتطوعين . وقال مستطرداً :

— جون لم يحضر إلى بلده خلال هذه السنوات الخمس .

وقالت الأرملة :

— وما الرتبة التى هو فيها ان ؟

---

(١) هذه الكلمة مكتوبة فى الأصل بلغة دورست الدارجة ومشروحة هناك .

— إنه جاويش البروجي ياسيدتى . . . وهو موسيقى طيب .

وطفق صاحب الطاحون الذى كان أباً طيباً ، طفق يشرح كيف أن جون اضطلع بخدمة عسكرية طويلة أيضاً ، فقد تطوع عندما رابطت الفرقة فى جوارهم منذ أكثر من أحد عشر عاماً . وهذا أخرج أباه عن طوره لأنه ود لو أن ابنه خلفه فى العمل بالطاحون . بيد أنه لما كان الفتى قد تطوع جندياً ، ولما كان قد قال مراراً بأنه سيصبح جندياً ، فقد رأى صاحب الطاحون أن يدع جاك ينال حظه من المهنة التى اختارها لنفسه .

كان للفدى ولدان . وقد جاء ذكر ثانيهما الآن فى الحديث بعد ملحوظة أبدتها « آن » للأب عن عدم اهتمام كل من ولديه على ما يبدو ، بأمر مهنة الطحن .

وقال لفدى فى نبرة منتعشة :

— لا ، فلابد لروبرت من الذهاب إلى عرض البحر كما ترين .

وقالت السيدة جارلاند .

— ألا يصغر أخاه سناً بقدر كبير ؟

وقال لها صاحب الطاحون إنه يصغره بنحو أربع سنوات . فابنه الجندى يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً بينما بوب فى الثامنة والعشرين . وعندما عاد بوب من رحلته الحالية كان لابد من إقناعه بالبقاء ومعاونة أبيه بالعمل طحانا ، وعدم العودة إلى البحر بعد ذلك .

وقالت آن :

— نوتى طحان ! !

وقال لفدى :

— أوه ، إنه يعرف عن شؤون الطاحون قدر ما أعرف . واعلمى أن نيته كانت معقودة على توليها كما كان شأن جون .

ثم استطرد :

— ولكن ، يغفر الله لى ، فقد ابتعدت عن حكايتى . إنى جئت لأسألك أنت يا سيدتى ، وأنت يا آن ياعزيزتى ، هل يمكن أن تحضرا ، مع قليل من الأصدقاء ، اجتماعا صغيراً بسيطاً سأعقده لإرضاء الفتى الذى جاء الآن ؟ فلا أقل من أن

تكون لنا جلسة بها شيء من ضجة المرح(١) كما يقول المثل ، بمناسبة عودته سليماً معافى .

وأرادت السيدة جارلاند أن تجتذب نظر ابنتها ، فقد اعتورها بعض الشك فيما يتعلق بردها . ولكن اجتذاب نظرها لم يكن ميسوراً لأنها كانت تكره التلميحات ، وإيما آت الرأس ، والتقديرات فيما يتعلق بأى نوع من الأمور التى ينبغى أن تسوى بالدافع العاطفى . وأجابت صاحبة البيت :

ـــ إذا كان الأمر كـــذلك فمن المحتمل أن نحضر إليك . وستنبئنا باليوم المحدد للحفلة .

نعم ، سينبئهم بالطبع على أثر التقائه بجون .

ـــ تعلمين أن الحفلة ستكون أقرب إلى عدم الترتيب نظراً إلى افتقار بيتى للعنصر النسائى . والرجل الذى يعمل عندى ، المدعو ديفيد ، أحمق متلاف فيما إذا قام بإعداد وليمة . مسكين هذا الفتى ! إنه كليل البصر ، هذه هى الحقيقة . بيد أنه يحسن إعداد الفراش ، ودهان الكراسى وغيرها من الرياش بالزيت ، وإلا لتخلصت منه منذ سنوات خلت .

وقالت الأرملة :

ـــ ينبغى أن تكون لديك امرأة تتعهد شؤون دارك بالفدى .

ـــ نعم ينبغى ذلك ، ولكن . . حسناً . إنه يوم بديع يا جارتى . . أنصتا ! يخيل إلى أنى أسمع أصوات قدر وأوعية طبخ صادرة من المعسكر هناك ، أو لعل أذنى تخدعانى . فتيان مساكين ، لا بد أن يكونوا جائعين ! طاب يومك ياسيدتى .

وانصرف صاحب الطاحون .

وظلت قرية أفركومب عصر ذلك اليوم بطوله فى حالة غليان من الاهتمام بمجيء الجند الذى أحدث من الانفعال ما يحدثه الغزو دون أن تكون هناك موقعة . وقد جرت مناقشات كبرى عن ميزات الجند وحسن مظهرهم . وكشف هذا الحدث للفتيات مالا حصر له من إمكانيات فوزهن بعشق الجنود لهن وعشقهن للجنود . وللفتيان أسباب الضيق بتقحم الجند الذى يعادل الوقوع فى الحب تماماً . وهناك ثلاثة عشر فتى من أولئك الفتيان أقروا فى غير تعفف ـــ فى بحر ثلاثة أرباع

(١) مكتوبة فى الأصل بلغة دورست الدارجة ومشروحة هناك .

الساعة — أن الانخراط فى الجندنا لايعدله شىء فى الوجود . ولم يفصح النساء عن شىء إلا قليلا ، ولكن لعلهن كن أكثر تفكيراً . . برغم أنهن ، إحقاقاً للحق ، كن يصوبن نظراتهن إلى المعسكر من خلال أركان عيونهن الزرق والرمادية بطريقة بلغت من التهيب والتواضع أقصى مبلغ يمكن أن يرجى .

وفى المساء نشطت القرية بمجىء زوجات الجنود ، ولا يمكن لشجرة ملأى بالزرازير أن تنافس بضجيجها ما كان يدور من ثرثرة . . . كان أولئك السيدات باهرات الملبس ، ولكنهن اعتنين بالألوان أكثر من عنايتهن بنسيج لبسهن . وكانت القبعات الأرجوانية والحمر والزرق التى تكوم فوقها ريش الديكة ، متوفرة العدد . وارتدت إحدى السيدات قبعة « أركادية » ،أى ذات بطانة حريرية(١) ، مقلوبة إلى أعلا من أمام لتظهر تلك البطانة من تحتها . وكانت ذات يوم مملوكة لزوجة ضابط . ولم تتسخ إلى حد كبير ، إلا إذا استثنينا ما سببه وابل الأمطار العرضية ، التى هى من مفاجآت الحياة العسكرية ... من ذوبان لونها الأخضر الذى ثبتت آثار انحداره الغريبة على شكل جزر وشبه جزر . وكان لبعض أولئك الزوجات الشبيهات بالفراشات ممن فقن غيرهن جمالا . حظ كاف من الجمال مكنهن من العثور على بيوت وأكواخ من خشب لإقامتهن ، واستطعن بذلك أن يوفرن على أنفسهن ضرورة الإقامة فى أعشاش وخيام فوق التل . أما اللواتى لم يواتهن مثل هذا الحظ فلم يزدهن نجاح « أخواتهن فى السلاح » لطفاً ، وأخذن يوسعنهن سباباً . وأدى ذلك إلى تبادل التهم والردود ، حتى بدا أنه لن يكون لهذه الاتهامات نهاية إلا بحلول نهاية اليوم .

وكانت إحدى أولئك القادمات الجديدات ، وهى ذات أنف وردى اللون ، وصوت غليظ النبرات قليلا ، وهذا أمر لا قبل لها بدفعه ... هذه المسكينة ، على حد قول آن . . . كانت على ما يبدو قد رأت جانباً كبيراً من العالم ، ورافقت عدداً كبيراً من الحملات إلى حد أن آن ودت لو استضافتها فى بيتها لتحصل على بعض المعارف العملية عن تاريخ انجلترا الذى تلم به هذه السيدة ، والذى يتعذر الحصول عليه من الكتب . ولكن ضيق الغرف بمنزل السيدة جارلاند حال دون

(١) مشروحة هكذا فى الأصل .

تحقيق ذلك كلية . واضطر هذا الكنز من التجارب ، المفتقر إلى بيت ، اضطر إلى البحث عن مأوى فى مكان آخر .

أوت آن تلك الليلة إلى فراشها مبكرة . فأحداث ذلك اليوم ، وهى على ما كانت عليه من إبهاج فى ذاتها ، بلغت من الغرابة حـــداً سبب للفتاة صداعاً خفيفاً . وقد توجهت إلى النافذة قبل الرقاد ، ورفعت الستار الأبيض الذى انسدل عليها . وكان القمر يسطع ، وبرغم أنه لم يصل بعد إلى الوادى ، إلا أنه قد بدأ يطل من فوق حافة التل حيث كان ضوؤه يلس خيـام المعسكر البيض لمساً خفيفاً . وقد بدأ يظهر لها حرس مضارب الجيش وخيام الصف الأمامى ، فى وضوح تام . وأما المعسكر فى مجموعه ، وخيام الضباط ، والمطابخ والمقاصف ، والأتباع فى المؤخرة ، فقد حجبتهم الأرض بسبب علوها عن مستوى نافذتها . كانت تستطيع أن تميز شكل واحد أو اثنين من الحراس الرائحين الغادين عبر قرص القمر فى فترات معينة . وكانت تستطيع أن تسمع جذب الخيل المربوطة فى الأوتاد وشدها المتلاحقين ، وتلاعبها المتوالى . ومن الناحية الأخرى ترامى صوت البحر الذى يمتد أميالا وهو يهمس همساً يشتد فى تلك النواحى ويعرقل صوت مد البحر وجزره المارين ببعض رءوس جبلية ناتئة ، وأكوام من الصخور. وعلى حين فجأة طغت أصوات أعلى من ذلك الهمس القريب من الصمت . وقد ترامت من معسكر كتيبة الدراغون أصوات ترددمثلها فى معسكر الهنوفريين المبتعد إلى اليمين ، ثم فى سلاح المشاة الأكثر بعداً .. كانت قرعا ينبىء بحلول ميعاد نوم الجنود . وظلت آن تنصت مع ذلك مدة أطول ، إذ شعرت بعدم الرغبه فى النوم ، ونظرت إلى الدب الأكبر يرجف فى السماء فوق قبة الكنيسة ، وإلى القمر يوالى صعوده إلى أعلى وأعلى ناحية صفوف الخيام الممتدة إلى اليمين حيث لم يكن هناك غير الشخير والأحلام ، بدلا من الاستعراضات والحركة الصاخبة . . شخير وأحلام الجنود المجهدين الراقدين فى هذه الأثناء تحت خيامهم التى تومض قمة كل خيمة منها ومض الشعاع .

وكفت آن آخر الأمر عن التفكير ، وانسحبت كالباقين . وخيم الليل ، ولم يسمع صوت من المعسكر أو من القرية تحته إلا إذا استثنينا نداء الحراس العرضى القائل . « كل شىء على ما يرام » .

الطاحون يصبح ....

مركزاً هاماً للعمليات

(٣)

استيقظت الآنسة جارلاند صباح اليوم التالى وهى تشعر بأن أمراً فوق المعتاد يجرى الآن . ولم تكد تعقل ما يحدث فى وضوح حتى لاحظت أن الأعمال الجارية ، أيا كان نوعها ، لا تقع بعيداً عن نافذة نومها . وكانت الأصوات المتصاعدة على الأغلب أصوات المعاول والمجارف . ونهضت آن ، وأطلت من النافذة وقد رفعت طرف ستارها مقدار إصبعين على وجه التقريب .

كان عدد من الجنود يعملون منهمكين فى شق طريق متعرج ينحدر عبر المنحنى مبتدئا من المعسكر ، وواصلا إلى رأس انهر خلف المنزل . ولابد أنهم بدأوا العمل مبكرين استنتاجاً من مقدار العمل الذى أتموه إلى الآن . وكانت فرق من الرجال تعمل فى جهات مجزأة من الممر المقترح ، وفى أثناء ارتداء آن لملابسها كان كل جزء من أطوال تلك الجهات قد اتصل بما قبله ، وما بعده ، حتى تكون طريق سهل متصل يبدأ من قمة التل ، وينتهى إلى قرار المنحدر .

كانت الهضبة تقوم على قاعدة من الحجر الجيرى الصلد ، وارتسم على سطحها الذى قام فيه العاملون بشق الطريق ، شريط أبيض يلتوى كالأفعى من القمة إلى السفح .

ثم خفيت عن الأنظار نوبة الجنود العاملين الجديدة . ولم يطل الوقت حتى صعدت كتيبة راكبة من الدراغون إلى قمه الهضبة ، وقد خرجت لسق الجياد . ثم بدأت تنحدر متعرجة فى الممر الجديد . وظل فرسانها يهبطون ويقتربون حتى أصبحوا آخر الأمر تحت نافذة الفتاة مباشرة ، وتجمعوا فى الأرض الفضاء المجاورة لحوض الطاحون . وخاضت بعض الجياد فى الناحية الضحلة الماء من الحوض ، وطفقت تشرب ، وتقذف رشاش الماء ، وتشب فى الهواء . ولعل

ما يبلغ الثلاثين منها نزل إلى الماء دفعة واحدة ، ونصف هـذا العدد كان يمتطيه الفرسان . لقـــد شربت الحيوانات الظامئة ، وضربت الأرض بأرجلها ، وانتفضت ثم شربت من جديد ، وتركت الماء الرائق الشبم يتساقط فى ترف من أفواهها . وكان لفدى ينظر إليها من فوق سور حديقته . وتجمع عدد غفير من الفلاحين المعجبين حول المكان .

ورأت آن ، إذ نظرت إلى أعلى ، كتائب أخرى تهبط من المعسكر فى الطريق الجديد . وأخذ أولئك الذين سبقوهم إلى الحوض يفسحون لهم فى المكان ، مرتدين إلى درب القرية ، وعائدين إلى قمة التل فى طريق ملتو .

وصاح صاحب الطاحون فجأة ، وكأنما نال غاية ما توقع :

ـــ آه ، جون ، ياولدى ! . صباح الخير .

وجاء رد التحية «صباح الخير ياأبى». جاء من جندى بالقرب منه يحسن الركوب. ولم يكن هذا الجندى على أية حال واحداً من الجماعة التى تروى جيادها . ولم تستطع آن أن ترى وجهه فى وضوح تام ، ولـكنها لم تشك فى أنه جون لفدى .

كانت فى صوته نبرات أذكرتها ما مضى من الزمن القـديم ، أيام طفولتها الأولى ، إذ كان جون لفدى أول التلاميذ فى مدرسة القرية . وقد أراد أن يتعلم الرسم من أبيها . ولما كانت مواضع العمق والضحالة من حوض الطاحون معروفة له أكثر مما هى معروفة لأى شخص آخر فى المعسكر . فقد حضر ، على مايبدو ، لهذا السبب ، وقام بتحذير بعض الراكبين أن يخوضوا فى الماء بعيداً عن اتجاه رأس الطاحون .

ولم تره آن منذ طفولتها ، ومنذ انخراطه فى الجندية إلا مرة واحدة. ولـكنها رأته حينذاك عرضاً عندما عاد إلى القرية فى عطلة قصيرة . ولم تتغير ملامح وجهه كثيراً عما كانت عليه . ولـكن الأنهر والليالى العديدة التى مرت على ذلك اليوم ، وطورتها من طفلة نسبياً إلى امرأة ، قد جردته من بعض زوايا ملامحه ، وأكسبت بشرته حمرة ، وأمدته بنظرة غريبة . وكانت رؤية ما أحدثته الخدمة والتدريب فى هذا الرجل تستثير الاهتمام . وقليلون من فطنوا إلى أن سترة صاحب الطاحون البيضاء ، وسترة الجندى الزرقاء تستران شكلى كل من الأب والابن .

وحي ميلر لفـدى فرسان الدراغون جملة قبل أن تركب آخر كتيبة منهم وتنصرف ، وكان يقف فى الجانب الخارجى من حديقته ، وهى أرض مزروعة منبسطة تحت طرف الطاحون ، وممتدة حتى جانب الماء . وكان هذا الأوان هو على وجه التحديد أوان نضج الـكرز ، وتدليه فى عناقيد تحت أوراقه الداكنة . وطفق صاحب الطاحون يقطف عناقيد الفاكهة بينما كان الجنود يتلـكؤون فوق جيادهم ، ويحادثونه عبر الجدول، وأخذ يمد الفاكهة إليهم من فوق سور الحديقة ليتناولها من يريد . وخاض الجنود حينذاك فى المـاء بجيادهم متجهين إلى حيث أحدث تدفق الماء ثقوبا فى جسر الحديقة ، والتقطوا الـكرز وهم يقودون جيادهم إلى هناك ، ووضعوه فى أكياس العلف ، أو تناولوا عناقيده بعصيهم ، مرددين تلك الضحكة الوقور التى تليق بالعسكريين عندما يتنازلون فيلهون لهواً صبيانياً طفيفاً . . . وكانت نصف ساعة مبهجة ، خالية من الوساوس ، غير مقصودة ، عاودت ذاكرة بعض من استمتعوا بها وكأنها عبير زهرة ، ولم تنقطع عنهم حتى فى الأمكنة النائية ، وبعد سنوات مضت ، حيث رقدوا فى بلاد أجنبية ضعفاء أو مثخنين بالجراح .

ثم أخذ الدراغون والخيول يلتوون فى الطريق كما فعل الآخرون ، وانحدرت بعد ذلك حشود من جنود « الفليق الألمانى »(١) الذين دخلوا فى منظر استعراضى قطعة الأرض الفضاء الواقعة تحت بصر آن ، وكأنما أتوا بقصد إبهاج الفتاة . وهؤلاء كانوا يتميزون بشواربهم وضفائرهم المستعارة المشدودة بأشرطة رمادية وثيقة الرباطة إلى مستوى ألواح أكتافهم العريضة.وقد فتنوا ،كما فتن الآخرون ، برأس الآنسة جارلاند وجيدها وهى تطـــل من نافذتها المربعة على مسرح العمليات ... وحيوها تحية أجنبية مهذبة مخلصة . وبلغت التحيات من الـكثرة الغالبة حداً حمل الفتاة المتواضعة على التراجع لجأة إلى غرفتها ، واحمرت خجلا وهى واقفة وحدها فيما بين خزانة الملابس والأدراج وحوض الاغتسال .

---

(١) فرقة من جنود هانوفر الألمان الذين استقدمهم الملك جورج الثانى ، وضمهم الى الجيش الإنجليزى لتقويته وقت أن كان الغزو يهدد بلاده ولم ينظر الإنجليز بعين الرضاء إليهم .
(شرح الأصل)

وقالت لها أمها عند نزولها إلى أسفل الدار :

ـــ كنت أفكر فيما سأرتديه للذهاب إلى ميلر لفدى الليلة :

فقالت آن :

ـــ إلى ميلر لفدى ؟

ـــ نعم فالحفلة ستقام الليلة . لقد جاء إلى هنا هذا الصباح ليخبرنى أنه قابل ابنه ، وحددا هذا المساء لإقامة الحفلة .

وقالت آن فى بطء وهى تنظر إلى الملامح الدقيقة من أزهار النافذة :

ـــ أتظنين يا أمى أنه يجدر بنا الذهاب ؟

وقالت السيدة جارلاند :

ـــ ولم لا ؟

ـــ سيكون لديه هناك رجال غيرنا ، أليس كذلك ؟ وهل نكون على صواب إذا حضرنا وحدنا بينهم ؟

ولم تكن آن قد أفاقت بعد من النظرات الحارة التى وجهها إليها فرسان « يورك هسارز » النبلاء الذين ما زالت أصواتهم تترامى إلى آذانها حتى الآن متميزة عما عهدته عند لفدى :

وقالت الأرملة جارلاند :

ـــ اسمعى يا آن ، لكم أنت متعالية !... لماذا ؟ أليس هو أقرب جار لنا ، ومالك دارنا ؟ ثم ! ألا يجلب لنا حطبنا من الغابة دائماً ؟ ويمدنا دون انقطاع بالخضروات التى تكاد أثمانها تبلغ درجة العدم ؟

وقالت آن :

ـــ هذا حقيق .

ـــ حسناً إننا لا نستطيع أن نتباعد عن الرجل . وإذا نزل الأعداء أرضنا فى الخريف القادم كما يقول جميع الناس ، فسنحتاج كل الحاجة إلى عربة صاحب الطاحون وخيله . . إنه صديقنا الوحيد .

وقالت آن :

ـــ نعم ، إنه كذلك ، والأفضل أن تذهبى يا أمى . وسأبقى أنا فى الدار . . .

سيكون الحاضرون جميعهم من الرجال ، وأنا لا أميل إلى الذهاب .

وفكرت السيدة جارلاند وقالت :

— حسناً . إذا كنت لا ترغبين فى الذهاب فلن أذهب أنا أيضاً . وأحسب أنه من الأفضل أن نبقى هذه المرة فى بيتنا مادمت تكبرين سناً ، وكان أبوك رجل تربية وتعليم بالتأكيد .

وإذ تحدثت كأم ، تنهدت كامرأة .

— لماذا تتنهدين يا أمى ؟

— أنت شديدة التعنت والكلفة فى كل الأمور .

— حسناً جداً ؟ . . سنذهب

— أوه ، لا .. أنا لست واثقة من ذهابنا ، فأنا لم أعده بذلك ، ولن تكون هناك مضايقة فى التباعد .

ولم تكن آن واثقة ، على ما يبدو ، من حقيقة رأيها ، وبدلا من تأييد أمها أو معارضتها ، أرخت بصرها مفكرة ، وجمعت يديها على صدرها وهى شاردة حتى اتصلت أطراف أصابعها بعضها ببعض .

وأدركت الفتاة وأمها ، بينما النهار يتقدم ، أن استعدادات كبرى كانت تجرى فى جناح الدار الخاص بصاحب الطاحون . . والانقسام بين مسكنى لفدى وجارلاند لم يكن تاماً ، وكان يقوم فى نواح كثيرة على مجرد دق الأبواب فى الحوائط الفاصلة بينهما بالمسامير . . . ولذلك كانت المرأتان تنسحبان إلى الجزء المنعزل من بيتهما كلما قام صاحب الطاحون بإنجاز أية أعمال جديدة . وكانت رائحة غليون ميلر لفدى تصل فى انتظام لا يختلف إلى مسكن السيدة جارلاند عن طريق المدخنه . وفى كل مرة يحرك نار مدفأته كانتا تعلمان من شدة التحريك أو بطئه حالته الفكرية على وجه التحديد . وإذا أدار مفتاح ساعته الكبيرة فى ليالى الاحد ، أذكر الأزيز الأرملة أن تدير مفتاح ساعتها هى أيضاً . وانتقال الأصوات هذا يبلغ منتهاه حيث تتصل ردهة لفدى بمخزن مؤن السيدة جارلاند . واستمتعت آن التى شغلت ببعض الأمور فى هذه الشقة الأخيرة ، استمتعت بميزات سماع الضجيج الصادر عن حضور الضيوف ، والتقاط أصداء كلمات شاردة لم تنتظم فى الجمل التى جعلتها مسلية ، ولكنها استطاعت الحكم عليها من الضحك الذى أثارته .

وقد اجتاز الحاضرون المنزل، وذهبوا إلى الحديقة حيث شربوا الشاى فى صومعة صيفية واسعة . وكل ما أمكن أن تكشفه نافذة السيدة جارلاند من الحفل لمحات من وميض ساطع ينفذ من أوراق الشجر . وعندما أخذ النهار فى الإظلام سمع صوت مجيئهم جميعاً إلى داخل المنزل لإتمام سهرتهم فى الردهة .

ثم ظلت دلائل الابتهاج المذكورة آنفاً تتوالى توالياً متزايداً ... أحاديث تقطعها صيحات ، وأصوات أقدام تدب فى السلم صعوداً ونزولا ، وانصفاق أبواب ، ورنين كاسات وأقداح ... حتى أن الجارة الملاصقة ، الشديدة الاعتزاز بالنفس ، التى يخلو جزء المنزل الذى تقطنه من الأصدقاء . . . قد تكون أغرتها الرغبة فى دخول ذلك المنزل المبتهج ، ولو كان ذلك بقصد الوقوف على سبب هذا التماوج من المرح ، ولترى هل بلغ الزائرون ذلك العدد الكبير حقيقة ، وهل كانت التعليقات مبهجة إلى الحد الكبير الذى بدت عليه .

وبدأ ركود الحياة فى مسكن السيدة جارلاند الذى يفصله الحائط عن الحفل ، بدأ يحدث تأثيراً قاتماً جداً بفعل التناقض ... وقالت آن عندما دوت ، زهاء الساعة التاسعة والنصف ، إحدى ضجات الطرب التى ظلت تتردد مدة أطول من العادة:

— أعتقد يا أمى أنك تودين لو ذهبت .

وقالت السيدة جارلاند فى نبرة تلهف :

— أشعر أن ذهابنا إلى الحفلة كان سيبلغ غاية الإبهاج لو أننا حضرناها . وأغلب ظنى أنى تلطفت تلطفاً كبيراً إذ استمعت إلى كلامك ولم أذهب ، فالقس لا يزورنا أبدا إلا فى حدود اختصاصه الروحى ، ودريمان الهرم يندر أن يكون لطيفاً ، وليس هناك من تبقى ليحادثنا . إن على الناس الذين يعيشون فى عزلة قبول الانضمام إلى أية صحبة يحدونها .

— أو يستغنون عنها كلية .

— هذا غير طبيعى يا آن . ويدهشنى أن أسمع فتاة صغيرة مثلك ، تقول شيئاً كهذا . لا يمكن إخماد الطبيعة على هذا النحو ... (يسمع غناء مفرد ، وغناء قوى لمجموعة من الناس ينفذ من خلال الحائط الذى يقسم الدار) . . . أقول لك إن الغرفة الواقعة فى الناحية الأخرى من الحائط تبدو جنة تماماً إذا قورنت بغرفتنا هذه .

وقالت آن بلهجة فيها مسحة من التعالى :

— أمى ، إنك فتاة حقاً . لابد أن تذهبى وتنضمى إليهم .

وقالت الأم وهى تهز رأسها مستسلمة لما وقع :

— أوه ، لا . ليس الآن . فالوقت متأخر جداً فى هذه الساعة : كان ينبغى أن ننتفع من الدعوة . إنهم سيحدجوننى بنظراتهم كما لو كنت مخلوقة مسكينة ليس لها عمل جدى هناك . وسيقول لى صاحب الطاحون وعلى ثغره ابتسامته العريضة: « آه ، إنها لمنة منك أن تزورينى » .

وظلت السيدة جارلاند الأليفة القنوعة تواصل سهرتها موزعة على هذا النحو بين مكانين ، لجسدها فى نفس بيتها ، وعقلها فى بيت صاحب الطاحون ... وبينما هى كذلك طرق شخص الباب ، وسمح للسيد لفدى الكبير نفسه بدخول الغرفة على الأثر . وكان يرتدى حلة تتردد بين الفخامة والخفة ، وقد اعتاد لبسها فى مثل المناسبة الحالية . . . وكانت سترته الزرقاء ، وصداره الأصفر والأحمر بأزراره الثلاثة الأخيرة المفكوكة ، يناسبانه ، فى نظر السيدة مارتا جارلاند ، كل المناسبة .

وقال صاحب الطاحون ، وقد اختار ، من باب الاحتشام ، أن يلتزم حد الأدب العالى الذى يتطلبه رداؤه الراقى :

— خادمك يا سيدتى . . والآن ، أنا لا أستطيع قبول هذا ، مع استماحتك عذراً . . . فمن غير الطبيعى أن تظلا هنا ، أنتما السيدتان ، بينما نحن نلهو بدونكما تحت سقف واحد . وزوجك المسكين الذى لا شك أنه كان يمكن أن يرسم صوراً بديعة ... إنه كان لابد أن ينضم إلينا منذ زمن طويل لو أنه كان فى مكانك . وأقسم بشرفى أنى لن أقبل رفضك بحال . فلابد من حضورك أنت والآنسة آن ، حتى ولو كان ذلك لنصف ساعة فقط . وقد حصل جون وأصدقاؤه على إذن بالغياب عن المعسكر حتى منتصف هذه الليلة . وأقل الزوار الحاضرين أونباشى ألمانى لطيف جداً ، باستثناء قلة من أهالى قريتنا . وإذا ساورك أى شك من ناحية بواعث الاحترام ياسيدتى فسنحشر من لم يهذبوا التهذيب الكافى فى المطبخ .

وتبادلت الأرملة جارلاند وآن نظرات الموافقة بعد هذه الدعوة . وقالت كبراهما مبتسمة :

— سنلحق بك بعد دقائق معدودة .

وقامت هي وآن لتصعدا إلى الدور العلوى ، فقال صاحب الطاحون فى إصرار :

— لا ، سأنتظركما ، إذ قد تغيران رأيكما ثانية .

وسمع وقع أقدام أخرى فى الممر بينما كانت الأم وابنتها ترتديان ملابسهما فى الدور العلوى ، وتقول كل منهما للأخرى ضاحكة : « حسناً ، لا بد من ذهابنا الآن » . وكأنهما لم تكونا ترجوان الذهاب منذ أول المساء . وصاح صاحب الطاحون من الدور السفلى :

— أستميحك عذراً يا سيدة جارلاند ، ولكن ابنى جون قد جاء ليعاوننى على استصحابكما . فهل أستبقيه هنا حتى تستعدا !

وصاحت أم آن بصوت انحدر من سلم الدار :

— بالتأكيد ، وسأنزل إليكما بعد دقيقة واحدة .

وعندما نزلت بدا شكل جاويش البروجى فى منتصف الممر . وقال صاحب الطاحون فى بساطة :

— هذا جون ... أتستطيع أن تتذكر السيدة مارتا جارلاند جيداً ياجون؟

وقال جندى الدراغون وهو يتقدم قليلا :

— أذكرها جيداً جداً بالتأكيد. وكان يجدر بى أن أزورها المرة الأخيرة، ولكنى لم أمكث فى القرية إلا أسبوعاً واحداً ... كيف حال فتاتك الصغيرة ياسيدتى؟

وقالت السيدة جارلاند :

— إن آن بخير تماماً . لقد شبت عن الطوق الآن ، وستنزل بعد دقيقة .

وتصاعد خارج الغرفة صوت خافت لوقع أحذية عسكرية ، وذهب جاويش البروجى وأطل برأسه من الباب وقال :

— حسناً ... سأحضر بعد دقيقة .

وأجابته عندئذ أصوات خارجة من الظلام :

— لا داعى للعجلة .

وقالت السيدة جارلاند :

— أمزيد من الأصدقاء ؟

وقال الجندى :

— أوه ، ليس هناك إلا « بك » ، « وجونز » اللذين حضرا ليعودا بى . أأستطيع أن أدعوهما للبقاء دقيقة يا سيدتى ؟

وقالت السيدة :

— أوه ، نعم .

وبدت الطلعتان الشائقتان لكل من بك البروجى ، وجونز ، الجاويش السروجى ، وتقدما على نحو ودى للغاية . وحينذاك سمع وقع أقدام أخرى فى الخارج ، وظهر أن الحائك الاول ، الجاويش بريت ، والبيطرى فوق العادة جونسون ، أقبلا ليحضرا السيدين بك وجونز كما جاء هذان الأخيران ليحضرا الجاويش البروجى .

وأنقذ السيدة جارلاند سماعها لصوت هبوط ابنتها فى السلم إذ بدا من المحتمل أن يكتظ ممرها الضيق بالأشكال الآدمية التى لا تعرفها شخصياً .

وقالت :

— ها هى ذى فتاتى الصغيرة .

ونظر جاويش البروجى فى نوع من الخشية إلى هذا الطيف المقبل الملتف بالشفافية ، وتقدم ، ووقف أمام الفتاة أبكم تماماً . وعرفت فيه آن ذلك الجندى الذى رأته من نافذتها ، وحيته فى لطف . وكان هناك شىء فى وجه الصادق جعلها تشعر على الفور بالألفة فى حضوره .

واحمر وجه لفدى لهـــذه السماحة فى الخلق — وهو لم يكن تبيع نساء — وعدل وقفته بعض التعديل ، وبدأ يقول عبارة لا خاتمة لها ، وأبدى ارتباكا صبيانياً خالصاً . وإذ ثاب إلى رشده مد إليها ذراعه فى أدب ، فتعلقت آن بها فى رشاقة فائقة الجمال ، وقادها بين زملائه الذين التصقوا بالحائط منتصبى القامة ليدعوها تمر ، ثم خرجا من الباب وتبعتهما أمها فى صحبة مالك الطاحون ، يساندها الجنود الذين كانوا يسيرون فى خطواتهم العسكرية المعتادة وكأنما أخاذهم كانت بالنسبة لهم طويلة جداً على الأغلب . واجتازوا على هذا النحو مدخل الطاحون ، وعبروا الممر الذى تحولت أرضه المرصوفة إلى حمأة قذرة بسبب ما تحدثه أقدام المارة من مد وجزر لم ينقطعا منذ أيام تيودور ؟

من الذين كانوا حاضرين

فى الحفلة الصغيرة التى أقامها صاحب الطاحون ؟

(٤)

عندما أصبح المدعوون فى حضرة الصحبة التى قدمت ، طرأ على الأحاديث الجارية ركود بسبب رؤية الزائرتين الجديدتين ، وفتنة طلعة آن « بالطبع » . وظلت الحال كذلك حتى أدرك الرجال المتقدمون فى السن ، ممن لهم بنات هم أنفسهم ، أن آن لم تبلغ إلا نصف مرحلة التكوين ، فاستأنفوا قصصهم ، وتمادوا فى تبادل الأنخاب بقرع كؤوسهم(١) الواحدة بالأخرى غير عابئين .

وقد عقد ميلر لفدى أواصر الإخاء مع نصف جند المعسكر منذ قدومهم ، وكان تأثير ذلك على مدعويه مدهشاً سواء من ناحية الألوان أو غيرها . وأول من اجتذب النظر من بين المدعوين كان « جاويشية » فرقة لفدى و« الباشجاويشية »، وهم رجال مهذبون صادقون ، جلسوا فى مواجهة الشموع ، واستسلموا كل الاستسلام للراحة البدنية ، ثم كان هناك غير هؤلاء ضباط من تحت السلاح أحدهم ألمانى ، واثنان مجريان ، وسويدى ، وهم من فرقة الهوزار الأجنبية ... شبان فى مقتبل العمر ترتسم على وجوههم نظرة حزينة ، وكأنهم لايميلون إلى الخدمة فى مكان على مثل هذا البعد عن وطنهم . وكلهم يتكلمون الإنجليزية فى طلاقة لا بأس بها . وكان يمثل السن المتقدمة سيمون بردن المتقاعد ، ويمثل سن الخمسين السيئة السمعة ، الأنباشى توليدج ، صديقه وجاره ، وكان ثقيل السمع . وقد جلس واضعاً قبعته على منديل أحمر من القطن ، ملفوف حول رأسه بضع لفات . وكان هذان الجنديان القديمان معينين رقيبين فى المنارة المجاورة التى شيدت أخيراً بأمر القائد لإشعال النيران حالما يحاول العدو نزول الشاطىء . وهما يقطنان فى كوخ صغير فوق التل ، قريب من كومة الحطب . ولكنهما وجدا فى تلك الليلة من ينوبون عنهما فى الحراسة .

---

(١) قرع الكؤوس دليل الإفراط فى الشراب . (شرح الأصل)

ويأتى بعد ذلك مستوى أدنى من الخبرة والصفات الممتازة ، الجار جيمز كومفورث وهو من فرقة المتطوعين ... ويعد جندياً من باب المجاملة ، وحداداً إحقاقاً للحق ... وكذلك « وليم ترملت » و « أنتونى كريباسترو » وهما من القوة المحلية . وارتدى هذان الأخيران رداءين من أردية الفلاحين ، وهما من رجال الحرب ، وتطلعا إلى الجنود النظاميين من موضع متواضع فى مؤخرة الغرفة . وكان باقى الموجودين عبارة عن لبان أو اثنين ، وزوجتيهما اللتين دعاهما صاحب الطاحون حتى لا تكون آن وأمها المرأتين الوحيدتين هناك ، وقد سر آن أن ترى ذلك .

واعتذر لفدى الكبير ، هامساً فى أذن السيدة جارلاند ، عن وجود فلاحين من الطبقة الدنيا « ولكنهم كانوا يتدربون ليصبحوا مدافعين شجعاناً عن دورهم وسيتمكنون من ذلك يا سيدتى على أثر إتقان تدريبهم ، ولما كانوا قد قاموا على خدمتى دون انقطاع فى هذه السنوات الأخيرة ، فقد دعوتهم للحضور، وحسبت أنك ستعذريننى » .

وقالت الأرملة :

ـــ بالتأكيد يا ميلر لفدى .

ـــ كذلك الأمر بالنسبة لبردن الهرم ، وتوليدج ، فإن لهما فى سلاح المشاة خدمة طيبة طويلة ، وهما يتكبدان حتى الآن مشقة الجو المبتل عند كومة الحطب هناك . وإنى دعوتهما إلى الدخول ليسمعا الغناء بعد أن قدمت لهما وجبة من الطعام فى المطبخ . وقد وعدانى وعداً صادقاً أنهما فى اللحظة التى ستظهر فيها السفن الحربية للعيان ، وعلى أثر إشعالهما النار فى الحطب سيركضان إلى هنا أول ما يركضان فى حالة ما إذا كنا لم نر اللهب المشتعل . وأنت ترين أن الإبقاء على صلتى الودية بهما يستحق العناء ، برغم أن خلقهما عجيب .

وقالت السيدة :

ـــ تستحق العناء تماماً ياصاحب الطاحون .

وكانت آن أقرب إلى الارتباك فى حضرة الجنود النظاميين وهم فى مثل هذا البأس . وقد وقفت كلامها أول الأمر على زوجتى اللبانين اللتين تعرفت بهما ،

وعلى الجنديين الهرمين التابعين لقوة الأبرشية .

وقال الأونباشى توليدج ، أحد هذين الرجلين ، وهو الرجل الكهل ، لابس القبعة ، وذلك بينما كانت الفتاة تحادث سيمون بردن الهرم :

— لماذا لم تحدثينى من قبل يافتاة ؟

ثم أضاف معاتباً :

— لقد التقيت بك فى الطريق أمس ، ولكنك لم تلاحظى وجودى قط .

فقالت :

— أنا آسفة لذلك أسفاً شديداً .

ولكن وقع قولها من الأنباشى كان لانخفاضه ، هو وسكوتها سواء ، إذ خشيت أن تزعق فى مثل هذا الحفل وهى تحادثه .

واستطرد الأنباشى العنيد بنفس صوته العالى :

— كنت تقبلين ورأسك مملوء ولا شك بالخواطر الكبرى وغيرها . آه ، إن الفتيان المتأنقين هم الذين يستأثرون باهتمامكن فى أيامنا هذه ، أما المتقدمون فى السن فقد طواهم النسيان تماماً . وإنى لأذكر جيداً كيف أن بوب الصغير اعتاد أن يكذب لينتظر لقاءك .

واحمر وجه آن احمراراً شديداً . وأوقفت كلام الرجل الشاطح بعيداً بالإسراع إلى قولها إنها تحترم دائماً من كانوا كبار السن مثله . وظن الأنباشى أنها تستفسر عن سبب وضعه القبعة على رأسه دائماً ، وأجاب بأن السبب يرجع إلى أن رأسه أصيب عند « فالينسين(١) » فى شهر يوليو من عام ١٧٩٣ . «كنا نحاول قذف القلعة بالقنابل ، فأصابتنى شظية ، وظللت فى عداد الأموات مدة يومين . ولو لم يحدث هذا ، ولولا ذراعى المكسور ، لعدت إلى بلدى وحالى أقل سوءاً ، وذلك بسبب الخدمة العسكرية مدة خمسة وعشرين عاماً .

وقال أنتونى كريبلسترو الذى اقترب منهم :

— إن فى رأسك قطعة من الفضة بقيت هناك ، أليس كذلك يا أنباشى ؟

---

(١) حاصر الإنجليز والنمسويون فالينسين واستولوا عليها . وكانت فرنسا قد أعلنت الحرب على انجلترا فى الأول من فبراير سنة ١٧٩٣ (هذا التعليق فى الأصل)

وقد سمعت أن الطريقة التى لحموا(١) بها جمجمتك كانت عملا فنياً رائعاً . ولعل السيدة الصغيرة السن تود أن ترى موضعها ؟ إن منظرها عجيب يا آنسة آن ، وأنت لا ترين مثل هذا الجرح كل يوم .

وقالت آن فى سرعة وهى تخشى ، كسائر شباب أوفركمب ، منظر رأس الأونباشى عاريا :

ـــ لا ، أشكرك .

والأونباشى لم يظهر بين الملأ ، منذ عودته عام ١٧٩٤ ، بدون قبعته ومنديله . وكم دارت حكايات غريبة عن بشاعة منظره عارى الرأس . وقد رآه غلام صغير مصادفة بينما كان يقصد فراشه وهو على تلك الحال ، ففزع الغـــلام حتى أصيب بنوبات .

واستطرد كريبلسترو ، صادق الرغبة فى إرضاء الفتاة :

ـــ حسناً إذا لم ترغب السيدة الصغيرة أن ترى رأسك ، فقد تود أن تسمع عن ذراعك ؟

وقال الأنباشى :

ـــ ماذا ؟

وصاحت آن :

ـــ أتؤلمك ذراعك أيضاً ؟

وقال تليدج دون أى انفعال :

ـــ أصيبت حتى صارت كعصيد التفاح(٢) فى نفس الوقت الذى أصيب فيه رأسى .

وقال كريبلسترو :

ـــ دع ذراعك تقعقع يا أنباشى وأرها .

وقال الأنباشى :

ـــ نعم ، دون مراء .

قال ذلك وهو يرفع ذراعه فى بطء ، وكأنما روعة الاستعراض فقدت جدتها .

---

(١) المقصود هنا لحام الأخشاب بطريقة النجش فى النجارة (شرح الأصل)

(٢) التفاح المهروس لاستخراج عصيره بالضغط أو بعصره . (شرح الأصل)

ومع ذلك أراد أن يرضى الفتاة . وأحدث وهو يلوى ذراعه اليسرى بيمينه فى كل اتجاه دون رحمة . . . أحدث فى كل حركة من هذه الحركات قعقعة بين العظام ، وبدا كأن كريبلسترو ينعم برضى كبير من هذا الصوت الكئيب .

وقالت آن وهى تتوق فى ألم أن يكف عما يفعل :

— كم يبدو هذا شنيعاً !

وقال كريبلسترو :

— أوه ، إنها لا تؤلمه ، باركك الله ... أليس كذلك يا أنباشى ؟

وقال الأنباشى وهو لا يزال يحرك ذراعه فى نشاط :

— إنها لا تؤلمنى بالمرة .

— ليس هناك أثر للحياة فى العظام . . . أنا أقول لها يا أنباشى إن عظام ذراعك مفقودة الحياة .

— ليس بها أثر للحياة .

وشرح كريبلسترو الأمر مستطرداً :

— إن العظام محلولة ككيس مملوء بأخشاب الأهداف الخاصة بلعبة رمى الكرة الخشب . وتستطعين أن تتحسسيها فى سهولة يا آنسة آن . ويمكن أن يرفع عنها كمه فى لحظة ليرضيك ، فيم إذا وددت ذلك ؟

وقالت المرأة الصغيرة :

— أوه لا ، لا ، أرجوك ألا تفعل ذلك . أنا فاهمة تماماً .

وسأل الأنباشى ، وفى قوله معنى أنه يضيع وقته هدراً :

— أتريدين أن تسمعى وترى المزيد ، أم لا ؟ .

وأوضحت له آن أنها لا تريد ذلك بأية حال . . . وحاولت أن تهرب من ذلك الركن ؟ .

الأغنيـــــة

والغريب

(٥)

أخذ جاويش البروجى يتحايل الآن ليجلس بالقرب من آن ، وقد بدا واضحاً أن حضورها كان مصدر ابتهاج شديد له منذ اللحظة التى رآها فيها بادىء الأمر . وهى لم تكد تشعر بأى حرج وهى معه . وسألته هل يحسب أن نابليون سيأتى حقاً خلال أشهر الصيف ، كما سألته أسئلة أخرى لم يستطع جندى الدراغون المهذب أن يجيب عليها ، ولو أنه كان يحب مع ذلك أن توجه إليه الأسئلة . وأرهف ويليام ترملت أذنيه لدى سماعه الحديث عن هذا الموضوع ، وهو لم ينعم بليلة راحة كاملة منذ علم الناس بتهديد القنصل الأول(١) ، وسأل هل هناك أحـــد رأى السفن الرهيبة ، المسطحة القاع ، التى سيعبر بها الأعداء الماء ؟ وقال جاويش البروجى :

ــ أخى روبرت رأى سفناً عديدة منها تحوم بالمجاذيف حول الشاطىء فى آخر مرة عبر فيها مضايق دوفر .

ثم أفزع الحاضرين فوق ذلك بقوله لهم إن المعتقد أنه يوجد من هذه السفن أكثر من ألف وخمسمائة سفينة يمكن أن تأتى إلى أراضينا ، وذلك بمجرد أن تصبح خطط بونى(٢) ممكنة التنفيذ .

وقال وليم ترملت :

ــ ليشملنا الله برحمته .

وقال تلدج الهرم بلهجة من لا بد أن تكون رقابته عند تل الحطب قد أكسبته ، بطبيعة الأمور ، إدراكا لحقيقة الموقف :

ــ سيحاولون دائماً النزول خلال الليل ، إذا حاولوا ذلك ، وفى يقينى أن الموضع الذى سيختارونه للنزول إلى الشاطىء سيكون هناك على وجه التحديد .

---

(١) يقصد نابليون بونابرت .

(٢) يقصد بونابرت كذلك .

وأشار بلامبالاة إلى جزء من الشاطئ شديد القرب من المنزل الذى يجتمعون فيه الآن ، وحاول إذ ذاك « المقاوم »(١) ترملت ، وكريبلسترو ، الجندى المتطوع فى الحرس الوطنى المؤقت ، ألا يظهر أية علامة من علامات الانزعاج .

وقال المتطوع الحداد كمفرت :

— ومتى سيقع الغزو فى زعمك ؟

وقال الأنباشى :

— لا أستطيع الإجابة على سؤالك اليوم ، ولكن مما لا شك فيه أن الغزو سيقع عند انحدار المد فى المضيق . وبدلا من أن يجاهد العدو ضد المد ، سيدع سفنه تسبح معه ، وهذا سيقوده إلى خليج بدماوث رأساً . وستكون ثمة ضربة جميلة من ضربات الحرب ، وإذا كان الأمر كذلك فسيتم فى هدوء .

وقال كريبلسترو وهو يتحرك فى ثيابه :

— حملة جميلة ! ولكن كيف ذلك ياأنباشى مادمنا سنكون فى الفراش وقتذاك ؟ إنك لا تتوقع من الرجل أن يكون شجاعاً وهو فى لباس النوم ، لاسيما ونحن ، أعضاء القوة المحلية جميعاً ، لانملك من الأسلحة النارية مايبلغ حمل رجل واحد .

وقاطعه باشجاويش طويل بقوله :

— إن العدو لن يأتى فى الصيف . إنه لن يأتى أبداً .

وكان لفدى الجندى مشغولا جداً عن الاشتراك فى هذه التخمينات بانصرافه إلى العناية بآن وأمها ، جاهداً فى أن يمد السيدتين بأحسن شراب تستطيع الدار تقديمه . وقد عبر هذا الشراب ، فى واقع الأمر ، مضيق المانش سراً على النحو الذى تمناه بونابرت لجيشه ، وأنزل إلى الأرض عبر الشاطئ الصخرى فى ليلة حالكة الظلام . وسأل الجندى آن بعد ذلك أن تغنى . وبرغم أن لها صوتاً جميلا يناسب حفلات الغناء الخاصة التى من هذا القبيل ، فقد امتنعت عن أن تقوم له بهذا الصنيع . وغيرت الموضوع بسؤاله وهى تتردد عن أخيه روبرت الذى ذكره قبل لحظة ، فقال :

---

(١) المقصود « بالمقاوم » المتطوع عند الاقتضاء فى الحرس الوطنى .
(٢) المقصود خليج ويماوث .

— شكراً يا آنسة جارلاند . إن روبرت على خير حال ، وهو الآن ملازم ثان فى السفينة « بيوبت » ، وهو صغـــير السن نوعاً لتولى مثل هذه القيادة ، ولـكن صاحب السفينة يوليه ثقة كبيرة .

وأضاف جاويش البروجى وهو يغوص بأفـكاره إلى رأى أعمق عن الشخص الذى تجرى المناقشة بشأنه :

— بوب عاشق .

وبدا على آن الوعى ، وأنصتت فى انتباه ، ولـكن لفدى لم يواصل قوله . . . فسألته :

— أهو شديد الهيام ؟

— لا أستطيع الإجابة بدقة . وأغرب جانب فى الموضوع أنه لا يقول لنـا أبداً من تـكون هذه المرأة . ولا أحد يعرف ذلك على الإطلاق .

وقالت آن فى نبرة غريبة بالنسبة لشخص لا صلة البتة بين جنسه ومثل هـذه الأمور :

— سيقول ذلك بالطبع .

وهز لفدى رأسه . وانتهت هذه الخلوة مع الفتاة بتفجر غناء أطلقه أحد « الجاويشية » ، وأعقبه آخرون ، بعد الانتهاء من غنائه ، إذ رتل كل منهم نشيداً بدوره . وكان المغنى منهم يقف أمام المائدة ، ماداً ذقنه مسافة فى الهواء ، وكأنه يعمل بذلك على تطهير حلقه من كل جعدة يمكن أن تـكون فيه ، ثم ينغمس بعد ذلك فى الغناء . وبعد انتهاء ذلك قام أحد الجنود الهوزار الأجانب — وهو « الألمـانى اللطيف » على حد نعت ميلر لفدى له — وكان يقول عن نفسه إنه مجرى ، وهو فى الواقع لا ينتسب إلى بلد معين ... قام بناء على رجاء جاويش البروجى بسلسلة من الحركات الوحشية سماها رقصته الوطنية ، وذلك لتتمـكن آن من أن ترى كيف تـكون هذه الرقصة ... وكانت الآنسة جارلاند زهرة ذلك الحفل بأسره . وبدا أن الجنود من أولهم إلى آخرهم ، ومن الأجانب فيهم إلى الإنجليز ، فتنوا بحضورها كل الفتنة ، كما كان لا بد من أن يحدث ذلك نظراً إلى ندرة وجودهم فى صحبة مثلها .

وفى نفس الوقت الذى كانت تفـكر آن فيـه وأمها فى العودة إلى مسكنهما بدأ

كان القادم الجديد أحمر الشعر ، متورد اللون ، وبدا مقتنعاً كل الاقتناع بأن النزوة التى حملته على الدخول لا بد سرت الحاضرين ، وهى سرتهم بالفعل فى تلك اللحظة . . . وقد قال :

ـــ لا رسميات يا خيار الناس أجمعين . . . كنت ماراً فالتقطت أذنى الغناء . . . إنى أحب الغناء . . . وكان غناؤكم مدفئاً شائقاً ، ولن ينقص أحد قدره . وأريد أن أسمع من يقول غير ذلك .

وقال صاحب الطاحون وهو يملأ كأساً ويناولها للفارس المتطوع :

ـــ مرحباً بك أيها السيد دريمان ... هل جئت إذن من معسكرك رأساً ؟ إنى لم أعرفك إلا بصعوبة وأنت فى ثيابك العسكرية . إنك يا سيدى لتبدو طبيعياً أكثر من الآن ويدك ممسكة بفأس . وإنى ما كنت لأعرفك أبداً لو لم أسمع أنك طلبت للخدمة العسكرية .

وقال المارد الصغير السن وقد اشتدت حمرة وجهه حتى أصبحت قرمزية :

ـــ أبدو طبيعياً أكثر من الآن وفى يدى فأس ! حذار يا صاحب الطاحون . أنا لا أقصد الغضب . ولكنه شرف الجندية كما تعلم !

وضحك الجنود الجالسون فى المؤخرة قليلا ، وعندئذ لاحظ الفارس الموسر لأول مرة أن بين المجتمعين أكثر من جندى واحد من الجنود النظاميين . وبدت عليه الحيرة لحظة من اللحظات ، ولكنه امتلأ ثقة بنفسه من جديد . وقال صاحب الطاحون اللطيف :

ـــ صحيح ، صحيح يا أيها السيد دريمان . لا إساءة مقصودة ، والمسألة ليست إلا مزاحاً . وكل فرد هذه الأيام جندى . اشرب قليلا من هذا الشراب المنعش ، ولا تلق بالا إلى الكلمات .

وشرب الفتى دون أدنى تبرم وقال :

ـــ نعم يا صاحب الطاحون ، فقد دعيت للخدمة ، إنها أوقات مدهشة فى هذه الأيام بالنسبة لنا نحن الجند ، فنحن نحمل أرواحنا على أكفنا . . . علام يقطب أولئك الشباب الجالسون وراء المائدة ؟ . . أقول إننا نحملها على أكفنا .

— هل تمكث مع عمك يوماً أو يومين فى المزرعة يا سيد دريمان ؟

— لا ، لا . فأنا نازل على بعد ستة أميال منه كما قلت لك ، فقد شددت الرحال إلى كاستربريدج . ولكن على أن أذهب وأرى السيد الهرم ، ال .. ال .

— المهذب ؟

— المهذب ! . . . لا ، بل الأحمق . فهو يعيش على فتات دور المزرعة(١) ها ، ها ! . .

وظهرت أسنان المتحدث البيض المنتظمة التى تشبه قطعا من الثلج طى كرنبة هولاندية .

— حسنا ، حسنا . . . إن مهنة الجندية تجعل المرء ضد هذا كله . . وأنا آخذ الأمور على علاتها .

— هذا صحيح تماما ياسيد دريمان . هل من رشفة أخرى ؟

— لا ، لا . فأنا لا أتناول أكثر مما يفيدنى . ولا ينبغى لأحد أن يفعل غير ذلك . وعلى هذا لا تغرنى .

ثم رأى الفارس الموسر آن ، فاتجه إليها هى وسائر السيدات مدفوعا بجاذبية غير واعية ، موجها إلى جون لفدى الملاحظة الآتية وهو يمر به :

— آه ، يا لفدى ! لقد سمعت نبأ عودتك . ومختصر القول أنى جئت عمدا لأراك . وقد سرنى أن أجدك تمتع نفسك فى دارك من جديد .

وأجابه جاويش البروجى فى أدب ، برغم أنه لم يمتنع عن التقطيب ، لأنه على مايبدو لم يكن يستسيغ توجه دريمان صوب آن :

— ابنة الأرملة جارلاند ! نعم ، إنها هى بالتأكيد . هل تذكرينى ؟ لقد جئت إلى هنا من قبل . . . « فستوس دريمان » ، بفرقة فرسان « يومن » .

وانحنت له آن انحناءة خفيفة :

— أنا أعرف أن اسمك فستوس . وهذا كل ما هناك .

— نعم . إنه اسم معروف . . . . لا سيما فى الأيام الأخيرة .

ثم خفض صوته إلى حد المسارة .

— أحسب أن مجيئ قد أزعج أصدقاءك هنا ، إذ لا يبدو أنهم يفيضون

---

(١) مكتوبة فى الأصل باللغة المحلية الدارجة ومشروحة هناك .

العهد والعهد الحاضر ، وأول الأشياء التي كانت تلمحها عينه ، وأكثرها سناء ، تلك الشموع المضيئة التي انتثرت في الحفل ، بصرف النظر عما تتكلفه من نفقة ، والتي حافظ صاحب الطاحون على تقويم ذبالاتها ، فكان يدور في الغرفة مرة كل خمس دقائق ، ومقرض الذبالات في يده ، فيضغط بها الذبالات المتقوضة في دقة وإتقان كبيرين ، وعلى وجهه شيء أشبه بنظرة الجلاد المقطبة وهو يقبض بمقرض الذبالات على عنق الشمعة .

ثم تبدو وراء أضواء الشموع سترات الجنود ذات اللون الأحمر ، واللون الأزرق ، والأكمام البيض ـ وهي تقرب في عددها من عشرين سترة ، عدا سترة دريمان الضخم البنيان ـ وكان رأس هذا الأخير ، ورءوس جميع الواقفين دون مراء ، قريبة إلى حد كبير من ظلال السقف . ولم يكن بين الحاضرين أحد يجد أي معنى لكلمة « فيتوريا(١) » ، أو يستخلص من أي مقطع من مقاطع اسم « ووترلو » أقل فكرة عن أسباب مجد ولنجتون وموته . ثم تظهر آن المستقيمة البريئة التي لا يكاد يخطر ببالها ما يخبئه لها الزمن في بحر مدة لا تبعد عنها كثيرا.. كانت تنظر إلى دريمان بابتسامة شبه قلقة وهو يضج هنا وهناك . وكانت ترجو ألا يخلو بها مرة أخرى ليتبادلا الحديث على انفراد . . . وقد خلا بها مع ذلك فعلا إذ جذبته سيماء ذات الثوب الحريري الأبيض على نحو لا يقاوم . وهي ، دون شك ، تحاول أن تبدو الآن من جديد لطيفة نوعا ، خشية أن ينقلب مزاجه من عاطفي إلى مثير للشجار . فالتوفاق مع الجندي الفارس ليس مستحيلا حسبما أدرك حسها السريع .

ولفرحة آن قال أخيراً :

ـــ حسناً ، حسناً . إن هذا التكاسل لا يوافقني ياقوم . ولم يكن يجدر بي أن أحضر حقاً . ولكني رأيتكم تروحون عن أنفسكم ، وحسبت أن وقوفي على ما تفعلون لن يضيع هدرا ... وأمامي أميال عديدة لابد من قطعها قبل أن آوي إلى فراشي .

وتمنى الفارس الموسر للحاضرين ليلة طيبة عن بعد وهو يمد ذراعيه ويرفع

---

(١) بلد في إسبانيا هزم فيه ولنجتون الفرنسيين في يوم ٢١ من يونيو ١٨١٣ (تعليق الأصل) .

ذقنه ، ويهز رأسه ليزيل ما يشوب شكله من أى تجعد أو تقوس . . وانصرف .

وقال جاويش البروجى فى جفاء :

— لماذا لم تزده غيظا يا أبى ؟ إنك كنت تستطيع أن تحيله إلى مشاكس كالدب . .

وقال صاحب الطاحون اللطيف دون أن يرفع بصره :

— أنا لم أرد أن أستثير الشاب ، فذلك لا يستحق شيئا . ثم إن مجيئه كان وديا بمقدار كاف .

وقال جون :

— لا أظن أن مجيئه كان وديا أكثر مما يجب .

وأجاب الأب اللطيف وهو يخلع سترته ليذهب ويجلب مقداراً آخر من الجعة . وكان خلع السترة الموسمى هذا ، والبقاء بالقميص ، أمراً يحتمه ضيق مخزن الخمور ، وأثر تلويثه لأحسن الملابس ، ذلك الأثر الناتج من خيوط العنكبوت المنتشرة فيه :

— إنه من الخير كذلك الإبقاء على حسن الجوار مع الناس إذا لم يكونوا غير مطاقين إطلاقا .

ثم تحدث بعض المدعوين عن « فس دريمان » على أنه ليس بالشاب السيء فيما إذا عرفته على حقيقته ، وجاريته على هواه . وقال آخرون إنه ليس عدوا لأحد غير نفسه . وقالت السيدات الأكبر سنا فى لهجة اهتمام إن أكبر الظن أنه سيرث بعد موت عمه مبلغاً كبيراً من المال . أما الشخص الذى لم يقرظه فهو الذى كان أصح معرفة به من غيره . هو الذى عرفه غلاما منذ سنوات أيام كان يقطن فى مكان أقرب إلى أوفركسب من الآن . . . إن هذا الشخص الذى لم يقدره كان جاويش البروجى .

الأرض المجاورة ، بشروط ميسورة على نحو استثنائى . ولكن ابنه مات بعد انقضاء عامين على شرائه لذلك العقار، ومن ثم أصيبت حياة درمان بالشلل . وقد قيل إنه تحايل على تمليك المنزل والحقول منذ حدوث تلك الكارثة إلى إحدى النساء اللواتى يمتن إليه بصلة القربى من بعيد حتى يحول دون انتقالها إلى يد ابن أخيه المقيت . ولكن هذا النبأ لم يتحقق منه على وجه اليقين .

كان هذا المنزل يثير الاهتمام كغيره من المنازل التى تكون كذلك عادة فى إقليم أدركه الاضمحلال ... والتاريخ الصحيح لذلك الإقليم يدل على ما تقدم . وهذا التاريخ يتضمنه ذلك الكتاب اللطيف المطبوع الذى يحوى لوحة مهداة إلى آخر فرع للملاك الأصليين . وبدا من المرسوم فى هذه اللوحة أنه فى سنة ١٧٧٤ ، وهو تاريخ طبعها ، كانت نوافذ المنزل مشوبة بخدوش صغيرة كأنها خطفات البرق السود . كانت هناك قرون من الدخان الجامد تتصاعد من كل مدخنة من المداخن العديدة . وبدت سيدة وكلب صغير فى المرج على هيئة من يمشى فى جد . وتعلقت فوق الأشجار إلى الشمال الشرقى سحابة كثيفة ، وطيور لا يعرف نوعها .

كانت هذه الدار الشاردة المهملة تشتمل على جميع الميزات الرومانسية ، والعيوب العملية التى تتقاسمها الأماكن الغريبة المماثلة لها مع الكهوف والجبال والمتاهات والأودية الضيقة وغيرها من المنازل الشاعرية التى يتمنى ذوو الذوق أن يعيشوا ويلقوا منيتهم فيها . وكان متاحاً لنبات الخردل والجرجير أن يعلو فوق الجص الداخلى للحيطان الرطبة إلى أى ارتفاع لا يبعد عن الأرض بأكثر من ثلاث أقدام . ونما عش الغراب ذو الرقة البالغة ، والسيقان الدقيقة ، من خلال شقوق الحجر المرصوف فى حائط مخزن المأكولات . وفى خارج الدار عملت الطبيعة التى أتيح لها الوقت الممتد ، على مزج ما تنسقه وما تمحوه ، بدلائل ما يكسوه الإنسان وما يبليه فى الدار المذكورة التى يصعب أن يقال إلى أى الطرفين المذكورين — ولعله إلى كليهما — يرجع أصل أى نوع معين من أنواع المحو الذى اعتورها . لقد انطفأت الجلوة من زخارف الأبواب ، ولكن لم يبد هل كان فقدان جدتها يرجع إلى احتكاك أكتاف العدد العديد من الناس الذين مروا بها ، وإلى نقل الرياش الثقيلة عبرها ، أم يرجع إلى فعل الزمن على نحو أعم وأشد تجريداً . وقد كانت الركائز الحديدية لألواح النوافذ الزجاجية متآكلة من أسفل

حيث تنفذ فى الحجرة ، ويبلغ مقدار تآكلها سمك الأسلاك ، ويرجع ذلك إلى أنفاس الأجيال التى كونت بركا من الأنداء أصابتها بالصدأ . أما ألواح الزجاج نفسها فهى إما قد فقدت إشراقها كلية ، أو أصبحت قزحية الألوان كذيل الطاووس. وقامت فى وسط السقيفة مزولة كانت عقربها تتمايل كلما هبت الريح ، وتلقى بظلها هنا وهناك ، وكأنما لسان حالها يقول : ها هى ذى مزولتكم النموذجية البديعة . ها هى ذى فى أى وقت ، ولأى كان . . . أنا مزولة جديدة . . . والتحول خير سياسة » .

ومرت آن تحت سقيفة الباب المقوسة التى تحجب واجهة الدار الرئيسية ، والتى يقوم فوقها مسكن البواب ، والوسيلة إليه سلم حلزونى . وقد كانت هناك عبر طريق الباب حواجز خشبية مثبتة فتحت آن أحدها وأغلقته وراءها . وبدت ضرورة إقامتها عند انتقال آن إلى الداخل ، فالفناء ذو الزوايا الأربع للبناء القديم كان عبارة عن أحواض مسورة بالطين والسماد، تعيش فيها العجول والأوز والبط وإناث الخنازير الكبيرة إلى حد مدهش ، ومعها أولادها الصغيرة إلى حد مدهش أيضاً . وأخذت إناث العجول تلهو داخل الحظيرة بمد أعناقها ولعق المنعرجات فى المقاطع النائية من الحجر . وتوجهت آن إلى باب آخر مفتوح حيث قام حاجز ثان ليحول دون أى اختلاط بين الحيوانات الداجنة وسكان الدار ولما لم تجد مطرقة معلقة بالباب طرقته بعصا قصيرة كانت موضوعة إزاء المكان لهذا الغرض . ولكنها دخلت الممر إذ لم يحضر أحد ، وحاولت دخول باب داخلى .

وسمع صوت خفيف فى الداخل ، وفتح الباب بمقدار إصبعين ، وظهر من الفتحة شق من وجه ذابل يتضمن إحدى العينين ، وجانباً من تجاعيد الجبهة . وقالت آن :

ـــ أستميحك عذراً . لقد جئت فى طلب الصحيفة .

وقال قاطن الدار بصوت كالنحيب وقد زاد من فتحته للباب .

ـــ أوو ، أهو أنت يا آن العزيزة . لم أستطع المجىء إلى الباب لأفتحه إلا بصعوبة ، فأنا ضعيف جداً .

وقال الرجل الهرم :

— ذلك أنى متهيج جدا . ومن عادتى أن أرتجف من رأسى إلى قدمى عندما أفاجأ بزيارة قريب محبوب .

وقال الفارس الموسر :

— آه ، هذا هو الأمر !

قال ذلك وهو يهوى بيده على ظهر مقعد عمه محدثا قرقعة شديدة ففزع عمه بنجى على أثرها مبتعدا فى عصبية مقدار بوصتين ، ثم سقط فى مقعـده ثانية . واستطرد الفارس :

— أسألك العفو لأنى أخفتك يا عمى . فهذا ما نفعله فى الجيش ، وقد نسيت أمر أعصابك . ولعلك لم تـكد تتوقع أن ترانى ، ولـكن هأنذا .

— أنا . . . أنا سعيد برؤيتك . . ولعلك لن تمـكث طويلا .

— الأمر على عكس ذلك تماما ، فسأقيم إقامة دائمة !

— أوو ، فهمت ! وأنا شديد السرور يافستوس ... أقلت ... إقامة دائمة !

وقال السيد الشاب وهو يجلس على حفاف المـكتب المنحدر ويمد ساقيه كأنهما عمودان :

— نعم ، إقامة دائمة . وسأجعل هذا البيت بيتى كلما فرغت من واجباتى وسأبقى فيه مادمت خارج عملى . ثم أحضر هنا بعد ذلك ، أى عندما ينتهى هـذا الحشد العسكرى فى الخريف ، وسأعيش معك كأنى ولدك ، وسأبذل العون فى إدارة أمر أراضيك ومزرعتك كما تعلم ، وسأجعل منك رجلا هرما مستريحاً .

وقال الفلاح وهو يبتسم ابتسامة فزع ، ويمسك بذراعى مقعده ليسند نفسه:

— آه ! كم أنت تبهجنى !

— نعم . . . وقد كنت أنوى الحضور منذ زمن طويل لعلمى أنك تود بقائى معك ياعمى بنجى . وقلبى لا يطاوعنى على رفض ما تود .

— إنك كنت على الدوام رقيقاً من هذه الناحية .

— نعم . لقد كنت دائماً كذلك . ولـكن يجب أن أبادر فأقول لك ، دون أن أقصد تخييب ظنك . . . إنى لن أبقى هنا طوال الوقت . . . طوال اليوم ... ويرجع ذلك إلى واجباتى العسكرية بحسبانى من فرقة الفرسان.

وصاح الفلاح وعينه تشرق فرحاً :

— أوو ، لن تبق طوال الوقت ؟ هذا مؤسف !

— كنت أعلم أنك ستقول هذا . . . ولن أستطيع فى بعض الأحيان أن أبيت هنا ، وذلك لنفس السبب .

وقال السيد الهرم وقد ازداد شعورا بالفرج :

— لن تبيت لياليك هنا ؟ ... ينبغى أن تبيت هنا . ينبغى هذا دون شك . ومختصر القول إن هذا هو ما يجب ، ولكنك لا تستطيعه !

— لن أستطيع ذلك ما بقيت فى الخدمة العسكرية ، ولكنى بعد الانتهاء منها مباشرة . . . أى فى اليوم التالى للانتهاء منها ، سأبقى هنا طوال الأيام ، وسأبيت جميع الليالى لأسرك ما دمت تطلب إلى ذلك بهذا العطف كله .

وقال العم بنجى :

— أ . . . أشكرك . سيكون هذا لطيفاً جداً .

— نعم ، كنت أعلم أن هذا سيفرج عنك .

وربت على رأس عمه فى عطف بينما عبر الرجل المسن عن سروره بشاهد محبة ابن أخيه . . . عبر عن ذلك بتقطيب كتقطيب رأس ميت .

ثم استطرد فستوس :

— وكان ينبغى أن أحضر الليلة الماضية لزيارتك عندما مررت من خلال هـذه الناحية ، ولكن كان الوقت متأخرا جداً إلى حد أنى لم أستطع أن أعرج عن طريق وأقطع كل هذه المسافة . وإنك لن تظن هذا التصرف جافاً .

— أبداً ، أبداً ما دمت لم تستطع الحضور ، ولن أظن مثل ذلك تصرفاً جافاً قط ما دمت لا تستطيع الحضور حقاً يافستى .

ومرت فترة صمت . ولما لم يقل ابن الأخ شيئاً استأنف العم بنجى قوله :

— وددت لو كانت عندى هدية صغيرة أهديها لك . ولكن شاء لنا سوء الحظ أن نفقد جزءاً كبيراً من حيواناتنا هذا العام ، وكان على أن أنفق المال الكثير .

— مسكين أيها العزيز الهرم . . . أنا أعلم ذلك . أأقرضك قطعة نقود من ذات السبع الشلنات يا عمى بنجى ؟

ـــ ها ، ها ! . . . أنت لا تفوتك النكتة . . . حسنا ، سأفكر فى ذلك . . . أهكذا يتوقعون أن يختار بونابارتى(١) هذه البقعة من الشاطىء بالذات لنزول قواته ، هيه ؟ وأن « الفرسان المتطوعين » سيقفون فى المقدمة على أنهم الفدائيون؟

وقال ابن مارس(٢) المترعرع وقد فقد قليلا من توردِه :

ـــ من قال ذلك ؟

ـــ بائع الصحف .

وقال فستوس فى شجاعة :

ـــ أوو ، لا ضير فى هذا . لقد ظنته الحكومة ممكنا وقتا ما ، ولكنهم لم يستقروا على رأى .

ودار فستوس بينما كان يتكلم ، وقال الآن على حين بغتة :

ـــ آه ، من هذه ؟ عجبا ! إنها صغيرتنا آن !

إنه لم يلاحظ وجودها حتى هذه اللحظة ، فقد ظلت السيدة الصغيرة منذ دخوله مكبة على الصحيفة ، ثم ابتعدت إلى جانب الغرفة الخلفى .

ـــ وهل تنويان البقاء أنت وأمك هناك فى دار الطاحون ، حيث ترقبان السمك الصغير يا آنسة آن ؟

وأجابت بأنها غير متيقنة من الأمر ، ونمت لهجتها عن يقين لا يعتوره شك ، ولم يكد يستحق السؤال . وكانت تنظر إليه مرغمة أثناء كلامها . ولكن الاحمرار كان يصبغ ذراعيها ويديها مرة بعد مرة كما كان يصبغ وجهها . ولم يكن ذلك يرجع إلى أن حذاءه الكبير ، ومهمازيه المخيفين ، وسائر المعدات الرهيبة التى يتقلدها . . . قد غلبتها على أمرها كما تبادر إلى ذهنه . ولكن يرجع ببساطة إلى أنها لم تكن معدة لمقابلته هناك .

وقال وقد ترك لحظه يتريث فوق استدارة خدها :

ـــ أرجو أن تظلا هناك من أجل مصلحتى بالتأكيد .

وازدادت آن توقرا بعض الشىء ، وبدا التحفظ فى نظرتها . ولكن « فارس

---

(١) هكذا فى الأصل .

(٢) إله الحرب فى الأساطير الإغريقية .

فرقة الفرسان المتطوعين ، طفق يحادثها ، بعد تبين ذلك ، بطريقة بلغت من التأدب مبلغاً أبهجها إبهاجاً لا يقاوم برغم محاولاتها إخفاء كل شعور . وعلى أثر ملاحظة له ، أشد إشراقاً من العادة ، تحرك فمها ، وتلاعبت شفتها العليا فوق أسنانها البيض غير مستقرة على رأى . . . ستكف عن الحركة . . . لا . . . بل ستنسحب قليلا فى ابتسامة ثم ترف وتهدأ من جديد . . . وهكذا ظلت تحوم كالفراشة تراودها رغبة لطيفة فى أن تصبح راضية مبتسمة ، وأن تغدو مع ذلك رزينة متمالكة الجأش أيضاً . وقد أرادت أن تظهر له أنها لا تريد ثناء ، وأنها ، برغم ذلك ، ليست باردة الشعور إلى حد تريد معه أن تصد أية عاطفة أصيلة قد يتوق إلى التعبير عنها .

وقالت مقاطعة الشاب وهو يبدى تعليقاته :

— أتريد أن أقرأ لك أيضاً ياسيد دريمان ؟ فإن كنت لاتريد ذلك ، فسأعود إلى البيت .

وقال فستوس لعمه :

— لا تدعنى أعطلك أكثر من ذلك . . . سأنصرف بعد دقيقة أو دقيقتين حالما ينتهى رجلك من تنظيف حذائى .

— أنت لا تعطلنا يا ابن أخى . فهى ستأخذ الصحيفة لامراء ، فهذا هو اليوم الذى تأخذها فيه . وقد تقرأ لى أزيد قليلا مما قرأت إذ أنى لم أفد منها حتى الآن إلا أقل من القليل . حسنا ، لماذا لاتقولين شيئاً ؟ أستتحدثين أم لا ياعزيزتى ؟

وقالت الفتاة :

— لن أحادث اثنين .

وقال فستوس ضاحكا :

— هوه ، هوه ! يا للعنة ، أعتقد ألا بد إذن من الذهاب .

وغادر الغرفة عاجزاً عن اختلاس نظرة أخرى إلى الفتاة ، وقعقع مرتدا إلى صحن الدار حيث رأى رجلا ، فصاح مادا يده :

— أنتونى كربلسترو !

وتقدم إليه كربلسترو ركضا . ورفع خصلة من شعره وسواها ، وقال :

— نعم ، يا سيدى دريمان .

وكان كربلسترو يد السيد دريمان الوحيدة فى رعاية حيوانات صحن الدار والحديقة . ولم يكن شديد الاعتداد بجمال الرجولة ، شأنه فى ذلك شأن مخدومه ، ومرجع ذلك إلى لين فى عموده الفقرى ، وخصوصية فى فمه الذى لا يفتح إلا من ناحية واحدة فيجعل هذا ابتسامته مثلثة الأضلاع .

وقال فستوس بحماسة ذات تعال اجتماعى :

— حسنا ، يا كربلسترو ، كيف الحال اليوم ؟

— متوسطة فيما يتعلق بالسيد دريمان . وكيف حالك أنت ؟

— لا بأس . حسنا ، عليك الآن بتنظيف حذائى العسكرى هذا ، وسأضع قدمى فوق هذا المقعد. إن حظيرة مواشى عمى هذه غير جديرة بجندى أن يدخلها .

— نعم ، ياسيدى دريمان ، سأنظف حذاءك ... لا ، إنها غير جديرة بذلك ، سيدى دريمان .

— أية حيوانات فقدها عمى هذا العام يا كربلسترو ؟

— حسنا . دعنى أنظر فى هذا يا سيدى . . . أستطيع أن أذكر أننا فقدنا ثلاث دجاجات ، وذكراً من الحمام وخنزيراً كبيراً ، وآخر رضيعاً هزيلا ، وهو واحد من نتاج يبلغ عشرة خنازير . ولا أستطيع أن أذكر شيئاً عدا ذلك يا سيدى دريمان .

— هيه . . هذا ليس بالعدد الكبير من الحيوانات . . . ياللعجوز الماكر !

— لا ، هذا ليس بالقدر الكبير . العجوز ال . . . ؟ ماذا قلت يا سيدى ؟

— أوو ، لا شىء . . . إنه داخل الدار هناك .

ولوى فستوس رأسه فى اتجاه مباشر لداخل الدار ، واستطرد قائلا !

— إنه لنهاب محترف .

وقال كربلسترو وهو يهز رأسه فى حركة توبيخ مغتبطة :

— هه ، هه . . . فه فه يا سيدى دريمان ! لا ينبغى للسادة أن يتحدثوا على هذا النحو ، لا سيما الضابط ياسيد دريمان ! ومن واجب الفرسان السراة ألا ينسوا أن أرومتهم مقدرة كل التقدير فى البلاد ، ولا يصح التحدث عنها بسوء .

ـــ إنه ممسك اليد .

ـــ حسنا ، ياسيدى . إنه لكذلك . . . أعترف أنه ممسك اليد قليلا . إن من طبيعة بعض السادة المتقدمى السن أن يكونوا كذلك . وأرجو أن يحسن تقدير نصيبك فى الثروة يا سيدى .

ـــ أرجو ذلك .

ثم سأله الفارس وهو ينظف له حذاءه :

ـــ أيتحدث الناس عنى هنا يا كربلسترو ؟

ـــ حسنا ، نعم ، ياسيدى . إنهم يتحدثون عنك من آن لآخر كما تعلم . ويقولون إنك بين الفرسان بضعة أصيلة لم ينشأ مثلها قط فى الفلاة . . ومجمل القول إنهم يقرون بأنك فتى رائع يا سيدى . وكان بودى ألا أخاف الفرنسيين كما لا تخافهم أنت . ولكنى بحسبانى من جنود الحرس المحلى أحلم فى كل ليلة بأن على الدفاع عن بلدى ، وأنا لا أميل إلى هذا الحلم أبدا .

ـــ ينبغى يا كربلسترو أن تجابه هذا الأمر بلا مبالاة . وستتعود بذلك ألا تهتم به فتيلا . حسنا ، إن الفتى الرائع ليس كل شىء فى الحياة . وهناك فى الجيش فتيان يماثلوننى فضلا ، بل قد يفضلوننى .

ـــ ويقولون إنك ستموت ميتة الرجال عندما تسقط فى الميدان هذا الصيف .

ـــ عندما أسقط فى الميدان ؟

ـــ نعم ، بالتأكيد ياسيد دريمان . بالروح المسكينة ! وأنا لن أنساك حين ترقد ناخر العظم فى لحدك العسكرى .

وقال الجندى المحارب قلقا :

ـــ هيه ؟ ماذا يحملهم على الظن بأنى سأسقط فى الميدان ؟

ـــ حسنا ، يا سيدى . إن فرسان المتطوعين سيوضعون فى مقدمة الجبهة .

ـــ مقدمة الجبهة ! هذا ما كان يقوله عمى .

ـــ نعم ، وهذا صحيح على كل حال . ومن الطبيعى أنهم سيحصدون ويتساقطون تساقط الحصاد . وستكون أنت من بينهم أيها الفارس الفتى الشجاع المسكين !

— اسمع يا كربلسترو ، هذا القول محض سخيف . كيف يمكن أن يوضع فرسان المتطوعين فى مقدمة القتال ؟ لن يوضع أحد فى تلك المقدمة . وليس لنا ، نحن الفرسان المتطوعين ، أى شأن بغزوة بونابرت ، فسنكون بعيدين فى مكان أمين حيث سنحمى الممتلكات والمجوهرات . والآن أترى يا كربلسترو ألا مجال لإرسال فرسان المتطوعين إلى المقدمة ؟ أتظنهم يستطيعون حقا أن يقدموا على مثل هذا التصرف ؟

وقال كربلسترو المبهج :

— حسنا . ياسيدى ، أخشى أننى أظن ذلك . وأنا أعلم أن جنديا عظيما مثلك لا يمكن إلا أن يبتهج كل الابتهاج لهذه الفرصة المتاحة . وسيكون هذا شيئا عظيما ... الموت والمجد ! . ومجمل القول إنى أتمنى لك من صميم قلبي أن يتحقق لك هذا . . . وأنا أردد ذلك للدلا فى كثير جدا من الأحيان ، وأصلى فعلا كل مساء لتحقيقه .

— أوو ؟ يا إمعة ! لا داعى لصلاتك من أجل هذا .

— لا ، يا سيدى دريمان ، لن أفعل هذا .

— سيقوم سيفى بواجبه لا مراء ، وهذا يكفى . والآن اغرب عنى .

وعاد فستوس متجها إلى غزفة عمه ، ووجد آن على أهبة الانصراف . وكان يرغب فى أن يتبعها على الفور ، ولكنه اتجه إلى النافذة إذ لم تتح له آن فرصة لتحقيق رغبته ، وظل ينقر مصراعها بأصابعه . بينما كانت الفتـــاة تجتاز ساحة الدار .

وقال الفلاح وهو ينظر فى ريبة إلى فستوس من تحت جفن واحد :

— حسنا يا ابن أخى ، ألم ترحل بعد ! إنك ترى الحال التى أنا عليها . فهى لم تتحسن قط كما ترى . . . ولذلك لا أستطيع أن أرحب بك ترحيبا لائقا على نحو ما أريد .

— أنت لا تستطيع يا عمى ، أنت لا تستطيع ، وأنا لا أظنك أسوأ حالا . فإن ظننت بك هذا فامسخ وجهى . ولكن ستتاح لك فرص كثيرة للترحيب بى عندما تتحسن صحتك . وإذا كنت لم تعد نشط الروح كعهدك السابق فلماذا لا تحاول تغيير الهواء . فهذا جحر سخيف رطب .

— إنه لكذلك يافستوس ، وأنا أفكر فى الانتقال منه .

وقال فستوس بين الدهشة والاهتمام :

— آه ، إلى أين ؟

— سأصعد إلى العلية فى الزاوية الشمالية . وليس هناك موقد فى تلك الغرفة ، ولكنى لن أحتاج إليه . يا لى من مسكين !

— هذا ليس بالانتقال البعيد .

— إنه ليس كذلك . ولكن ليست هناك روح تمت إلى بصلة فى حدود عشرة أميال وأنت تعلم حق العلم أنى لا أقدر على منزل أدفع له إيجارا .

— أنا أعلم ذلك . . . أنا أعلم ذلك ياعمى بنجى ! حسنا ، لا تقلق بالك ، سأحضر وأتولى شئونك على أثر الخلاص من محنة « بونى » تلك ، ولكن على المرء أن يطيع فيما إذا دعاه داعى الوطن ، هذا إذا كان رجلا .

وقال العم بنجى ، وقد ارتسم إعجاب شديد على ظاهر وجهه :

— هذه روح عظيمة ! وأنا لم يكن لى مثلها ، فكيف سرت إلى الولد ؟

— لعلها سرت إلى من أخوالى .

وقال الفلاح ملوحا بيده فى تأثر :

— لعل هذا صحيح . حسنا ، اعتن بنفسك . احتط للأمور ! فإن شجاعتك فى مثل هذه الأيام الشبيهة بأيام الحرب جديرة أن تلقى بك بين أيدى أعدائك ، وأنت آخر سلالة الأسرة ، وعليك أن تذكر ذلك فلا تجعل شجاعتك تطيح بك .

وقال فستوس وقد افتضح رضاه عن نفسه قسرا عنه :

— لا تقلق ياعمى ، فسأتحكم فى أعصابى ، أوعلى الأقل ، سأبذل فى سبيل ذلك مافى وسعى ، ولكن الطبيعة تتصدى فى بعض الأحيان ... حسنا . سأنصرف .

وبدأ يترنم بلحن « برايتون كامب » . وانصرف فى اعتداد ، واعدا أن يعود عما قريب . وكانت كل خطوة من خطوات رواحه تضيف إلى مظهر عمه بهجة خاصة .

وعندما توارى الفتى وراء منزل البواب أظهر العم بنجى نشاطا غير طبيعى بالنسبة لحالة مرضه ، فقد صعد إلى الدور العلوى فى سرعة دون الاستعانة بعصا

عامداً فى نفس الوقت إلى فتح فمه وإغلاقه فى صمت تام كالضفدع الظامىء . وكانت هـذه هى طريقته فى التعبير عن جذله . لقد صعد إلى أعلى فى سرعة السنجـاب العجوز ، واتجه إلى نافذة فى إحدى غرف النوم تشرف على منظر السهول الممتدة وراء المنطقة ، وطريق المشاة الواصل بينهم وبين القرية .

وقال فى صرخة مكتومة وهو يرقص قافزاً :

ـــ نعم ، نعم ، إنه يتبعها . لقد أصابت قلبه .

ذلك أن قوام آن جارلاند ظهر فى الممر ، وظهر وراءها ، على مسافة قصيرة نوعا ، قوام فستوس وهو يسرع مختالا . وشعرت باقترابه فأسرعت فى مشيتها . وسار هو فى خطوات أسرع ، ولحق بها . ودارت إليه وكأنما هى تلبى نداءه ، ومشى إلى جانبها حتى توارى كلاهما عن العيان . وأخذ الرجل الهرم يعزف بيده على كمان متخيل لمدة نصف دقيقة تقريبا ، وتوقف فجأة عن إبداء دلائل السرور هذه ، ونزل إلى سفل الدار ؟

كيف تبادلوا الحديث

فى المرعى

(٧)

قال فستوس لآن قبيل أن يلحق بها :

ـــ أتأتين إلى هذه الناحية كثيراً ؟

وقالت وهى فى حيرة تفكر فى حضوره ، وهل كان عمداً أم مصادفة :

ـــ حضرت بسبب الصحيفة وأشياء أخرى .

ومشيا فى صمت وفستيوس يضرب الحشائش بعصاه فى براعة ثم سألها :

ـــ أقلت لى شيئا يا آنسة آن ؟

وقالت آن :

ـــ لا .

ـــ أستميحك ألف عذر ، فقد خيل إلى أنك قلت شيئا . والآن لا تدعينى أنحرف بك عن الطريق ، فأنا أستطيع أن أمشى بين الحشائش النامية ، وزهر شقيق النعمان دون أن تلوث جواربى بالاصفرار كما تشوب جواربك . . . حسنا ، وما رأيك فى مجىء عديد من الجند على هذا النحو إلى المكان المجاور لكم ؟

وقالت فى جد رصين :

ـــ أظن ذلك منعشا جداً ، وتبدلا كبيرا .

ـــ لعلك لا تميلين إلينا معشر المحاربين ونحن جماعة .

وابتسمت آن دون أن تجيب .

وقال الفارس المتطوع وهو ينظر إليها متحريا ، ومحتقن الوجه كقليل من اللهب :

ـــ ولكنك تضحكين ! أى شىء بدا لك لحملك على الضحك ؟

وقالت آن وقد أزعجها غضبه المفاجىء .

ـــ أنا ضحكت ؟

فقال كالطفل الغاضب :

ـــ ولكن ، نعم . وأنت تعلمين أنك ضحكت ، أنت المستهزئة الصغيرة . أنت تسخرين منى . . . هذا هو ما أضحكك ! وبودى أن أعلم ماذا كنت تصنعين بدون رجل مثلى فى حالة مجىء الفرنسيين إليك فى أية ليلة ؟

وقالت له متعجبة :

ـــ أستعين على قهرهم وطردهم ؟ ! . .

ـــ أفى استطاعتك أن تسألى هذا السؤال : وفيم جئنا إلى هنا ؟ ولكنك لا تقدرين الجنود أى تقدير .

وقالت له : أوو ... نعم ... إنها تميل إلى الجنود ، لا سيما يوم يعودون من ميدان الحرب إلى أوطانهم مكللين بالنصر . . . وبرغم ذلك فهى إذ تفكر فى الأعمال التى أكسبتهم هذا المجد لا تميل إليهم ذلك الميل الشديد . وقال الفارس المتطوع الذى هدأت ثائرته إنه يظنها تقصد حصد الرؤوس ، والإطاحة بالأدمغة ومثل هذا النوع من الأمور ؛ وإنه يرى أن من حق مخلوق رقيق القلب مثلها أن يشعر بشىء من الهول . أما فيما يتعلق به فهو لا يهتم أن تدور موقعة أخرى هذا الصيف كموقعة « بلنهايم » التى خاضها الجيش منذ مائة عام ، أو منذ أى وقت كان ، وليصب بسوء إن كان يهتم بهذا أدنى اهتمام .

ـــ هوللو ! ها أنت ذى تضحكين ثانية . نعم ، نعم لقد رأيتك !

ودار فستوس الغضوب بعينيه الزرقاوين ووجهه المحتقن إلى الفتاة ، وكأنما سيستطيع قراءة ما بنفسها . ولكن عينيها لم تستطيعا مواجهته ، وتراختا . وأخذ يكرر :

ـــ إنك ضحكت فعلا ! .

وغمغمت الفتاة :

ـــ لم تكن إلا ضحكة صغيرة طفيفة .

وأرعد بقوله :

ـــ آه . . . لقد علمت أنك ضحكت . والآن ، ماذا حملك على الضحك ؟

وغمغمت فى مكر :

— لقد ظننت فقط . . . أنك فى فرقه المتطوعين . . ليس إلا .

— وما المضحك فى هذا ؟

— أن فرسان فرقة المتطوعين ليسوا على ما يبدو إلا فلاحين فقدوا أعصابهم .

— نعم ، نعم . لقد علمت أنك كنت تقصدين سخرية من هذا القبيل يا آنسة آن . ولكنى أعتقد أن هذه هى طريقة النساء ، وأنا لن أعيرها التفاتا . وسأعترف بأن بعضنا ليسوا ذوى شأن كبير . . . ولكنى أعرف كيف أجرد سيفى كذلك ؟ قولى إنى لا أعرف كيف أجرده لتستثيرينى .

وقالت آن فى عذوبة :

— أنا واثقة من أنك تعرف ذلك . . . وإذا جاءك فرنسى ياسيد دريمان ، أتصيبه فى وركه أم فى فخذه ؟

وقال وقد انكشفت أسنانه البيض عن ابتسامة :

— أنت تعمدين الآن إلى الإطراء . . . حسنا . . . سأجرد سيفى بالطبع . . لا ، أنا أقصد أن سيفى سيكون مجردا من قبل . . . وسأنخس بالمهماز حصانى . . الذى يسمونه فى الجيش : « جواد » . وسأتجه بجوادى إليه وأقول . . لا ، لا ينبغى أن أقول شيئاً بالطبع . . . فالرجال لا يبددون الوقت بالتكلم أثناء القتال . سأنال منه بسلاحى الثالث ، وهو سلاح ضعيف ، ثم إنى إذ أعود إلى سلاحى الثانى . .

— ولكنك بذلك لا تصيبه بل تحافظ على نفسك .

وقال وقد تحولت الأضواء المشعة من وجهه فى لحظة واحدة إلى لون سحابة معتمـة :

— كيف يمكنك أن تقولى هـذا ! كيف يمكنك أن تفهمى الاصطلاحات العسكرية ، أنت التى لم تمسكى بالسيف مرة واحدة فى حياتك ؟ . .

واستطرد مسترسلا فى تبرمه الملح :

— ليس لى أن أقضى عليه بالسيف على الإطلاق ، بل على أن أجهز عليه بغدارتى ... على أن أنزع ، قفاز يمينى ، وألقى إلى الوراء دثار جلد الماعز ، وأفتح خزانة البندقية ، وأجهزها ، وأطلق قذيفتها . . . لا . ليس لى أن أفعل هذا ، فهو خطأ . على أن أسحب الغدارة من جانبى اليمين ، ولدى الانتهاء من حشوها أمسك

بها من طرفها الغليظ ، وعلى عند الصياح بعبارة : « اضغط زناد الغدارة » أن . .

وقالت آن فى براءة :

— هناك إذن متسع من الوقت فى حومة القتال المحتدم لإصدار مثل تلك الأوامر ؟

وقال الفارس وقد اشتعل وجه من جديد :

— لا ! ولكنى لا أقول لك بالطبع ما يمكن أن تكون عليه عبارة الأمر بالهجوم . . إنك تضحكين . .

— أنا لم أضحك . أقسم لك أنى لم أضحك !

— لا ، لست أظن أنك ضحكت . كان هذا خطئى أنا . . حسنا ، ثم أصوب غدارتى فى كياسة مدققا النظر الممتد فى اتجاه ماسورة الغدارة . . فى اتجاه ماسورة الغدارة . . ثم أطلق النار . . . وأنا بالطبع أعلم جيداً كيف أنازل الأعداء . . ولكنى أظن أن عمى الهرم يثيرك على .

وأجابت آن :

— إنه لم يقل عنك كلمة ولو أنى سمعت عنك بالطبع .

— ماذا سمعت عنى ؟ لا شك أنك لم تسمعى كلمة طيبة . هذا يجعل دمى يغلى فى عروقى .

وقالت تطمئنه :

— لم أسمع قولا سيئاً . . . مجرد كلمة كل حين وحين .

— تعالى الآن وحدثينى . . هناك شخص تعزينه ، أليس كذلك ؟.. أنا لا أحب المعارضة . سيكون الأمر سرا مقدسا بيننا . . تعالى الآن !

وارتبكت آن ، ولم تعد ابتسامتها مطمئنة . وقالت فى آخر الأمر :

— لن أبوح لك بشىء .

وقال الفارس مرتميا فى أحضان اليأس :

— هاهى ذى تغيظنى من جديد ! سأبدأ عما قريب فى الاعتقاد بأن اسمى لا يساوى فى هذه النواحى بضعة قروش !

وكررت آن قولها :

ــ قلت لك إن أحدا لم يتحدث عنك بسوء .

وقال فستوس بلهجة بدأت تلطف :

ــ هذا يعنى أن الحديث كان فى صالحى . حسناً ، ولو أن لى ، إذا رجعت إلى الحقيقة ، عيوبا ليست قط بالقليلة . وهناك على ما أعتقد بعض أناس يقرظوننى . . . أكان ما سمعته تقريظا ؟

ــ كان تقريظا .

ــ حسناً . إنى لا أساوى كثيراً فى فلاحة الأرض ، وفى عشرة الناس ، وفى علم الحساب ، ولكنى أحسب أنه لابد أن أقر . . مادام ذلك مفروضا على . بأنى أستطيع الظهور بمظهر الجندى الباهر ، كأى رجل من سلاح الفرسان ، فى موقعة الشاطىء المنتظرة .

وقالت آن :

ــ إنك تستطيع هذا .

ذلك أنها لم تستطع مقاومة تلك المتعة المخيفة ، متعة دفعه إلى الكلام ، برغم أن جلدها كان يقشعر فى خوف مميت من سورة غضبه :

ــ أنت حسن الوجه ، ويقول عنك الناس إنك . .

ــ ماذا ؟ شىء جميل إنهم يروننى حسن الوجه . ولكنى لم أصنع نفسى . وعلى ذلك لا يكون هذا القول مديحا . . هوللو ! ماذا يدعوك إلى النظر هناك ؟

وقالت آن .

ــ ليس هناك إلا عصفور رأيته يطير من تلك الشجرة .

وصعد زفرة فى مثل صوت الرعد :

ــ ماذا ؟ . أتقولين ليس هناك سوى عصفور ؟ . أنا أرى كتفيك ترتجفان ياسيدتى الصغيرة . والآن ، لا تستثيرينى بهذا الضحك ، والله إن هذا لايجوز .

وقالت آن ، وقد تحولت لسوء سلوكه من حالة المرح إلى الغيظ :

ــ إذهب عنى إذن . أنالاأريد البقاء فى صحبتك أيهاالشىء الضخم المتعجرف ! إنك حاد الطبع جداً إلى درجة لا يمكن احتمالك معها ! اذهب عنى !

ــ لا ، لايا آن . إنى لمخطىء فى التحدث إليك على هذا النحو . وسأترك لك

الحرية التامة فى توجيه أى كلام إلى . قولى عنى إنى مجرد من أية مسحة من العسكرية . أو قولى أى شىء ! أهينينى . . . أهينينى الآن . إنك لفتاة عزيزة . أنا رغوة جوفاء . . . أنا هباء . . . أنا أقذر من مكنسة . . . نعم !

— ليس لدى ما أقوله يا سيدى . الزم مكانك حيث أنت حتى أخرج من هذا الحقل .

— حسنا . إن فى نظراتك نوعاً من الأمر لايطاوعنى قلبى على معارضته . هل ستأتين إلى هذه الناحية غداً صباحاً فى مثل هذا الميعاد ؟ والآن ، لاتكونى خشنة .

كانت أكرم بكثير من أن لاتغفرله ، ولكن الشفة الصغيرة القصيرة غمغمت قائلة إنها لا تظن المجىء غداً إلى هذه الناحية ممكنا بحال من الأحوال .

وقال :

— فليكن يوم الأحد .

وقالت :

— ليس الأحد .

— الإثنين إذن . . . الثلاثاء . . . الأربعاء بالتأكيد ؟

وظل يسألها كذلك مجربا حظه .

وأجابت بأنها ترجح أنها لن تستطيع رؤيته فى أحد هذه الأيام . ووضعت حدا للجدل بذهابها إلى الحقل الآخر من خلال الباب المقوس السقف . وتوقف فستوس وهو يتتبعها بنظره . وعندما لم يعد يستطيع أن يرى وجهها النحيل تخلص من تأملاته ، وأخذ يغنى ، ودار إلى الاتجاه الآخر .

أن تدور دورة
حول المعسكر

(٨)

رأت آن وهى تجتاز الحقل الأخير ، امرأة عجوزا تقترب منها ، امرأة مغضنة الوجنتين ، تشرف على الأرض وقطانها من خلال عوينات نحاسية الإطار. وهزت لآن رأسها حتى تلألأت عويناتها تلألؤ قرين صغيرين وقالت .

ـــ آه ، آه . لقد رأيتك ، ولو كنت احتفظت بعويناتى القصيرة الكشف التى أستعملها فى قراءة الأدعية والإنجيل ، لما تمكنت من رؤيتك . ولكنى قلت لنفسى إنى خارجة ، وسأضع عويناتى البعيدة مرمى النظر ، ولم أكد أفكر فيما سأراه بهما . نعم ، إنى أستطيع تمييز الناس على أية مسافة بهذه العوينات . وهى بديعة عند استعمالها خارج الدار ، ولو أن عويناتى القصيرة الكشف تفضلها لدى أداء الأعمال الدقيقة ، مثل رتق الفتوق ، وتصيد البراغيث . . هذا حقيق .

وقالت آن :

ـــ وما الذى رأيته يا جدتى سيمور ؟

وقالت الجدة سيمور :

ـــ فه . . . فه . . . يا آنسة نانسى . أنت أدرى . ولكنه فتى لطيف ، صارم كالسيف ، وستؤول إليه ثروة عمه كلها بعد موته .

ولم تجب آن على هذا بكلمة ، ومرت بالجدة سيمور ، وهى تنظر إلى أمام مبتسمة .

وكان فستوس ، موضوع هذه الملاحظة ، فى نحو الثالثة والعشرين . كان فتى باهرا من حيث أطوال جسمه ، وكانت ألوان بشرته وشعره قوية على نحو لافت للنظر . وقد ظهرت أعراض لحيته وشاربيه فى وقت مبكر جدا ، ومرجع ذلك إلى مثابرته على استعمال الموسى قبل أن تكون هناك أية ضرورة تدعو إلى ذلك الاستعمال . كان الغلام الشجاع يعمد إلى كشط جلده فى خفية خارج الدار ،

وفى مخزن المؤن ، وفى الكوخ الخشبى ، « والاصطبل » ، والردهة المهجورة ، وحظيرة البقر ، ومخزن العلف ، وحيثما يستطيع أن يضع قطعة مرآته المثلثة الأعضاء دون أن يراه أحد ، أو يصطنع مرآة بإلصاق قبعته وراء زجاج إحدى النوافذ ، وقد أصبحت نتيجة ذلك الآن أنه إذا أهمل استعمال أداته هذه التى كان يلهو بها فيما مضى ، انبثق فى وجهه منذ اليوم الأول صدأ بديع ، وفى اليوم التالى حناء ذهبية ، وفى اليوم الثالث قش ملتهب إلى حد لا يسمح بأى تأخير جديد للحلاقة .

كان استعداده ينقسم بطبيعته إلى قسمين . التفاخر .. والتشاحن ، وعندما لبس « الحلة الكبيرة » ـ على حد التعبير الكلاسيكى ـ أضله ، تلقائيا ، ماتحدثه هذه الحالة النفسية ، وهذا السلوك ، من أثر مسل فى الناس ، ولكن عندما يكون مهيأ للحسد والمشاحنة يصبح على الأغلب أفطن من العادة ، ويستطيع أن ينظم مقطوعات بديعة من الشعر التهكمى . والفتيات اللواتى عرفنه كن يملن إليه ، ويسئن التصرف معه فى نفس الوقت ، وبرغم أن اهتماماته بهن كانت تبهجهن ، فإنهن لم يمتنعن قط عن السخرية به من وراء ظهره ، وأصبح فى حالات السكر البين (وقد عرف الكأس والطأس برغم أنه لم يتجاوز الثالثة والعشرين) كثير الصخب ، ثم ودودا للغاية ، ثم نكدا دون محيص . واستطاع أن يشهر نفسه ، أثناء طفولته بعادته اللطيفة ، عادة انقضاضه على الأطفال الذين هم أصغر منه ، وأفقر منه ، والإطاحة بعشاش العصافير من أيديهم ، وقلب عربات تفاحهم الصغيرة . أو صب الماء فى ظهورهم . ولكن سلوكه كان ينقلب إلى نقيض العدوان وقتما كانت أمهات أولئك الأطفال يخرجن إليه ركضا ، وهن يهززن مكنساتهن ومقلياتهن ومخضاتهن وأى شىء آخر تقع عليه أيديهن مما يمكن استعماله أسلحة ، فكان يهرب حينئذ ويختبىء وراء الأدغال ، وتحت أكوام الحطب ، وفى الحفر ويظل كذلك . وقيــــل إنه فى ظرف من مثل تلك الظروف زحف إلى جحر عرير(١) وتوارى فيه عن الأعين ، وظل ملازما لذلك المكان فى ثبات وتصميم كبيرين مدة ساعتين أو ثلاث ساعات . وقد جلب لأهله المحترمين من صيحات الاستهجان البذيئة التى جرت على الألسنة مالم يجلبه حينذاك غلام لأهله فى أبرشيته

---

(١) حيوان بين الكلب والسنور .

وإذا أخذ الصغار يقذفونه بالكرات الثلجية كان يجرى إلى مكان يحتمى فيه ، ويصنع لنفسه كرات من الثلج يضع داخلها أحجاراً . وهكذا اعتاد أن يستعمل هذه القذائف الهائلة للرد على مداعبة أصدقائه . وفى بعض الأحيان كان غلمان فى مثل سنه يضربونه ضرباً مبرحاً ، وإذا هو فى هذه الحالة يجأر فى قوة ، ولكنه يظل يعاركهم بين دموعه ودمائه وصياحه .

وقد ذاق الحب منذ عهد مبكر . وفى أيام هذه القصة كان قد كابد آلام العشق ثلاث عشرة مرة واضحة . وهو لم يكن يستطيع أن يعشق فى جذل وغير مبالاة . كان عشقه جاداً ، غضوب السجية ، بل حتى وحشياً . كانت سخرية حبيبته بعواطفه تؤلمه ألماً حقيقياً ، وتماديها فى مثل هـذا السلوك يقوده إلى الخبال . كان سوط عذاب للذين يتصرفون معه فى هدوء ، وشرساً للذين ينكرون علو كعبه ، وفتى ظريفاً جداً للذين يجرؤون على الاستبداد به .

ولم يلتق هذا السيد المقدام وآن مرة أخرى فى طريقهما المتقابلين لمدة أسبوع . ثم بدأت أمها تطلب الصحيفة كالعادة . وبرغم أن آن لم تمل إلى هذه المهمة فقد قبلت أن تذهب فى طلب الصحيفة بناء على إلحاح السيدة جارلاند فى تشوف غير عادى . وحارت الفتاة كل الحيرة فى السبب الذى دعا أمها إلى أن تلح على هذا النحو فى أمر تافه كل هذه التفاهة . ولكنها وضعت قبعتها على رأسها ، وبدأت تسلك طريقها . وظهر فستوس ، كما توقعت ، عند مرقى سور كانت تجتازه اختصاراً للطريق . ودل مسلك الفتى على أنه كان ينتظرها . ولدى تبين ذلك واصلت سيرها قدماً كأنها لا تقصد السهل الرملى على الإطلاق .

— وقال فستوس :

— هل أنت متأكدة أن هذا طريقك ؟

وقالت :

— خطر لى أن أدور وأسلك الطريق الرئيسى .

— ولماذا ؟

وصمتت برهة وكأنها غير راغبة فى الرد :

— أنا أسلك ذلك الطريق عندما تكون الحشائش مبتلة .

وعادت أدراجها فى النهاية . وواصل إلحاحه :

— إنها غير مبتلة الآن .فقد ظلت الشمس مشرقة فوقها هذه الساعات التسع .

والواقع أن ناحية الممر لم تكن مطروقة كالطريق الرئيسى ، وكان فستوس يود أن يسير معها دون أن يعكر عليه خلوته أحد .

— ولكن ما تصنعينه لايهمنى أبداً بالطبع .

واندفع بعيداً عن مرقى السور ، ومشى فى طريق الدار . وسلكت آن نفس الطريق حاسبة أنه غير عابئ بالأمر فعلا . ومن ثم دار برأسه إليها ، ووقف ينتظرها وعلى ثغره ابتسامة تيه .

وقالت الفتاة فى تصميم :

— أنا لا أستطيع الذهاب فى صحبتك .

— هذا هراء ، أيتها الفتاة الحمقاء !! فلابد من سيرى معك حتى زاوية الممر .

— لا ، أرجوك يا سيد دريمان ، فقد يرانا أحد .

وقال لها مداعبا :

— وبعد ، وبعد ... هل هذا خفر !

— لا . أنت تعلم أنى لا أسمح لك بهذا .

— ولكن ، لا بد لى من ذلك .

— ولكنى لا أسمح به .

— سيان عندى أن تسمحى أو لا تسمحى ، فسأسير معك .

وقالت وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

— أنت قاس إذن ، ولا بد لى من الإذعان .

وقال الفارس النادم :

— هوو . . . هوو . . . يا للخزى الذى وصمنى ! أقسم أنى لن أقدم على مثل هذا ولو فى سبيل ملك العالم . هاو ، هاو . . . ولكنى ظننت قولك : « اذهب عنى » يعنى « تعالى إلى » ، كما هى حال كثيرات ممن ألتقى بهن ، لا سيما من يماثلنك تزيناً . ومن ذا الذى كان يظن أنك جادة على هذا النحو المحير ؟

ووقفت آن ساكنة إذ لم ينصرف عنها ، ولم تنبس بكلمة . وواصل قوله مؤكداً :

ــ أرى أنك من الحذر على قدر أكبر مما خطر ببالى يوماً ، ومن الوداعة على قدر أقل .

وقالت فى حزم :

ــ لا ، يا سيدى ، إن تصرفى ليس خطة مرسومة من قبل على الإطلاق . ولكنك سترى ، ولا شك عندى فى ذلك ، أنى لا أستطيع أن أذهب فى صحبتك إلى البيت دون أن أضع نفسى موضع الريبة .

ــ نعم ، هذا صحيح ، هذا صحيح ، فما أنا إلا فتى من فرسان اليومن المتطوعين ، ويمكن أن أقول إنى جندى بسيط ، ونحن نعلم ما يراه النساء فى أمثالنا . . . إنهن يروننا صفقة خاسرة ... رجالا لا ينبغى تحدثهن إليهم خشية ضياع أخلاقهن ... فتياتنا يتجنبنهن فى الطريق . . . فتياننا يدخلون البيوت كالثيران ، ويلوثون درج السلم بأحذيتهم ، ويلطخون الرياش بشرابهم ، ويفحشون فى القول للخدم ، ويعبثون بكل ما هو مقدس ، وكل ما هو حق ، ولا شىء ينقذهم من إطاحة الشيطان الأشمط بهم إلا الحاجة إليهم لصد « بونى » .

وقالت فى بساطة .

ــ حقاً وأنا لم أكن أعلم أنه يساء الظن بكم إلى هذا الحد . !

ــ ماذا ! . . ألا يشكونى عمى إليك ؟ أنا أعلم أنك صفية هذا الشيخ الجميل اللطيف المتهالك على الدنيا .

ــ أبداً .

ــ حسنا ، وما رأينا فى جاويش البروجى الجميل ؟ هيه ؟

وأطبقت آن شفتيها فى شدة ، وأحكمت إطباقهما لتريه فى الواقع أن الرد على هذا السؤال لن يخرج من بينهما .

ــ أوو ، هيا الآن ، إن لفدى طيب حقاً ، وكذلك أبوه .

ــ لست أدرى .

ــ يا لك من خبيثة صغيرة كتومة . . . لا يمكن استخلاص شىء منك . وفى يقينى أنك تجيبين على كل سؤال قتال بقولك . « لست أدرى » ذلك أنك على هذا القدر الكبير من الرصانة . وأقسم أن هناك بعض نساء يجبن على سؤال الرجل للواحدة منهن : « هل تتزوجينى ؟ » بقولها : « لست أدرى » .

ودل إشراق عيني آن ووجنتيها أثناء هذه الملاحظة على أن وراء الرصانة التى يشكو منها قدراً كبيراً من الحيوية والدفء . وانزوى جانبا بعد أن قال ما قال ليمكنها من المرور ، وانحنى انحناءة كبيرة . ومالت له برأسها طبقاً للتقليد المرعى، ومضت إلى سبيلها .

وكانت تصل دائماً إلى حد الحنق عندما يكون حاضراً . وذلك لفكرة تطيف بها محصلها أنه لم يكن ليجرؤ على التحدث إليها دون كلفة كما يفعل لو كانت فتاة لها من الأقارب الذكور الأشداء من يذودون عنها المعجبين . ولكنها دهشت هذه المرة ، كما دهشت فى المرة السابقة ، لما تملكه من قدرة على دفعه إلى الهياج أو الوداعة حسبما تشاء . وهذا الشعور بقدرتها على اللعب به كما تلعب على آلة ، أسلمها إلى تأملات مبهجة ، ومكنها من الصبر حتى وهى تصده .

وعندما دخلت آن على الفلاح غرفته ألح عليها كعادته أن تقرأ له ما لم يستطع قراءته ، وظل يمسك الصحيفة بيده النحيلة فى قوة حتى قبلت طلبه ، وأجلسها فى مقعد يابس إلى حد أنها لو جلست فيه مدة شهر لما أبلته بما يساوى فلسا . وأخذ يحدجها بزاوية عينه القريبة منها بينما كانت مكبة على الصحيفة . ولعل نظرته كانت توحى بالمشهد الذى رآه من نافذته عند زيارتها الأخيرة له ، ذلك أن نظرته هذه كانت تشتمل على شيء من قلة الاهتمام . وكان الرجل المتقدم السن يخشى ابن أخيه من الناحيتين المادية والمعنوية ، وبدأ ينظر إلى آن بحسبانها شريكة له فى العذاب الواقع عليهما من نفس المستبد . وحول عينه عنها بعد أن صوب إليها تلك النظرة المكيرة العجيبة حتى أنها عندما رفعت بصرها عرضا إليه لم تر منه إلا وجهه المزرورق الحاد الخطوط على النحو الذى رأته من قبل .

وعندما قطعت فى القراءة نصف الشوط فتح الباب القائم خلفهما ، واجتازت مدخل الغرفة خطوات أقدام . وانكمش الفلاح فى مقعده على نحو واضح ، وبدا عليه الخوف ، ولكنه تظاهر باستغراق فى الإنصات إلى القراءة ، وبعدم انتباهه قط إلى دخول متقحم . وشعرت آن بحضور فستوس المزهو بجنديته، وتوقفت عن القراءة .

قال فستوس :

— أرجو أن تستمرى فى القراءة يا آنسة آن ، فأنا لن أنطق بحرف .

وارتد إلى جانب المدفأة ، واستند إليه مستريحاً . وقال العم بنجى وهو يتمالك جأشه بجهد جهيد حتى رده إلى نصف قدره الطبيعى .

— استمرى فى القراءة . أرجوك أن تستمرى يا آنسة آن .

وانخفض صوت آن عندئذ إلى أكثر من ذى قبل بكثير بعد أن صار لها مستمعان ، وجفلت تواضعاً ، بعض الشىء ، إذ عرضت على آذان فستوس تموجات صوتها الممتازة التى يبددها اهتمامها الواعى بالموضوع المقروء حين تقرأ دون أن يعكر صفوها معكر . ولكنها والت مع ذلك القراءة خشية أن يظنها قد ارتبكت ، برغم أن العشر الدقائق التى تلت ذلك كانت دقائق انزعاج ، فهى لم يغب عنها أن عينى الفارس المتطوع المضجر كانتا تنظران من حيث يقف وراءها ، وتحومان حول جسدها ، زاحفتين فوق كتفيها ، ومتسلقتين إلى رأسها ، وخلال ذراعيها ويديها . وكان بنجى الهرم ، من ناحيته ، يعلم نفس الشىء . وبعد محاولات منوعة بذلها ليتمكن من استراق النظر إلى ابن أخيه من ركن عينه ، لم يعد يطيق الموقف أكثر من ذلك . فقال بصوت مرتعش :

— هل لديك ما تريد أن تفضى به إلى يا ابن أخى ؟

وقال فستوس فى حماسة :

— لا ، يا عمى ، شكراً . إنى أود أن أبقى وقتاً هنا ، مفكراً فيك ، وناظراً إلى شعر رأسك من الخلف .

وتلوى الرجل الهرم ألما وهو تحت تشريح تينك العينين ، وواصلت آن القراءة إلى أن أنهك الشاب الكريم لهوه ، وأراحهما بخروجه من الغرفة . ولم تلبث آن أن فرغت من الفقرة التى كانت تقرؤها ، ونهضت لتنصرف ، مصممة على ألا تعود إلى هذا المكان ثانية ما دام فستوس يحوم حول هذه التخوم . واشتدت حرارة وجهها عندما خطر أنه يمكن لها أن يكمن لها اليوم فى طريق أوبتها إلى دارها .

وعلى ذلك لم تسر فى الاتجاه المعتاد لدى مغادرتها المنزل ، وبدلا من ذلك فرت من حول الناحية الأبعد ، منطلقة بين الأدغال تحت السور القائم حول بستان الخضر ، وخارجة من باب يؤدى إلى ممر عربات مشقق كان أيام ازدهار ذلك المنزل القديم الجميل طريقاً مرصوفاً لطيفاً للنزهة فى العربات . وما تجاوزت مرمى النظر من النوافذ حتى مرقت تجرى بكل ما وسعت من قوة إلى أن غادرت

المكان منتهجة طريقا مضاداً على خط مستقيم للطريق المؤدى إلى بيتها وقد صعب عليها أن تفسر سبب ميلها الشديد الجاد إلى الإقدام على هذا . ولكن الغريزة التى دفعتها إلى الجرى كانت لا تقاوم .

وأصبح حتما عليها الآن أن تصعد فى الهضبة الرملية إلى يسار المعسكر ، وأن تدور حوله دورة كاملة ، مارة بسلاح المشاة وسلاح الفرسان ، والبائعين المتجولين الذين يتبعون الجيش فى انتقالاته ، وسائر ما يحوى المعسكر ، إلى أن تنزل لدارها من الناحية الأخرى . وقد قطعت هذا الشوط البعيد فى سرعة شديدة ، دون أن تلتفت برأسها مرة واحدة ، متحاشية كل ممر مطروق لتظل بعيدة عن زمر الجنود الذين خرجوا يتمشون ، ووقفت تلتقط أنفاسها عندما وصلت إلى الأرض المستوية ، وغمغمت تقول : « لماذا تكبدت كل تلك المشقة ؟ إنه ما كان ليؤذينى على أية حال » .

وعندما اقتربت من الطاحون نزلت أمامها من الهضبة قامة منتصبة ترتدى سترة زرقاء وسروالا أبيض ، وكانت تسير فى اتجاه القرية ، وقد مرت بالطاحون قاصدة إلى مرقى السور وراءها . وكانت آن تمر بذلك المرقى عادة عند عودتها إلى دارها . وهنا تريث صاحب هذه القامة . وتبينت الفتاة لدى اقترابها أنه لفدى ، جاويش البروجى ، ومرقت فى سرعة لعدم رغبتها وقتئذ فى مقابلة أحد ، ودخلت المنزل من باب الحديقة .

قالت أمها :

— لكم طالت غيبتك ياعزيزتى آن !

— نعم فقد درت من طريق آخر .

— لماذا أقدمت على ذلك ؟

وبدت آن مفكرة لائذة بالصمت لأن حجتها كادت تكون سخيفة جداً فى مجال الاعتراف بها ... ثم قالت :

— حسنا ، لقد أردت أن أتحاشى شخصاً يحاول جاهداً أن يلقانى . . . هذا كل ما هنالك .

ــ وهذا هو ذلك الشخص على ما أظن .

ذلك بينما كان جون لفدى يمر ببيتهما فى طريقه إلى باب أبيه ، بعد أن تعب من البحث عن آن عند مرقى السور . ولم يستطع إلا أن يتجه بعينيه صوب نافذتها ، وابتسم لها إذ رآها .

وقد بلغ نفور آن من ذكر فستوس حداً جعلها تحجم عن تصحيح خطأ أمها. وواصلت السيدة قولها :

ــ حسنا ، إنك على صواب كبير ياعزيزتى . كونى على صلة ودية به ، ولكن لا تزيدى على ذلك فى الوقت الحاضر . وقد علمت بمسألتك الأخرى ، وأظن اختيارك كان حكيما جداً . ولاشك أنك تظفرين بخير تمنياتى . وكل ماأتمناه أن تصلى إلى نهاية موفقة .

وقالت آن فى دهشة .

ــ ماذا تقولين ؟

ــ أنت والسيد دريمان ياعزيزتى . لاحاجة إلى أن تشغلى بالك بى ، فقد علمت بالأمر منذ أيام عديدة . فقد زارتنى جرانى سيمورالعجوز يوم السبت وأخبرتنى أنها رأته فى الأسبوع الماضى يرافقك إلى هنا عبر تل وايت هورس ، وذلك يوم أن ذهبت فى طلب الصحيفة . ولذلك خطر لى أن أرسلك اليوم ثانية لأتيح لك فرصة أخرى .

ــ أنت لم تكونى تريدين الصحيفة إذن ، ولم يكن غرضك إلا هذا !

ــ إنه فتى باهر فى مقتبل العمر ، ويبدو أنه خير حام للمرأة .

وقالت آن :

ــ قد يبدو عليه ذلك .

ــ لقد ترك فلاحة المزرعة التى كان أبوه يملكها فى بنستوك . وهو يعيش اليوم على دخلها متمتعاً باستقلاله . وعندما يموت المزارع دريمان سيرث كل ما يمتلك هذا الشيخ الهرم يقينا . وستبلغ ثروته عشرة آلاف جنيه كاملة نقداً ،

عدا ستة عشر حصانا ، وعربة ذات حصان يجرها ، وخمسين بقرة حلوبا ، وما لا يقل عن خمسمائة رأس من الغنم .

ودارت آن وابتعدت . وبدلا من أن تخبر أمها أنها كانت تعدو كالرئم هاربة من صاحب الإرث المظنون المشار إليه ، لم تنبس إلا بقولها :

ــ أمى ، أنا لا أستحسن ذلك أبداً ؟

جاويش البروجى

يذهب متلطفاً فى طلب آن

(٩)

لم تكن آن ، بعد ما حدث ، لتسير بحال من الأحوال فى اتجاه اكسويل هول خشية أن تلتقى بدريمان الشاب . وفى خلال أيام قيل فى القرية إن الفلاح الهرم قصد فعلا إلى «المنتزه البحرى الملكى»(١) القريب ، ليقضى هناك عطلة مدتها أسبوع، بناء على إلحاح ابن أخيه فستوس ، وذلك فى سبيل تغيير الجو . وكان هذا الذى سمعه الناس عن العم بنجى بديعا فهو لم يقض ليلة خارج حيطان أكسويل هول فى خلال سنوات عديدة خلت ، وقد تصورت آن الضغط الشديد غير العادى الذى لابد أن يكون قد وقع على ذلك الشيخ ليحمله على اتخاذ مثل هذه الخطوة . ورسمت لها مخيلتها ما سيلقى من شقاء فى هذا المنتزه الصاخب ، وتمنت ألا يصيبه مكروه هناك .

وقضت جانبا كبيرا جدا من وقتها داخل البيت أو فى الحديقة دون أن تسمع إلا قليلا من أصوات حركة المعسكر مثل نغمات ال « تا ، تا ، تا ، تا » الدورية التى يعلن بها نافخو النفير نداآتهم المختلفة المبتكرة المعلنة عن مواعيد القيام بالحراسة والعناية « بالإصطبلات » والطعام وركوب الخيل والاستعراضات وما إلى ذلك ، وهذا ما دعاها إلى التفكير فى مدى ما يتمتع به صديقها جاويش البروجى من مهارة مكنته من تلقين تلاميذه كيف يعزفون هذه الأنغام الصغيرة الجميلة بهذا الإتقان .

وفى الصباح الثالث لرحيل العم بنجى أزعجها ، وهى ترتدى ملابسها كما جرت العادة ، صوت نزول الطوابير من الهضبة إلى حوض الطاحون ، وخلال ما تلا ذلك من الصهيل وصوت الرشاش المعتادين ، ترددت دقة خفيفة على زجاج النافذة قد تحدث من ارتطام سوط أو عصا . وأنصتت آن على نحو أدق، وتكررت النقرة .

---

(١) يقع هذا المنتزه فى وعاوث ، أوفى بدماوث حسب تسمية هاردى . وقد اعتاد الملك جورج الثالث أن يصطاف فى المنتزه المذكور .

ولما كان جون لفدى هو فارس الدراغون الوحيد الذى يحتمل أن يكون على علم بأنها تبيت فى هذا المكان خاصة ، فقد تصورت أنه هو صاحب هذه الإشارة، ولو أنها عجبت لإمكان إقدامه على مثل هذه النزوة الدالة على الألفة .

وذهبت إلى النافذة وهى تلف نفسها بدثار أحمر ، ورفعت جانبا من الستار فى رفق، وخطفت النظر إلى الخارج كما فعلت مراراً من قبل ، ولم يكن أحد يستطيع أن يرى وجهها فى هذه الحالة إلا من كان شديد القرب من النافذة ، ولكن حدث أن أحدا كان شديد القرب من النافذة ، ولم يكن الجنود الذين سمعت آن ضجيج خيلهم من فرقة الدراغون التى ينتمى إليها لفدى ، ولكن من فرقه يورك هسارز التى لا تكترث لوجودها بحال ، وكان جنود تلك الفرقة قد خرجوا من حوض الماء وظهر بدلا منهم فستوس دريمان وحيدا ممتطيا ظهر جواده . وكان فى كامل زته العسكرية ، وماء الحوض يصل إلى بطن حصانه ، وقد رفع رجليه فوق السرج ليقيهما فيض الغدير الذى كان يتهدد الحصان وراكبه بدفعهما إلى الناحية الرئيسية العميقة من حوض الطاحون ، وهى تقع أسفله مباشرة ، وكان من الواضح أنه هو الذى دق زجاج النافذة ، لأنه نظر بعد هنيهة ، وتلاقت عيناهما ، وضحك فستوس بصوت عال، ودق نافذتها ثانية . وفى نفس تلك اللحظة بدأ فرسان الدراغون يهبطون الهضبة خببا فى نظام استعراضى ، ولم تستطع إلا أن تنتظر دقيقة أو دقيقتين لتراهم وهم يمرون ، واضطرت إلى التراجع بينما هى ترمقهم ،وأسدلت جانب الستار ، واحمرت فى الغرفة وحدها خجلا . فلم يكن فستوس دريمان هو الذى رآها دون غيره ، ولكن رآها جون لفدى الذى كان يركب جواده ، ونفيره معلق فوق ظهره ، فقد نظر من فوق كتفه إلى الظاهرة الماثلة أمام عينيه ، ظاهرة وقوف دريمان تحت نافذة الغرفة التى تبيت فيها آن ، وبدا عليه أنه دهش أشد الدهشة لهذا المنظر .

واستولى عليها غيظ شديد لاقتران الأحداث . ولم تعد قط إلى نافذتها إلا بعد أن ابتعد فرسان الدارغون كل البعد ، وسمعت حصان فستوس يخوض فى الماء جاهدا للوصول إلى اليابسة . وعندما أطلت من النافذة لم تجد هناك أحدا غير الطحان لفدى الذى كان يقف فى حديقته عادة فى مثل هذا الوقت من كل صباح ليخاطب

الجنود بكلمة أو كلمتين ، وقد عرف الآن عددا عديدا منهم ، وهو يمعن فى سبيل التعرف إلى مايزيد بكثير عن هذاالعدد متوسلا بجوده فى تقديم أقداح الخز المنعشة إليهم كلما مرت جماعة منهم بتلك الناحية .

وفى عصر ذلك اليوم سارت آن على أقدامها لتحضر حفل تعميد أقيم فى دار جار تقع فى أبرشية سيرينجهام المجاورة . وكانت تنوى العودة إلى دارها قبل حلول الظلام ، ولكن هطل مطر خفيف قبيل المساء وألح عليها أهل الدار أن تقضى ليلتها هناك وقبلت ضيافتهم مع شىء من التردد . ولكنهم فى تمام الساعة العاشرة ، وقتما كانوا يفكرون فى الإيواء إلى سررهم ، جفلوا لسماع نقرة سريعة على الباب ، ولما كان مصراع الباب غير مقفل ، فقد ظهرت لهم قامة رجل بين الأشباح الحائمة فى الخارج .

وسأل الزائر :

ـــ هل الآنسة جارلاند موجودة هنا ؟

وتعلقت أنفاس آن وقتذاك . وقال مضيفها حذراً :

ـــ نعم .

ـــ أمها شديدة التشوف إلى معرفة ما حل بها لأنها وعدت أن تعود إلى البيت .

ولفرحة آن الكبيرة كان ذلك صوت جون لفدى ، لا صوت فستوس دريمان ، وقالت وهى تتقدم إليه :

ـــ نعم ، أناوعدت بذلك ، ولكن السماء أمطرت ، ودار فى خلدى أن أمى ستحزر أين أنا .

وقال لفدى فى استحياء إن السماء لم تمطر على نحو يستحق الذكر فى المعسكر ، أو عند الطاحون ، ولذلك انزعجت أمها نوعا . وسألته آن :

ـــ وهل طلبت إليك أن تحضر للسؤال عنى ؟ .

كان هذا سؤالا خشيه جاويش البروجى طوال مسيره إلى هناك . وقال متعثرا نوعا ، ولكن بطريقة تدل مع ذلك على أن السيدة جارلاند ألمعت على نحو غير مباشر إلى أن هذه رغبتها :

ـــ حسنا . . . إنها لم تطلب إلى ذلك على وجه التحديد .

والسيدة جارلاند،في واقع الأمر، لم تخاطبه فى هذاالشأن قط ، وإنماخاطبت أباه لحسب عندما وجدت أن ابنتها لم تعد ، وطمأنهـا صاحب الطاحون على أن ابنتها الغالية فى أمان دون أدنى شك . وسمع جون بسؤالها عن ابنتها ، ولمـا كان قد حصل على إذن بالتغيب تلك الليلة عن المعسكر فقداعتزم أن يعمل ، متحملا المسئولية ، على إراحة بال السيدة جارلاند . وكان قد ظل يتقلب على شوك القلق منذ شاهد فستوس ذلك الصباح واقفا تحت نافذة الفتاة ، وأصبح أمله المثيرالآن أن تقبل العودة معه .

وأخذ يحرك قدمه فى انفعال وهويتقدم بطلبه الجرىء . وشعرت آن على الفور بأن عليها أن تذهب . فليس ثمة إنسان فى الدنيا أحرى من جاويش البروجى بأن تسـارع إلى وضع نفسها تحت رعايته فى مثل الظرف الحالى . فهو ابن أقرب جار إليهم . وقد أعجبت بنزاهته الصادقة منذ اللحظة التى عاد فيها إلى موطنه .

وعندما بدآ مسيرهما قالت آن بطريقة عملية أرادت أن تظهر بها أن قبولها العودة فى صحبته لم تتولد عن عاطفة ما .

— لعل أمى كانت شديدة القلق على ؟

فقال :

— نعم .

ثم اضطره هاتف ضميره إلا أن يبرىء ذمته من الأمر :

— علمت أنها غير مرتاحة البال لأن أبى قال لى ذلك ، ولـكنى لم أرها شخصياً . وفى الحق إنها لا تعلم بمجىء .

ووقفت آن عندئذ على جليـــة الأمر ، ولـكنها لم تمتعض . وأية امرأة تمتعض فى مثل هذه الحالة ؟ ومشيا صامتين وجاويش البروجى يحرص على أن يظل على بعد خطوة إلى يمينها ، ويدقق فى ذلك كأن هذه المسافة محددة بينهما . وكانت تشعر بميل شديد إلى مجاملته تلك الليلة ، وعادت تقول :

ـــ كثيراً ماأسمع نافخى الأبواق التابعين لكم وهم يرسلون ندا آتهم . وأحسب أنهم يؤدون ذلك بطريقة جميلة .

وقال على نحو ما يقول الرجل الكامل التهذيب الذى يأبى أن يشيد بعمل كانت له يد فيه :

— جميلة نوعا . وقد يستطيعون القيام بخير من ذلك .

— وأنت علمتهم كيف يقومون بذلك ؟ . .

— نعم ، علمتهم .

— لابد أن الأمر تطلب تدريبا كبيرا للوصول بهم إلى الطريقة التي يبدأون بها العزف وينتهون منه فى نفس الوقت ، ولكأن فماً واحداً ينفخ فى الأبواق جميعاً . كيف وقع لك أن أصبحت نافخ نفير ياسيد لفدى ؟

وقال وقد فضحت خبيئة نفسه حالة من فيض الشعور نتجت من اهتمامها المبهج به :

— حسنا ، اهتممت بذلك على نحو طبيعي يوم كنت غلاما صغيرا . واعتدت أن أصنع حينذاك أبواقا من الورق ، ومن أعواد البيلسان ، وجذوع البرسيم ، والرجيلة الوخازة ، كما تعلمين . ثم أقامنى أبى على جرن شعيره الصغير لأبعد الطيور عنه ، وأعطانى بوقا قديما لإخافتها بصوته . وتعلمت كيف أنفخ حتى أنك كنت تسمعين نفخى على بعد أميال وأميال . ثم اشترى لى مزماراً ، وما عرفت كيف أعزف عليه حتى اقترضت مزمارا متلوى القصبة وتعلمت كيف ألحن به ألحانا جهيرة لابأس بها . وعلى ذلك اختارونى على الفور ، لدى انخراطى فى الجيش ، للتدريب على النفخ فى النفير .

— أنت جدير بذلك قطعا .

— بيد أنى أتمنى أحيانا لو أننى لم ألتحق بالجيش قط . فقد وفر لى أبى قدرا لا بأس به من التعليم ، وأرشدنى أبوك إلى كيفية رسم الجياد . . . أقصد على الإردواز . نعم . كان ينبغى أن أقوم بعمل أفضل مما قمت به .

وسألته فى اهتمام متجدد :

— ماذا ! هل كنت تعرف أبى ؟

— أوو ، نعم . وطالت معرفتى به لمدة سنوات . وكنت أنت وقتذاك مثل قلامة ظفر . واعتدت أن تبكى عندما كنا نحن الغلمان الكبار نلتفت إليك ، وننظر شزرا ، وهذا ما كنا نفعله أحيانا . وكم من مرة بعد مرة وقفت إلى جانب أبيك وهو يقوم بعمله . آه ، إنك لاتذكرين الشيء الكثير عنه ، أما أنا فأذكر !

وظلت آن مستسلمة للتفكير . وبزغ القمر من وراء السحاب ، مشرقاً فوق العشب المبتل، فياضا بنوره المتلألىء ، خالعا على أزرارجاويش البروجى ومهازيه شعاعا ضئيلا من لدنه ... لقد وصلا إلى قرية أكسويل فقال :

— أتودين أن نجتاز الدرب أم ندور حوله ؟

وقالت آن :

— يمكن مع ذلك أن نسلك الطريق الأقرب .

ومرا من بوابة ، وسلكا طريقا للعربات زال نصف معالمه إلى أن وصلا إلى مكان يكاد يقع مقابل الجهة الخلفية لأكسويل هول ، ودخلا عندئذ طريقاللسير على الأقدام يمتد صوب الهضبة . وإذا هما يسمعان وقتذاك صيحة ، أو مجموعة من الهتافات صادرة ، على ما يبـــدو ، من جدران المنزل المظلم القريب منهم . وقالت آن :

— ماذا كان هذا ؟

وقال رفيقها :

— لا أدرى . سأذهب وأرى .

ومضى فدار حول بعض أبنية اعترضت سبيله ، ودخل مفازة موحشة كانت يوما ما حديقة زينة ، واجتاز بستان فاكهة عتيق الأشجار ، وتقدم إلى حائط الدار . وكانت أصوات صاخبة تتردد داخل الجدران . وأحس ما يغريه بأن يدور حول الزاوية حيث النوافذ قليلة الارتفاع ، ويطل من خلال فتحة هناك إلى حيث يصدر الصوت .

كانت تلك هى الغرفة التى يتناول مالك الدار فيها طعامه ـ وكانت تسمى الردهة الكبرى ، وهو اسم متوارث ـ وقد جلس فيها زهاء اثنى عشر شاباً من الفرسان المتطوعين ، أحدهم فستوس نفسه . وكانوا يشربون ويضحكون ويغنون ، ويضربون المائدة بقبضات أيديهم ، ويمتعون أنفسهم وسط اكتمال الفوضى التام . وكانت الشموع التى عبث بها النسيم فى جانب الغرفة المفتوح النوافذ ، والتى سال ذوبها وصار فى شكل مقابض التابوت والأكفان ، واختنقت بذبالاتها السود الطويلة المحتاجة إلى القص . . . كانت ترسل نورا أصفر مغبرا بالدخان . . .

ويحتمل أن أحد أولئك الشباب كان يترنح سكرا ، لأنه كان يطوق عنق جاره بذراعه . وكان فتى آخر يلقى خطابا مفكك العبارات لا يصغى إليه أحد . وبدت وجوه بعضهم حمرا ، ووجوه الآخرين شاحبة . وداعب النعاس بعضهم بينما كان الآخرون شديدى اليقظة . أما الوحيد الذى كان يبدو بينهم فى حالته الطبيعية فهو فستوس الذى قام هيكله الضخم الصاخب عند صدر المائدة ، مبتهجاً بالفرق بين حالته وحالة من يجاورونه ، وقد بدا ذلك على محياه الجاد المنتصر . ونادى بعض هذه الجماعة امرأة فى مقتبل العمل بينما كان نافخ النفير الأول ينظر من الثقب . وكانت المرأة ابنــة أخى أنتونى كربلسترو ، وهى إحدى خادمات العم بنجى . ووضعوا بين يديها كأسا فى شىء غير قليل من الغضب ، وحملوها على أن ترسل منها صرخات غير منتظمة .

كان غياب العم بنجى فى الواقع من تدبير دريمان الصغير بقصد تمكنه من أن يستعمل البيت لحسابه . وكان كربلسترو هو الذى نيط به أمر البيت ، ولم يجد فستوس صعوبة فى إرغام ذلك الخادم على تسليمه المفاتيح كلما أرادها . وتحول لفدى بطرفه من ذلك المشهد إلى الممر المضاء بنور القمر حيث كانت آن تقف فى انتظاره . ثم نظر إلى الغرفة ، ثم إلى آن ثانية . وكانت هذه فرصة سانحة لتحسين حاله معها بكشف حقيقة فستوس الذى بدأ يشعر حياله بمشاعر عدائية قوية ، وقال لنفسه :

ـــ لا ، لا أستطيع الإقدام على ذلك . هذا أمر خاص غير علنى ، ولتأخذ الأمور نصيبها من الحظوظ .

وابتعد ، ثم رأى أن آن قد اجتازت حديقة الفاكهة بعــد أن أعياها الانتظار ، وكادت تلحق به . . .

قالت له :

ـــ فيم كان الضجيج ؟

وقال لفدى .

ـــ هناك قوم يجتمعون فى البيت .

وقالت آن :

— جماعة مجتمعون !! إن المزارع دريمان لا يقيم الآن فى بيته .

وذهبت إلى نافذة تنفذ منها أشعة من نور بينما وقف نافخ النفير الأول حيث كان ، ورأى وجهها يدخل محيط ضوء الشموع . ويبقى هناك هنيهة ، ثم ينسحب فى سرعة . وكرت الفتاة راجعة فى الحال إلى لفدى ، وقالت له :

— دعنا نواصل مسيرنا .

وخيل إلى لفدى من اللهجة التى حدثته بها أنها تعلق ولا شك اهتماما بدريمان ، وقال كاسف البال :

— أنت تؤنبيننى على التوجه إلى النافذة وحملك على اتباعى ؟

وقالت آن وقد انتهت إلى أنه أخطأ فى إدراك الحالة التى كان عليها فؤادها ، وصارت أقرب إلى السخط عليه بسبب ذلك .

— أبدا . وأحسب الأمر كان طبيعيا نظراً للضجيج .

وصمتا ثانية . ثم قال لفدى وهما يدوران لينصرفا :

— إن دريمان متزن اتزان القاضى ، ولم يصخب إلا الآخرون .

وقالت آن :

— سواء أكان متزنا أم لا ، فهذا أمر لا يهمنى البتة .

وقال نافخ النفير الأول فى نبرات تنم على شجنه بسبب لهجتها الجافة نوعا، وبعض الشك فيما أكدته .

— هذا ما رأيته .

وقبل أن يخرجا من ظل البيت بدا بعض الناس وهم يسيرون فى الطريق إلى باب الحديقة . وكان من رأى لفدى أن يواصلا السير برغم ذلك ، ولكن آن قالت وهى تشعر بالحياء على أساس أنه من الأفضل ألا ترى سائرة على انفراد مع رجل غريب لا تجمعه بها صلة الحب :

— لننتظر هنا دقيقة يا سيد لفدى حتى ينصرفوا .

وظهر أن أولئك الناس ، بعد أن أصبحوا أقرب إلى نظرهما ، لم يكونوا إلا رجلا يمتطى حصانا متعدد الألوان ، وآخر يسير إلى جانبه راجلا . وما صارا تجاه المنزل حتى توقفا ، وترجل الراكب ، ونشبت بينهما مشاحنة على الأثر ، ويبدو أنها كانت تتعلق بمسائل مالية .

قالت آن :

ـــ إنه السيد دريمانى المسن يعود إلى بيته ! وقد استأجر هـذا الحصان من الحمام العمومى فى المنتزه ليعود به . . تصور ذلك فقط !

وقبل أن يقطعا خطوات عديدة قدما أنهى الفلاح ومرافقه مشاحنتهما ، وامتطى هذا الأخير الحصان وابتعد به بينما جاء العم بنجى إلى الدار فى خطوات قصيرة . وما لاحظ وجود لفدى وآن حتى صارت خطواته أشد تباطؤاً . وعرف آن عندما أقبلا عليه . وقالت الفتاة :

ـــ أنزعت نفسك من منتزه الملك جورج البحرى بهذه السرعة أيها المزارع دريمان ؟

وقال المزارع :

ـــ نعم ، حقاً ! إنى لم أستطع احتمال هذا المكان الخرب . فإن يدك تندس فى جيبك هناك كل دقيقة من دقائق النهار . فهذا شلن لذاك ، وهذا نصف كرون لهذاك . وإنك إن أكلت بيضة واحدة أو تفاحة ضئيلة من سقط الريح فلابد أن تؤدى لها ثمناً . وحزمة الفجل هناك بنصف نصف القرش ، وقدح صغير من عصير التفاح بنصف قرش أو ثلاث مليمات على أقل تقدير ... لاشىء بغير ثمن ! وأنا لم أستطع حتى أن أعود إلى دارى راكباً هذا الحصان الهزيل دون أن يطالبنى الرجل بشلن كامل ثمناً لذلك فى حين أن وزنى لم يؤثر فى ذلك الحيوان بما يزيد عن نصف قرش . وقد أمكننى ولاشك توفير ما يساوى نصف قرش من ثمن جلد نعلى ، ولكن السرج كان خشناً لكثرة ما به من رتق وكلفنى ذلك ما يساوى قرشاً من ثمن أسفل سراويلى . لقد خرب الملك جورج البلدة فى سبيل أناس آخرين . يضاف إلى ذلك أن ابن أخى وعدنى أن يحضر غداً ليطل على هناك ، ولو أننى بقيت لكان حتما على أن أستضيفه ... هيه ، ما هذا ؟

كانت صرخة تعالت من داخل حيطان المنزل ، وقال لفدى :

ـــ ابن أخيك هنا .وعنده ضيوف .

وقال الشيخ محتبس الأنفاس :

ـــ ابن أخى « هنا » ؟ هل تصحبانى إلى باب البيت أيها الإنسانان الطيبان ؟

أنا لا أقصد ... هيه ... هيه ... أنا لا أقصد دعوتكما ! يا إلهى ! كنت أظن بيتى هادئاً كالكنيسة !

وعادوا إلى النافذة ، ونظر المزارع منه إلى الداخل وفمه يتدلى وينفرج من الجانبين انفراجاً أوسع من انفراج وسطه ، وأصابعه تتخذ شكل أصابع مكهربة .

— إنهم يستعملون أحسن دوارقى الفضية . . . الدوارق التى لم أستعملها قط . أوو ، وهذه جعتى القوية ! . . وثمانى شموع تذوب وتتلاشى بينما أنا لم استهلك إلا عشرين شمعة خلال النصف العام الأخير !

وقال لفدى :

— أنت لم تعلم إذن أنه هنا ؟

وقال المزارع وهو يهز رأسه نصف هزة :

— أوو ، لا . . . لا علم لى بشىء أنا المسكين ! وها هى ذى أثمن أقداحى الكبيرة يرنونها فى غير مبالاة كأنها أقداح من صفيح ، ومائدتى يخدشونها ، ومقاعدى يفككون أوصالها . انظرا كيف يميلونها على الرجلين الخلفيتين . . . وهذا يتلف المقعد ! آه ! إنه لن يجد بعد فقرى شيخاً هرماً آخر يصنع له مثل هذا ، فيزوده بالمؤن فى سطواته ، ويهىء المكان والشراب لثاته الوقحة المشاغبة .

قال فستوس للمزارعين وفرسان التطوع المتحمسين الذين ينادمهم :

— يا رفاقى وزملائى فى السلاح . . . بما أننا قد أقسمنا على اقتحام المخاطر ومواطن الهلاك معاً ، فنحن كذلك نقتسم مضجع السلام . وسوف تبيتون هنا الليلة لأن وقت الرواح بدأ يفوتكم ، وأن عمى القزم الأزرق العفن الشبيه بخيال الظل يحرص على ألا يهيء سبلا كثيرة للراحة فى المنزل ، ولكن يمكنكم أن تنكمشوا فوق المقاعد إذا أعوزتكم السرر . أما عن نومى أنا فلن يكن إلا لماماً ، لأنى حزين ! ويمكن أن أقول إن امرأة قد وضعت قلبى فى جيبها ، ووضعت أنا قلبها فى جيبى . إنها ليست ذات قيمة كبيرة . . . أقصد فى نظر الآخرين ، ولكنها تتمتع بذلك فى نظرى . لقد عرض لى هذا المخلوق الصغير فى طريق ، وغلبنى على أمرى . وإنى لأتصور هذه الفتاة الصغيرة التى قهرتنى !! كان ينبغى أن أنظر إلى أعلى ... أنا أعلم ذلك ، وماذا فى الأمر ؟ إنه قدر قد يقع لأعاظم الرجال .

وقال أحد الجنود ، وكان رأسه يتساقط على كتفيه بين الحين والحين ، وتنخفض عيناه الإثنتان عرضاً بطريقة هي من خصائص الجندى المجهد (كان فى حقيقة أمره المزارع ستوب من ددل هول) :

ـــ وما أسمها ؟

ـــ اسمها ؟ حسناً . إنه يبدأ فى الهجاء بحرف الألف ، ثم بحرف النون . . . ولكنى قسما بالله ، لن أذكر اسمها بينكم علناً . إنها لا تقطن فى مكان سحيق البعد من هنا ، وهى ترتدى أجمل قبعات مزينة بالأشرطة وقعت عليها أعينكم . حسناً حسناً . إنه الضعف ! وهى لاتملك إلاالقليل بينما أملك أنا الكثير . ولكنى أعبد هذه الفتاة بالرغم منى !

وقالت آن :

ـــ دعنا نذهب .

وتوسل إليها العم بنجى :

ـــ أرجوك أن تقفى إلى جانب رجل نال منـــه الكبر حتى يتمكن من دخول بيته . وكل ما أطلبه منك أن تظلى على بعد تسمعين معه ندائى . وسأبذل وسع جهدى الضعيف لأتحاشى أية مضايقة .

وقال لفدى :

ـــ سأقف لمساندتك مدة نصف ساعة يا سيدى ، فلابد لى بعد ذلك من الاحتباس فى المعسكر .

وقال العم بنجى :

ـــ حسناً جداً . قف إلى الوراء تحت الشجرة ... أنا لا أريد إثارة حنقهم .

وقال نافخ النفير الأول لآن وقد تراجعا عن الرجل الهرم :

ـــ أتنتظرين بضع دقائق حتى نرى هل يدخل بيته ؟

وقالت آن قلقة :

ـــ أريد العودة إلى البيت .

وما تراجعا بعيـداً إلى ما خلف الشجر ، ووقف العم بنجى وحده ، حتى

وجداه . لشدة دهشتهما ، يصيح صيحة عالية تفوق فى شدتها ما يتصوره المرء عن قوة حنجرته . لقد صاح مكرراً صيحته عدة مرات :

— رجل هلك !.. رجل هلك !..

وجرى واختبأ خلف ركن من أركان المنزل . ولم يلبث البـاب أن فتح ، وخرج فستوس وضيوفه يتعثرون فوق الأرض الخضراء ... وقال فستوس :

— إن علينا غوث من يقعون فى محنة . أين أنت أيها الرجل الهالك ؟

وقال أحد أصدقائه :

— مصدر الصوت من هناك .

وقال آخر :

— لا ، بل من هنا .

وخرج العم بنجى فى هذه الأثناء من مخبئه ، وركض فى سرعة صبي إلى الباب الذى غادروه ومرق منه ، وانصفق مصراعا الباب فى لحظة . وسمعت أن الشيخ يغلق الرتاج والمزلاج من الداخل . ومع هذا لم يلحظ السكارى ذلك ، وتقدموا إلى حيث يقف جاويش البروجى وآن .

وقال فستوس :

— إنها نجدة أتيحت لكم ياصديق . إننا جميعاً من جند الملك ، فلاتخشيا بأسنا .

وقال لفدى :

— شكراً لكم . ونحن كذلك من جند الملك .

وشرح لهم الأمر فى كلمتين قائلا إنه ليس ذلك المسافر المنكود الذى أطلق الصيحات . ودار ليسلك سبيله :

وقال فستوس وقد تبين آن عندئذ لأول مرة .

— إنها هى والله ! . . إنها هى ! . . يا آن الجميلة إنى لن أتركك إلى أن أراك تصلين سالمة إلى بابك العزيز .

وقال لفدى فى أدب ، ولو أن قوله لم يخل من حزم :

— إنها أمانة فى يدى ، ولذلك لا حاجة لما تعرضه ، شكراً .

ـــ يارجل ، أهناك ما أملك غير سيفى . . .

وقال لفدى :

ـــ هيا ، أنا لا أرغب فى عراك ، فلندع الأمر لها . وأينا مالت إليه أكثر من الآخر كان هو مرافقها إلى دارها . . . أينا يامس آن ؟

وكانت آن أميل كثيراً إلى العودة لدارها بمفردها ، ولكنها رأت من الأفضل أن تكفل لنفسها حاميا ما ، نظرا إلى أن بقية جماعة الفرسان المتطوعين كانت تترنح هناك . . . وكانت المشكلة هى كيف تختار أحد الرجلين دون أن تجرح شعور الآخر ، ودون أن تثير عراكا . . وقالت فى توفيق :

ـــ عليكما أنتما الاثنين أن ترافقانى إلى البيت ، فيسير أحدكما إلى جانب منى ، ويسير الثانى إلى الجانب الآخر ، وإذا لم يحسن كل منكما معاملة زميله كل الإحسان طوال الوقت ، فإنى سأمتنع عن التحدث إلى كليكما ثانية .

واتفقا على الشروط ، وإذا أقبل فرسان المتطوعين الاخرون فى ذلك الوقت قالوا إنهم سيذهبون أيضاً بحسبانهم حرس المؤخرة .

وقالت آن :

ـــ حسناً جداً ، اذهبوا الآن وأحضروا قبعاتكم ، ولا تطيلوا غيبتكم .

وقال فرسان التطوع الذين أثرت حميا الكأس فى رؤوسهم إلى حد نسوا معه الآن أن رؤوسهم عارية .

ـــ آه ، نعم ، قبعاتنا .

وقال فستوس فى لهفة :

ـــ ستنتظرانا حتى نعود بها ، ولن نتغيب دقيقة .

ووافقته آن ولفدى ، وعاد فستوس إلى المنزل ركضا ، وتلته جميعها فى أثره .

وقالت آن بعد أن صاروا أبعد من منال السمع :

ـــ دعنا الان نجرى ونتركهم .

وقال نافخ النفير الأول فى دهشة :

ـــ ولكننا وعدناهم أن ننتظر .

وقالت حانقة :

— وعدناهم أن ننتظر ! . . لكأنما على المرء أن يفي بمثل هذا الوعد لسكارى كهؤلاء . . إنك تستطيع أن تصنع ماتشاء ، أما أنا فسأذهب .

وقال لفدى ممتعضا وهو يرتد ببصره إليهم .

— يصعب أن يكون ترك أولئك الفتيان عملا حسناً .

ولكنها لم تعد تسمع ما يقول ، ولم تلبث أن غابت عن بصره وهى تمرق بعيداً تحت الأشجار .

ووصل فستوس وباقى الزمرة وقتذاك إلى باب العم بنجى الذى أخزاهم وأدهشهم أن يجدوه مغلقا . وبدأوا يطرقونه ، ثم يركلون الخشب المحترم إلى أن ظهر رأس الرجل من شباك أعلى ، مغطى بقلنسوة ذات زر ، وتبعت الرأس الكتفان اللتان بدتا كأنهما لا تكتسيا بغير قميص ، ولو أن غطاء من قماش أبيض كان فى الواقع ملقى فوق سترة الشيخ الذى قال وهو يتثاءب :

— تبا لكم على إثارة مثل هذا الضجيج أمام باب شيخ هرم مسكين ، أى شيطان تقمصكم لتوقظوا قوما شرفاء فى مثل هذه الساعة من الليل .

وقال فستوس :

— ويل لى !! ماذا . ؟ إنه عمى بنجى ! . . هاو . . هاو . . هاو ! عجباً ، بحق الشيطان كيف حدث هذا ؟ إنه أنا . . فستوس . . أريد الدخول .

وقال العم بنجى فى لهجة حاذقة إلى حد لا يصدق :

— أوو لا ، لا ، لا ، ياأيها الرجل الماهر... أيا كنت ! إن ابن أخى ، ياولدى العزيز ، فى معسكره على بعد أميال ، وهو مستغرق الآن فى نوم عميق كما هو قمين بجندى طيب . إن هذه الحكاية لن تجوز على الليلة يارجلى . لن تجوز قط .

وقال فستوس :

— أقسم أنه أنا .

— ليس الليلة يارجلى . . ليس الليلة !

واستطرد المزارع قائلا وهو يدور إلى داخل الغرفة دون أن يكون بها أحد يوجه إليه الكلام :

— يا أنطونى ! أحضر لى غدارتى .

وقال أحد الباقين :

— لنحطم مصاريع النوافذ .

وقال فستوس .

— قسما لنحطمنها ! يالها من حيلة احتالها الشيخ الهرم .

وقال جنود التطوع منقبين تحت الحائط :

— أحضروا بعض الأحجار الكبيرة .

وقال فستوس وقد بدأ يخاف من روح الفتنة التى أيقظها :

— لا . . . كفوا عن ذلك ، كفوا عن ذلك . لقد نسيت ، فإننا سنسبب له نوبات تنتابه ، فهو عرضة لها ، ثم قد يترتب على ذلك إزهاق روحه . أيها الرفاق ، لا بد من ذهابنا . . . بل لا فسنبيت فى المخزن . وسأنظر فى هذا الأمر وثقوا بكلمتى فى شأنه . إن شرفنا فى الميزان . . ولنعد الآن أدراجنا لنوصل الحسناء التى أوثرها إلى منزلها

وقال أحد رفاقه الجنود . . ويطلق عليه بين أسرته اسم « جيكوب نوكيس » وهو من ضيعة « نيذرميلتون(١) » .

— ليس أمامنا غير هذا . ولكن لابد من ذهابى إليها ، وإخبارها بسبب عذرى . فهى تجذبنى إليها برغم كل شىء .

وقال جندى آخر من فرسان اليومن :

— لقد ذهبت . فأنا رأيتها تمرق بين عبر قمة التل بينما نطرق الباب .

وقال فستوس وهو يصرف بأنيابه ويتخذ شكلا صارما .

— ذهبت ! هذا فعل عدوى إذن . . . فهو الذى أغراها بالذهاب معه ! . . ولكنى رجل ثرى . . . وهو رجل فقير يركب جوادا من جياد الملك بينما أركب أنا جوادى الذى أمتلك . . . ولو أنى استطعت أن أجد هذا الشخص ! هذا العسكرى النظامى ، هذا الرجل الدارج . . . لكنت . . .

---

(١) فى أويرمورين (تعليق الأصل)

وقال نافخ النفير الأول مقبلا من ورائه :

ــ نعم ؟

وقال فستوس ، وقد دار جافلا :

ــ لكنت أمسكت به من يده ، وقلت له « حافظ عليها إن كنت صديق ! حافظ عيها من كل سوء !

وقال لفدى وقد صدر قوله من صميم قلبه :

ــ كلام طيب . . . وسأنجز ذلك أيضا .

وقال فستوس لرفقائه .

ــ ولنلتمس الآن المأوى .

ثم تركوا لفدى بلا مجاملة ، ودون أن يتمنوا له ليلة طيبة ، واتجهوا صرب المخزن . واجتاز هو الحقل ، وصعد فى التل إلى المعسكر وقد أحزنه أن يكون قد أتاح لآن سبباً لشكوها ، وصور له خياله أنها تهون من شأنه بالقياس إلى منافسه الثرى ؟

فصائل طلب الزواج

فى الحديقة المشتركة

(١٠)

انزعجت آن كل الانزعاج من جراء الأحداث العسكرية التى لم تنقطع عنها وهى فى طريق عودتها لدارها إلى حد أنها كادت تخشى أن تغامر وحدها بالخروج من الدار التى تقيم فيها والدتها ، يضاف ذلك أن الجنود الكثيرى العدد ، النظاميين وغير النظاميين ممن ترددوا على أوفر كومب وما جاورها ، أخذوا يوثقون علاقتهم بأهل القرية ، وأسفر ذلك عن وقوفهم دائما أمام أبواب الحدائق ، ومشيهم فى البســاتين ، وجلوسهم يسمرون على عتبات أبواب الأكواخ وينظفون « بيباتهم(١) » خارج الأبواب ليتحاشوا تلويث جو الدور بالدخان . ولما كانوا رجالا مهذبين ذوى طبيعة ودية ومجاملة إلى أقصى حد فقد درجوا بالطبيعة على أن يتلفتوا فيما إذا مرت بهم فتاة جميلة وأن يبتسموا لها ، وهذه غالبا ما كانت ترتبك فيما إذا لم تكن معتادة على عشرة الناس ، ولم تلبث كل غادة جميلة فى البلدة أن أصبح لها عاشق . وعندما قسمت الجميلات جميعهم على العاشقين جاء دور اللواتى لا يستأهلن صفة الجمال إلا فتيلا . فهناك جنود كثيرون لا يدققون فيما إذا زاد حجم الانف أو نقص إصبعا عن القدر المعتاد فى الجنس السكسونى ، أو إذا شاب الأسنان عيب طفيف ، أو زادت بقع النمش . وهكذا بدأت مزاولة الغزل على نطاق أوسع بين كل متحابين فى أوفركومب ، وترك الشبان الذين اغتصب حقهم ، وهم من مواليد ذلك المكان ، يتجولون وحيدين . وبدلا من أن يفكروا فى آيات الطبيعة أخذوا يفكرون فيما ارتكب أولئك الشجعان الذين تلطفوا كل التلطف بزيارة بلدتهم ، من اعتداء على كرامتهم .

وكانت آن ترقب مجريات الأمور العاطفية هذه من نافذتها مهتمة بها اهتماما

---

(١) جمع بيبه نوع معروف من الغليون .

كبيراً . وعنـدما رأت كيف أن الحسناوات من جيرانها كن يسرن نخورات وهن يتأبطن الأذرعة الضخمة للملازم الأول نوكهلمان ، وكورنت فليتزهارت والـكابتن كلاسبنـكسن من فرقة يورك هسرز المثيرة ، أولئك الذين أقسموا أيمان الولاء بلغة أجنبية أنيقة ، وامتلـكوا نوعا من العقار أو المزارع تسمى : فاترلاند فى بلادهم الواقعة وراء البحار ... عندما رأت ذلك تملكهـا شعور بالوحدة التى تـكابدها ، وحملها على التفـكير فيما حاولت نسيانه ، وفتح درج تنشد فيه شيئا لينا رمادى اللون يرقد ملفوفا هناك ومغلفا بالورق . ولم تعتد تحتمل ذلك آخر الأمر ، ونزلت إلى أسفل الدار .

وقالت السيدة جار لاند :

ــ إلى أين ؟

ــ إلى حيث أرى الناس، فأنا شديدة الانقباض .

ــ إنك لن تخرجى الآن بالتأكيد يا آن ؟

وقالت آن وقد احمرت خجلا لشعورها على نحو مبهم بأنهاشريرة إلى حد كبير.

ــ ولم لا يا أمى ؟

ــ لأنه لاينبغى لك الخروج، إنى إعتدت أن أطلب إليك مراراًألا تخرجى إلى الطريق فى هذا الوقت من اليوم . لماذا لا تتمشين فى الصباح ، وهناك السيد دريمان الذى يسره أن . .

ــ لا تذكرى اسمه يا أماه ، لا تذكريه !

ــ حسنا إذن يا عزيزتى ، تمشى فى الحديقة .

وهكذا أخذت آن المسكينة التى لم تـكن لها أدنى رغبة فى أن تسلم قلبها لجندى وإنما أرادت استبدال خواطر جديدة بخواطرها القديمة فحسب ، هكذا أخذت تمرح على الحديقة يوما بعد يوم ، وتمضى ساعات طوالا فيها بين الطيور المرحة التى تغرد لها ، والفراشات المبهجة التى تحط على قبعتها ، والنمل الشنيع الذى يجرى فوق جواربها .

ولم تكن الحديقة مقسمة بين مسكنها ومسكن لفدى ، بل كان جانباها فى الأصل حديقة واحدة للمنزل جميعه . كانت مكانا قديما عجيبا محاطا بسور مزعج أصبح

مطموس الشكل سميكا من تـآكله المستمر إلى حد أن غلام الطاحون يستطيع السير فوقه دون أن يسقط منه . . وهو يقدم على هذا العمل الخطير كل يوم أثناء قيامه بأعماله اليومية . وتربة الحديقة سمراء كثيفة سمينة من النوع الذى لا يتولد إلا بعد زرعه المتلاحق مدة عام كامل . وقد كست الحشائش ممراتها حتى صار الناس يمرون عليها دون أن يسمع وقع أقدامهم . ونمت تلك الحشائش حتى كونت حوائل تحول دون المرور، وعلى ذلك اعتزم صاحب الطاحون أن يستبدل ممرات مرصوفة بالحصى بدل تلك الممرات المعشوشبة وقتما يتاح له فراغ من الوقت ولكنه ظل يعيد هذا القول مدة ثلاثين عاما دون أن يفعل شيئا حتى بدا أن تلك الحشائش ستظل على الأرجح باقية على ما هى عليه .

وتولى بستانى صاحب الطاحون رعاية جزء الحديقة الخاص بالسيدة جارلاند إلى جانب الجزء الأكبر الآخر ، فمن عزيق إلى غرس إلى استئصال الحشائش فى الجزأين على السواء ، ذلك أن صاحب الطاحون لاحظ على حق أن جزء الحديقة الصغير المملوك للسيدة جارلاند لا يستحق أن تستأجر له تلك السيدة التى لا حول لها رجلا يرعاه بينما يستطيع ذلك رجله الذى يعمل فى الجزء المجاور دون أن يكلفه ذلك جهداً كبيراً : وكانت الأسرتان على ذلك أقرب ارتباطا فى الحديقة منهما داخل دار الطاحون . ففى خارج الدار كادتا تكونان أسرة واحدة ، وكانتا تتبادلان الحديث بين أمور وأمور تدبرانها فى نشاط وحماسة لم تكن تستطيع السيدة جارلاند توقعها بحال فى أول انتقالها إلى هناك بعد وفاة زوجها .

وجزء الحديقة الأكثر انخفاضا ، والأقرب إلى الطريق كان أكثر أجزاء ذلك المكان الهادىء المكنون المسور هدوءا وخفاء ، وكان سهل الرى بحسبانه أرض الصفقة الرابحة ، كانت تجرى فيه ثلاث قنوات صغيرة عرض كل منها خطوة ، وتحدث خريراً فى جريانها من جانب إلى جانب بين الأحواض . وتخترق الممرات تحت ألواح من الخشب قامت مقام الجسور وتنساب من الحديقة خلال فجوات تحت السور وقد كانت مظللة جداً بالحشائش ونتاج الحديقة عند حفافيها إلى حد أن قلة من الناس كانت تلاحظ وجودها هناك لو لا إرغاؤها المستمر . وفى هذه البقعة آثرت آن أن تمكث مستأنية بعد أن صارت نزهاتها مقصورة على منزلها

وماحوله ، وفى بقعة أخرى من الحديقة غير بعيدة عن هذه كان جاويش البروجى يحب كذلك أن يطيل مكثه .

ولما كان من حسنات وظيفته فى فرقته ألا يكون لديه واجب ثابت يؤديه فقد درج على النزول من المعسكر إلى الطاحون كل يوم تقريباً . وعندما رأته آن يسير فى استقامة ، ويجلس فى القسم الخاص بأبيه من الحديقة كلما جلست هى فى القسم الآخر ، لم تتمالك أن تبتسم وتخاطبه ، وهكذا كانت تظهر كثيراً فى جانبين مختلفين من الحديقة ، وفى نفس الوقت شعارات كتفيه العسكرية ، وسترته الزرقاء ، وقبعة آن الصفراء الأنيقة ، ولكنه لم يقتحم قط قسمها الخاص بها فى ذلك المكان المكنون ، ولم تقتحم هى قسم لفدى .. كانت تحادثه دائماً عندما تراه هناك ، وكان يجيبها فى نبرات عميقة ثابتة عبر أدغال عنب الثعلب ، أو عبر صفوف عالية من أشجار البازلاء حسبما تكون الحال .. كان يحكى لها وهو على بعد خمس عشرة خطوة ما خبره فى المعسكر ، وفى المخيمات ، وفى الفلاندز(١) وغير ذلك من الأمكنة ، وفى الفرق بين صف المشاة وطابور الفرسان عند تحرك الجند واصطفافهم وما شابه ذلك . هذا إلى آماله فى الترقية ، وأنصتت آن بادىء الأمر غير مبالية ، ولكنها ازدادت اهتماما به كما لو كانت تهتم بأخ لها إذ لم تكن تعرف أحداً غيره يتمتع بمثل هذه العريكة اللينة والخبرة ، وأخذ شريطه الذهبى ، ومهمازه وأزراره تفقد غرابتها شيئا فشيئا ، وتصبح مألوفة لها كأثوابها .

ولاحظت السيدة جارلاند فى نهاية الأمر هذه الصداقة النامية ، وبدأت تيأس من خطة الأم التى ترمى إلى ربط آن وفستوس الموسر برباط الزوجية ، وكان السبب الذى ثناها عن اتخاذ خطوات حاسمة لمنع كل تدخل فى شأن خططها ، يرجع من ناحية إلى طبيعتها التى لا تحسن تدبير الأمور ، ويرجع من ناحية أخرى إلى ظروف عاطفية جديدة وجدت من الصعب أن تحسب حساب الأمور معها ، فالجيرة القريبة التى ولدت الصداقة بين آن وجون لفدى أخذت تنبعث فى بطء مودة أدفأ بين أمها وأبيه .

---

(١) إقليم فى شمال غرب فرنسا .

على هذا النحو مر شهر يوليو . فطابور الخيل كان يغدو فى انتظام سير الساعة لتشرب الجياد تحت نافذتها . وعند اشتداد حرارة الجو كانت تلك الجياد ترفس بأرجلها ، وتهز رءوسها من شدة لسع ذباب الخيل الذى يطيش له الصواب . وأصبحت أشجار أوراق الحديقة الخضر أشد دكنة ، ونضج عنب الثعلب ، وانخفض مستوى الماء فى القنوات الثلاث إلى نصف ما كان عليه فى الشتاء .

وتمكن جاويش البروجى الجاد فى النهاية من الحصول على رضاء السيدة جارلاند بأن يصحبها هى وابنتها إلى المعسكر الذى لم ترياه إلى الآن من موضع أقرب من نوافذ دارهما . وعلى هذا ذهبوا فى عصر أحد الأيام هناك وكان صاحب الطاحون فى صحبتهم . وكان أهالى القرية يمارسون فى هذا الوقت تجارة صاخبة مع الجنود الذين راحوا يشترون منهم كل نوع من نتاج المزارع من لبن وزبد وبيض ، وذلك بأثمان متسامح فيها . وأمكن مشاهدة وجوه أولئك البائعين الريفيين وهم يصعدون زاحفين فى المنحدر ، محملين ببضائعهم كالنمل ، قاصدين إلى مؤخرة المعسكر حيث قام مايشبه السوق فى جناح شراء الخضروات .

واقتيدت السيدة جار لاند وابنتها وصاحب الطاحون من مكان إلى مكان ، ثم إلى مخيمات تقطن فيها زوجات الجنود اللواتى لم يجدن أكواخا قريبة لسكناهن وقد اختير لهن أوفر الأمكنة حماية . وبنى أزواجهن لاستعمالهن أكواخاً مكنونة مبنية من المدرة والأشواك وأفرع النخيل الصغيرة ، أو أى شىء تصل إليه أيديهم ومن ثم قاد نافخ النفير الأول أصدقاءه إلى المخزن الذى هيء ليكون مستشفى ؛ وإلى الكوخ ذى النوافذ المثبتة بالقرميد ، وهو الذى استعمل دكانا ، ثم تفقدوا صفوف الجياد ذات اللون الأسود اللامع ، (وكان كل جواد منهـــا يمثل اثنين وعشرين جنيها من نقد المعاملة ، وهو مبلغ يعد مرتفعا وقتذاك) وكانت تقف نافذة الصبر وهى مقيدة بالحبـال الممدودة من مكان وتد إلى مكان وتد آخر ، وهناك سد مقام أمامها لحمايتها أثناء الليل .

ثم انتقلوا إلى خيام الفيلق الألمانى . وهو مكون من مجموعة رجال فارعى الأجسام ، أقرب إلى التأنق ، تنبثق من جوانب وجوههم نظرات شعرية تجعلهم يبدون شائقين فى أعين الإناث . وقد تجمع منهم السكسونيون والهنوفريون

والبروسيون والسويديون والمجريون وغيرهم من الجنود الأجانب فى رتبهم المختلفة كانوا ينظفون أسلحتهم ويسندونها إلى حاجز بعد الإنتهاء من مهمتهم ... ومن الزوار « بميس » المعسكر فى طريق عودتهم ، وهو بناء خشبى أقيم مؤقتاً ، وله مدفئة مبنية بالآجر . وإذ سارت آن ورفقاؤها بالقرب منه كانت زمرة من فرسان الهوزار تبلغ ثلاثة رجال أو أربعة طفقوا يخاطبون فتى مقداماً كان يطنب فى صفات جواد لرجل يرغب فى شرائه . وعرفت آن فستوس دريمان فى ذلك البائع . وكان كربلسترو يخب بالجواد رائحاً غادياً . وما التقت عينها بعين فارس التطوع حتى أقبل يلاطف صاحب الطاحون بملاحظات ودية ، ثم دار إلى الآنسة جارلاند التى ظلت تشخص بعينها فى المنظر الطبيعى البعيد دون تحول إلى أن بلغ اقترابه منها حداً استحال معه بقاؤها على تلك الحال مدة أطول . وتنقل نظر فستوس من آن إلى نافخ النفير الأول ، ثم من هذا إليها وعلى وجهه تعبير متجهم كما لو أنه ارتاب فى أن يكون بينهما تفاهم عاطفى . وقال للفتاة فى صوت منخفض يدل على استياء مكتوم :

— أأنا أسأت إليك ؟

وقالت آن :

— لا .

— متى ستذهبين إلى أكسويل هول مرة ثانية ؟

— قد لا أذهب إلى هناك أبداً .

وقالت السيدة جالاند التى اقتربت وابتسمت لفستوس ابتسامة عذبة :

— هذا هراء يا آن ، فإنك تستطيعين الذهاب فى أى وقت كالعادة .

— دعيها تأت معى الآن يا سيدة جارلاند ، فإنه ليسرنى أن أتمشى معها . ويستطيع رجلى أن يقود جوادى إلى الدار .

وقالت آن فى جفاء :

— شكراً ، ولكنى لن أذهب معك .

وتطلعت الأرملة حزينة إلى وجه ابنتها وقد أشقاها ان تتوزع بين مناها فى أن تشجع آن فستوس ، ورغبتها فى عدم إغفال مشاعر ابنتها .

وقال فستوس وقد أظلمت نظرته :

— دعيها وشأنها ، دعيها وشأنها . فبعد التفكير أراني الآن مسرورا لعدم تمكنها من الذهاب معى ، لأنى مرتبط بموعد .

ودلف مبتعداً .

وسارت آن مع أمها يتبعهما لفدى الابن فى صمت ، وطفقوا ينزلون من الهضبة وسألت السيدة جارلاند .

— حسناً ، أين السيد لفدى ؟

وقال جون

— أبى خلفنا .

ونظرت السيدة جارلاند إلى الوراء فى رعاية . وأومأ لها صاحب الطاحون الذى كان ينتظر نهاية ما وقع .

وقالت للشابين الاثنين .

— سألحق بكما بعد دقيقة .

وكرت راجعة ، وتورد لونها وهى تفعل ذلك لسبب ما يتعذر تعليله . ثم أقبلت هى وصاحب الطاحون معا على مهل ، متحدثين بصوت منخفض . وتوقفا دون حراك عندما وصلا إلى سفح التل . وانتظرهما لفدى وآن دون أن يتبادلا من الكلام إلا قليلا نظرا إلى أن الالتقاء بفستوس قد أوهن معنوية كليهما . وشارف حديث الأرملة الخاص مع ميلر لفدى آخر الأمر نهايته ، وأسرعت مقبلة بينما اتجه صاحب الطاحون اتجاها آخر ليقابل رجلا فى عمل من الأعمال . وبدت مشرقة كل الإشراق عندما وصلت إلى نافخ النفير الأول وآن ، بل كانت أميل إلى الانفعال ، وظهر عليها الأسف عندما قال لفدى إنه مضطر إلى فراقهما والعودة إلى المعسكر وافترق الطرفان على طريقتهما الودية المعتادة ، وترك لفدى آن وأمها تقطعان وحدهما الخطوات القليلة الباقية .

وقالت السيدة جارلاند .

— هأنذا حسمت الأمر . . . آن ! فيما تفكرين ؟ لقد استقر فى ذهنى أن الأمر على ما يرام .

وقالت آن .

ـــ أى أمر هذا ؟

ـــ ألا تعيرى دريمان اهتماما ، وأن تنوى تشجيع لفدى . فماذا يهم الناس من أمر الحياة مادموا سعداء ! لا تعيرى ياطفلتى ما قلته عن فستوس أى التفات ولا تلتقى به ثانية .

ـــ أية متقلبة أنت يا أماه ! لماذا تقولين ماقلت فى هذا الوقت بالذات ؟

وقالت ربة البيت متخذة نظرة المرأة الطيبة .

ـــ ليس من الصعب أن تسمينى متقلبة ، ولكنى عقلت وتمكنت فى النهاية بفضل الله ، من التغلب على طموحى . إن لفدى وابنه هما صديقانا المخلصان الوحيدان ، والسيد فستوس ، مع كل ما يملك من مال ، ليس بالنسبة لنا شيئاً مذكوراً .

وقالت آن

ـــ لكن ما الذى حملك على أن ترجعى فجأة عن كل ماقلته من قبل ؟

ـــ شعورى وعقلى اللذان أنا مدينة لهما بالشكر .

وكانت آن تعلم أن عواطف أمها شديدة التقلب بطبيعتها إلى حد لا يمكن معه الاعتماد عليها لمدة يومين كاملين ، ولكن لم يخطر لها فى هذه الهنيهة أن حديثاً عاطفياً بين السيدة جارلاند وصاحب الطاحون كان ذا أثر معين على تقلبها فى الحالة الراهنة ، ولكن السيدة جارلاند لم تستطع كتمان السر مدة طويلة . فقد كانت تثرثر مبتهجة أثناء مسيرها ، وقالت قبل دخولها المنزل .

ـــ أى قول تحسبين أن السيد لفدى قاله لى ياعزيزتى آن ؟

ولم تعرف آن ما قاله قط .

ـــ لم هذا ؟ لقد طلب إلى أن أقبل الزواج به ؟

قومنا يتأثرون
بالحضرة الملكية
(١١)

كان يكفى الرجوع إلى تلك اللحظة التى تبادل فيها كل من آن وفستوس والسيدة جارلاند الحديث فوق التل لتفسير طلب الزواج المفاجىء الذى عرضه صاحب الطاحون . فقد ارتد جون لفدى وقتذاك إلى الخلف ليتحاشى التدخل فى اجتماع وجوده فيه كعدمه دون ريب . وكان أبوه الذى حزر سره يرقب وجهه بينما هو واقف . لقد كان وجهه حزيناً ، وتابعت عيناه طريقة السيدة جارلاند المشجعة لفستوس ... تابعت عيناه ذلك على نحو دل فى وضوح على أن كل فرقة وتلاق لشفتى السيدة كانت محنة له . وقد أحب صاحب الطاحون ولده حباً لا يختلف عما يستطيعه أى صاحب طاحون أو أى سيد عادى لولده ، وآلمه أن يرى تجهم جون لمثل هذا الظرف التافه . لذلك لم يعتزم ما اعتزمه إلا ليمد إلى جون يد العون على نحو أو آخر ، بالتعجل فى الأمر لو كان يخصه هو وحده لأرجأه إلى ما بعد ستة أشهر أخرى .

لقد طال ميله إلى صحبة السيدة جارلاند ، هذه الجارة الحساسة السهلة الانقياد ، وكان قد شغل بالها ، وحملها على التفكير فيما يتعلق بمسألة هل كان من الأفضل اشتراكهما فى منزل واحد فى سبيل سعادة كل منهما حتى ولو أنها كانت تفوقه قليلا فى الحسب والمعرفة . كان يحبها فى الواقع ، ولكن حبه لم يكن فاجعاً ، بل كان معقولا إلى حد كبير ، بالنسبة لسنه . وكان يلى حبه لولديه بوب وجون برغم أنه كان على بينة تامة من التجاعيد الظاهرة حول أركان عينيها اللتين كانتا جميلتين فى وقت مضى . ومن أن ذلك الانخساف فى خدها الأيمن لم يكن تلك النقرة المتريثة التى يفترضها الخيال الشاعرى ، ولكنه كان نتيجة خلع أسنان سفلى تحت خدها قام به « روتل » ، طبيب الأسنان الذى يكسب قوته مما يجريه من جراحات فى رؤوس كبار السن . ولكن أية أهمية لهذا حينما يكون قد فقد نابين مقابل كل ناب مخلوع منها ، وحينما يكبرها بما يقارب ثمانى سنوات ! ومن

ثم أسرع فى تنفيذ خططه ليؤدى خدمة إلى جون ، وعرض عليها السؤال بينما كانا يقفان على مرأى من الرفيقين الأصغرين .

كانت السيدة جارلاند تهتم بصاحب الطاحون منذ مدة طويلة ، وتفكر بين حين وحين ، لمدة قصيرة ، فى ذلك السؤال داخل حدود مثل ذلك التساؤل : « لنفرض أنه سألنى . أو « وإذا سألنى » وهكذا ... وبرغم ذلك لم يذهب تفكيرها قط إلى أبعد من ذلك كثيراً . وقد أخذت بالفعل على غرة حينما عرض عليها السؤال . وقد أجابت دون تكلف بأنها ستفكر فى العرض ، وعلى هذا افترقا .

وعدم استقرار الأم على رأى واحد حمل آن على التفكير . واستحوذ عليها اليقين فجأة بأنه ينبغى عليها فى مثل هذا الحال أن يكون لها هى نفسها هدف ما . وقد دهشت فى الحق للتلطف الذى قابلت به السيـــدة جارلاند عرض صاحب الطاحون . وعندما رفعت أمها رأسها وأوصت خيراً بفستوس بدت لها الثورة على ذلك شيئاً شائقاً . ولكن عندما تحول ضغط أمها استحوذ على خاطرها شعور بمسؤوليتها . وبما أنه لم يعد هناك عاقل أو طموح بالنسبة لها ، فينبغى أن تصبح هى ، دون مراء ، عاقلة وطموحة بالنسبة لنفسها ، فتعترض على علاقة أمها ، وتشجع فستوس على تودده إليها فى سبيل خيرها وخير أمها على السواء . وكان هناك عهد كان فتى مثل لفدى يثير فيه قلبها ، ولكنه عهد مضى منذ زمن بعيد قبل أن تفكر فى المراتب والفروق الطبقية . وإنه لشىء رهيب وجديد بالنسبة لها أن تفتح عينيها على نور مثل ذلك النهار البارد وقتما شطحت أمها إلى أرض العواطف الحالمة ، وسببت لها تلك الرهبة والجدة ، وصار الحاضر كأنه مزيد من سنوات فى حياتها لاتعيشها .

ولكن انصراف رأيها إلى أنه ينبغى عليها أن تتزوج بفارس فرقة المتطوعين كان أسهل من اتخاذ الخطوات لتحقق ذلك ... وظلت تحيى كما كانت تحيى من قبل تماماً إلا إذا أضفنا شيئاً قليلا من التفكير زاد على عينيها .

وقال لها الجندى لفدى ، وقد نزلت ثانية إلى الحديقة بعد مرور يومين على زيارة المعسكر ، وكان منها على بعد خمسة صفوف من نبات البازلاء ومن حوض البقدونس :

ـــ أسمعت النبأ يا آنسة جارلاند ؟

وقالت آن دون أن ترفع بصرها عن الكتاب الذى كانت تقرؤه :

ـــ لا

ـــ سيحضر الملك غداً .

ورفعت بصرها عندئذ :

ـــ الملك ؟

ـــ نعم ، سيأتى إلى جلوسسترلودج ، وسيمر من هنا ، ولن يستطيع الوصول إلا بعد مرور وقت طويل على منتصف الليل . . هذا إذا كان ماقيل صحيحاً . . .

ثم استطرد لفدى بعد أن شجعه اهتمام الفتاة بقوله على تخطى حوض البقدونس ، واختزاله للمسافة التى تفصل بينهما :

ـــ والوقت المحدد لتبديل خيله فى نزل وويدس . . . الواقع بين وسط وسكس وجنوبها . . . هو منتصف الليل .

وجاء ميلر لفدى من حول ركن المنزل ، وقال :

ـــ أسمعت عن مجىء الملك يا آنستى آن ؟

وقالت آن إنها سمعت عنه فى التو ، وأخذ نافخ النفير الأول الذى حيى أباه فى صعوبة وهو فى مثل هذه البرهة . . أخذ يشرح ما يعرف عن هذه المسألة .

وقال لفدى الكبير .

ـــ أظن أنك ستذهب مع كتيبتك للقائه ؟

وقال لفدى الصغير إن الفياق الألمانى هو المكلف بأداء هذا الواجب . وأضاف وهو يدور ويصبح متجهاً نصف اتجاه إلى كل من أبيه وآن .. أضاف قائلا فى لهجة مغرية إنه يحسب نفسه قادراً على إذن بالغياب عن المعسكر الليلة فيما إذا رغب أحد فى الذهاب معه إلى قمة ردجوى التى لا بد أن يمر الركب الملكى بها .

ولما كانت آن فى هذا الوقت على بينة من الأمل الذى بدأ ينبت فى ذهن فارس الدراغون الشهم ، فقد قالت رغبة منها فى عدم تشجيعه .

ـــ أنا لا أريد الذهاب .

وبدت خيبة الأمل على صاحب الطاحون كما بدت على جون .

— قد تود أمك الذهاب !

وقالت الفتاة :

— نعم ، سأدخل البيت وأسألها هل تود الذهاب .

ودخلت البيت ، وأنبأت أمها بالاقتراح فى لهجة أقرب إلى البرود . وبرغم أن السيـــدة جارلاند لم تكن تنوى أن تقول كلمتها الآن لصاحب الطاحون فى شأن الزواج به ، فإنها كانت مستعدة كل الإستعداد للقيام بهذه الرحلة ولذلك هرعت فى الحال إلى الحديقة رغم أنف آن لتسمع المزيد عن الأمر . . . وقالت إذ ارتدت إلى البيت ثانية :

— أنا يا آن لم أر الملك وخيوله فى خلال السنوات العديدة الأخيرة ، ولذلك سأذهب .

وقالت آن فى صوت الأكبر سنا :

— آه ، من الخير أن تكونى أنت التى ستذهب يا أمى .

وقالت السيدة جارلاند وقد شعرت بالتقريع نوعا :

— أنت لا تريدين الذهاب معنا إذن ؟

وقالت ابنتها فى تأكيد مؤثر :

— لدى أشياء كثيرة احتاج للتفكير فيها أكثر من ذهابى لأرى رؤى فى ذلك الوقت المتأخر من الليل .

وأسفت السيدة جارلاند ولكنها صممت على حضور الترتيبات . وأقبل الليل ولما ذاع أن الملك سيمر من طريق البلدة خرج كثيرون من الأهالى لمشاهدة الموكب فى مروره . ومن باب الحيط، أغلقت آن باب الدار بالمزلاج بعد ذهاب لفدى وابنه وأمها. وجلست تفكر من جديد فى المسؤوليات الجسام الخاصة باختيار زوج لها ، إذ لم يعد يمكن الان الوثوق بالقيمة الطبعية عليها .

وصدرت طرقة من ناحية الباب .

وإذا غريزة آن توحى لها على الفور أن تصمت لعل الطارق يخال الأسرة أوت إلى فراشها .

ولم يكن الطارق ليقتنع مع ذلك فى سهولة ، فقدر أى بالفعل نورا ينبثق من شراع النافذة الزجاجى . ولما لم يتمكن من أن يتلقى جوابا توجه إلى باب الطاحون

التي كانت لا تزال تدور ، إذا أن صاحبها كان يديرها أحيانا طوال الليل عندما يزدحم عليه العمل . واصطحبه السنان إلى باب السيدة جارلاند ثانية . وقال :

ــ إن الإبنة فى البيت يا سيـــدى دون ريب ، وسأدور حوله إلى الناحية الاخرى لأرى هل هى هناك ياسيد دريمان .

وقال فستوس :

ــ أريد أن أخرج بها لترى الملك .

وجفلت آن لدى سماع صوته . فليس ثمة فرصة يمكن أن تكون أوفق من هذه لتحقيق معتقداتها الجديدة المتعلقة بتسوية أمر خطبتها . ولكنها نسيت مبادئها فى غمرة كراهيتها المميتة لفستوس ، كما نسيت رأيها فى أن تضع نفسها من حيث المكانة فوق أسرة لفدى وإذ ألقت قبعتها على رأسها ، وأطفأت الشموع ، انسلت من الباب الخلفى ، وأسرعت خلف أمها وسائر الجمع متخذة نفس الاتجاه الذى اتخذوه ، ولحقت بهم وقت أن بدأوا الصعود فى التل .

وقالت الأرملة :

ــ ماذا ! أغيرت رأيك آخر الأمر ؟ كيف تأتى لك أن تقـــدمى على مثل هذا ياعزيزتى ؟

وقالت آن :

ــ خطر لى أنه يمكننى الحضور كذلك .

وقال صاحب الطاحون فى إخلاص :

ــ لاشك فى هذا . وحضورك أفضل بكثير من الاحتباس فى المنزل هناك .

ولم ينطق جون بكلمة . بيد أنها كادت تستطيع أن تلمح من خلال الظلمة كم هو مبتهج لتغييرها رأيها . وعندما وصلوا إلى القمة التى امتد فوقها الطريق العمومى وجدوا كثيرين من جيرانهم الذين سبقوهم يبددون وقتهم فوق حفافى الطريق المغطاة بالحشائش ، ويمتعون أنفسهم بنوع من النزهات الليلة الخلوية الطاعمة ، ولم يكن يصعب إقامتها ليلتئذ لأن الهواء كان ساكنا نقيا . وكانت بعض العربات تقف كذلك على مقربة برغم أن أغلب الناس الذين يملكون عربات تجرى على

عجلتين أو أربع كانوا قد رحلوا إلى البلدة انتظارا للملك هناك . ويمكن أن يتاح من هـذا الارتفاع مشاهدة موضع « المنتزه البحرى » عن بعد إذا أضاء أهل البلدة الموالون للملك عدداً إضافيا من المصابيح والفوانيس والشموع تـكريما للإقبال الملكى فيما إذا تم قبل الفجر .

ولمست السيدة جارلاند ذراع آن عدة مرات أثناء سيرهم . وأدركت الفتاة فى النهاية أن هذا يعنى الإيماء لها أن تتأبط ذراع جاويش البروجى الذى لم يقدم لها ذراعه وإنما كان على الأغلب يوحى إليها بأن تتأبطها . وعجبت آن أى تدله استحوذ على أمها . . . وأبت تأبط ذراع الرجل ، وتحايلت لتتقدم وتلحق بصاحب الطاحون الذى كان يسير فى المقدمة غالبا ليرشد خطوات الباقين . . . وترك نافخ النفير الأول للسيدة جارلاند ، وأغراه ابتعاد آن عنهما بأن يقول بضع كلمات لتلك السيدة .

— هل أحدثك ياسيدتى ، بعد إذنك ، فى أمر يشغل بالى جداً بالفعل ؟

— بالتأكيد .

— أود أن يسمح لى بتقديم عروضى إلى ابنتك .

وقالت السيدة جارلاند فى بساطة :

— لقد خطر لى أنك قصدت هذا .

— وأنت لا تمانعين !

— سأترك الأمر لك . وأظنها لن توافق حتى ولو وافقت انا .

وتنهد الجندى ، وبدا عليه القنوط . وقال :

— حسناً . . غير أنى أستطيع أن أسألها .

ويقع المـكان الذى اختاروه أخيراً لينتظروا فيه قدوم الملك ، بالقرب من باب أحد الحقول حيث يمكن مشاهدة الطريق العام الجيرى اللون فى النهار حتى مسافة بعيدة من ناحية الشمال ، وحتى مسافة قليلة الآن وانتظروا ثم انتظروا ، ولـكن لم يكن هناك ملك يقدم ويقلق سكون هذه الليلة الصيفية الجميلة وبعد تعاقب نصف ساعة أثر نصف ساعة دون أن يحضر أحد بدأ الضجر يستولى على آن . . وهى لم تجهل لماذا لم تقترح أمها العودة ، وأسفت على ذلك ، وكان يمـكن أن

تقترح العودة هى نفسها ، ولـكن بدا أن السيدة جارلاند كانت مبتهجة جداً ، وشديدة اليقظة كما لو كانت فى منتصف النهار ، حتى أن إزعاجها كان يكون قاسياً .

وحزم جاويش البروجى أمره فى النهاية ، وحاول أن يستدرج آن إلى خلوة يبادلها فيها الحديث على انفراد . إن ذلك الشعور الذى كان منذ أسبوع مطمحاً غامضاً جداً أصبح اليوم عنيفاً كل العنف إلى حد لا يستطيع معه تعقل هذا الجندى الدافىء القلب أن يسيطر عليه . ولذلك حوص فيما انتواه على يفاجئها فى خلوة ، وفاز بذلك فى النهاية ، برغم تحايلها على تفويت ذلك عليه . وابتعد عنهما صاحب الطاحون والسيدة جارلاند مسافة خمسين خطوة ، وتركاه هو وآن واقفين عند باب الحقل .

ولـكن روح الموسيقى الشهم كانت تضطرب بأشد الاضطراب متأثرة باختلاجات رقيقة ، وبشعوره بالاجتراء حتى أنه لم يستطع بدء الحديث . ولعل إقدامه على طرق هذا الموضوع إطلاقا كان يصبح موضع نظرا لولا أن ساعة كنيسة نائية عاونته لحسن الحظ بدقها ثلاث دقات . وتنفس نافخ النفير الأول الصعداء .

وقال :

— إن نغمة دقات هذه الساعة هى نغمة « ج » الحادة .

وقالت آن متجملة :

— أهى نغمة « ج » الحادة بالتأكيد !

— نعم . وجرس هذه الساعة رخيم الصوت . وقد اعتدت ملاحظة هـذه النغمة منذ كنت صبياً .

— هل اعتدت ذلك ؟ . . . ونفس النغمة ؟

— نعم . وكان بينى وبين رئيس فرقة ميلشيا نورث وسكس الموسيقية رهان بشأن جرس تلك الساعة . فقال إن نغمته هى « ج » ، ونفيت أنا ذلك . وعندما وجدناها « ج » الحادة لم نعرف كيف نسوى الأمر .

— إنها ليست نغمة عميقة بالنسبة لساعة كبيرة .

— أوو ، لا ! وأرخم أصوات الأجراس المرنانة فى هذه النواحى هو جرس بيترز بكمبريدج ، ونغمته « إ » الخافضة طمم ... مم... مم . هاهى ذى النغمة ... طم ... مم . .. مم .. . مم .

وأطلق نافخ النفير الأول من أسفل حلقه تلك النغمة التي بعدها « ا » الخافضة . .. أطلقها متهدجاً يخالجه من اللذة ما لم يستطع الإضطراب الحالى إخمادها .

وقالت آن وهى أقل تأثراً بجمال تلك النغمة من نافخ النفير الأول نفسه :

— ألا نذهب إلى حيث تقف أمى ؟

— بعد دقيقة واحدة . .. بمناسبة الحديث عن الموسيقى أخشى ألا تظنى مقام جاويش البروجى كبير القدر بالنسبة لمقامك ؟

— أنا أظن ذلك . بل أعتقد أن جاويش البروجى رجل محترم جداً .

— يسرنى أن أسمعك تقولين ذلك . وقد صدر أمر ملكى بحسبان كل نافخ نفير أول رجلا محترما .

— حقاً ! أنا إذن. .. بطريق المصادفة. .. أكثر ولاء للملك مما كنت أظن!

— وأنا أحصل على علاوة سنوية تجعل مرتبى أكبر بكثير من مرتب نافخ النفير العادى نظراً لمركزى .

— هذا لطيف جداً .

— وليس من المفروض قط أن أشرب الخمر مع نافخى الأبواق الذين يعملون تحت إمرتى .

— هذا طبيعى .

— وجاء فى أوامر وزارة الحرب أن لى الحق فى أن أمارس (وهذه كلمة الوزارة) مطلق سلطانى عليهم . وإذا سلك أحدهم معى سلوكا ينطوى على أى إخلال بالأدب ، أو إذا أهمل أوامرى ، يحبس ويبلغ عنه .

قالت وهى مع ذلك تتحفظ فى اهتمامها تحفظاً غير مشجع التشجيع كله .

— إن وظيفتك محترمة حقاً .

وتعثر جندى الدراغون فى القول :

— ولا شك أنى سأصبح يوما ما فى وظيفة أرقى من وظيفتى الحالية .

— يسعدنى أن أسمع ذلك يا سيد لفدى .

واستطرد جون لفدى فى شجاعة ، وفى استبسال اليائس :

لا ، لا .. . لا تنصرفى ! . . . فأنت لم تسمعى بعد قولى . . . بأمل أن تجعلينى أسعد الرجال . . . ليس الآن . . . ولكن عندما يعلن السلم ، ويصبح كل شىء هادئاً سهلا من جديد ؟ أنا لا أستطيع التعبير عن الأمر بأحسن من هذا ، ولوأن هناك ما يزيد على قولى المتقدم مما يستحق الشرح .

وقالت آن فى ألم غير خاف :

ـــ هذا موقف حرج للغاية ... أنا لا أستطيع الموافقة بحال ... صدقنى يا سيد لفدى ... أنا لا أستطيع .

ـــ لكن هناك أكثر من هذا ، فسيدهشك أن ترى أية مساكن هادئة مخصصة فى الشكنات للمتزوجين من نافخى الأبواق الأول والجاويشية .

ـــ الشكنات ليست كل شىء ... فكر فى المعسكرات والحرب .

وصاح الجندى آملا من جديد :

ـــ هذا يصل بى إلى النقطة القوية فى مسألتى ، فأبى أحسن حالا من أغلب آباء ضباط الصف . وسيكون لك بيت مفتوح عنده دائماً فى حالة الضرورة . وأستطيع أن أقول لك فيما بيننا إنه يملك من المال ما يكفى حاجتنا نحن الاثنين ، وإذا كنت غير ميالة إلى الشكنات فلا بأس ، إذ أنى فى حالة استتباب السلام ثانية سأعيش هنا فى دارى طحانا ومزارعا ... وجارا ملاصقا لأمك .

وقالت آن محذرة :

ـــ لا شك أن أمى ستعترض على طلبك .

ـــ لا ، فقد فوضت إليك البت فيه .

وقالت آن فى دهشة :

ـــ ماذا ! أسألتها رأيها ؟

ـــ نعم . فقد رأيت التصرف على أى نحو آخر يجافى الشرف .

وقالت آن وقد أدفأ وجهها شعور كريم باستقامته :

ـــ هذا تصرف طيب جداً . ولكن أمى تجهل حياة الجنود جهلا تاماً . وتجهل حياة زوجة الجندى ، فهى على بساطة كبيرة فى مثل هذه الأمور جميعها إلى حد أنى لا أستطيع ، بسبب ما قد تقوله ، أن أكون أكثر استعداداً للإنصات إليك .

وقال جاويش البروجى المسكين وهو يجفف وجهه ، ويبعد منديله فى هيئة من قضى الأمر معه .

ــ لقد انتهى الأمر بالنسبة لى إذن ؟

وصمتت آن . وإن أية امرأة خبرت مثل ذلك ستدرك ، دون ما حاجة إلى تفسير ، أية مهمة كريهة تضطلع بهاحين ترفض رجلا ــ حتى ولولم تكن تحبه ــ رجلا يتحلى بجميع الصفات الطبيعية والعقلية التى تتمناها ، ولا تفوته إلا الاجتماعية منها . والعشاق الذين يبدون حبهم ، حتى لدى خير النساء ، ليسوا كثيرين إلى حد أن التضحية بأحدهم يمكن أن تعد شيئاً يختلف عن فقدان شىء نفيس فى عالم تقل فيه الأشياء النفسية .

قال بعد أن وجدها تمسك عن الكلام :

ــ أنت لست غاضبة يا آنسة جارلاند ؟ ...

ــ أوو ، لا . لا تدعنا نذكر شيئاً آخر الآن عن هذا الأمر .

وسارت فى طريقها .

ورأت عندما اقتربت من أمها وصاحب الطاحون أنهما منهمكان فى حديث من ذلك النوع الذى يزداد على العموم اكتمالا وإفصاحاً بسبب قلة كلماته المحددة . ومختصر القول أن الخطة أخذت تنجح هنا حيثما فشلت هناك معها وقد وضح وضوحا لا بأس به من الدلائل والعلامات والشواهد والبرقيات والتمثيليات الصامتة التى دارت بين الأرمل والأرملة أن ميلر لفدى لا بد أعاد على مسامع السيدة جارلاند قولا أشبه بما قاله لها من قبل ، ولم تعرف الفتاة الآن نتيجة قوله فى هذه المرة .

وتوقفت آن بعض الوقت بعيدة عنهما تنظر إلى دقة الموقف . ولم يتقدم نافخ النفير الأول لأنه كان يجهل جهلا تاما كيف سيعرض لابس السترة البيضاء ، الواقف على بعد منه ، سألته ، (لأن أباه لم يطلعه بعد على الخطط التى رسمها لإقناع السيدة جارلاند) ولكنه وقف لا يتحرك إلى جانب باب الحقل وكأنه يقوم على خدمة أميرة ، منتظراً إلى أن ينادى عليه . هكذا وقفوا متريثين وقد أخذت بشائر النهار تبزغ . ولم تهتم السيدة جارلاند وصاحب الطاحون بالوقت وما يحدثه من أثر فى الأرض والسماء ، وذلك لشدة اشتغالها بنفسيهما ، ولكن

آن وهى واقفة فى مكانها ، وجاويش البروجى وهو فى مكانه ، وكل منهما مشغول بالخاطر الخاص به ، غير المشرق بحال ، كانا يرقبان العظمة النامية بالتدريج فى الشرق ، من خلال جميع ألوانها وتغيراتها . ونشط عالم الطيور والحشرات ، وبدت ستّرة لفدى بألوانها الزرق والصفر والذهبية واضحة من جديد . وشقت الشمس طريقها إلى أعلى ، واشتعلت الحقول والأشجار والمناظر البادية على بعد ، وتوهج جاويش البروجى فى أشعة الشمس ، ووراءه ظله البنفسجى اللون الممتد امتداد البرج العالى ، وبدا كإله الحرب بحق .

بلغ الوقت منتصف الساعة الرابعة ، وبعد قليل ترامت إلى الآذان جلجلة الخيول وعجلات العربات منبعثة من الثكنات التى صوبوا النظر اليها . ومن ثم بدت كتلة متكتلة تتحرك فى الطريق الأبيض . ولم تلبث أن صعدت فى التل وأخذت تقترب .

ثم تعالى هتاف من المتفرجين المتجمعين هناك ، وصاح : « عاش الملك جورج طويلا » . ومر الموكب تجاهم ، وكان يتكون من ثلاث عربات سفر تحرسها فصيلة من الفياق الألمانى . وطاب إلى آن أن تشاهد الملك والملكة فى العربة الأولى ... وهى عربة بريد تجرها أربعة جياد ... ووجدت عوضاً عن الانتظار فى مشاهدة وجهيهما الجانبيين الذين أذكراها النقود المتداولة . ولكن نظراً إلى أن المركب ظل يسيرطوال الليل ، وإلى أن المتجمعين كانوا قليلى العدد ، فان أحداً من أفراد الأسرة المالكة لم يطل من نافذة العربة . وقد قيل أن الأميرتين الكبيرتين كانتا تستقلان نفس العربة ، ولكنهما ظلتا متواريتين . وكانت العربة الثانية ، وهى من نوع « الكوشة » تجرها أربعة جياد ... كانت تضم مزيداً من الأميرات ، والعربة الثالثة تحوى بعض أفراد الحاشية .

وقالت السيدة جارلاند بعد مرور الموكب جميعه :

— أحمد الله على أنى رأيت الملك !

ولم يعبر أحد غيرها عن أى حمد لأن أغلبهم كان يتوقع موكباً أكثر أبهة مما اهتم ذوق الملك الريفى أن يجود به عليهم . وقال أحد الرجال المسنين مقطباً إن منظر هذه العربات المكشوفة المكسوة بالجلد القديم المغبر لا يستحق الانتظار لمشاهدته . وتلفتت آن هنا وهناك فى أضواء أشعة النهار ، واحتوت كل عين من

عينيها على جزء من أشعة الشمس ، وأكسب ذلك نظراتها ناراً ذهبية من نوع خاص ، وأضاءت جدائلها الرمادية الملفوفة فوق جبهتها فلألأتها تلألؤاً مصفراً . وجعلت خصلات شعرها المتناثرة التى كانت تتطاير ضالة فى المساء ... جعلتها تبدو كالأسلاك المطلية بالدهان الأبيض . وكانت حائرة تفكر هل كان فستوس موجوداً فى مكان ما قريب منها ، ولكنها لم تستطع رؤيته .

وقبل مغادرة حافة التل وجهوا انتباههم إلى المنتزه الملكى البحرى الذى لم يبد من مكانهم إلا بحسبانه جزءاً من شاطىء البحر الذى كان غبش الليل ينحسر عنه متباطئاً . وكان البحر وراءه لا يزال ملفوفاً فى ضباب الفجر الصيفى الذى بدت السفن فى مراسيها البعيدة عن الشاطىء ... بدت من خلاله كأنها عنكبوت معلق فى الهواء . وبينما كانوا يسيرون وينظرون ، انبثقت قطعة سحاب بيضاء من بقعة أرض عرف صاحب الطاحون أنها أرض المدفعية المواجهة لمقر الملك ، ثم صك آذانهم صدى طلقات المدافع : وأجابت على هذا الإعلان لمقدم الملك كل من قلعة الجزيرة المجاورة ، والسفن الراسية فى النواحى المجاورة ... أجابت بتحية مدوية . وأخذت أجراس البلاد كلها تدق ... لقد وصل الملك وأسرته ؟

كيف صعد كل فرد . . .
صغيراً كان أو كبيراً
إلى أعلى التل

(١٢)

وصلت أصداء الحياة وضوضاؤها فى البلدة إلى آذان القوم الهادئين فى قرية أفركمب الشبيهة بالجحر ، بينما الأيام تمر ، وجعلت تستثير الأهالى غير المهمين ، وتحركهم كما يحرك انتفاخ الأرض العشب فى الكهف . وأخذت عربات السفر من كل نوع ، وكل لون ، تصعد فى التل وتهبط منه ، سالكة الطريق المتجه إلى منطقة الشاطىء . وبعض هذه العربات تقل أفراد حاشية الملك الذين لم يتمكنوا من ملاحقته فى رحلته من وندسور . وبعضها الآخر عربات مكشوفة ، كبيرة وصغيرة ، تقل الأرستقراطيين الذين اجتذبهم حضور الملك إلى ذلك المكان لأجل متعتهم الخاصة . وهكذا بدا الطريق العمومى ، فى نظر من يشاهدونه من التلال فى نواحى أفركمب ، كخط مسير النمل . تعاقب مستمر لبقع سود تزحف على طول سطح ذلك الطريق فى سرعة كادت نسبتها تكون واحدة ... وتسلك جميعها اتجاهاً واحداً .

وكانت حركة المرور وانتقال الأخبار من المعسكر إلى البلدة تجرى فى الطريق العالى بانتظام فوق رؤوس سكان القرية . ولما كان الوقت صيفا فقد انهمك صاحب الطاحون فى العمل انهماكا شديداً ،وشغل نافخ النفير الأول شغلا لا ينقطع بالانتقال أياما بين المعسكر ، وجلو سستر لودج ، مع سائر جنود الدراغون لينقلوا إلى أصدقائهم أية أخبار يتسقطونها .

وبعث أخيراً برسالة مؤداها أن عرضا على رأسه الملك سيجرى على الهضبة ، وقد حدد اليوم التالى للقيام به . ولم يلبث هذا الخبر أن ذاع فى القرية وبلاد الريف المحيطة بها . وفى الصباح التالى صعد جميع سكان أفركمب . . باستثناء عجوزين أو ثلاث عجائز من النساء والرجال ، وبعض الأطفال ومربياتهم ، وكسيح واحد ، والأنباشى تليدج . . صعد فى منحدر التل مع الجموع الآتية من بعيد ، وانتظروا الأحداث المدخرة فى هذا اليوم .

وارتدى صاحب الطاحون أحسن سترة يملكها ، وهـذا يعنى الشىء الكثير . فالرجل فى أفركمب كان يملك فى تلك الأيام أحسن سترة ، ويحتفـــظ بها مدة نصف حياته بحسبانها كذلك . وقد شاهدت سترة صاحب الطاحون من شقوق صندوق الملابس على الأخص خمسة وعشرين صـيفا ولم ترث قط بعد ، ولو أنها بدأت تصبح غريبة الشكل . بيد أن ذلك لم يكن يستطاع تجنبه ، فالسترات العادية وأحسن السترات ، كانت أنواعا متميزة غير قابلة للتبديل ولما كان يقطن غير بعيد عن مشهد العرض فقـد سـار صاعداً فى التل وفى رفقته السيدة جارلاند وآن كالعادة .

كان اليوم صافى الأديم لا يتحرك فيه إلا نسيم خفيف . وكان المنظر الذى يبدو من الهضبة من أكثر مناظر الإقليم اتساعا ، خالياً من السحب ، وكانت عين أى مشاهد يهتم بمثل هذه الأمور ، تمتد إلى البلدة التى تغمرها الأمواج ، وإلى الخليج الواقع خلفها ، والجزيرة ذات الشاطىء المكسو بالحصا ، الراقدة فى البحر إلى شمال تلك الأماكن كأنها وحش هائل جاثم قيده البر الأصلى . وفى الأفق البحرى الواقع إلى أقصى الشرق تضع « سان الدهلم هيد »(١) حدا للمنظر ، ويسطع البحر إلى الجنوب كـأنه مرآة واقعة تحت الشمس . وفى اليابسـة أمـكنت رؤية « بدبرى رنجز » حيث أقيمت منارة حديثة . وبدت إلى مسافة أقرب « رينبرو » الواقعة بمرج « إجدون هيث » حيث تقوم منارة أخرى . وبدت « بلبرو » من مسافة أبعـــد إلى اليسار حيث توجد كذلك منارة ثالثة . وعلى شوط غير بعيد منها ظهرت « نتلـكمب توث » ، وإلى الغرب « دجبرى هيل » ، وظهرت « بلاك أون » بالقرب من صدر المنظر حيث بنيت المنارة القائمة عليها من خشب شجر الشوك ، وصنع سقفها من القش . وقد قامت فى نفس المكان الذى يرفع فيه ذلك النصب رأسه الآن .

وسار الجنود فى الساعة التاسـعة إلى أرض العرض وقد جاء بعضهم من المعسكرات المجاورة ، وبعضهم من الثكنات القائمة فى البلدان المحيطة بذلك المكان. وسدت مداخل الهضبة عربات من جميع الألوان والأعمار والأوصاف ، وجموع

---

(١) سان ألبان هيد (تعليق الأصل) .

من الراجلين المنتسبين إلى كل طبقة . وقيل فى الساعة العاشرة إن أعضاء الأسرة المالكة يقتربون . وظهر الملك بعد ذلك بقليل ، يرافقه دوق كمبريدج ، ودوق كمبرلاند ، وجنرالان ، وكان يمتطى صهوة جواد ، ويضع على رأسه قبعة مستديرة ، قلب طرف أحد جانبيها إلى أعلى ، وزينت بشارة ، وبريشة عسكرية . (حماسة بين الجماهير) ثم دخلت الملكة وثلاث أميرات ميدان العرض فى عربة كبيرة مكشوفة تجرها ستة جياد جميلة لبنية اللون . وتبعتها عربة أخرى مماثلة تجرها أربعة جياد . وكانت تقل الأميرتين الباقيتين . (صيحات مختلطة من النظارة المحيطين بالمكان) : « ها هو ذا الملك جارج(١) ! » ، « ها هى ذى الملكة شارليت ! » ، « الأميرة ليزابث ! » ، « الأميرتان صوفيار وميلبير ! » إلخ .

وكان حظ آن وجماعتها حسناً إلى حد هيأ لهم مكاناً فى قمة إحدى الروابى القائمة هنا وهناك فى الهضبة . وقد أنشأ صاحب الطاحون ، مدفوعاً بالشهامة ، مقعداً صغيراً من حجر الصوان هرمى الشكل ، وأجلس المرأتين عليه فتمكنتا بهذه الوسيلة من أن تريا من فوق الرؤوس مابدا تحتهما وحولهما من خيول الجموع ومركباتهم المكشوفة . وعندما مر الجنود فى العرض العسكرى استكشفت عينى صاحب الطاحون التى كانت تهيم حول العرض باحثة عن غاية ما . . . استكشفت إبنه يحتل مكانه بينى نافخى البوق الذين كانوا يسيرون قدماً فى صفين ، ويعزفون نغما يسير الجنود على وقعه .

وصاح قائلا للأرملة :

ـــ ها هو ذا جون ! . . . إن بوقه من لونين ، أترين ؟ . . بينما أبواق الآخرين لا لون لها .

والآن رأته السيدة جارلاند أيضاً . وأعجبت ؛ متحمسة ، رافعة يديها إلى أعلى ، وحدت آن حذوها فى صمت . ولكن عينى الفتاة وقعتا على قامة فارس فرقة المتطوعين فستوس ، قبل أن تتحولا نهائياً عن نافخ النفير الأول ، وكان يسير مع فرقته ، ويحتفظ بوجهه وسطا بين التعالى والفروسية . ولا شك أنه كان يبدو عسكرياً كأى من أفراد وحدته ، ولكنه كان يشعر بأن عسكريته تبلغ

(١) كتبت الكلمة هكذا فى الأصل كما ينطق بها فى اللغة الدارجة .

فى جبروتها عسكرية ستة فرسان ، ولم يكن أحد من مشاهديه يعجز عن رؤية ذلك . واستترت آن وراء صاحب الطاحون خشية أن يتبينها فستوس ، وأن يتهجم عليها فى فورة غضبه دون ما نظر إلى وجود مليكه ويقول : « لماذا بحق الشيطان هربت فى تلك الليلة ؟ ... هيه ، يا سيدتى ؟ » ولكنها عقدت العزم على أن تمتنع عن التفكير فيه هذه اللحظة ، وتظل وثيقة الصلة بلفدى الذى هو صديق أمها . وقد ساعدتها على ذلك الأنغام المثيرة المنبثقة من بوق هذا الجندى ، ومن أبواق مرؤوسيه فى نفس الوقت .

وقال صاحب الطاحون منشرح الصدر :

— لا يوجد فى فرقة الجيش من يفوق نافخ النفير أهمية إلا قلة من الرجال، ومع ذلك فهو الفتى الذى يقول للكافة ماذا يفعلون. أليس كذلك ياسيدة جارلاند؟.

وقالت السيدة :

— إنه كذلك ـ صاحب الطاحون .

— إنهم يعجزون عن التصرف دون جاك ورجاله كما يعجزون دون وجود الجنرالات .

وقالت السيدة جارلاند فى نغمة تنم على اتفاقها اللطيف على ذلك مع كل فرد فى بريطانيا العظمى وإرلندا .

وقد قيل إن طول صف العرض فى ذلك اليوم بلغ ميلين أو ثلاثة أميال وكان يمتد من الأرض القائمة عن يمين المكان الذى يقف فيه الناس إلى طريق بوابة المكوس الواقع عن يساره .

وبعد انتهاء العرض اشتبك الجنود فى معركة وهمية شاهدها المتفرجون خلال وقوعها فى دائرة أوسع فوق الهضبة مما أمكن الأرملة جارلاند من أن تفوز بلمحات أوضح من الملك ، ومن جواده الوسيم ، ومن رأس الملكة ، وأكتاف الأميرات ومرافقهن وهن فى عرباتهن ، وأجزاء بسيطة من جسم الجنرال جارث ودوق كبرلند . وهذه اللمحات بعثت فى نفسها ابتهاجاً كبيراً . وكانت تجذب ابنتها فى كل مناسبة وتصيح : « تستطيعين الآن أن ترى ريشة قبعته ! » ، « هاهى ذى قبعته ! » ، « هاهو ذا شال صاحبة الجلالة الحريرى الهندى ! » وكان افتتانها

وهى تصيح صبيانى الشكل مما جعل صاحب الطاحون يظنها أكثر شبابا وانفعالا من ابنتها آن .

كان صاحب الطاحون فى هذه المناورات العسكرية يتتبع مصير رجل واحد ، وآن جارلاند تتبع مصير رجلين . أما باقى النظارة المختلفين عن جماعتنا ، غير المهتمين اهتماما خاصاً بجندى من الجنود ، فلم يروا غير عسكر وكتائب معينة ، وخطوط صفر مستقيمة ، وخطوط زرق مثلها ، وخطوط بيض مكونة من سراويل الركوب الكثيرة العدد ، وخطوط سود مكونة من أكسيد السيقان العديدة كذلك . وكانت هذه الخطوط تروح وتجىء متغيرة كمشاهد النظارة الملونة . . . من ذا الذى يفكر فى كل نقطة سوداء من هذه الصفوف على أنها رجل منعزل ، وكل رجل يهتم بنفسه وحدها داخل صومعة عقله ؟ هناك شخص واحد رأى ذلك... هو فتى فى ريعان الشباب يبعد كثيرا عن الرابية التى تقف عليها السيدة جارلاند وابنتها وميلر لفدى . وكان تعبير وجهه الطبيعى مشوبا بعض الشىء بالأثر البرنزى للجو الخشن ، ولكن خطوط فمه دلت على أن الخلجات العاطفية قوية فيه . . . ولعلها أقوى مما يستطيع التحكم فيها وضبطها كل الضبط . وكان يرتدى سترة زرقاء ذات أزرار صفر صغيرة ، وبدا واضحا أنه جواب بحار .

وفى هذه الأثناء أخذ رجل أعمال عريض المنكبين ، ممتلىء الجسم ، يقطع طريقه قدما ، بجدفا بيديه ، فى جانب المسطح الذى تقوم عليه تلك الكومة التى شيدها صاحب الطاحون نفسه . ورأى التاجر السيد لفدى من أسفل الرابية ، وأشار ليلفت الانتباه . ونزل إليه لفدى قاطعا نصف المسافة بينهما . وصعد الآخر مقترباً على قدر ما يستطيع . . . قال الرجل :

— يوجد ياميلر خطاب باسمك راقد فى مكتب البريد منذ ثلاثة أيام ،ولو علمت أنى سأراك هنا لجئت لك به معى .

وشكره صاحب الطاحون على إفضائه إليه بالنبأ ، وافترقا ، وعاد لفدى إلى قمة الرابية . وقال للسيدة جارلاند التى نظرت متسائلة إلى وجهه وقد بدا عليه الآن الجد الشديد .

— ياله من أمر غريب ! فهذا هو رئيس مكتب البريد فى بدماوث ، وقد

قال لى إن هناك خطابا باسمى . آه ، لقد ذكرت الآن أنه كان هناك خطاب وقع تحت نظرى منذ ثلاثة أيام ، فى تلك الليلة بالذات .. كان كبير الحجم ، أحمر اللون ، ولكننى لم أفكر فيه لخبلى . ومن يمكن أن يكون مرسله ياترى ؟

وكان ورود خطاب فى هذا العهد يعد حدثا كبيرا لدى القرويين ، ولدى حتى ميلر ذى المكانة المحترمة ، إلى حد أن لفدى انتابته آنذاك نوبة من شرود الذهن حالت دون مشاهدته لما استجد من المعركة الوهمية ، أو لجموع الناس ، أو للملك . وبددت السيدة جارلاند شيئا من مشغولية باله إذ أشارت إلى أن الخطاب قد يكون وارداً من ابنه روبرت .

وقال ميلر لفدى :

— من الطبيعى أنه كان لا بد أن أظن ذلك ، ولكنه كتب إلى منذ شهرين فقط . وجاءت إلى جون أنباء عنه فى بحر الأسابيع الأربعة الأخيرة وقتما كان يوشك أن يبدأ رحلة أخرى . . . وإذا أذنت لى يا سيدة جارلاند .. ياسيدتى ، فسأرى هل يذهب أحد إلى بدماوث اليوم ، وذلك لأستطيع تسلم الخطاب هذا المساء ، فأنا لا يمكننى الذهاب بنفسى .

وهكذا فارق السيد لفدى الأم وابنتها فترة من الزمن . ولما كان منزلها قريباً جدا فإن السيدة جارلاند لم تبق فوق الربوة انتظاراً لعودته ، ولكنها سارت مع آن وقتاً قصيراً إلى أن تهيأ لها أن تخطوا منحدرتين من جانب الهضبة إلى باب دارهما نفسه . وأنصتتا إلى رجل كان يراهن بجنيه يعطيه نظير عشرة جنيهات يأخذها فى حالة ما إذا قتل بونابرت فى خلال ثلاثة أشهر . وكذلك أنصتتا إلى مسامرات أخرى من هذا القبيل ، وهى لم تكن نادرة فى ذلك الوقت . وبينما كانتا تتجولان وقعت عينا الملاح المنوه عنه مرة على آن ، وانحرف بصره عنها وتجاوزها دون اكتراث .

وكان لفدى الكبير خلال هذا الوقت يبحث فى الطرف الآخر من الصف عن رسول يبعث به إلى البلدة ، وانتهى العرض فى الساعة الثانية عشرة ، وغادر الملك وأفراد أسرته التل، وانجلى الجند عن الميدان يتبعهم النظارة ، وفى الساعة الواحدة عادت المروج مقفرة كما كانت .

هذه المروج لا تزال إلى اليوم تمد حشائش سطحها إلى الشمس كما فعلت ذلك خلال اليوم الجميل المذكور الذى لا يعد بعيدا جدا ، فيما إذا تحدثنا تاريخيا . ولكن الملك ورجاله المسلحين الذين يبلغون خمسة عشر ألف جندى ، والجياد ، والفرق الموسيقية ، والأميرات ، والفرق ذات اللون اللبنى ... ونختصر فنقول كيف مضى وانقضى كل ما حوى مركز البقعة الضخم الذى لم تكن تلك المروج بالنسبة له إلا مجرد حاجز أوهامش ، ؟ إنهم يرقدون مبعثرين فى أرجاء العالم بعثرة عجاج الحروب وغيره من الأتربة ، فبعضهم فى طلبيرة(١) ، وبعضهم فى ألبويرا(٢) وفى شلمنقة(٣) وفيتوريا(٤) وطولوز(٥) ووترلو . ويرقد بعضهم فى مقابر بلادهم ، وقلة قليلة منهم فى الأقبية الملكية .

وفى عصر ذلك اليوم ظهر لفدى ، بعد أن تخلص من نفيره وزينته ، عند باب الدار القديمة للطاحون ، ورأى آن واقفة عند بابها .

وقال الجندى فرحا :

— لقد رأيتك يا آنسة جارلاند .

وقالت مبتسمة :

— أين كنت واقفاً ؟

— فوق قمة الربوة الكبيرة . . . إلى يمين الملك .

وأردفت قائلة :

— وأنا رأيتك مرات عديدة .

وبدا أن ذلك سر لفدى :

— هل بذلت جهدك حقا للعثور على ؟ كان هذا طيبا جدا منك .

وقالت السيدة جارلاند مطلة من نافذة علوية :

---

(١) موقعة تاريخها ٢٨ من يوليو سنة ١٨٠٩ (تعليق الأصل) .
(٢) تاريخها ١٦ من مايو سنة ١٨١١ (تعليق الأصل) .
(٣) تاريخها ٢٢ من يوليو سنة ١٨١٢ . (٤) تاريخها ٢١ يونيو سنة ١٨١٣ .
(٥) ١٠ من أبريل سنة ١٨١٤ . وهذه المواقع الحربية كلها من مواقع شبه الجزيرة . (تعليق الأصل)

ـــ كانت عيناها تتبعانك أينما ذهبت .

وقالت آن مرتبكة :

ـــ كنت أنظر دون شك إلى جنود الدراغون أكثر مما كنت أنظر إلى غيرهم . وعندما تتبعتهم بنظرى وقعت عيناى بالطبع على جنود البروجى . وقد اتجه بصرى إلى جنود الدراغون على العموم ، وليس ثمة شيء أكثر من ذلك .

وهى لم تقصد أن تظهر لجاويش البروجى أى حنق ، ولكنه تصور عكس قصدها ، ووقف مهموما . ولكن الموقف تفرج بمجيء صاحب الطاحون الذى كان لا يزال يبدو جادا .

ـــ أنا لم أزل مشغول البال جدا ياجون ، وذهابى إلى العرض لم يتمخض عن لا شيء ، فهناك خطاب ينتظرنى فى بدماوث ولا بد من حصولى عليه قبل أوان نومى ، وإلا فان يغمض لى جفن غمضة واحدة .

وقال جون :

ـــ سأذهب أنا بالطبع ، ولعل الآنسة جارلاند تود أن ترى مايحدث هناك اليوم ؟ لقد توجه الجميع ، أوهم بسبيلهم إلى التوجه لهناك . إن الطريق مثل المهرجان .

كان يتحدث متوسلا ، ولكنه لم يفز برضا آن .

وقال صاحب الطاحون :

ـــ تستطيعون الذهاب بالعربة ذات العجلتين . فهذا يفيد « بلوسوم » .

وأجاب جاويش البروجى غير راغب فى إكراه آن على ما لا تريد :

ـــ دع ديفيد يذهب بآن فى العربة ، فأنا سأذهب سائرا على قدمى ، وسيان عند الحالان .

ورحبت آن بهذه التسوية مغتبطة ، وتحدد وقت لبدء الرحيل .

الحديث

وسط الجماهير

(١٣)

ورحلوا بعد الظهر بينما لم يظهر لجون لفدى أى أثر فى أى مكان . وكانوا على طول الطريق يسبقون ، وتلحق بهم عربات من كل صنف تجرى فى نفس الاتجاه . ومن بينها تلك الآلة الضخمة التى ابتدعوها لنقل الجنود إلى أية بقعة ينزل فيها الأعداء على الشاطىء . وتتكون هذه الآلات من أربعة ألواح خشبية ممدودة على نوع من « الترولل » ، وتقل كل منها ثلاثين رجلا من جماعات المتطوعين .

وكان « المنتزه الجورجى » على شاطىء البحر فى غمرة الفرح . فقد ازدحمت البلدة ازدحاماً كبيراً بمن وفدوا إليها من بلاد الريف المحيطة بها . وكان فى ذلك ابتهاج للبلدة وربح كبيران . وبلغ الخوف من الغزو حداً رابطت فى الطرق البحرية بسببه ست سفن حربية لضمان سلامة الأسرة المالكة . وفى كل يوم كان يجاء بفيلق قوامه ألف رجل من الجنود الفرسان والمشاة المنتمين إلى الفرق المقيمة فى الثكنات أو المعسكرات المنتشرة فى التلال المجاورة . ويرابط هـذا الفيلق للحراسة أمام قصر جلوسستر لودج حيث ينزل الملك . . وكانت الساعة قد بلغت السادسة عنـدما وصلت آن ومرافقها إلى ذلك المكان ، وقد جاءا إليه مشياً على الأقدام بعد وضع الحصان فى اسطبل بضاحية المدينة ، وكان الملك وقتئذ فى « الميدان » ، والجنود يسيرون تلك اللحظة فى طوابير لتولى الحراسة . واصطفت جماعتهم أمام الملك ، وحياه الضباط وهم يمرون أمامه .

ووجدت آن نفسها وقتئذ تلتصق بالأحداث وتنظر فى أعماق نهر التاريخ المسجل ، حيث تبدو صغائر الأمور بين شاطئيه كباراً ، وترضى هى والحشود الجامعة من الجنس البشرى الموجود خارج شاطئيه ، بأن يعيشوا كنافلة لا يلتفت إليها ، ولا تدخل فى حساب .

وعند عودتها من فرجة ذلك المنظر الهام وجدت جون لفدى يقف هناك .

وكانت تتوقع منه أن يحضر بهذه الطريقة الغامضة ، فمن العجب العجاب أن يتمكن من الحضور بمثل هذه السرعة . ولكن ها هو ذا واقف . . لا ينظر إلى الملك ، أو إلى الجماهير ، ولكنه ينتظر لفتة من رأسها .

وقالت آن متظاهرة بالوقار :

ــ أنا لم أرك يا جاويش البروجى ! كيف لاتسير كتيبتك أمام الملك ؟

وقال لفدى :

ــ نحن نقوم بذلك مناوبة ، ونوبتنا ليست اليوم .

وكانت تريد وقتئذ أن تعرف هل كانوا يخشون أن يختطف القنصل الأول(١) الملك . وأجاب لفدى بالإيجاب وقال إن جلالته أميل إلى المغامرة . فمنذ يوم أو يومين أبحر بعيداً إلى حد أن إحدى طرادات العدو كادت تأسره ... ثم قال :

ــ إنه يتوق إلى منازلة بونى يداً بيد .

وقالت آن :

ــ ياله من ملك طيب شجاع !

وبدا أن لفدى كان يتوق للانتقال إلى مسائل أخص ، وسألها :

ــ هل تدعينى أذهب بك إلى الجانب الآخر حيث تكونين أكثر تمكناً من الرؤية ؟ إن الملكة والأميرات يطللن من النافذة الآن .

ووافقت آن موافقة جامدة ، وقالت :

ــ انتظرنى هنا يا ديفيد ، فسأعود ثانية بعد دقائق معدودة .

وسار بها جاويش البروجى جينئذ منتصراً ، ومرا بجانب الجموع ، ودارا حتى وصلا إلى الجانب القائم تجاه الرمل . وطفق يحدثها عن كل ما أمكنه أن يفكر فيه من الناحيتين العسكرية والمدنية . وحدثته آن ، مقابل ذلك ، بمقاطع جميلة ، وكلمات اعتراضية . . . حدثته عن لون البحر ، والتفاف الزبد . . . طريقة فى الحديث حركت قلب الجندى بمقدار يزيد حتى على ما قد تحدثه الخطب الطويلة المباشرة .

---

(١) عين بونابرت قنصلا أول فى ١١ من نوفبر سنة ١٧٩٧ ، وأصبح دكتاتور فرنسا فى واقع الأمر . وقد توج إمبراطوراً باسم نابليون الأول فى سنة ١٨٠٥ (تعليق الأصل) .

وتجرأ فى النهاية وقال :

ــ وماذا عن المسألة الأخرى التى حدثتك فيها ؟

ــ لنمتنع عن الحديث فى هذا .

ــ هل أنت لا تميلين إلى ؟

وقالت وهى تنظر إلى معدات الاستحمام ، وآلات الحفر التى يلعب بها الأطفال ، وغير ذلك من الأشياء العامة المتعلقة بشاطىء البحر ، وكأن اهتمامها كان منصرفا إليها أكثر من انصرافه إلى لفدى .

ــ أوو ، لا .

ــ ولكن هل أنا غير أهل لابنة رجل مهذب ذى حرفة ... هل هذا ما تقصدين ؟

وقالت وهى لا تزال منصرفة بذهنها إلى المناظر المحيطة بها دون أن تهتم به !

ــ هناك شىء فوق الاعتبار الشخصى تتطلبه مثل تلك المسائل كما تعلم ... آه ، ها هى ذ الملكة والأميرات فى النافذة !

ــ شىء فوق الاعتبار الشخصى ؟

ــ حسناً . مادمت تتشبث بحملى الكلام ، فقصدى أن المرأة ينبغى أن تحب الرجل الذى تختار .

وبدا أن اهتمام جاويش البروجى بهذا كان أقل من اهتمامه بتفوقها المزعوم . وسألها كما يسأل الرجل الذى يعرف أنه ملحاح ويعجز مع ذلك عن كبح جماحه :

ــ إذا كان الأمر مؤاتيا من هذه الناحية فهل كنت تهتمين بالناحية الأخرى ؟

ــ كيف أبدى رأيا بينما أنا لا أعلم ؟ ... ما أبدع القبعة الصغيرة التى ترتديها الأميرة الأكبر سنا !

وامتد يأس مرافقها الشامل فغمره حتى كاد يمس شريطه وريشته :

ــ قالت أمك ، كما تعلمين يا آنسة آن ...

وقالت الفتاة :

ــ نعم ، هذا أسوأ ما فى الأمر ... لنعد إلى ديفيد ، لقد رأيت كل ما أردت أن أراه يا سيد لفدى .

ولاحظت جموع الناس وقتئذ كلا من الملكة والأميرات يطللن من النافذة ، وأطلقوا هتافاً ردت عليه السيدات بمناديلهن المطرزة . وارتدت آن راجعة إلى

الطريق المرصوف مع الجاويش البروجى الذى حسدتها عليه الفتيات لأنه كان جنديا حسن المظهر جداً . ولم يقف الأمر عند هذا ، وإنما كان معلوما كذلك أنه لم يلتحق بالجندية بدافع الحاجة إلى الرزق ، ولكن بدافع الوطنية ، فقد عرض عليه أبوه مرارا أن يقيمه على عمل ... وأعجب الجميع بذوقه الجميل لإيثاره صهوة الجواد والبزة العسكرية على طاخون دقيق قذرة شديدة الجلبة ... وكانت هى أيضاً حسنة المظهر جداً وهى تسير قدما فى أبدع ثيابها ... القبعة الحريرية ، والشال من الخز ، والقفاز المشدود على المعصمين وهو آخر طراز للقفازات فى أفركمب ، وكان فى العام الماضى آخر طراز فى البلدة المجاورة ، وكان كذلك فى لندن منذ ثلاث سنوات أو أربع . وهى لم تستطع أن تعامل لفدى بخشونة ، وتصرفه بغلظة ، فإن اشتغاله بالموسيق هذب حاشيته ، وعلمه ، وجعله شديد الشاعرية . وكان اليوم على الأخص حسن التهذيب رقيقاً ، ولذلك قالت له : « لنعد إلى ديفيد » ، بدلا من أن تقول: « لا تخاطبنى على هذا النحو مرة أخرى » .

وكان ديفيد قد انصرف عندما وصلا إلى المكان الذى تركاه فيه . واغتاظت آن عندئذ غيظاً شديداً ، وقالت :

— ماذا سأفعل ؟

وقال لفدى الذى كان قد منح ديفيد مالا فى الخفاء لتمثيل هذه الفعلة :

— إنه لم يذهب إلا لشرب كأس فى نخب الملك ، وسيعود حالا ... اعتمدى على قولى هذا .

وقالت وقد أفعم الاحتشام نظراتها ونبرات صوتها :

— أتسمح أن تذهب وتجده ؟

فقال لفدى فى تبرم .

— سأفعل .

وانصرف . ووقفت آن ساكنة . وهى تستطيع أن تهرب الآن من صديقها الشهم ، فبرغم أن المسافة إلى دارها طويلة فقطعها مشيا على الأقدام ليس بمستحيل. ولكن لفدى — من ناحية أخرى — رفيق مخلص طيب تشعر له بما يكاد يكون شعوراً أخوياً . وقد انقبضت من فكرة مثل هذه الحيلة . ووقع بصرها على الأرض بينما كانت واقفة تتأمل ولا تولى اهتماما كبيراً بالموسيقى ، وبالجنود أثناء مـ يتهم

العسكرية ، وبالملك والدوقات والحاشية المتألقة ، والمرافقين ، وجماعات الجمهور السعيدة .

رأت زهرة ملقاة أمامها ... كانت قرنفلة قرمزية يانعة لم يمسسها سوء . ودفعتها رغبة غريزية فى إنقاذها من التلف الذى قد تلحقه بها أقدام المارة ، ومالت فالتقطتها . ثم دارت ببصرها فيما حولها مدفوعة بوعى مفاجىء . وكانت تقف إلى جوار نزل ظهر فستوس دريمان مطلا من إحدى نوافذه العلوية هو واثنان أو ثلاثة من أقربائه قدوا على غراره ، وجاءوا على شاكلته ... وأومأ متلهفاً ، ودلها على أنه هو الذى ألقى الزهرة .

ماذا ينبغى أن تصنع ؟ إن إلقاءها سيبدو سخيفاً ، واستبقاءها سيبدو فعلة خرقاء . وأمسكت بها بين إصبعها وإبهامها وأدارتها حول نفسها ، ثم عادت وأدارتها إلى الخلف ، ناظرة إليها دون تمحيص . وفى هذه اللحظة رأت الرقيب البروجى يقبل عائداً إليها ... وقال دون أن يشعر قلبه بأسف على ماقال :

ـــ لم أتمكن من العثور على ديفيد فى أى مكان .

وكانت آن لاتزال تمسك بالقرنفلة وكأنها توشك أن تسقطها . وبينما لم تدرك ماتصنع إلا قليلا ، نظراً لشعورها المشجن بأن عيونا ترقبها ، أعطت لفدى الزهرة .

وأشرق وجهه غبطة وهو يتناولها وقال :

ـــ أشكرك شكراً جزيلا .

وأدركت آن وقتئذ أى خطأ مضلل ارتكبته فى حق لفدى وهى تلهو بفارس المتطوعين . ولعلها بذرت بذور عراك بينهما . وأسرعت فقالت :

ـــ إنها ليست قرنفلتى . كانت ملقاة على الأرض ، وليس لى قصـــد فى إعطائك إياها .

وقال الجندى البرىء وكأنه يعلم الكثير عن جنس النساء :

ـــ ولكنى سأحتفظ بها على أية حال .

ووضع الزهرة بعناية داخل سترته بين صداره الأبيض وقلبه .

وإذ رأى فستوس ذلك انتفش فى غيظ ، واتقد وجهه ، وهب واقفاً على قدميه ، وحدق فيهما وهو أشبه بمصباح فى لون اللفت .

وقالت آن فزعة :

— لنمض .

وقال لفدى :

— سأرافقك حتى تصلى سالمة إلى باب دارك . اعتمدى علىّ ... ولكن ... لقد كدت أنسى ... فهناك خطاب أبى الذى ينتظره فى لهفة شديدة ! هل تسمحين بالذهاب معى إلى مكتب البريد ، ومن ثم أذهب بك إلى دارك رأساً .

وفرحت آن بالذهاب إلى أى مكان إذ كانت تتوقع أن ينقض فستوس منحدرا إليهما فى أية لحظة . وقبلت ذلك الاقتراح ، وسارا معاً إزاء ساحة استعراض الجيش .

واتخذ لفدى ما حدث دليـــلا على إذعان آن . وبذلك دخل مكتب البريد بروح مرحة ، ودفع الأجر المطلوب ، وتسلم الخطاب وقال :

— إنه من بوب ، مع ذلك . وقد سمح أبى أن أقرأه على الفور توقعا لاشتماله على أنباء سيئة ، فعفوا إذا ما أخرتك دقيقة .

وفض الغلاف ، وقرأ الخطاب بينما آن واقفة إلى جانبه فى صمت . وقال رقيب البروجى دون أن يرفع بصره :

— سيحضر إلى بلده « ليتزوج » .

ولم تجب آن . وغمر الدم وجهها فى اندفاع لدى سماع كلماته . ثم ارتد تاركا وجهها أميل إلى الشحوب مما كان قبلا . وأخذت تدارى اضطرابها ، ثم تغلبت عليه دون أن يلحظ لفدى شيئاً من ذلك المشهد العاطفى ... وقال :

— سيكون هنا يوم السبت ، على قدر علمى .

وقالت آن فى هدوء تام :

— حقاً ! .. ومن الفتاة التى سيتزوجها ؟

وقال جون وهو يقلب الخطاب :

— هى غريبة عن بلدنا .

وفى هذه اللحظة دخل صاحب الطاحون مكتب البريد مسرعاً وصاح :

— هيا يا جون ... إنى انتظرت ذلك الخطاب ... وانتظرته ... إلى أن كدت أفقد صوابى .

وذكر له جون النبأ فى اختصار . وبعدما أفاق الأب من دهشته ، وخلع قبعته ، وجفف الخط الذى تلتقى عنده حافة جبهته وشعره على وجه التحديد ، سار مع آن إلى الشارع تاركا جون ليعود وحده . وكان صاحب الطاحون شديد الاستغراق فى تصوره العقلى لزواج بوب إلى حد أنه لم ير شيئاً من الملاهى التى مر بينها . ويظهر أن آن كذلك تأثرت بنفس النبأ تأثراً شديداً إلى حد أنها مرت بالنزل الذى يقيم فيه فستوس دون أن يبدو عليها أنها تذكرت وجوده هناك ؟

فى ساعة متأخرة

من مساء نفس اليوم

(١٤)

كانت الشمس تميل إلى الغروب عندما وصلا إلى البيت . وقد ذاع قبل وصولهما أن ميلر لفدى تلقى خطاباً وعندما التقطت الآذان الصوت الدال على أن عربته ذات العجلتين آتية من الدرب انحدر قطان أفركب صوب الطاحون على أثر دخوله بيته ... ولمع من النافذة وميض مفاجىء دل على أن صاحب الطاحون أضاء فى وقت مبكر مثل ذلك النور الذى ما من شىء يمكن أن يحتاج إليه غير الخط المكتوب على التو . كانت الخطابات وقائع ذات أهمية عامة . ولم يكن فى الأبرشية فرد لا يهتم بقراءة هذه المستندات النادرة . حتى أن صاحب الطاحون عندما وضع الشمعة ، ومال بجسمه ، ونادى السيدة جارلاند لأخذ رأيها فى معنى أية عبارة هيروغليفية قد تعترض قراءته للخطاب ... وجد أنه سيعان إعانة إضافية بآراء جيرانه الآخرين الذين ظهرت شخوصهم فى مدخل الباب ، وقد حجب كل منهم جانب من الباقين كما تحجب رزمة من ورق اللعب بعضها عن بعضاً ، ومع ذلك كان كل منهم يبدى من نفسه جانباً كبيراً يكفى للدلالة عليه . واختار صاحب الطاحون طريقته المتبعة فى ملء فترات الفراغ العرضية ليتيح للقوم أن يرتبوا أنفسهم، وطريقته هذه هى تقريط ذبالة الشمعة... وقالوا له :

— سمعنا أنك تلقيت خطاباً يا سيد لفدى .

وقال لفدى :

— نعم : سوثمبتون فى ١٢ من أغسطس ... أبى العزيز ... »

وصمت الجميع كما يصمت أقرباء الميت عند قراءة الوصية . ودخلت آن مع أمها وجلست . وقد كان للخطاب جاذبية خاصة بالنسبة لها .

وذكر بوب على طريقته الخاصة ، أنه منذ نزوله إلى البر ، أدخل فى حسبانه طلب أبيه إليه أن ينبذ حياة البحر ، ويصبح شريكا له فى الطاحون . وقد قرر

الموافقة على هذا الاقتراح . وهو سيعود إلى أفركمب ، وقد وضع هذا الهدف نصب عينيه — خلال ثلاثة أيام من تاريخ كتابة هذا الخطاب .

ثم قال عرضاً إنه نزل منذ ارتحاله فى مسكن بمدينة سوثمبتن ، وتعرف فى هذه الأثناء بفتاة جميلة فاضلة وجد فيها صفات تنطبق تماماً على الصفات الضرورية لسعادته . وإذ طالت معرفته لهذه السيدة مدة أسبوعين كاملين فقد أتيحت له الفرص الكثيرة لدراسة خلقها . وقد صك ذاكرته خاطر هو أنه إذا كان هناك شىء ضرورى أكثر من غيره لطاحون ليس له سيدة ، فيوجد شخص يستطيع القيام بهذا الدور فى كياسة ووقار ، وطلب إلى الآنسة ماتيلدا جونسن أن تقبل زواجه بها ، ورضيت هى بذلك ، تلطفا منها ، برغم تضحيتها بعروض مأمولة تفضل عرضه بكثير .. وهو لا يستطيع إلا أن يعد من حسن طالعه السعيد أن يجد فى آخر لحظة مثل هذه السيدة لتزين منزله ، وهى ذات البراءة التى لا تقل إدهاشا عما تتحلى به من جمال . وقد اتفق كلاهما ، دون عناء ، على أن يتزوجا فى الحال ، وأن يتم زواجهما فى أفركمب حتى لا يحرم والده حضور حفل الزفاف . وقد تلطفت فقبلت أن تلحق به عن طريق السفر براً فى خلال بضعة أيام ، وأن تقيم فى بيتهم مدة أسبوع أو أشبه قبل الزواج بحسبانها ضيفة .

وقالت السيدة كفرت من خلف الصفوف :

— هذا خطاب طيب لائق ، وإن أذنى لم تسمعا طوال حياتى برسالة حب صادق كتبت على نحو أفضل من هذا . ويبدو أن كلا منهما شديد التعلق بالآخر .

وقال جوب ميتشل فى استرابة :

— إنه لم يعرفها مدة كافية .

وقالت إستر بيتش :

— إن هـــذا لا قيمة له ، فالطبيعة ستعرف طريقها فى سرعة عندما يحين الأوان . حسنا ، إنها أنباء طيبة بالنسبة لك يا صاحب الطاحون .

وقال لفدى دون أن يظهر مع ذلك أية عجلة للاندفاع فى ذلك النوع المتحمس من الفرح الأبوى الذى كان من الطبيعى أن يحدثه هذا النبأ ، وقد بدا أميل إلى التجاوز عن عواطفه بامتحان كل جزء من ألياف ورق الرسالة .

— نعم ، بالتأكيد . أرجو أن تكون كذلك .

ولم يلبث أن لاحظ قائلا :

— إنى قضيت خمس سنوات فى التردد على زوجتى قبل زواجها ، ولكن الناس كانوا فى عهدنا أبطأ فى الإقدام على أى شىء . حسنا ، فلا بد من الترحيب بها مادامت ستحضر . هل انتبه أحدكم إلى تاريخ اليوم الذى قصده ؟ إن عقلى كان يبعد عن المعنى هنا وهناك وأنا أحاول فهم ما هو مكتوب .

وقالت السيدة جارلاند :

— لقد قال : بعد ثلاثة أيام ، وتاريخ رسالته يحدد يوم مجيئه .

واتضح من امتحان الرسالة أن اليوم المحدد لمجيئه هو اليوم الذى أوشك أن ينقضى الآن ، وعلى أثر ذلك قفز صاحب الطاحون إلى أعلى وقال :

— سيكون هنـــا إذن قبل ميعاد رقادنا ، وأنا لم أدرك حتى الآن أنه سيحضر قبل يوم السبت . . . كيف ! إنه قد يهبط علينا فى هذه الدقيقة !

ولم يكد يتم قوله حتى تردد صوت وقع أقدام تقبل من أمام ، وتقف على التو عند الباب . ودفع لفدى جيرانه مارا بينهم ، وانطلق خارج الغرفة ، وإذ رأى فى الممر قامة وارت الضوء المتقلص ، أمسك بها قائلا : « أوو ، يا عزيزى بوب ، لقد عدت إذن ! » .

وقال القادم الجديد وهو يحاول تخليص نفسه من ضمة لفدى العاطفية :

— ويل لك يا صاحب الطاحون ، لا تخلع كتفى المسكينة من مكانها ... مهما يكن الأمر الذى يدفعك إلى ذلك .

وكان القادم هو العم بنجى .

وتلجلج صاحب الطاحون ، متهـاويا إلى الخلف على أصابع أقدام جيرانه الذين تبعوه إلى مدخل الغرفة عن كثب .

— ظننتك ابنى ! حسنا ، ادخل ياسيد دريمان ، واسترح كما لو كنت فى بيتك . ما هذا ! ، إنك لم تحضر إلى هنا منذ سنين ! فأى شىء حملك على المجىء فى هذا الزمن من أزمان الوجود ؟

وهمس المزارع مستريباً :

ـــ أهو فى الداخل معكم ؟

ـــ من !

ـــ ابن أخى ... ساعيا خلف تلك الغادة التى طعنته الطعنة النجلاء ؟

ـــ أوو ، لا . إنه لا يطرق هذا المكان أبدا .

وتنفس المزارع دريمان الصعداء ، وقال :

ـــ حسنا ، لقد زرتك لأخبرك أن هناك أنباء أخرى عن الفرنسيين ، فإننا سنلقاهم هنا هذا الشهر مافى ذلك أدنى ريب . فالسفن المزودة بالمدافع مستعدة ، ويوجد منها زهاء ألفين ، والجيش الفرنسى بأسره محتشد فى بولونى . ثم إنى أعلم ياصاحب الطاحون أنك رجل شريف .

ولم ينف صاحب الطاحون قوله هذا .

وكرر مالك الأرض المسن ، المتوسط الحال :

ـــ أيها الجار لفدى ، أنا أعرفك رجلا شريفا . أأستطيع أن أحادثك على انفراد !

وأخذه لفدى إلى الحديقة نظرا إلى أن البيت كان مكتظا بالناس . وظل طوال الوقت كأنه مشدود بخطاف . لاخوفا من أن يظهر بونبارت بينهما فجأة ... أبدا ، ولكن خشية أن يحضر بوب دون أن يكون هناك فى استقباله . وقال له العم بنجى لدى وصولها إلى ركن من الحديقة .

ـــ يا صاحب الطاحون أؤكد لك أن حياتى منذ الصباح حتى المساء ليست إلا أرجوحة بين ماأكابده من الفرنسيين ، وما أكابده من ابن أخى فستوس ... إنك رجل شريف يا ميلر لفدى .

وأومأ لفدى :

ـــ حسنا ، لقد جئت أطلب منك معروفاً ، جئت أسألك هل تقبل المحافظة على حجج تمليكى ومستنداتى وما إلى ذلك أثناء غيابى عن منزلى فى الأسبوع القادم خوفاً من أن يحدث لى أمر فيسرقها بونى أو فستوس ، ولا يعود لى شيء بعدذلك فىالدنيا العريضة . وأنا فى مثل هذهالأوقات الرهيبة لا أستطيع أنأأتمن البنوك أو المحامين ... وقد جئت إليك .

ووافق لفدى ، بعد تردد ، على أن يحافظ له على أى شيء يأتى له به . وأجاب المزارع على ذلك بأنه سيأتى بالمستندات والأوراق المشار إليها خلال أسبوع . ثم انصرف من باب الحديقة ، وامتطى مهره الذى كان مربوطاً فى الخارج ، وركبه مبتعداً إلى أن توارت قامته بين الظلال .

وانضم صاحب الطاحون إلى أصدقائه ، ووجد أن جون قد وصل أثناء غيابه . وأخبر جون الجماعة أنه طاف بالميناء بعد مفارقته لأبيه وآن ، ووجد السفينة « بيوث » راسية على الرصيف . وقد علم بعد السؤال أنها وصلت فى الساعة الحادية عشرة ، وأن بوب نزل إلى الشاطىء .

وقال صاحب الطاحون :

ــ سنذهب ونقابله ، فالنور لا يزال منتشرا خارج الدار .

وهكذا خرج لفدى وأصدقاؤه وجيرانه بينما انبجس الندى من الغياض وكون ندفاً من الضباب فى الحفر ، وتريثوا عند أبواب السياجات التى تعرقل الممرات كل مائة خطوة بين قرية أفركمب والطريق العام . ولم يستطع جون لفدى أن يصحبهم نظراً لاضطراره إلى العودة للمعسكر . ولكن الأرملة لفدى رأت من الأليق أن تنضم إلى الموكب ، ونادت ابنتها بعد أن وضعت قبعتها على رأسها . وقالت آن من الدور العلوى إنها ستحضر بعد دقيقة . وسارت أمها دون أن تنتظرها .

ما الذى كانت تصنعه آن ؟.. إنها بعد أن أقفلت فى سرعة غطاء وعاء تحفظ فيه المواد الصغيرة الحجم ، المتعلقة بميولها العاطفية ، تناولت ورقة صغيرة ملفوفة سبق لنا أن علمنا بها ، وأمسكت بها بعد أن أشعلت ناراً بوساطة صندوق الصوفان الذى تملكه ، ووضعتها على نار الشمعة ـ التى أضاءتها ـ هى وخصلة من الشعر التى تشتمل عليها حتى احترقتا . ثم ارتدت قبعتها ، وتبعت أمها وسائر القوم بين الحقول الرمادية المبتلة ، مرددة فى جذل ، أثناء مسيرها ، غناء منخفض النبرات كيما تؤكد لنفسها عدم مبالاتها بالظروف الطارئة ؟

« الربان » بوب لفدى

من البحرية التجارية

(١٥)

فى الوقت الذى كان لفدى وجيرانه يذرعون الأرض قدما ، والمفاجآت المتوقعة تستحوذ عليهم ، سمع بعضهم — ومن بينهم آن التى كانت فى المؤخرة — سمعوا قعقعة عجلات خفيفة فوق الدرب المقوس الذى كان الممر له شبيهاً بوتر . وقالت آن لنفسها على الفور « لعله هو ، ونحن نفوته الآن » . ولكن الأحداث التى وقعت أخيراً لم تكن من النوع الذى يحملها على الإفصاح عن شىء ، ولم يفكر باقى الجماعة فى الصوت الذى سمعوه .

ولو أنهم عرجوا على الحاجز الذى يحجب الدرب ، ونظروا من خلاله لرأوا عربة خفيفة ذات عجلتين يقودها صبى يجلس إلى جواره رجل من جوابى البحار ، ويبدو على هذا الرجل أن له مركزا مرموقا فى البحرية التجارية ، وقد مد رجله فوق عريش العربة التى اجتازت الجسر الرئيسى الواقع فى ذيل الطاحون ، ووقفت بالباب . ونزل ذلك الملاح الذى بدا أنه فتى لطيف ، حسن الشكل ، نشط ، مشرق العينين ، صغير الأنف ، فاقع ألوان البشرة بسبب تعرضه للشموس المنضجة التى جعلت على الأغلب رابطة بينه وبين الأجنبى الذى دعى باسم « صورة الرجل المهذب » وهذه الصورة من صور معرض « الأساتذة القدامى » . ثم إنه برغم ما تقدم ... وبرغم أن بوب لفدى طاف أرجاء العالم من رأس الرجاء الصالح إلى بيكين ، ومن شاطىء المرجان الهندى إلى البحر الأبيض ، فإن أوضح الملامح التى عاد بها كانت تزيد من شبهه لأمه التى ظلت راقدة وقتاً طويلا تحت الكنيسة فى أفركمب .

حاول الربان لفدى الدخول من باب البيت ، وعندما وجده مغلقا توجه إلى باب الطاحون . وكان هذا مغلقاً أيضاً لأن الطاحون توقفت عن العمل تلك الليلة ... وقال للغلام :

— إنهم ليسوا فى البيت ، ولكن لا بأس . فما عليك إلا أن تساعدنى على

إنزال متاعى من العربة ، فأنقدك عندئذ أجرك ، وتستطيع أن تعود أدراجك إلى دارك .

وأنزل الغلام المتاع من العربة ، وصرف الغلام وهو يلهج بشكر الملاح على الأجر الذى دفعه. وإذ وجد بوب لفدى أنه لاتزال لديه مندوحة من وقت الفراغ ، أخذ ينظر متأملا إلى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وإلى (نظير السمت)(١) . ثم نشط إلى حمل متاعه ، ودار به جزءاً فجزءاً إلى الباب الخلفى بعيداً عن طريق العابر عرضا . وبعد قيامه بذلك دار حول الطاحون على نحو أكثر انتباها ، وتطلع إلى معالمها المألوفة معلماً معلماً . فالألواح الزجاجية فى غرفة الطحن مغبرة الآن — كما كانت مغبرة من قبل — بالدقيق وذرات الصقيع الأبيض . والطحين يكمن فى أركان قاعدات النوافذة ، وتتكون منه تربة تنبت فيها حشائش لا تنمو أبداً، فهى على عهدها منذ أشد أيام طفولته انغماساً فى غيابة الماضى . ونباتات الطحلب النابتة فوق سطح الجدار المقابل للنهر ، المتسلقة إلى الحد الذى تستطيعه جاذبية الحائط، تبحث عن البلل فى سبيل الوصول إلى غذاء . وماء حوض الطاحون الحبيس بلغ حد الفيضان والتدفق إلى الحديقة ... إن كل شىء بقى على ما هو عليه .

وبعد ما حقق لفدى كفايته من هذا خطر له أنه قد يستطيع دخول الدار برغم الأبواب المغلقة . وبعد أن توجه إلى الحديقة ، وأتى بقائمة خشبية اقتطعها من غصن شجرة تفاح ، ووضعها على حافة نافذة خاصة بغرفة نوم فى هذه الناحية ، وتسلقها كما لو كان قرداً مغربيا ، دخل من النافذة ، وخطا إلى داخل الغرفة . وكان ثمة شىء من الغرابة فى وجوده بين الأثاث المألوف لديه قبل أن يرى أباه أولا . ولم يكن هذا الأثاث الصامت الجامد مبهما . وكأنما أدرك الموت أقرباءه جميعاً ، وبقيت موائدهم وخزاناتهم وأدراجهم وحدها تحييه . وهبط إلى الدور الأرضى وجلس فى الردهة المظلمة . وإذ وجد ذلك المكان أميل إلى الوحشة أيضاً ، ودقات الساعة المتوارية أعلى من المعهود ، نقب عن علبة الصوفان وأوقد بها نارا ، وعمل على جعل البيت حسن الإعداد لدى عودة أبيه ، وقد حزر أنه خرج لاقائه سالكا طريقاً خاطئاً .

(١) نقطة فى السماء تقابل نجم السمت مباشرة ، والاسم عربى الأصل (تعليق الأصل)

وازداد اهتمام روبرت بهذا العمل بينما كان يزاوله . وانهمك فى العمل هنا وهناك داخل المطبخ فى حفة الفتاة . وكان ديفيد ، المختص بكل شؤون المنزل ، قد تاه بين القنانى والكؤوس فى بدماوث ، فلم يبق فى الدار أحد ليعد العشاء ، وتولى بوب الأمر جميعه . واشتعلت النار فى المدخنة بعد وقت قصير ، ووجد غطاء للمائدة ، وتعالت قعقعة الصحون ، ودار البحث عما يمكن أن يوفره البيت من مؤن ، وكان به ، علاوة على لحوم مختلفة الأصناف ، بيض طازج من النوع المستطيل الذى يفرخ لدى الفقس ،وقد احتفظوا به على حدةلوضعه تحت الدجاجة التى سترقد على البيض فى المرة القادمة .

ولم تعرف أفركمب إهمالا أشد من هذا فى كسر البيض الذى جرى الآن منذ الاحتفال بعيد الميلاد الكبير الأخير ، وإذ كسر لفدى بيضةمن إحدى جوانبها ، وأخرى من طرفها ، وثالثة بالطول ، ورابعة بالعرض ، واكتسب المهارة بالخبرة ، وأستطاع فى نهاية الأمر أن يسقط كل بيضة منها وقد شرطت قشرتها إلى نصفى دائرة منتظمين حتى لكأنها فتحت بمفصلة . وانتقل لفدى من البيض إلىلحم الخنزير،ومن لحم الخنزير إلىالكلى ، وأسفر ذلك عن مأكول مشوى باهر .

وأفرغ الملاح العائد إلى بيته كل ذلك الطعام فى وعاء حتى لا يغريه فيأكل منه قبلعودة أبيه ، وغطىأعلاه بصحن ، ثم وضع سترته فوق ذلك الصحن ،وقبعته فوق سترته . وجلس ينتظر ما يحدث بعد أن كتم الرائحة المشهية فلم يعد لها أثر . وقد فرج عنه العناء الناشىء من فعلته سماعه أصوات فى الخارج . ومرت دقيقة وإذا أبوه يدخل عليه .

وقال بوب :

— يسعدنى أن أرحب بك فى بيتنا يا أبى ... والعشاء قد أعد على التو .

وقالت السيدة جارلاند :

— دهن الخنزير ، دهن الخنزير ... ماذا ! ... الربان بوب هنا ! .

وقال صاحب الطاحون وهو يدخل الغرفة ، يتبعه ممثلو أسرة « كريبلستراو» وأسرة « ميتشل » و « بيتش » و « سنوكس » ، ومعهم براعم ناشئة من خلف « فنسيبل تريمليت » ، وخلفهم ديفيد ، وفى النقطة الأخيرة التلاشية من الحشد ظهرت آن الجميلة :

ـــ كنا قد خرجنا لنستقبلك .

وقال بوب :

ـــ ركبت عربة ؛ ولذلك اضطررت إلى المجىء من الطريق العام .

وقال أبوه .

ـــ وقد ذهبنا عبر الحقول ظنا بأنك ستأتى ماشياً .

ـــ كنت سأحضر إلى هنا صباح اليوم ؛ ولكنى لم أجد حتى عربة يد صغيرة لنقل أمتعتى ، فقد ذهب الكل إلى الاستعراض ، وعلى ذلك ذهبت أنا أيضاً ظنا منى بأنى قد ألقاكم هناك . ثم اضطررت حينذاك إلى العودة للميناء كيما أحضر متاعى .

ثم كان الترحيب بالربان بوب ، فإذاهم يجذبونه من ذراعيه كما تجذب الأدراج وتقفل ثانية ، ويدقون ظهره كأنه شرق بشىء فى حلقه ، ويمسكون به وأذرعتهم مبسوطة كأنما هو أضخم شأنا من أن يتلمسوه عن قرب . واحتمل بوب هذا التعذيب بابتسامة عريضة لطيفة لم تلبث أن اهتزت وتناثرت إلى أجزاء مشوشة بين النظارة .

وقال صاحب الطاحون لديفيد الذى قابلوه فى الحقول ، ولم يجدوا شيئاً طرأ عليه بسبب غيبته أسوأ من رنح خفيف شاب مشيته .

ـــ أحضر مقعداً له !

وقال بوب :

ـــ لا بأس . أنا غير تعب . . . وكنت هنا منذ مدة طويلة . . . وأنا . . .

ولكن بوب سقط جالساً إذ وضع أحدهم كرسياً خلفه ، وغمز ركبتيه من الخلف بحد هذه القطعة من الأثاث غمزة موفقة تجعل الإنسان ينعطف ويجلس دون استرسال فى المجادلة . وسحب الآخرون مقاعد أخرى ووضعوها على بعد مناسب للشاهدة السهلة التحليلية ، ولاتخاذ أوضاع أحذق دلالة على الزمالة الطيبة. ومضى صاحب الطاحون يقول :

ـــ يا ديفيد أحضر الأكواب التسعة ، وهى أحسن أكوابنا ، من ركن الصوان ! .. ديفيد ... هات البرمة ! ... ديفيد ، انفض الأكواب من الداخل

بذيل سترتك قبل أن تصب فيها الخمر ، فإن سمك الغبار عليها بلغ حجم بوصة . . . ديفيد ، اخفض كلاب المدفأة عدة درجات حتى يمكن أن تلمس النار « الكنكة » ، وأضيء ثلاث شموع أخرى من أكبر شموعنا ! ... وإذا عجزت عن رفع سدادة الدن يا ديفيد ، فأثقب برميل « هولاند » المدفون تحت كتل الخشب فى مخزن الوقود ... أنت سامع ؟ ... البرميل الذى تركه دان براون هنا أمس نظير الخنزير الصغير المعلوف الذى أعطيته إياه .

وعندما نال كل من الموجودين مقدار أنملة من الخمر التى دارت عليهم ، وانصرف الجيران الذين لا ضرورة لوجودهم واحداً إثر واحد ، بعد شيء من التردد ، واستقر رأى الجيران الأقربين على البقاء للعشاء الذى شرع ديفيد فى تقديمه لهم .

وقال صاحب الطاحون :

ــ لماذا تطوى مفرش المائدة من جديد يا ديفيد ؟

ــ لقد أخطأ سيدى بوب وفرش غطاء داخلياً ، وحسبت أنك لن ترضى عن ذلك يا سيدى لأن هناك سيدات حاضرات !

وقال روبرت :

ــ حقاً إنه كان أول شيء وصلت إليه يدى. وقد بدا لى مفرشاً للمائدة فعلا.

وقال صاحب الطاحون :

ــ لا ضير . وما دام قد وضع أدوات المائدة فلا ترفعها عنها ثانية . دعها تستقر فى مكانها . ولكن أين الأرملة جارلاند ، والآنسة آن ؟

وقال ديفيد :

ــ كانتا هنا منذ دقيقة فقط . ثق أنهما انسحبتا بسبب حياتهما .

وذهب صاحب الطاحون إليهما على الفور ، وسألها أن يعودا معه ، ويتناولا العشاء عنده . وفى أثناء غيبته أسر ديفيد إلى بوب أنه هيأ لأبيه مكاناً ممتازاً بالنسبة لرجل متقدم السن مثله :

ــ نعم ، أيها الربان بوب . . . حسبما ينبغى أن أدعوك على ما أعتقد . . .

لقد خدمت أباك مدة هذه الثمانى والثلاثين سنه ، وظللنا متفاهمين دائماً خلالها . فهو يأتمننى على المفاتيح ، ويعيرنى صداره ذا الكمين ، ويكل إلى البيت بما فيه . والسيدة جارلاند ، الجارة الملاصقة لنا ، لا تختلف هى أيضاً عنه ، وتعاملنى كما لو كنت ولدها بحق .

ــ لابد أنها تزوجت صغيرة جداً لتجعل منك ولدها يا ديفيد .

ــ نعم ، نعم . أنا أكبرهم بسنوات ، ولكنها طريقتى المتبعة فى الكلام .

ولم تقبل السيدة جارلاند أن تحضر العشاء ، وتناوله الحاضرون بدونها . وأوصى بوب أباه بصنف الطعام الذى طهاه على نحو ما يعامل صاحب الدار غريبا حضر توا : وكان صاحب الطاحون يتوق إلى الوقوف على الخطط التى رسمها ابنه للمستقبل ، ولكنه لم يشأ أن يعوقه الآن عن الأكل ، وكان ينظر رافعا بصره عن صحنه ، ليقدر الطريقة الأجنبية التى كان يوارى بها بوب المأكولات الإنجليزية ، وكأنه كان إذ ذاك ينظر إلى طاحون أنشئت على أسس تناولها التحسين .

ولم يكد ديفيد يرفع عن مائدة الطعام ما عليها ، ويضع الصحون صفوفا تحت مائدةالخبز لتلعقها القطط حتى فتح الباب فى سرعة ودخلت السيدة جارلاند وقد بدا عليها اشتغال البال :

ــ ظللت أنتظر حتى أسمع صوت رفع الصحون لأحضر وأخبركم كم نحن خائفون من صوت نسمعه عند الباب الخلفى . وهو يبدوكأن لصوصا يلغطون ، ولكننا إذ ننظر لا نرى أحداً هناك !

وقال صاحب الطاحون وهو ينهض على الفور .

ــ هذه مسألة يجب تبينها ياديفيد ، أضىء المصباح المتوسط الحجم ، واذهب وفتش الحديقة .

وقال ابنه وهو يتناول هراوة :

ــ سأذهب أنا أيضا ، ومن حسن الحظ أنى حضرت فى الوقت المناسب تماماً !

وذهبوا يسترقون الخطى . وتبعتهم الأرملة وآن التى خافت أن تبقى فى الدار وحدها فى مثل هذه الظروف . ولم يكادوا يتجاوزون الباب حتى وجدوا هناك

لغطا بالتأكيد يكاد يكون فى متناول سمعهم ، وقد صدر من سطح الأرض المنخفض وكأنه لغط قوم يرقدون متخفين .

وقال بوب وهو يضرب رأسه بيده ، وكأنه يضرب رأس عدو :

— ليباركنى الله . لماذا . إنها أمتعتى ، وقد نسيتها تماما !

وسأله أبوه :

— ماذا !

— أمتعتى . . . ولولا السيدة جارلاند لظلت هناك ، فى الحديقة ، طوال الليل . ولماتت هذه المخلوقات المسكينة جوعا . فهذه الأمتعة تشتمل على مختلف الأنواع من السلع جئت بها إليك . فادخل الدار ، وسآتى بها إلى الداخل . وهذه التى سمعتها تلغط يا سيدة جارلاند ، هى ببغاوات . ولم يعد هناك شىء يدعو بعد إلى الخوف .

وقال صاحب الطاحون :

— ببغاوات ! حسنا . يسرنى أن الأمر لم يكن أسوأ من ذلك ولكن كيف يمكن أن يعتورك النسيان هكذا يا بوب ؟

وقام كل من ديفيد وبوب بنقل الأمتعة إلى الداخل ، وظهر أن أولها ، بعد فك رباطه ، مكون من ثلاث قطع ملفوفة بأقمشة ، وقد تكشفت بعد رفع الأقمشة عن ثلاثة أقفاص يحتوى كل منها على ببغاء فاخرة .

وقال بوب :

— هذه الببغاء لأبى ، على أن يعلق قفصها بالباب لتسليتنا ، وهى تحسن الكلام ، ولكن النوم غلب عليها هذا المساء ، والأخرى أتيت بها لأهديها لأى جار يريد أن يأخذها . وهى طائر طيب ، وإن كانت ألوانهـــا غير براقة إلى حد كبير .

ثم قال وقد دار صوب آن التى أغرتها الطيور بالتقدم :

إذا أردت أن تأخذيها فهى ترحب بك . . . إنك لم تكادى تنبسين إلى الآن بكلمة يا آنسة آن ، ولكنى أتذكرك جيدا . كم ازددت طولا بالتأكيد .

وأعربت آن عن تقديرها الشديد لجميله ، وقالت إنها لا تدرى ماذا يمكن

أن تصنع بمثل هـذه الهدية . وقبلتها السيدة جارلاند نيابة عنها . واستطرد الملاح يقول :

ـــ والآن . أنا لا أكاد أدرى ماذا أصنع بهذه، ولكن أجرؤ على القول إنها ستنفع على نحو أو آخر .

وقالت الأرملة .

ـــ إنها أجمل بكثير من الأخرى . وأنا أوثر أن آخذها على أن آخذ الأخرى ... إذا كنت لا ترى فى ذلك بأسا .

وقال بوب مرتبكا :

ـــ الأمر وما فيه أن هذه الببغاء لا تكاد تصلح لك ياسيدتى . وأقول لك الحق إنها تفحش فى السباب . وأخشى أن تكون متقدمة فى السن جداً إلى حد يتعذر حملها على الإقلاع عن عادتها .

وقالت السيدة جارلاند :

ـــ ما أشنع هذا !

وقال صاحب الطاحون مقترحا :

ـــ يمكن أن نحتفظ بها داخل الطاحون . ولا يهم أن يسمعها السنان فهو لا يستطيع أن يتعلم سبابا أقبح مما يقذف به الناس الآن .

وقال بوب :

ـــ سيأخذها السنان إذن . أما التى أعطيتك إياها يا سيدتى فلا تؤذى قط . ويمكنك أن تأخذيها معك إلى الكنيسة أيام الآحاد .

وفك البحار الآن رباط صندوق صغير من الخشب يبلغ حجمه مقدار قدم مربعة ، وبه ثقوب ... وقال مستطرداً :

ـــ هما قشتان صغيرتان . ويتعـــذر عليكم أن تروهما الليلة ، ولكنهما جميلتان ... من النوع المخصل .

وقال صاحب الطاحون :

ـــ وما هى القشة هذه ؟

— هى نوع صغير الحجم من القردة . وهى تعض الغرباء عضاً شديداً نوعاً. ولكنكم لن تلبثوا أن تعتادوهما .

وقالت السيدة جارلاند وهى تطل ببصرها من فجوة :

— لا شك أنهما ملفوفتان بشىء ما .

وقال بوب ملتمساً عذراً :

— نعم ، هو قميصى من « الفنلة » . فهما تقاسيان من البرد كثيراً فى هذا الجو ... مسكينتان ! ولم أجد عندى شيئاً أعطيه لهما خيراً منه ... حسناً ، والآن توجد فى الصندوق التالى أشياء مختلفة الانواع .

وكان الصندوق الأخير صندوق بحار بحق . وقد أخرج منه أصدافاً مختلفة الأحجام والألوان ، وتحفاً من العاج المنقوش ، وقبعات صغيرة عجيبة ، ورياشاً ، وعدة مناديل حريرية . وقد نثرت هذه الأشياء فوق ما تيسر من المواد والمقاعد باهرة ، حتى أخذ البيت يبدو كأنه حانوت لبيع السلع .

وصاحت الأرملة جارلاند وهى فى حماسة اهتمامها تتعجل عرض الأشياء المنتظم بالنظر داخل الصندوق إلى السلعة حتى جاء دور إخراجها :

— ما أروع هذا الشال !

وقال الرفيق وهو يخرج شالين من أفتن ما تقع عليه عين :

— أوو ، نعم . سأعطى السيدة الصبية التى سأتزوج بها عما قريب أحدهما . ولعلك تعلمين بزواجى ، ألم يخبرك أبى عنه ... ماتيلدا جونسون ، من سوثمبتون، هذا هو اسمها .

وقالت الأرملة :

— نعم، نحن نعرف ذلك جميعاً.

— حسناً ، سأعطيها أحد هذين الشالين ، لأن ذلك واجب على بالطبع .

وقالت الأرملة :

— بالطبع .

— ولكن الشال الآخر لن ينفعنى بحال . ثم ...

ودار ببصره واستطرد :

— أتقبلين أن تأخذيه يا آنسة آن ؟ إنك رفضت الببغاء فلا ينبغى أن ترفضى هذا .

وقالت آن فى هدوء ، ولكن كذلك فى ضيق شديد :

— أشكرك ، ولكنى لا أريده حقاً ، ولا أستطيع قبوله .

وقال بوب فى لهجة جريحة :

— ولكن أرجو أن تقبليه .

وظلت السيدة جارلاند على مثل شوك الغضى خشية أن تتشبث برفضها السخيف .

وقال بوب وقد أشرق وجهه بأطياف الذكريات :

— ماذا ! ... إن هناك سبباً آخر يضطرك إلى قبول الشال . . . فلم يخطر ببالى قط قبل هذه اللحظة أنى كنت حبيبك ... على نحو متواضع ... يوما ما . حقاً إنى كنت كذلك ، وكنا نتقابل أحياناً فى بعض النواحى ، أليس كذلك ؟ ... أعنى يوم لم تكونى شديدة الاعتزاز بنفسك . وقد أعطيتك مرة . . . أو أعطيت فتاة غيرك ... خصلة من شعرى على سبيل المزاح .

وأسرعت آن تقول:

— كانت فتاة غيرى .

وقال بوب فى براءة :

— آه ، ربما كان الأمر كذلك . ولكنك أنت التى كنت ألقاها ، أو كنت أحاول أن ألقاها ... ولست أشك فى ذلك . حسناً ، أنا لم أفكر فى هذا العهد الصبيانى قط ، طوال سنين عديدة ، إلا هذه اللحظة . ولست أشك يا عزيزتى أنه يجب عليك قبول هدية ما على سبيل الإشادة بهذه الأزمنة البعيدة ! .

وتراجعت آن وهزت رأسها قاصدة الرفض ، لأنها لم تكن تثق فى ضبط صوتها .

وقال بوب وهو يدفع الشال إلى تلك المستعدة لتلقيه .

— حسناً ، يا سيدة جارلاند ، ستأخذينه أنت إذن . وإذا رفضته ، فأقسم

أنى سألق به إلى أول سائل أراه . والآن ها هى ذى حزمة من أجود أشرطة القبعات التى استطعت الحصول عليها ... خذيها ... أرجوك يا آن !

وقالت السيدة جارلاند :

ـــ نعم ، خذيها .

واستطرد بوب :

ـــ كنت قد وعدت ماتيلدا بها ، ولكنى واثق من أنها لا تريدها نظراً إلى أن لديها أشرطة أخرى تملكها . وإنى أود عن طيب خاطر أن أراها على رأسك يا عزيزتى كما لو كنت أراها على رأسها .

وقالت السيدة جارلاند فى عذوبة :

ـــ أظن أنه من الأجدر أن تحتفظ بها لزوجتك ما دمت قد وعدتها بها .

ـــ إنه لم يكن وعداً بالمعنى الدقيق . فقد قلت لها فقط : « يا تيل ، هناك فى صندوقى بعض أشرطة قبعات فيما إذا ما أردت أخذها » . ولكن كان لديها من الأشياء الموفورة قبل ذاك قدراً كافياً لأية عروس فى العالم . وأنت الآن ستأخذينها يا آن ... ستأخذينها قسما بحياتى ... وإلا سألقى بها فى الجانب الخلفى من الطاحون .

وكانت آن تقصد أن تتشبث تماماً برفض كل هدية لأسباب واضحة حتى لذلك الشارد الذهن ، القليل المهارة إلى أقصى حد . ولكنها اضطرت كل الاضطرار إلى التسليم عندما بلغ الأمر هذا الحد واحتضنت أشرطة القبعات متضررة ، واحمر وجها متلوناً ، وارتجفت شفتها فى حـــركة حاولت أن تظهرها على أنها ابتسامة .

وقال صاحب الطاحون فى خبث :

ـــ وماذا عسى « تيلى » أن تقول لو علمت بذلك !

وصاحت آن على الفور ودموعها تتحدر وهى تلقى رزمة الأشرطة على الأرض :

ـــ نعم ، فعلا ... وهذا خطأ منه ! ... أولى بك يا سيد لفدى أن تهب هداياك حيثما وهبت ... أ ... أ ... قلبك . هذا هو قولى !

وأدارت آن له ظهرها وانصرفت .

وقالت السيدة جارلاند وهى تسرع فتلتقط رزمة الأشرطة :

ـــ سأحملها لها .

وقال بوب وهو ينظر فى أثر آن متأسفا :

ــ والآن هذا أمر مؤسف . فأنا لم أذكر قط أنها فتاة من النوع السريع الغضب . خبريها يا سيدة جارلاند أنى أسألها المغفرة . ولكنى لم أكن أعلم بالطبع أنها شديدة الاعــتزاز بنفسها إلى حد عدم قبول الهدية . . . وأنى لى أن أعلم هذا ؟ وأقسم أنه لو لم يكن ذلك متعلقا بماتلدا لكنت ... حسنا هذا لا يمكن أن يكون بالطبع .

وقالت السيدة جارلاند وقد لمست قدمها حزمة كبيرة وضعها بوب فى مكان متوار :

ــ ماهذا ؟

وقال روبرت وديعا :

ــ هذا قدر قليل من التبغ جئت به لنفسى .

وانتهى فحص الهدايا فى النهاية ، وافترقت الأسرة لحلول الليل. وعندما اختلى كل فريق فى بيته قالت السيدة جارلاند لآن :

ــ يا لك من فتاة منطوية على نفسك ! . . أنا لم أعلم بالتأكيد أنك أنت وبوب كنتما تتمشيان معاً ! .. لا بد أنكما كنتما مجرد طفلين .

وقالت آن وقد استعادت جأشها الآن تماماً :

ــ أوو نعم ... لقد كنا كذلك . وحدث هذا أول ما جئنا إلى هنا بعد مرور عام على وفاة أبى ، ولم نكن نخرج معاً بصفة منتظمة . وأنت تعلمين أنى لم أر أسرة لفدى قط فى مستوى عال بالقدر الذى يرضينى . إن الأمر بيننا لم يكن إلا ... لم يكن شيئاً قط . وكدت أن أنساه كلية .

وكان من المأمول فى تلك الليلة أن تغتفر خطايا شخص ما قبل أن تنام . وقال صاحب الطاحون لبوب بعد أن تركا وحيدين :

ــ حسنا ، يا روبرت ، أما عن فتاتك هذه ... عن ماتيلدا . ما اسمها ؟

ــ نعم ، يا أبى . . . ماتيلدا جونسون كنت على وشك التحدث إليك فى شأنها .

وأومأ صاحب الطاحون ، ورشف من كأسه . واستطرد بوب :

ــ حسنا ، إنها بديعة شكلا . هذا ما يمكن قوله فى صدق ... ساحرة حقا ، وأنت أدرى . . . فتاة ظريفة طيبة مليحة ، وهى تعد معجزة فيما يتعلق بتربيتها المهذبة وكل هذه الأمور كما تعلم ... وتستطيع أن تهدل شعرها فى أجمل جدائل ملفوفة . ولديها قفازات باهرة وقبعات . ومختصر القول إنه يمكن تسميتها جنية بحر تعيش على الأرض . وستكون زوجة من الطراز الأول ليس لها نظير.

وقال صاحب الطاحون :

ــ لا شك أنها ستكون كذلك ، لأنى لم أرك قط ينقصك الإدراك بصفة عامة .

وأدار كأسه حول نفسها ، حتى دار قاعها دورة كاملة :

ــ أية مدة قلت فى خطابك إنك عرفتها خلالها ؟

ــ أسبوعين .

ــ ليست هذه بالمدة الطويلة .

ــ فى الحقيقة إنها لا تبدو كذلك ... وقد كانت فى الحق أطول من ذلك ... كانت خمسة عشر يوما وربع يوم . ولكن دعك من هذا يا أبى ، فأنا أستطيع أن أرى فى ومضة عين هل الفتاة تصلح :.. وإذا شاهدت امرأة عرفتها معرفة كافية . ولا بد لى من ذلك فى الواقع ما دمت قد أوغلت الطواف حول العالم ... وإليك الآن مثلا .. هناك السيدة جارلاند وابنتها . فالبنت فتاة صغيرة لطيفة أما المرأة العجوز ... فلا ...

وهز بوب رأسه ، وقال الأب وهو يتقلقل فى مقعده قليلا :

ــ ماذا عنها ؟

ــ حسنا ، إنها ... إنها ... أقصد أنى ما كنت لأختارها كما تعلم . إنها ذات سجية لطيفة ، وهى صغيرة السن بالنسبة لأرملة رزقت ابنة فى سن الشباب . ولكن إذا كان جميع الرجال مثلى فإنها ما كانت لتتزوج أبداً . إنى أعجب بها من بعض النواحى ، ولكن جمالها من طراز لا أعنى به أبداً .

وقال صاحب الطاحون شاعرا بفرج كبير :

ــ إذا كان ما تفكر فيه هو شكلها فحسب ، فلا محل بالطبع للكلام فى هذا .

ثم أضاف على نحو ينم على أن روعه هدأ بسرعة كبيرة . وهناك مع ذلك دوقات أردأ منها شكلا .

— وإذا عمدنا إلى الجدل فهناك مع ذلك دوقات أردأ منها شكلا كما يمكن أن تتبين ياولدى .

وكانت خواطر الفلاح آنذاك فى مكان آخر .

— أما عن زواجى بماتيلدا ، فهذا فى زعمى نوع من ألطف أنواع الزيجات . وسأستطيع كذلك أن أزاول العمل فى الحال . وعلى هذا اخترتها . إنها فتاة رائعة ، ولن تجد مثلها أيان أردت أن تبحث .

وسأل أبوه :

— كم عدد الفتيات اللواتى عرفتهن واخترتها من بينهن ؟

— حسنا ... لقد حدث أنها كانت فى الحق الفتاة الوحيدة التى عرفتها فى سوثمبتن ، ولكن ما أهمية هذا ؟ إن النتيجة ما كانت لتختلف لو أنى عرفت مائة فتاة .

— أحسب أن أباها يضطلع بعمل غير بعيد عن أحواض السفن ؟

— حسنا ، لا . جملة القول أنى لم أر أباها .

— وأمها ؟

— أمها ؟ . . لا ، لم أرها كذلك . وأظن أنها متوفاة . ولكن للفتاة عمة غنية جداً تعيش فى ملشستر(١) . وأنا لم أر عمتها لأن الوقت لم يتسع للرحيل إليها . ولكننا سنعرفها بالطبع عند زواجنا .

وقال صاحب الطاحون وهو يحاول أن يشعر بالإقتناع التام :

— نعم ، نعم ، بالطبع . وستحضر إلى هنا قريباً ؟ . .

وقال بوب :

— نعم ، ستحضر قريباً . وقد ذهبت إلى تلك العمة فى ملشستر لإعداد أمتعتها وما إلى ذلك ، وإلا لحضرت معى . وسأذهب لألاقى عربة السفر فى الساعة الواحدة من يوم الأحد عند « كنجز آرمز » فى « كستربريدج » . وكيما أدلك على أى نوع عظيم من الزوجات ستكون ، فأستطيع أن أقول لك إنها أرادت أن

---

(١) يقصد سلسبرى (تعليق الأصل) .

تأتى بطريق عربات « مركورى » لأن أجرة السفر بها أقل قليلا من أجرة الأفرس . ولكنى قلت لها : « اجعليها رحلة طيبة لمرة واحدة فى حياتك وتعالى بطريق شركة (رويال ميل) وسأدفع أنا الأجرة » ... أحسب أنى أستطيع أن أحصل على المهر والعربة الصغيرة لأذهب وأحضرها نظراً إلى أن المسافة أشد طولا من أن تستطيع اجتيازها مشيا على الأقدام .

ـ تستطيع ذلك بالطبع يا بوب ، وتستطيع أى شىء غيره وسأبذل قصارى جهدى لأقيم لك حفل زفاف طيب ؟

إنهم يعدون العدة

لاستقبال الغريبة الممتازة

(١٦)

إن الاستعدادات للترحيب بما تلدا ، وللوقائع التى ستعقب ذلك ، استأثرت على الفور باهتمام كل من فى الطاحون . ولما لم يكن لصاحب الطاحون ورجله إلا أفكار غامضة عن شؤون التدبير المنزلى على نطاق واسع فقد قبلت السيدة جارلاند متعطفة أن تشرف على نظافة حفل الزواج العظيم ، بينما كان بوب فى أغلب الأحيان يتغيب طوال النهار مع أخيه جاويش البروجى للقيام بمهام مختلفة . ومن هذه المهام شراء طلاء لدهان العربة ذات العجلتين التى سيحضر ما تلدا فيها . فقد اعتزم أن يزخرفها بيديه لا بيدى غيره.

وفى تجاه النافذة تم تنظيف وتلميع التراكم القديم المألوف للأوساخ المضيئة المطبوعة على طول ظهر المقعد ، حيث كانت تطل منه رؤوس الحشرات المرحة الجالسة عليه وهى لا يحصيها عد . . . والحلقة المسودة حول المسمار ، وهى التى يعلق صاحب الطاحون عليها قبعته ، وقد تلوثت من اشتداد الجو الرطب ، أعيدت إلى الابيضاض ... والآثار المغبرة المدخنة الناتجة من احتكاك أكتاف العابرين ، بالممر أزيلت برغم ما اكتسبته من قيمة تاريخية مؤنسة ... ووجه ساعة الحائط المكتسى بصدأ النحاس الذى أصبح فى سمك طلاء الجص ، تم مسحه حتى برزت أرقامه فى وضح النهار ، بينما خيـــوط العنكبوت التى كونت أراجيح شبكية كالمثلثات داخل صندوق تلك الساعة نفسها ، والتى كان رقاص الساعة يخوض فيها بصعوبة ، قد أزيلت بضربة واحدة .

واشتركت السيدة جارلاند فى غزو خزائن الطعام التى نخرتها الديدان ،حيث تخلفت طبقات من الروائح القديمة طى الهواء الراكد وأذكرت الأنف المتأمل أشياء كثيرة طيبه كانت تحفظ هناك . . . وقد غسلت غرف الدور العلوى بكمية كبيرة من الماء إلى حد أن الخنافس الصغيرة ، وقمل الخشب ، وديدان الدقيق ، تلك الحشرات التى طاب مقامها هناك ، غرقت جميعاً وتسرب الماء الممزوج برغوة

الصابون إلى الغرفة السفلى على نحو نشيط عجيب حتى لكأنه يبتعث فكرة أن صاحب الطاحون يقطن فى كهف تتساقط عليه رواسب كلسية .

ونقلوا ما لم ينقل من مكانه قبل ذلك قط ... نقلوا الخزانة المصنوعة من خشب القرو ، المحتوية على ملابس صاحب الطاحون ... وزنها هائل وهى على ما تحويه من أقفال ومفصلات ومسامير وغبار وإطار ، والصفوف المضغوطة للسترات القديمة ، والصدارات ، وكسوات الركب من أسفـــل . . . هذه الأشياء التى لم يزعجها أحد منذ أن توفيت زوجة صاحب الطاحون ، وقد هلهلتها العثة نصف هلهلة ، هذه العثة الراقدة بين تلك الأكوام برؤوسها التى تفرطحت ، وقد بلغت الآلاف عددا .

وقال لفدى ، وهو يرفع تلك الخزانة من أحد أركانها إذعانا لتوجيهات السيدة جارلاند ، بينما يساعده كل من السنان وديفيد على رفعها من أركانها الأخرى :

— إن هذا جعل ظهرى يتفتح وينفلق تماما . . . كلكم يدا واحدة . . . نادوا عندما تبدأون الرفع ... هيا الآن !

وجليت أغطية الأوعية ، وأدوات المطبخ حتى أصبحت فى حالة تجعل الناظر لا يفطن إليها هى نفسها ، وإنما يفطن لوجهه البادى عليها متمطيا فى شكل مرعب وأصلحت حبال الساعة ، ونظفت القدور ، وثبتت النباتات المتسلقة بالمسامير ، وركبت يد للمبخرة . . . ونظف مصباح الدار الكبير بعد أن تراكمت عليه الأوساخ مدة ثلاث سنوات دون أن يعوقها عائق .

وكانت عملية تنظيف الأشياء المتراكمة من مقارض الشموع وأعقابها ، وبقايا عيدان الكبريت ، وغبار المصابيح ، وكميات الدهن الجيدة الكثيفة ... كانت لا تقدر بثمن . وهى فى ذلك مثل دهان الأحذية الطويلة ذات الأربطة من أمام ، وتشحيم عجلات العربات .

وقال كل واحد إن بيت صاحب الطاحون لم ينظف مثل هذا التنظيف الشامل منذ عشرين عاما . وبدا على صاحب الطاحون وديفيد نوع من حالات التهيب بسبب عرفانهم للجميل ، ونمت نظراتهما على التسليم الضمنى بأن ما هو حادث

يتجاوز كل ما وصلت إليه خواطرهم . وقد أشرفت السيدة جارلاند على كل شيء في عطف منزه عن الغرض . وقد قالت لصاحب الطاحون إنه لم يكن يجوز أن ترى زوجة ابنه المقبلة منزله على حالته الأصلية ، فإن هذا كان سيحملها على عدم الميل إليه ، وعدم الميل إلى بوب كذلك .

وقال صاحب الطاحون بينما هي تلغط حوله :

— لماذا لا تأتين وتقيمين هنا معى ، وعندذاك تستطيعين أن ترقبي البيت باستمرار ؟

وأجابته على ذلك بأنها تنظر فى الأمر ، وقد يحدث ذلك فى الوقت المناسب . وكان قد سبق أن أخبرها أن خطته تتحصل فى إحـــلال بوب وزوجته محلها فى جانب المنزل الذى تقطن هى فيه على أثر رضاها بأن تقيم فى داره ، وهذا يزيل عنها الخوف من أن يكون فى وجود ماتيلدا حرج لها .

وكان إعداد الطعام لولائم الزفاف يسير على قدر نسبى من الإتقان . فقد ذبحوا أربعة ديكة فائضة عن الحاجة ، وكانت قد بدأت تصيح . كذلك ذبحوا الخنزير الصغير الملفوف الذيل بعد أن فضلوه على الأنثى الكبيرة . . . وبما أنه لم يمض على البدء فى تسمينه أكثر من خمسة أسابيع فإن لحمه فى هذه الحالة يكون صغيراً ممتازاً وجديرا أن يصبح أنسب لذوق سيدة نشأت فى المدينة من لحم الخنزيرة الكبيرة الأخرى التى ازداد وزنها إلى حد أن لحمها قد يكون أدسم من أن يعد طعاما مهذبا . وقد أعدوا كذلك لحم خنزير مقدد ، ولحم عجل سمين ، وفطيرتين محشوتين بلحم الحمام . وكذلك ثلاثين حلقة من « السجق » المحشو بالدهن والدم ، واثنتى عشرة صحفة من الأرز المطبوخ باللبن والسكر ، وعشر صحاف من جوارح الخنزير اللينة المغسولة جيداً ، المطهوة كما هى ، وذلك فيما إذا اشتهت العروس تغيير الطعام .

وبالإضافة إلى ما تقدم أعدوا على سبيل الاحتياط خبيزا محلى بالسكر . وخمس صحاف من الطحال الذى أفرغ فى ناحية واحدة على شكل اليفعة ، وأضيف إليه الصعتر وعشب السجبروش ، والبقدونس والنعناع والبرغل والأرز واللبن والبيض المخفوق وغير ذلك من الأصناف . وهـذه الأكلة ستحمر قبل تناولها على نار هادئة لتؤكل ساخنة .

وكانت عملية جمع هذه الأعشاب لإضافتها إلى مختلف أصناف الأطعمة شاقة للنساء . وكان ديفيد ، وصاحب الطاحون ، والطحان وابنه منهمكين كل فى فرع العمل الذى يقوم به .

واضطلع بوب بدهان العربة ، ذات العجلتين ، وبإصلاح عدة حصان العربة ، ونادى لفدى على جندى من فرقة الدراغون التى ينتمى إليها جون ، وكان يمر بجوار الدار ، ولما كان رجلا قوياً فقد قام عن طيب خاطر طوال عصر ذلك اليوم ، بتقطيع اللحوم نظير زجاجة من الخمر القوية المتقنة الصنع ، وما تيسر من مأكول سواها ، وقد خلع سترته وقفازه ، وشمر عن ساعديه ، وفك رباط رقبته بطريقة وقورة ونشطة .

وأبعدت عن الفطائر التى كانت تحشى بالتفاح المطبوخ جميع الثمار الساقطة بفعل الرياح والمنخورة بالديدان . ولما لم يكن هناك صحن معروف يتسع بقدر كاف لهذه الحلوى فقد وضعوها فى «سطل» اللبن ، وغلوها فى قدر نحاسية ، هائلة فى الوزن ، عريقة فى القدم ، ذات ثلاث سيقان ، لم يمر «سمكرى» فى بحر الثلاثين سنة السالفة إلا دقها بعصاه ، واشتهى أخذها ، وألح فى طلبها ، وشعر غالباً بما يغريه بسرقتها .

وفيما يختص بصنف المشروبات جاء لفدى ببرميل كبير من جعة «كستر بريدج» القوية ، وهذا المشروب الشهير — وقد أصبح الآن ، كمشروب فلستاف ، من آثار الماضى — لم يحسب حسابه جيداً لمجرد اكتساب قلوب الجنود الذين جف عودهم ، وعلاهم الصدأ بسبب عيشهم فى الخيام على قمة تل ، بل لاكتساب قلب أى عابر سبيل فى ذلك البلد أيضاً . كان لونها من أبدع الألوان التى يشتهى الفنان أن يراها فى كوب جعة . وهى دسمة فى مادتها ، وعنيفة مع ذلك كالبركان . وهى حادة ، مع أنها لا تهدر ، ومشرقة كشمس الخريف الغاربة ، وخالية مما يتقزز منه الذوق ، ولكنها ، فى نهاية الأمر ، أقرب أن تكون قوية المفعول . والجماهير تعبدها ، والطبقة المهذبة الدنيا تؤثرها على النبيذ ، ولا تزدريها أرقى أسر الإقليم . وكل إنسان يقبض عليه بتهمة السكر والعربدة فى الطريق العام فى موطن تلك الجعة ، ليس عليه إلا أن يثبت أنه غريب عن المكان ونوع خمره ليطلق رجال الشرطة سراحه مع الإكرام والاحترام وكأنه تورط فى خطأ لا يستطيع إنسان دخل البلدة فجأة أن يحمى نفسه منه .

وفتح لفدى ، بالإضافة إلى ما تقدم ، برميلا كبيراً من شراب « السايدر » الممتاز كان قد تركه ينضج فى الدار مدة أشهر عديدة ، وقد اشتراه من رجل شريف من قطان سهل الريف . وهو لم يجده مناسباً لأية فرصة مثل هذه ، وكانت تلك الخمر قد عصرت من فاكهة اختارتها يد هرمة مجربة بحكمة ... فتفاح « هورنر » و« كليفز » عصر للخمر ذاتها ، وعصرت بعض ثمار « توم بوتس » لتكسب الخمر اللون ، وقليل من « أولاد فايف كورنرز » ليكسبها اللمعان ... وقد اختير هذا المزيج من الأصناف فى الأصل لإرضاء ذوق سيد معروف من الأشراف متوسطى الحال ، مدمن على شرب « السايدر » ، وقد عاش إلى سن الثامنة والثمانين .

وفى صباح يوم الأحد المحدد لمجيئها . خرج الربان بوب لفدى لاستقبال عروسه . وقد ظل فى الأسبوع بطوله منهمكا فى دهان عربته ذات العجلتين . وكان أخوه يعينه فى أوقات غير عادية . وبدت العربة الآن فى لون أصفر فاقع مزخرف بخطوط زرق ، وفواصل فى الأركان ، وطليت العجلتان باللون الأحمر المزخرف بظلال أغمق . وربط بوب المهر فى العربة حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف . وكانت آن ترقبه من وراء الباب وهو يضع نفسه فى العربة وينطلق بها . ولعل هناك فتيات يرقبن فتياناً عند انطلاقهم إلى زوجاتهم كما راقبت آن الربان لفدى ، ولا يباليين مع ذلك أبدا بمثل هذه الملابسات . ولكن أمثالهن لا يصادفن كثيراً .

وكان هناك غبار كثيف يتعالى من الطريق العام بسبب حركة المرور المترتبة على وجود الأسرة المالكة وحاشيتها فى البلدة الواقعة عن بعد . وهذا الحسك الذى يتدلى من السياج ، ويجود على وجه المتجول بخدشة ودية ، كان قذراً كخيوط العنكبوت فى الكنائس ، واكتسبت الحشائش النابتة فى الحفافى لون النشارة . وأمل أبوه أن يصطحب ابنه الخادم ديفيد خشية أن يصادفه أى مكروه نظراً إلى أنه لم يعتد قيادة العربات فى الآونة الأخيرة . ولكن بوب ، وقد تصور سخف ركوب ثلاثة أشخاص فى مثل هذه المناسبة ، أبى أن يعير هذا الرأى التفاتا . ولم يحدث من جراء قيادته للعربة حادث جدى اللهم إلا الخطين الحلزونيين اللذين رسمتهما العجلتان على الطريق خلال ميل أو ميلين قبل أن تعتد يداه القيادة ، وإلا جفول المهر لدى رؤية كل معلم فى الطريق أو أى قطعة من الورق ، أو شريد نائم فى الطريق ، أو عربة يد ، وذلك ليفيد من فرصة عدم خبرة اليد التى تقوده .

ودخل بلدة كسترىريدج بين الساعة الثانية عشرة والواحدة ، وبعد أن نزل فى فندق « أولد جريهاوند » تمشى إلى الـ « بو » ووقف هنـاك ، وأطراف ملابسه مغبرة نوعا ، وانتظر حتى يخرج الناس المكتسون بأحسن حللهم الصيفية من الكنائس الثلاث المحيطة به . وعندما انصرف جميع أولئك القوم ، وتبددت روائح المرق وبقايا الوقود التى انتشرت متصاعدة من الشارع الرئيسى القديم ، وروائح صحاف الفطائر المنبعثة من المخابز المتاخمة ، رأى عربة البريد تصعد إلى قوس « جرى بريدج » الواقع على بعد نصف ميل ، وقد جثمت عليها عقد تتأرجح ، وظهر أن تلك العقد رءوس المسافرين الراكبين فى جزئها المكشوف .

وقال روبرت لنفسه وقد تملكه إحساس شاعرى : « هذه هى الطريقة التى تقبل بها العروس لزوجها ! » وما تعالى صوت النفير وجلبة الخيل وهى تصعد فى الطريق حتى اتجه إلى الفندق ، وتجمعت جموع موظفى الفندق وخدمه ، وسحبت الجياد من العربة ، وطفق ركاب عربة كاستربردج ينزلون منها. وجال الربان بوب بنظره فيهم ، وتطلع إلى داخل العربة ، وعاد فتطلع إلى خارجها ، ولخيبة أمله لم تكن ماتيلدا بين المسافرين ، ولم تكن حقائبها هناك أيضا ، ولم يظهر أثر لها . ولم يكن كل من سائق العربة وحارسها قد سمع شيئا عن شخص من هذا القبيل فى ملشستر . وسار بوب مبتعداً على مهل .

وإذ أحزنته هواجسه إلى حد جرده من ثلث شهيته ، جلس فى ردهـــة « أولدجريهاوند » على مسافة قصيرة من أسرة صاحب الفندق ، وقد اقترح هذا السيد الذى كان يتناول طعامه وهو لا يرتدى غير قميصه نظرا إلى أن ذلك الشهر كان شهر أغسطس من ناحية ، وإلى شعوره من ناحية أخرى بأن هذا اللباس لن يكون لائقا فى نظر الجمهور الذى سيأتى فى الأيام التالية من الأسبوع . . . اقترح هذا السيد على بوب أن ينتظر إلى الساعة الثالثة أو الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم حتى تصل عربة البريد العادية ، فقد تكون السيدة المفقودة قد آثرت هذه الوسيلة من وسائل الانتقال . وعند ما ظهر أن هذا الاقتراح قد جرح شعور بوب نوعا ، أكدت له زوجة صاحب الفندق بوصفها امرأة تعرف أصول الحياة الكريمة ، أن كثيرين من القوم المهذبين يلجأون إلى وسيلة السفر تلك خلال هذه الآونة التى ارتفعت فيها أثمان الحاجيات . وقبل لفدى تأكيدها على الفور إذ هو لا يعرف

إلا القليل عن السفر برا ، وقرر أن ينتظر . وأخذ يضيع الوقت هائما فوق الرصيف ، رائحاً غادياً ، أومتكئاً على حائط ساخن بين مكتب عربات السفر وناصية الشارع الأعلى . لقد كان عصر ذلك اليوم ساكنا شمسا ثقيلا على النفس ، ولم تكد تبدو نسمة فى طول الشارع وعرضه . ولم يكن المكتب بعيدا عن كنيسة «أول سينتس» وإذ كانت نوافذها مفتوحة استطاع أن يسمع ، من حيث يقف متكئا، صلوات بعد الظهر واضحة كما لو كان يحضرها مع المحتشدين هناك . وهكذا سبح فكره خلال الأناشيد ، وخلال الدرسين الدينيين الأول والثانى ، وخلال انطلاق نغمات المكان والبراعة التى ساندت التسبيحات ، كما اشترك فى سماع الموعظة الدينية قبل أن يظهر أى أثر للعربة فى طريق لندن .

وكانت مواعظ بعد الظهر فى تلك الكنيسة من النوع الجاف الميتافيزيقى الشائع فى ذلك الأوان ، وبفعل عناية سماوية معينة وقع مكتب عربات السفر قريبا من ذلك البناء القديم ، وترتب على ذلك أنه كلما وصلت عربة الأحد متأخرة عن موعدها ، وهذا يحدث فى الجو الحار ، وفى الجو البارد ، والجو الممطر ، وكل جو من أنواع الأجواء الأخرى .. . أغرقت الجلبة ونزول الناس والأيمان المغلظة ، أغرقت صوت القس إغراقا كاملا داخل الكنيسة ، وعطلت اهتمام المصلين الفاتر فى الوقت المناسب تماما ... ولم يكد أطفال الصدقات ينحنون فوق مقاعدهم ، وغطيط الكبار يصبح مسموعا ، حتى أقبلت عربة السفر .

وشعر الربان لفدى بنوع من هبوط عاطفته الشعرية بسبب احتمال مجيئها — وهى التى تم إعداد كل هذه الترتيبات لها — فى تلك العربة البطيئة الغليظة التى كانت تقرقع فى طريقها إليه . ولكنه لم يستسلم للحماقة ... ولم يسر كذلك فى الطريق لمقابلة العربة خشية ألا تكون فيها ، ووصلت العجلات العريضة فى النهاية إلى حذاء حافة الرصيف . ونزل سائق العربة وهو يرتدى سترته البيضاء الطويلة الذيل ، ويمسك بسوطه الذى يبلغ فى الطول غابة صيد السمك ... نزل من ظهر المهر الذى ظل يركبه طوال الرحلة . ورفعت أطواق الجياد الستة العريضة الصدور عن رقابها ، ونفضت أجسادها . وبعد دقيقة أخرى برز شيء . . . وعرف بوب أن ماتيلدا كانت هناك .

وشعر بوب ، ، وهى تنزل من العربة ، بثلاثة هتافات(١) تتعالى فى صدره . ولكن لسانه لم يرددها نظراً إلى أن اليوم يوم أحد . وفاقت الآنسة جونسون ، وهى فى زينتها ، ماكان يتوقعه ... رداء من اللونين الأخضر والأبيض ، ذو كمين محبوكين على ذراعيها يصلان إلى المعصمين ، ومنديل حريرى أخضر ملفوف حول جيدها ، ومصلوب الطرفين من أمام . ومظلة خضراء ، وقفاز أخضر . وكان غريباً إلى حد كاف أن يرى الإنسان هذا اليسروع الأخضر يخرج من عربة السفر ، وينفض عنه فى رشاقة بقايا القش والزغب التى يمكن أن تتجمع عادة فوق ثياب أعظم المسافرين فى تلك العربة .

وقال بوب عندما قبلها ثلاث مرات فى علانية صارخة ... وهذه هى الخطوة العملية التى اعتزم أن يخطوها ، وقد ظهر أنه يرى ألا تظل هذه الأمور تقع فى الأركان المتوارية :

ـــ ولكن ، يا ماتيلدتى العزيزة ... يا عزيزتى ماتيلدا ، لماذا لم تأت فى العربة المقفلة ، ومعك أجرتها وكل ما يلزم ؟

وقالت ماتيلدا فى اندفاع مبهج :

ـــ هذا هو توفيرى ! ! وأنا أعلم أنك لن تغتاظ عندما تعلم أنى أقدمت على ذلك لأوفر القرش الأبيض لليوم الأسود .

ولم يغتظ بوب بالطبع ، ولو أن فخامة الاستقبال قد نقصت . وحتى إذا كان الغضب ممكنا فإن الإفصاح عنه يكون فى غير موضعه . ومع ذلك فإنه كان سيفاجأ مفاجأة صغيرة لو أنه عرف السبب الحقيقى لإقدام ماتيلدا على تغيير الخطة . فهذه الحورية ... بالاختصار ... قد أنفقت نقود بوب ، ونقودها هى نفسها ، فى سبيل تزيين شخصها قبل السفر ، ووجدت بذلك أنها لا تملك القدر الكافى من النقود للسفر فى العربة المقفلة ، فوفرت ما وفرت بسبب محض الاضطرار .

وقال بوب :

ـــ حسنا ، إن معى العربة « الكارتة » عند فندق « جزيهاوند » ، ولا أدرى هل هى تتسع لأمتعتك ، ولكلينا نحن الاثنين ؟ ولكنها تبدو أكثر احتشاماً

---

(١) من عادة الإنجليز ترديد الهتاف ثلاث مرات .

من العربة الكبيرة فى يوم الأحد . وإذا لم يكن بها مكان لصناديقك فأنا أستطيع أن أسير إلى جانبها .

وقالت الآنسة جونسون فى عذوبة :

ـــ أظن أنه سيكون هناك مكان كاف .

ولم يلبث أن وضح كل الوضوح أنها صدقت فيما قالت ، فعندما وضع متاعها على الرصيف تبين أنه لا يزيد عن صندوق طوله ثمانى عشرة بوصة تقريباً ... ولا شيء غير ذلك .

وقال الربان لفدى فى دهشة :

ـــ أوو ... هل هذا كل ما هناك !

وقالت الفتاة تؤكد الأمر :

ـــ هذا كل ما هناك ، فأنا لم أشأ أن أسبب لك أى إزعاج كما تعلم . وقد تركت عند خالتى الثرية باقى ما لدى من أمتعة .

وأجاب متقبلا قولها :

ـــ نعم ، بالطبع . وبما أنها ليست أكبر مما هى عليه ، فأنا أستطيع أن أحملها فى يدى إلى الفندق . ومن ثم لا يكون هناك إزعاج البتة .

ورفع الصندوق الصغير ، وسارا جنباً إلى جنب حتى فندق « جريهاوند » . وفى مدى عشر دقائق كان جواد العربة يركض بهما خببا فى شارع سوثرن .

ولم يستحث بوب الجواد إذ هناك أشياء كثيرة فى حاجة إلى أن تقال وتسمع ، وهذا الظرف الحاضر مناسب لذلك أبدع مناسبة وكانت الشمس تسطع بين أونة وأخرى على وجه ماتيلدا ، بينما العربة تسير بهما ، وأشعة الشمس تنعش أسارير وجه الفتاة ، وتخلع عليها لطفاً زائداً . وكان يمكن أن يقال عن عينيها إنهما رماديتان . ولكنهما فى لون ثعبان الماء حقاً ، كما هى حال غيرهما من العيون الرمادية اللطيفة . وهما حسنتا التكوين ، وأميل إلى الإشراق ، بيد أن إشراقهما أقرب إلى الامتداد منه إلى التلألؤ : وكان أنفها راسخاً ، ممتلئاً على قدر كاف ، وكأنما يقول عن نفسه إنه لا بأس به على قدر حال الأنوف . وكانت لها طريقة بهيجة فى إطباق شفتها العليا على شفتها السفلى ، ويفوق احمرار هاتين

الشفتين مجرد تورد البشرة.وهى لاتنظر إلى الشمس المشرقةوراءالتلال البعيدة ، حتى ترسم هذه الشمس على جبينها ، دون أن تدرى ، ثلاثة خطوط عمودية قصيرة — لا تبدو فى أوقات أخرى — هذه الخطوط تجعل نظرتها قاسية فى هذه الحالة . وإذا التفتت إلى زاوية بعيدة لتتطلع إلى شىء أو آخر أشار إليه بوب ، تحول لحم عنقها الملوى إلى عدد من الخطوط . ولكن بوب لم يعر هذه الأمورالتفاتا ،فهى بالطبع ليست ذات أهمية .. . ألم تخبره ، عندما أخذا يقارنان بين عمريهما ، أنها جاوزت الثانية والعشرين بقليل ؟

ولما لم يكد الوعى فى إبان القرن الماضى يدرك محاسن الطبيعة ، فإن ماتيلدا ، فتاة بوب ، لم تستطع أن تفيض فى التحدث عن فتنة التلال ، أو عن ارتجاف ورق الشجر ، أو ضخامة المجد الذى يتحقق فى البحار النائية . لم تستطع ذلك كما كانت تستطيعه دون شك لو أنها عاشت فى زمن لاحق . ولكنها بذلت جهدها لتشوق بوب وهى تسأله عن مسائل ذات أهمية اجتماعية خاصة بالأصقاع المجاورة التى هى أجنبية عنها تماماً .

وقد سألته وهما يصعدان فى التل الذى انتظر فيه سكان أوفركمب حضور الملك :

— هل منتزهكم البحرى مدينة كبيرة ؟

— بوركت يا عزيزتى ... لا . إنها ماكانت لتصبح شيئاً مذكوراً لولا الأسرة الملكية ، واللوردات والسيدات زوجاتهم ، وكتائب الجند ، والسفن الحربية ، ورسل الملك ، والممثلون والممثلات ، والألعاب التى تجرى هناك .

وأرهفت المخلوقة الصغيرة البريئة أذنيها لدى سماع الكلمتين « الممثلين والممثلات » :

— هل يدفع إليستون(١) أجوراً طيبة هذا الصيف كالتى كان يدفعها فى .. .؟

— أوو ، أنت تلمين بهذا الأمر إذن ؟ لقد ظننت .. ..

— أوو ، لا ، لا ! .. . أنا سمعت عن بدماوث .. . قرأت فى الصحف ، كما تعلم يا عزيزى روبرت ، عما يحدث هناك ، وعن الممثلين والممثلات كما تعلم .

---

(١) روبرت وليم إليستون . ولد عام ١٧٧٤ ، هجر الدراسة واحترف التمثيل وبرز فيه ، ثم أصبح مديرا لفرقة تمثيلية وظل فى الوقت نفسه يقوم بأدوار التمثيل الرئيسية (تعليق الأصل)

— نعم ، نعم ،فهمت . حسناً ، لقد تغيبت عن إنجلترا زمناً طويلا ولا أعرف الشيء الكثير عن المسرح فى البلدة . ولكنى سأذهب بك إلى هناك يوماً ما ، فهل فى ذلك نزهة لك ؟

وقالت الآنسة جونسون فى حماسة قد يجد الدقيق الملاحظة فيها صبغة من الوشاعة :

— أوه ... نزهة مدهشة !

— لعلك لم تشهدى المسرح قط يا عزيزتى ؟

وقالت ماتيلدا دون تزويق :

— أبدا ... أبداً ... ما هذا الذى أراه هناك ؟ صفا من أشياء بيض فوق التل ؟

— نعم ، هذا جزء من المخيم القائم على أوفركمب . فهناك جنود كثيرون يعسكرون هناك . وهذه هى أعالى خيامهم البيض .

وأشار إلى جناح من المعسكر بدا الآن واضحاً . وكانت ماتيلدا شديدة الاهتمام بذلك .. .. وأضاف :

— سيبهجنا ذلك بهجة كبيرة ، لا سيما وأن جون هناك .

وكان ذلك من رأيها هى أيضاً . وعلى هذا النحو واصلا الثرثرة ؟

نوبتا إغماء

وحيرة

(١٧)

فى هذه الأثناء كان ميلر لفدى ينتظر الزوجين فى اهتمام. وحوالى الساعة الخامسة، وبعد تكرار النظر، رأى بقعتين كل منهما فى حجم حبة الكراوية تبدو ان فى حافة الخط الذى يلتقى فيه بياض الشارع الذى تضيئه الشمس بزرقة السماء. ثم أخذت سائر أجزاء بوب وزوجته تظهر له. ثم ظهرت العربة كلها وهى تتقدم. وسمع الضوضاء الجافة للعجلات الجارية على الطريق المترب. وكانت خطة ميلر لفدى، فى نطاق ما إذا كان دبر خطة ما، أن يقطن روبرت وزوجته فى دار الطاحون معه حتى يستقر رأى السيدة جارلاند على أن تقطن هى معه هناك. وفى هذه الحالة يعطى منزلها الراهن إلى الزوجين الشابين. وكان يريد، على أية حال من الأحوال، أن يرحب ترحيباً لائقاً بالمرأة التى وقع عليها اختيار ابنه. وتقدم إليهما فى حزم بينما كانا يتقدمان إلى الباب.

وقالت الآنسة جونسون عندما تسلمها صاحب الطاحون من الربان:

ــ أى مكان جميل هذا الذى تملكانه هنا!! هذا جدول ماء حقيقى، وهذه عجلة طاحون حقيقية، وهذا دجاج حقيقى... وكل شىء كذلك!

وقال لفدى وهو ينظر إلى النهر، متزن العاطفة:

ــ نعم... إنها حقيقية على قدر كاف. وستقولين هذا القول نفسه عندما تعيشين هنا مدة وأنت سيدة المنزل، وتتجشمين مشقة تنظيم الرياش.

وعندذاك ظهر على الآنسة جونسون التواضع، وظلت كذلك إلى أن جاءت آن من حول زاوية المنزل، دون أن تعرف أنهم هناك، وكان كتاب الصلوات فى يدها، فقد وصلت على التومن الكنيسة. ودار بوب وابتسم لها ابتسامة بدت الآنسة جونسون عابسة على أثرها. ولا يعلم أحد كم من الوقت كانت ستظل على تلك الحال، إذ غشيت أذنيها فى هذا الوقت بالذات نغمة عميقة جهيرة ترامت

من الناحية الأخرى ، وجعلتها تقفز من مكانها . . . . وصاحت وقد رأت بقرة من بقر لفدى تدعى « كروميلر » ، تقف بالقرب منها ، وتكاد تلاصق كتفها .

— أوو ، لاه! ما هذا الشيء المخيف ؟

وإذا كان وقت الحليب آن أوانه ، فقد أقبلت البقرة تبحث عن ديفيد لتتعجل القيام بالعملية :

وقالت ماتيلدا :

— أوو ، ياله من ثور فظيع ! . . . لقد أخافنى إلى حد كبير . أرجو ألا يغمى على .

واستعمل صاحب الطاحون على الفور تلك العبارة الاصطلاحية التى يرددها مالكو الدواب منذ أيام سيدنا إبراهيم :

— إنها لن تؤذيك ... هوش ياكروميلر ! ... إنها يا سيدتى ، شديدة الخوف مثل فأر البيوت .

وإذ أصرت البقرة على القيام ببحث مفزع آخر عن ديفيد لم تتمالك ماتيلدا أن تغلق عينيها وتقول :

— أوو ، ستنطحنى حتى تقتلنى .

وترامى رأسها على كتف بوب الذى كان واقفا ، بعون القدرة الإلهية — وهو يرى الملابسه الملحة ، ويعرف طبيعتها الرقيقة — فى موضع يستطيع معه أن يتلقفها ... وشعرت آن جارلاند عند ذاك بتيقظ المشاركة العاطفية الأنثوية فيها بينما كانت تقف فى ركن من المنزل دون أن تعرف أتعود أدراجها أم تتقدم إليهم . . . ولكنها جرت وغمست منديلها فى طرف حوض الطاحون ، وبللت به وجه ماتيلدا . ولما بقيت عينا هذه الأخيرة مغمضتين ، أخذ بوب المنديل من آن ، بقصد مضاعفة التأثير ، وأخذ يعصره على قصبة أنف ماتيلدا ، حيث فاض الماء على سائر وجهها فيضاناً .

وقالت آن:

— أوو ، يا كابتن لفدى ! إن الماء يتدفق على منديل جيدها الأخضر ، وعلى حقيبة يدها المزركشة !

وصاحت ماتيلدا وهى تفتح عينيها ، وتنصب قامتها ، وتنتزع فى حزم ، منديل جيبها ، وتمسح به قطرات الماء ، وشائبة طفيفة شابت لون بشرتها . وساعدتها آن التى لم تستطع إلا أن تهتم بالأمر رغم ما يكمن وراء ذلك من عواطف متنازعة :

ـــ هنا لك !.. وكأنى لم أتوقع ذلك !

وقال صاحب الطاحون وقد انتعشت معنويته مع انتعاش معنوية ماتيلدا :

ـــ هذا صحيح ! إن السيدة لم تألف حياة الريف ، أليس كذلك يا سيدتى ؟

وقالت ماتيلدا المتألمة :

ـــ أنا لم آلفها . كل شىء حولى هنا غريب .

وانتشرت فى الجو على حين فجأة أصوات مترامية من ناحية التل :

« را ، تا ، تا ! ... تا ، تا ، تا ، تا ، تا ! را ، تا ، تا ! . . .

وتساءلت وقد جفلت مرة أخرى :

ـــ أوو ، يا إلهى ! . . . يا إلهى ! . . . أظنها أصوات مفزعة أخرى من أصوات الريف ؟

وقالت صاحب الطاحون مبتهجاً :

ـــ أو ، لا . إنهم جنود البروجى التابعون لابنى جون فى فرقة الدراغون المرابطة فوقنا تماماً . وهم يعزفون لحناً من تلك الألحان التى يتخيلونها . وسوف يسر جون أن يفسر لك معناها عندما ينزل إلينا . إنه جاويش البروجى كما قد تعلمين يا سيدتى .

ـــ أوو ، نعم . أنت تقصد أخا الربان بوب . لقد حدثنى عزيزى بوب عنه.

وقال صاحب الطاحون :

ـــ إذا جئت إلى جانب الدار الخاص بمسكن السيدة جارلاند استطعت أن ترى المعسكر .

وقالت السيدة جارلاند مدفوعة بعاطفة إنسانية :

ـــ لا تغصبها . فهى متعبة بسبب رحلتها الطويلة .

وكانت هذه الأرمل قد جاءت تقصد بوجه عام أن ترى من وقع عليها اختيار

بوب . وكان الجميع يعاملون هذه الأخيرة فى الواقع على أنها أجنبية رقيقة قد تؤذيها طباعهم الريفية غير المهذبة أذى جدياً .

وذهبت إلى المنزل تصحبها السيدة جارلاند وابنتها . غير أنها رتبت أمرها قبل انصرافها على أن تهمس فى أذن بوب بقولها : « لا تخبرهم أنى جئت مستقلة عربة السفر العادية ، هل تستجيب لذلك يا عزيزى ؟ » ... وهو طلب لم تكن ثمة حاجة إليه لأن بوب اعتزم قبل ذاك بزمن أن يحتفظ بهذا السر فى قبر ، ولا يرجع السبب فى هذا إلى أن تلك العربة لم تكن وسيلة مألوفة للسفر ، ولكن لمجرد أنها ليست وسيلة مألوفة لسفر سيدة عظيمة إلى عروسها .

وإذ اعتور الرجلين شعور بأنه لا داعى لبقائهما حالياً داخل المنزل راح صاحب الطاحون يعاون ديفيد على سحب الحصان إلى « الإصطبل » ، وتبعه بوب تاركا ماتيلدا للمرأتين . وفى داخل الدار أعجبت الآنسة جونسون بكل شىء ... بالببغاوات والقردة الجديدة على الدار ، وبأعمدة السقف السود ، وخزانة الآنية ذات الأركان المزدوجة ، والمصراعين الزجاجيين اللذين يلمع من خلالها باقى أطقم من آنية صينية مختلفة اقتنتها أم بوب أثناء إدارتها لشؤون الدار .... ووعاء للسكر ذو مقبضين ، وأقداح للشاى بلا مقابض ، وإبريق للشاى يشبه الهيكل الهندى ، ووعاء للزبد على شكل بقرة مرقشة ببقع مختلفة الألوان .... وقابلت السيدة جارلاند وابنتها لطف معاملة ضيفتهما بمثلها . وكانت عادة الآنسة جونسون اللطيفة ، وهى أن يموت بعضها لدى سماعها أى نباح أو جؤار غير عاديين ، قد أكسبها حرافة جديدة فى أعينهما . ولكن من الطبيعى أن محادثة من هذا القبيل تكون فى بادىء أمرها من نوع عصبى تجريبى يتبع المعنى فيه الحدس إلى حد بعيد ، كما هى الحال فى منظومات بعض الشعراء المبهمى التعبير .

— إن نسيم البحر يصل إليكم هنا دون شك ؟

— أوو ، نعم ياعزيزتى ، عندما تهب الريح من هذه الناحية .

— هل تحبين الجو الشديد الرياح ؟

— نعم ، ولو أنى لا أحبه الآن ، لأن الريح تسقط ثمار التفاح الصغيرة .

— يبدو أن التفاح وفير عندكم . أأنتم يا سكان الريف تسمون مولد « سان سويثين » يوم التعميد فيما إذا أمطرت السماء .

ـ نعم ، يا عزيزتى... آه ، ويحى ! ... أنا لم أحضر حفلة تعميد إلا مرة واحدة خلال هذه السنوات العديدة... وأذكر أن اسم الطفل كان جورج ... لقد سمى باسم الملك .

ــ بلغنى أن الملك جورج لايزال فى البلدة هنا . أرجو أن يظل بها حتى أراه .

ــ سينتظر إلى أن يتحول اخضرار القمح إلى اصفرار . فهو يفعل ذلك دائماً .

ــ كم انتشر اللون الأصفر ، الذى أصبح أحدث طراز ، بين القفازات فى الوقت الحاضر بالذات !

ــ نعم . وقد سمعت أن بعض السيدات يلبسنها طويلة حتى المرافق .

ــ هل يفعلن ذلك ؟ أنا لم أتنبه للأمر . لقد اصطدمت بمرفقى فى باب بيت عمتى صدمة قوية فى الأسبوع الماضى إلى حد أنى لا أزال أشعر بالألم إلى الآن .

وقبل أن تغلب عليهن أهمية هذا الحديث تماما دخل عليهن صاحب الطاحون وبوب. وفى الحق إن السيدة جارلاند وجدت المهمة التى أقامها صاحب الطاحون على القيام بها ــ وهى تعريف سيدة غريبة ببيت ليس بيتها ــ وجدت هذه المهمة سمجة نوعا ، بيد أنها كادت تكون مع ذلك ضرورة .فلم تكن هناك امرأة تابعة للدار إلا تلك المرأة التى هى مختصر عجيب لمفهوم « المنفعة » ، تلك الخادمة غير المتفرغة التى استعارها لفدى ــ لداعى المظهر ــ من السيدة جارلاند ، بينما اعتادت السيدة جارلاند بدورها أن تستعيرها من أمها . أما بشأن ديفيد ــ الذى كان نصف خادم ونصف خادمة ــ فقد أنبىء خباز فرعون ، بأنه جرد من وظيفة خادمة شؤون البيت ، وخادمة غرفة النوم ؛ إذ نيط بالفتاة أن تقوم بتلك المهمة حتى يتم الزفاف فتتولى زوجة بوب عندئذ تدبير شؤون المنزل .

وجلس الجميع للاستمتاع بشرب الشاى. وتضمن المجلس آن وأمها ، وجلس الربان إلى جانب الآنسة جونسون. وبدت آن متجلدة فى صدد هذا الأمر ــ فى الظاهر على الأقل ــ وظهر أنها تغلبت بطريقة موفقة على أية عاطفة متبقية كانت عودة بوب قد أحيتها. وفى خلال المساء ، بينما كانوا لا يزالون يجلسون حول الطعام ، جاء إليهم جون فى زيارة سريعة ، تحقيقاً لما وعد به وبدا فى الظاهر أن السبب يرجع إلى تعرفه بزوجة أخيه المرتقبة ، ولكنه كان يرجع على نحو أشد بكثير إلى رغبته فى أن يفوز بكلمة وابتسامة من آن المحبوبة. وقبل أن تقع عليه

أعينهم ، التقطت آذانهم خطوات الجاويش البروجى النشطة وهو يقدم من حول ركن المنزل ، ولم تمر لحظة حتى ألقى هيكله ظله على الباب. ولما كان اليوم يوم أحد فقد ظهر فى بزته العسكرية الكاملة .. . سترته ذات الأشرطة ، وصداره الأبيض ، وسرواله ، وريشة قبعته التى كانت منتصبة ، ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن نكسها ، مسوقا إلى ذلك بالضرورة انسياقه إليه بأدب اللياقة ، فإن أعمدة السقف فى دار الطاحون تميل إلى سحق مثل هذه الزينة وتدميرها دون سابق إنذار.

وقال صاحب الطاحون :

ــ جون ، كنا على أمل أن تأتى ، ولذلك أبقينا الطعام موضوعاً على المائدة عن قصد. تقدم وحادث السيدة ماتيلدا جونسون . . سيدتى ، هذا أخوجون .

وقال الجاويش البروجى فى نبل :

ــ خادمك الخاضع ياسيدتى .

ولما كان الظلام قد بدأ يغمر فى هذه الغرفة الأرضية ذات النافذة الزجاجية الصغيرة فقد تقدم جون ، بدافع الغريزة ، بينما كان يتكلم ، إلى الآنسة جونسون التى كانت تجلس مولية النافذة ظهرها. ولم يكد يتبين ملامحها حتى أوشكت خوذته تسقط من يده ، وتجمد وجهه فجأة ، وتبدد لونه الطبيعى، وحل محله لون أصفر مشوب بالاخضرار .

أما الفتاة الشابة فما نظرت من ناحيتها إليه عن قرب حتى قالت فى ضعف : « أخو روبرت ! » وتبدل لونها مع ذلك على نحو أسرع من تبدل لون الجندى . والإغماء الذى كان فى المرة الماضية نصف مصطنع ، تملكها الآن فى جد حقيقى .

وقالت وقد وقفت فجأة وهى تبذل مجهوداً :

ــ أشعر بأنى لست فى حالة جيدة ، فهذا اليوم المحتدم قد هد كيانى!

وانهار حفل الشاى انهياراً تاماً كانهيار الحفل فى مشهد مسرحية هاملت . وأمسك بوب محبوبته وحملها إلى الطابق العلوى. وصاح صاحب الطاحون :

ــ آه ، إن الرحلة أنهكتها إنهاكا مزعجاً ! وقد أدركت ذلك عندما رأيتها على وشك الإغماء وقت أن خارت البقرة . فما من امرأة تخاف ذلك لو أنها متمالكة لقوتها الطبيعية .

وأضافت السيدة جارلاند وهى تتبع الفتاة المصابة بالنكبات إلى الدور العلوى ، وكان توعك تلك الفتاة فى هذه المرة مقطوعا به .

— هذا بالإضافة إلى كون شدة حيائها من الرجال جعل ملابس جون العسكرية الجميلة غلابة عليها ، هذه المخلوقة المسكينة .

ومع ذلك كانت — بشىء من مقاومة عنيدة يبذلها قلبها — تتوق إلى التخلص من إغمائها بمقدار ما كانت ترغب فى زيادة حدته منذ ساعتين أو ثلاث ساعات مضت .

ووقف صاحب الطاحون وجون كعصاتين معتدلتين فى الغرفة التى غادرها الآخرون . ودار وجه جون فجأة إلى حيث تعلق بالحائط صورة كريكاتورية لنابليون لم يكن قد رآها من قبل أكثر من مائة وخمسين مرة .

وقال أبوه أخيراً :

— تعال اجلس ، وتناول على أية حال قدحاً من الشاى ، فلا شك أنها ستعود إلى عافيتها عما قريب .

وأسرع جون إلى القول :

— شكراً ، فلست أريد شاياً قط . وهو لم يكن يريده فعلا ، فقد كان يعانى ألما هائلا يمتد من رأسه إلى قدمه .

وكان الضوء ضئيلا جداً إلى حد لا يلاحظ أحد معه دهشته . وقال الجاويش البروجى إنه سيخرج للحظة من اللحظات دون أن يعرف أين يذهب ليصرف تلك الدهشة .. . أسرع إلى مخبز البيت ولكنه إذ وجد ديفيد هناك اتجه إلى مخزن المؤن . بيد أنه إذ وجد الخادمة هناك اتجه إلى الكوخ الذى توضع فيه العربة ... ولكنه إذ وجد شريدين يتسكعان هناك ذهب خلف صف من شجر البازلاء الفرنسية فى الحديقة حيث تمتم لنفسه تمتمة من أتقى ما فاه به فى يوم الأحد هذا . قال « ربى ! ماذا يجب أن أصنع ! »

ثم مشى ثائراً فى ممرات الحديقة المعتمة حيث بدا خرير الجداول مرتفعاً بالنسبة للسكون المخيم حوله . وفى غير مبالاة وطئت قدمه القواقع التى تقدم لإطعامها ، واشتبك مهمازه بالحشائش الطويلة حتى اكتظت حلقاته بمخلفاتها . ثم لم يلبث أن سمع صوت شخص يقترب . وظهر شكل أخيه بين جذع الشجرة المقتلعة والحاجز .

وقال الملاح :

ـــ أوو ، أهو أنت ؟

ـــ نعم ، هو أنا .. . خرجت أستنشق الهواء الطلق .

ـــ إنها تثوب إلى رشدها ثانية على نحو طيب . ولما لم يكونوا فى حاجة إلى داخل الدار فسأذهب إلى البلدة لأزور صديقاً أو صديقين لم أتمكن من أن أتبادل معهما الحديث بعد ، وهما يودان أن أراهما ، أول ما أراهما يوم الأحد وهما يتحليان بأبهى ملابسهما .

وأمسك جون أخاه بوب من يده . وعجب بوب لذلك نوعا .

وقال جون :

ـــ حسناً يا صديقى . أتذهب إلى البلدة ؟ .. أظن أنك ستعود ثانية قبل أن يتأخر الوقت كثيراً ؟

وقال الربان بوب مغتبطا :

ـــ أوو ، نعم .

وخرج من الحديقة .

وترك جون عينيه تتبعان أخاه حتى تعذرت رؤية شكله . ثم دار وعاد يذرع الحديقة صاعداً هابطاً ؟

الليلة التى أعقبت . . .

مقدم ماتيلدا .

(١٨)

وظل جون يمشى فى خطوات ثقيلة حزينة إلى أن بدا المشى طريقة عتيقة بالية لإظهار حزن جديد كل الجدة . ومال متكئاً على فرع شجرة تفاح كأنه حزمة حطب . وظل جاويش البروجى هناك مدة غير قليلة ، ميمما وجهه شطر المنزل الذى ارتفعت معالمه القديمة ، العديدة المداخن ، تجاه السماء المظلمة ، ووارت ، على قدر سواء ، منظر المعسكر القائم فوق التل . ولكن الجلبة الخافتة الصادرة من ناحية الخيول المتبرمة فى قيودها هناك ، نبهت جون إلى وجود ذلك المعسكر، وأذكرته أنه حصل على إذن بالغياب تلك الليلة عنه بسبب مقدم ماتيلدا . . . هذه الواقعة التى لم يذكرها لأولئك الأصدقاء نظراً إلى المشاعر المثيرة التى جاشت إثر دخوله عليهم .

وبينما كان يتأمل ، نظرياً ، كيف يفيد من تلك الميزة فى هذه الظروف الطارئة ، سمع المزارع دريمان يقدم إلى باب الدار الأمامى راكباً ، ويشترك فى حديث مع أبيه . فالرجل الهرم قد جاء آخر الأمر ، على ما يبدو ، بصندوق الصفيح المشتمل على أوراقه الخاصة التى رغب فى أن يحتفظ صاحب الطاحون بها أثناء غيابه . ونظراً إلى هدوء تلك الليلة فقد استطاع جون ، ولو أن اهتمامه بالأمر كان ضئيلا ، استطاع أن يسمع توسلات العم بنجى المتكررة إلى لفدى أن يحتفظ بصندوقه فى مأمن من النيران واللصوص . ثم انصرف العم بنجى ، وصعد أبوه إلى علو الدار ليحفظ الصندوق فى مكان أمين . ووصلت أصوات ما حدث جميعها إلى بال جون المشغول كأنها بجرد أصوات تتردد أثناء المنام .

والشيء الثانى الذى حدث هو ظهور نور أضيء فى الغرفة المخصصة لمبيت ماتيلدا . وقد أثار ذلك الجاويش البروجى إثارة فعالة ، فدخل البيت فى تلصص غير معهود فيه . وكانت غرف الطابق الأرضى لا نور فيها ، فأبوه والسيدة

جارلاند وآن كانوا قد خرجوا متوجهين إلى الجسر لمشاهدة الهلال الجديد . وصعد جون إلى الطابق العلوى على أطراف أصابع قدميه ، واجتاز طول الممر المعوج حتى وصل إلى باب غرفتها ، وكان مواربا ، وضوء الشموع الكثيرة ينير عبر الممر ويصل حتى الحائط الأعلى المقابل . وما دخل ذلك المجال المتألق حتى رآها . وكانت تقف أمام مرآة ، وقد بدا عليها أنها مشغولة البال . وتشابكت أصابع يديها خلف رأسها وهى شاردة اللب . والضوء يتساقط بكل لألائه على وجهها .

وقال جاويش البروجى :

— لا مناص من أن أحادثك .

وجفلت ، ودارت ، وازدادت شحوباً عن ذى قبل ، ثم فتحت الباب على مصراعيه كأنما دفعها إلى ذلك دافع مفاجىء ، وخرجت وهى تقول فى رباطة جأش تامة وظرف ظاهر :

— أوو ، نعم . أنت أخو حبيبى بوب ! أنا لم أعرفك لبرهة قصيرة .

— ولكنك عرفتنى الآن ؟

— بحسبانك أخا بوب

— ألم ترينى من قبل ؟

وأجابت ووجهها جامد التعبير كوجه تالليران(١) .

— لا ، لم أرك .

وكررت قولها :

— لم أرك .

— ولم ترى أحداً من جنود فرقة الدراغون رقم . . . ؟ ولا الكابتن جوللى ، والكابتن بوبى ، والسيد فلايت مثلا ؟ . .

— لا .

وقال بلهجة جافة :

---

(١) وزير لويس الثامن عشر المشهور بسياسته الخبيثة المستهترة (تعليق الأصل) .

ــ أنت تخطئين ، وسأخبرك بالتفصيلات .

وأسهب فى تذكيرها بذلك . وقالت يائسة :

ــ أبداً !

ولكنها أخطأت وهى تحسب حساب مقاومتها ، وطبع خصمها . وانهمرت دموعها بعد مرور خمس دقائق . وتحول الحديث إلى عبارات اتخذت من جانب الجندى طابع الأوامر التى خفف الإشفاق من غلوائها ، واتخذت من جانبها طابع مجرد سلسلة من التوسلات .

ولم يطل المشهد بأسره أكثر من عشر دقائق . وما انتهى حتى مشى الجاويش البروجى مبتعداً عن عتبة الباب التى كانا يقفان عندها ، ومسح البلل عن عينيه وإذ وصل إلى غرفة لسقط المتاع وقف ساكناً ليهدىء روعه . ثم نزل فى سلم فلسنكى إلى الناحية الخلفية من المنزل بدلا من النزول فى السلم الأمامى . ووجد الباقين ، ومن بينهم بوب ، قد اجتمعوا فى الردهة أثناء غيابه ، وأضاءوا الشموع .

وقبل أن يدخل جون البيت من جديد بفترة من الوقت كانت الآنسة جونسون قد نزلت إلى الدور السفلى لتقول إنها تفضل أن تلزم غرفتها تلك الليلة ، ولا ينتظر أن تنضم إلى مجلسهم ، وعلى هذا لم يظهر بوب من الانتعاش إلا أقل مما اعتاد إظهاره . وإذ رغب صاحب الطاحون فى رفع معنوية ابنه عبر عن أسفه لعدم تمكنهم من الغناء حتى يجعلوا الليلة مبهجة ، وذلك نظراً إلى أن اليوم يوم أحد . وعندئذ اقترحت السيدة جارلاند أن ينشدوا الأناشيد الدينية ، وإذا ما اختاروا منها الأناشيد ذات النغمات البديعة ، وإذا لم يفكروا فى الكلمات ، فإنها تصبح صالحة للغناء كالملاحم المنظومة .

وهذا ما فعلوه ، حين ظهر الجاويش البروجى وانضم إلى سائرهم . ولكن الواقع أن نغمة ما لم تخرج من بين شفتيه المتحركتين . كان ذهنه يعانى حالة بلغت من الشدة حدا لم يستطع معه حتى استخلاص متعة من وجود آن ، برغم أنه اشترك معها فى الإمساك بطرف كتاب واحد .

وكانت تعامله بطريقة لطيفة تختلف عن الطريقة التى اعتادت أن تتمادى فيها . لقد رأت غيوم الفكر تخيم على ذهنه فحاولت أن تبددها وهى بعيدة عن أن تحزر سبب تجمعها .

ووجدت السيدة جارلاند وابنتها فى النهاية أن الوقت قد حان لانصرافهما ـ وحي جون لفدى ، فى نفس الوقت ، أباه وبوب منصرفاً ، ومشى مع السيدة جارلاند حتى باب دارها.

ولم ينبس بكلمة تدل على أنه حصل على إذن بالمبيت تلك الليلة خارج المعسكر ويرجع سبب ذلك إلى أن هناك عملا مؤلماً لابد من القيام به ، ومن الأفضل له أن يقوم به سراً ، وعلى انفراد. وعوق بالقرب من المنزل حتى توقفت أضواء نوافذه عن التلألؤ فوق حوض الطاحون ، وأصبح كل مايشتمل عليه مظلماً ساكناً. ثم دخل الحديقـة ، وانتظر هناك حتى انفتح الباب الخلفى ، وخرجت منه قامة امرأة تتقدم فى وجل. واتجه إليها لفدى على الفور ، وبدآ يتحدثان فى صوت خافت ، ولو أن نبراته كانت مفككة.

وظلا يتحدثان مدة عشر دقائق ، وإذا افترقا وكأنهما وصـلا إلى تسوية مؤلمة . وإذ كانت الآنسـة جونسون تصعد التنهدات فى ألم ، أطل رأس إنسان متلصصاً من خلف صف الحواجز ، وبعد لحظة صرخ صاحبها صرخة عالية :

— لصوص ! ... لصوص ... صندوقى الصفيح ! لصوص ! لصوص ! ...

وتوارت ماتيلدا داخل المنزل ، وأسرع جون لفدى إلى الحاجز وصاح :

— بحق ربك أمسك لسانك يا سيد دريمان !

وقال العم بنجى :

— صندوقى الصفيح ! أوو ، إنه ليس سوى الجاويش البروجى ! .

— أؤكد لك أن صندوقك فى أمان موفور . وليس فى الأمر إلا أن ...

وهنا أطلق الجاويش البروجى ضحكة مصطنعة واستطرد :

— ليس فى الأمر إلا شىء من المغازلة الماكرة كما تعلم .

وقال مالك الأرض الصغير الهرم وقد شعر بالفرحة :

— ها ، ها . فهمت ! أنت تغازل الآنسة آن ! إنك أبعدت ابن أخى عنها إذن يا جاويش البروجى ! حسناً ، إن ذلك لأفضل. أما عن نفسى ففى الحق إنى لم أستطع أن آوى إلى فراشى بسهوله نظراً إلى ما خطر لى من أن أباك قد لا يهتم بما أودعته لديه. ورأيت آخر الأمر أن أحضر ، وأن أرى ، قبل دخول البيت ،

هل كان كل شيء آمناً هنا . وعندما رأيت قوامكما هيأت لى أعصابى المسكينة أنكما من مقتحمى البيوت ، ومن رجال بونى ، ولست أدرى كل ما خطر لى خلاف ذلك .

وقال الجاويش البروجى وقد سمع طرق الصلب للحجر الصوان صادراً من غرفة نوم أبيه ، وتلا ذلك بعد دقيقة ارتفاع أضواء إلى نافذة نفس تلك الغرفة :

ـــ لقد أزعجت من فى المنزل .

ثم أردف متجهما إذ فتح أبوه النافذة :

ـــ وأوقعتنى فى ورطة !

وقال العم بنجى :

ـــ أنا آسف لذلك . ولكن تراجع إلى وراء ، وسأصلح الأمر ثانية .

قال صاحب الطاحون وقد ظهر لدى فتح النافذة غطاء رأسه الليلى مربوطا بالأشرطة :

ـــ ما الأمر بحق رب السماء ؟

وقال المزارع :

ـــ لا شيء ، لا شيء . لقد ساورنى القلق على سنداتى ووثائقى القليلة ، وسرت فى هذا الاتجاه ياصاحب الطاحون نظرا إلى أنى سأبدأ رحلتى صباح غد . وخيل إلى عندما وصلت إلى سور حديقتك أنى رأيت لصوصا ولكن اتضح أنه . . اتضح أنه .

وهنا ألقى الجاويش البروجى قبضة تراب أصابت ظهر العم بنجى على سبيل التذكير :

ـــ اتضح أن فرعا من شجرة الكرز كان يتمايل مع الريح . طبت مساء

وقال ميلر لفدى :

ـــ ليس هناك لصوص يتطاولون على دارى . والآن حذار من أن تحضر وتزعجنا على هذا النحو مرة ثانية أيها المزارع ، وإلا فعليك أن تحافظ أنت نفسك على صندوقك . . ومعذرة إذ قلت لك ذلك . . طبت مساء .

ـــ مادمت أنى هنا ، فهل تسمح ياصاحب الطاحون أن تلقى مجرد نظرة . .

مجرد نظرة لترى هل الصندوق فى أمان ؟ إنك رجل طيب ! وأنا رجل هرم كما تعلم ، والبقية المسكينة المتبقية منى لم تعد تماثل ما كنت عليه أصلا . اذهب وتحقق من إذا كان الصندوق فى الموضع الذى وضعته فيه . إنك لرجل طيب رؤوف .

وقال صاحب الطاحون مغتبط المزاج :

— حسناً ، سأذهب .

— ياجارى لفدى. أرى بعد التفكير ثانية أن أعود بصندوقى على أية حال ، إلى دارى من جديد ، إذا أنت لم تجد فى ذلك ضيراً . وإنك لن ترى ذلك تصرفا سيئا منى ؟ . . أنا لا يساورنى شك فيك بالطبع ، ولكنى أفكر الآن فى الأمر ، إذ هناك منافسة بين ابن أخى وابنك . وإذا استقر فى ذهن فستوس ، مدفوعا بدافع العداوة ، أن يشعل النار فى بيتك ، فهذا سيكون وخيم العاقبة على سنداتى ووثائقى . لا غضاضة ياصاحب الطاحون ، ولكنى سآخـذ الصندوق إذا لم يهمك الأمر .

وقال لفدى :

— يقينا إن الأمر لا يهمنى . ولكن خير لابن أخيك أن يفكر مرتين قبل يدع عداوته تتخذ هذا اللون .

وتناول الشمعة وهو يرجع عن النافذة ، وذهب بها إلى جانب خلفى من الغرفة ، ولم يلبث أن ظهر ثانية ومعه الصندوق .

وقال دريمان مترويا :

— أنا لن أزعجك بحملك على ارتداء ملابسك ، فيمكنك أن تدلى الصندوق بأى شىء يقع تحت يدك .

ودلى الصندوق بحبل ، واحتضنه الرجل الهرم بذراعيه ، وقال بعرفان للجميل صادر من القلب :

— أشكرك ! طاب مساؤك !

ورد صاحب الطاحون التحية ، وأغلق النافذة ، وانطفأ النور .

وقال الجاويش البروجى :

— والآن أرجو أن تكون قد قنعت ياسيدى ؟

وقال دريمان مائلا على عصاه التى يتوكأ عليها :

ــ جداً ، جداً !

وسار فى طريقه المهجور .

واضطجعت آن فى فراشها تلك الليلة مفتحة العينين ، متأملة ملامح الصديقة الجديدة التى حلت ببيت جارها . وهى لن تنتقدها ، فالنقد فى هـذه الحالة غير كريم ، ومجاف للصواب . ولـكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التفـكير فيما همها وتساءلت فى صمت : أتوجـــد هناك ميزات نادرة بالفعل تميز عقلية الآنسة جونسون وشخصها على نحو تلك التى رفعت هذه السيدة كلية إلى ما فوق مستوى مقارنتها بها ؟ أوو ، نعم . لابد أن تـكون هناك مثل تلك الصفات ، وإلا لما اختارها الربان بوب من بين سائر الناس جميعاً ، بما فى ذلك هى نفسها ؟ وهو بالطبع أدرى نظرا لخبرته العالمية .

وعندما غرب القمر ، ولم يبق فى السماء إلا نجوم الصيف تلقى بأضوائها على الحديقة الفسيحة الرطبة ، خيل إليها أنها تسمع أصواتا تترامى إليها من ناحية تلك الحديقة ولعلها كانت أصوات بوب وماتيلدا وهما يجولان جولة العشاق قبل أن يأويا إلى فراشهما . فإن صدق هذا فكم سيثقل النعاس جفنيهما فى اليوم التالى ، وكم سيكون سخيفا من ماتيلدا أن تدعى التعب ! وغلب آن النعاس وهى تجتر الخواطر على هذا النحو ، وتقول لنفسها إنها تؤمل أن يسعدا .

خلق الآنسة جونسون

يسبب دهشة غير قليلة

(١٩)

استيقظ بوب فى صباح اليوم التالى مبكراً كأبيه وكالسنان ويرجع بعض ذلك إلى اضطرابه لمبيت ما تيلدا تحت سقف أبيـــه . وعند ما بدأت عجلة الطاحون الكبيرة تقعقع ، وتجيبها غمغمة العجلات الصغيرة ، خرج إلى ساحة الطاحون الأمامية ليستدفىء بالشمس بين الدجاج الرمادى والمرقش على أنواع منوعة ، وقد أم المكان هو والبط الذى جاء من الممر المؤدى إلى الطاحون .

وتحدث إلى أبيه ، وهو واقف على حجر الطاحون المتآكل المغروس فى الحصى . . تحدث إليه عن التحسينات المنوعة التى ينوى إدخالها على الاستعدادات الأولية للزواج ، وعلى الترتيبـات المقترحة لإعداد مكان دائم لإقامتـه ، وقد شـــعر بمتعة انبنى بعضها على ما يدخره المستقبل المأمول ، وبعضها الآخر على تغلغل دفء الشمس إلى ظهره وكتفيه . ثم بدأ الهبوط الصباحى لمختلف طوابير الخيل إلى حوض الطاحون ، وبعد أن لوثت حفافى ذلك الحوض بالطين صعدت فى المنحدر ثانية . وازداد ضجيج المعسكر وضوحا على التوالى ، وعندئذ جاء ديفيد يعلن أن طعام الإفطار معد وسأله صاحب الطاحون :

ــ هل الآنسة جونسون فى الدور السفلى ؟ .

وأنصت بوب إلى الجواب وهو ينظر إلى ديدبان فى أعلى التل ، يرتدى بزة زرقاء ، وقال ديفيد الممتاز :

ــ لم تنزل بعد يا سيدى .

وقال لفدى .

ــ سننتظر حتى تنزل ، ونبلغنا بنزولها فى حينه .

ودخل ديفيد البيت ثانية ، وواصل لفدى وبوب تفتيشهما الصباحى بالصعود إلى أروقة الطاحون الغامضة المهتزة ، وخوض مناقشة حول حجرى طحن منقوشين

آخرين لا بد من إعادة تنظيمهما قبل استعمالها ثانية . وقد استغرق الحديث عن هذا وغيره من الأمور المماثلة ما يقرب من عشرين دقيقة . وتنبه أكبر الاثنين سنا ، وهو ينظر من النافذة ، إلى الساعة التى وصل إليها النهار برؤيته غطاء مائدة السيدة جارلاند مرفرفا ، من خلال بابها الخلفى ، على رؤوس سرب من الحمام حط هناك لالتقاط الفتات .

وقال وهو يشعر بجوع لم يكن بوب فى غفلة تامة عن مثله :

ــ أحسب أن ديفيد سيعجز عن العثور علينا .

وأطل برأسه ونادى . . . فأجابه خادمه :

ــ لم تنزل السيدة من غرفتها بعد .

وقال صاحب الطاحون فى عبث لاه :

ــ لا عجلة ، لا عجلة . ولنلق نظرة على الحديقة إزجاء للوقت يا بوب .

وعقب بوب معتذرا : .

ــ سوف تستيقظ فى وقت أبدر من هذا ، كما تعلم ، عندما نتفق على الأمور وتضطلع بعمل هنا .

وقال لفدى :

ــ نعم ، نعم .

ونزلا إلى الحديقة . وهناك أخذ يقلبان الأحجار المنوعة المسطحة ، ويقتلان الحشرات البطيئة المحتمية تحتها من قيظ اليوم المنتظر ، ويتحدثان عن أنواع تلك الحشرات جميعها . . . الرمادى منها والأسود . . . الخشن منها واللين . . . وعن السبب فى تكاثرها هذا العام فى الحديقة . وعن الحقبة المقبلة التى ستزال فيها الحشائش التى تؤويها ، ويفرش الحصى مكانها . وعن الميزات النسبية للمقص ونعل الحذاء فى القضاء عليها . وقال صاحب الطاحون آخر الأمر :

ــ نعم أنا فى الحقيقة جوعان يا بوب . لا بد أن نبدأ تناول الطعام بدونها .

وكانا على وشك دخول الدار عندما ظهر ديفيد وهو يسرع فى حركاته ، وعيناه تتسعان اتساعا أقرب إلى الاتجاه الرأسى منه إلى الأفقى . ووجنتاه تكادان تتلاشيان .

— سيدى ، ذهبت لأناديها . وطرقت الباب عندما لم أسمع صوتها . وركلته عندما لم تجب . وانفتح إذ لم يكن مرتجا ، و . . . كانت قد ذهبت ! .

وطار بوب صوب البيت كالعصفور . وتبعه صاحب الطاحون وهو أقرب إلى الثقل كالرجل الهرم الذى فى مثل سنه . ولم يطل الوقت حتى ظهر أن الآنسة ما تيلدا لم تكن فى غرفتها ، ولم تكن بالغرفة قصاصة من أى شيء يتعلق بها . وبحثا فى كل مكان تستطيع أن تختبىء فيه أو تحشر نفسها ، وبحثا فى كل مكان لا تستطيع فيه شيئاً من ذلك . ولكنهما لم يعثرا على شيء .

واستشرى الربان بوب كل الاستشراء دهشة وحزنا . وجرى إلى منزل السيدة جارلاند عندما استوثق تماما من أن ما تيلدا غير موجودة فى أى مكان من بيت أبيه . وإذ قص عليهم القصة فى سرعة لم يكادا يفهمان معها التفصيلات ذهب صوب منزل « كمفورث » قاصداً أن يعلن الفاجعة هناك ، ويعلنها كذلك فى بيت « ميتشل » و« بيتش » و « كريبلسترو » ، والقس ، وكاتب الحسابات ، ومعسكر فرقة الدراغون ، والهوزار ، وما إلى ذلك حتى بقاع البلد جميعها . ولكنه تريث ، ورأى أنه يصعب أن يكون من اللائق نشر نبأ إخفاقه على هذا النحو . فلو أن ما تيلدا غادرت المنزل مدفوعة بأية نزوة فهو لن يهتم بالبحث عنها وإذا كان لفعلتها قصد يفجع فلا بد من إبقائها بعيدة عن المعسكر والبلدة .

وفكر فى آن ساعة اضطرابه . فقد كانت فتاة ظريفة ويمكن الوثوق بها . وذهب إليها فوجدها فى حاله عصبية وجزع يماثلان مايعانيه .

وقال بوب يائسا ، وقد ملأ التجعد جبينه :

— إنه لموحش جداً أن أجول باحثا عنها بمفردى ، وقد فكرت فى أنك قد تأتين معى فتخلعين البهجة على الطريق ؟

وقالت آن :

— فى أى مكان سنبحث عنها ؟

— أوو ، فى فجوات الأنهار كما تعلمين ، وفى قاع الآبار ، وفى المحاجر ، وفوق الصخور وما أشبه . وقد تلمح عيناك بارقة من أية قطعة صغيرة من شالها أو قبعتها تخطئها عيناى . وسيكون فى ذلك خدمة حقيقية تؤدينها لى . . . تعالى معى ، أرجوك !

وهكذا أشفقت آن عليه ، ووضعت قبعتها على رأسها وذهبت معه بينما صاحب الطاحون وديفيد قد ذهبا فى اتجاه آخر . وفتشا فى مصارف الحقول . وكان بوب يدور حول سياج ، وتدور آن حول آخر ، ويسيران حتى يلتقيا فى الناحية المقابلة . ثم جعلا يجيلان بصرهما تحت القنوات الحجرية ، وفى البيوت الخلوية ، وفى قاع الآبار القديمة ، وفى ذهن بوب الذى بدأ يظن أن ماتيلدا أقدمت على مجرد الهرب . وبرغم ذلك ظلا يواصلان سيرهما ، ولو أن الشمس كانت فى ذلك الوقت متقدة الحرارة إلى حد أن آن كان يسرها أن تجلس وتستريح .

وسألها إذ أخذ البحث يفقد نشاطه :

— ألم يكن تقديرك لها كبيراً يا آنسة جارلاند ؟

وقالت آن :

— أوو ، نعم كبيراً جداً .

— كانت جميلة حقاً . وخلت نظراتها من الحذر ، أليس كذلك ؟

— تماما . وكان جمالها ناضجا كل النضوج . . فهى ليست فى إبان الصبا . وكنا سنحبها جميعاً ، فماذا حملها على الرحيل ؟

وأجاب الملاح يائسا :

— لا أدرى ، وأقسم أن هذا سيحملنى على أن أقول إن الأمر لا يهمنى .

ثم أضاف وقد بدأت آن تهبط محجرا وعر المسالك :

— دعينى أساعدك على النزول من فوق هذه الأحجار .

وتقدم ، وقفز إلى أسفل ، ودار صوبها .

ومدت إليه يدها ، وقفزت إلى أسفل أيضاً . وقبل أن يطلق قبضته رفع أصابعها إلى شفتيه وقبلها .

وصاحت آن وهى تنتزع يدها منه فى جزع أصيل ، وقد نبتت دمعة فى كل من عينيها على حين غرة .

— أوو يا ربان لفدى ! أنا لم أسمع عن مثل هذا قط ! وأنا لن أسير معك قيد أنملة واحدة إلى الأمام يا سيدى . إن الأمر مفضوح جداً .

ودارت وانطلقت عدوا .

وقال الربان النادم على ما فعل وهو يسرع خلفها :

ــ أقسم أنى لم أقصد ذلك . إنى أحبها أكثر من غيرها . . أحبها على هذا النحو فعلا . . وأنا لا أحبك قط ! أنا لست متقلبا إلى هذا الحد ! ولم يكن منى فى هذه اللحظة إلا أنى أعجبت بك فقط كما أعجب بسفينة صغيرة لطيفة ، وعلى هذا النحو حدث أنى ارتكبت ما ارتكبت . .

ثم استطرد وهو لا يزال يجرى وراءها :

ــ اعلمى يا آنسة جارلاند أن الأمر يتحصل فى أنك عندما تنزلين إلى الشاطىء بعد أن تقضى ثمانية عشر شهرا محتبسة فى سفينة ، تجدين النساء فى نظرك جميلات لطيفات إلى حد لا تتمالكين نفسك من الميل إليهن بالجملة ، وعلى هذا يصبح قلبك أميل إلى التشتت . . إلى الهيمان قليلا حسبما يقولون ولكنى أفكر بالطبع فى ماتيلدا المسكينة أكثر من غيرها ، وسأظل ألازمها أبداً .

وأطلق زفرة هائلة ليظهر بما لا يدع مجالا للشك أن قلبه مازال حيث يتطلب الشرف أن يكون .

وقالت فى حركة مشاكسة سريعة وهى لا تزال تدير وجهها عنه ،

ــ أنا سعيدة لسماع هذا . . أنا سعيدة جداً بالطبع . وآمل أن تجدها ، وألا يتأجل موعد الزفاف ، وأن تسعدا كلاكما . ولكنى لن أبحث عنها بعد ذلك ! . . لا ، ولا يهمنى أن أبحث عنها . . رأسى يوجعنى . سأعود إلى البيت .

وقال روبرت فى حزم :

ــ وأنا كذلك .

ــ لا ، لا . استمر بالطبع فى البحث عنها ... ابحث عنها بقية النهار وطوال الليل . أنا واثقة أنك ستفعل ذلك إذا كنت تحبها .

ــ أوو ، نعم . أنا أنوى ذلك . ولكن ألا يجب مع هذا أن أصحبك أولا إلى دارك ؟

ــ لا ، لا ينبغى أن تفعل ذلك .

وانطلقت متخطية حجراً من مخلفات المحجر التى غص بها المكان ، تاركة الملاح الميال إلى المصادقة واقفاً فى الحقل .

وتنهد ثانية . وإذ لاحظ أن المعسكر لا يقع بعيداً خطر له أن يذهب إلى أخيه جون ويستطلع رأيه فى هذه المسألة المحزنة .ووجد عند وصوله إلى المعسكر أن أخاه غير خال فى هذا الوقت بالذات ، فقد كان مشغولا بتدريب جنود البروجى . ورجع أدراجه تاركا كلمة يرجو فيها الجاويش البروجى أن يأتى إلى الطاحون فى أقرب وقت ممكن .

وقال مكفهراً :

— لا فائدة من البحث عنها . كانت تميل إلى بمقدار كاف ، ولكنها عندما حضرت إلى هنا ورأت البيت والمكان والحصان المتقدم السن ، وأثاث البيت الغليظ الصنع ، أيأسها أن ترانا بسطاء إلى هذا الحد ، وشعرت بعدم الرغبة فى الزواج بفرد من هذه الأسرة .

وعاد أبوه وديفيد دون أن يحملا أنباء .وقال بوب :

— نعم ، إن الأمر كما ظننت يا أبى . إننا لم نبلغ الحد الذى نصلح لها فيه ، وقد رحلت ساخرة منا !

وقال صاحب الطاحون :

— حسناً ، إن هذا لا يمكن تجنبه . إن ما نحن عليه ، نحن عليه ، وكنا كذلك أجيالا بعد أجيال . وفى رأيى أنها سرت إلى حد كاف باستطاعتها أن تتمكن منا !

وقال بوب بطريقة فاجعة :

— نعم ، نعم... سرت لبرهة من الزمن... بسبب الزهور والطيور وكل ما يحويه المكان من جمال . ولكنك لا تعلم يا أبى... وكيف يمكنك أن تعلم أنت الذى لم يغادر أوفركمب طول حياته ؟... أنت لا تدرك تلك المشاعر الرقيقة التى ينفعل بها عقل امرأة مهذبة تهذيباً حقيقياً .فأية فعلة صغيرة سوقية تحز فى أعصابها حز المحز .وإنى لأتساءل الآن هل ارتكبت شيئاً أثار اشمئزازها ؟

وقال لفدى متأملا :

— قسماً إنى لا أعرف شيئاً من هذا القبيل ارتكبته . وأنا لم أقل كلمة كان يمكن أن أقولها على السجية بقصد تحاشى الإساءة إليها .

ـــ أنت تعلم يا أبى أنك كنت دائماً تتصرف ببساطة .

وقال صاحب الطاحون فى مسكنة :

ـــ نعم ، كنت كذلك ؟

وواصل بوب القول متسائلا دون هدوء :

ـــ إنى لأعجب ماذا يكون قد بدر منك ، ألم تعمد إلى الشرب من الدن الكبير بملء فمك ، أو تمس شفتيك بأكامك ؟

وقال صاحب الطاحون فى حزم .

ـــ هذا ما أقسم أنى لم أرتكبه . ولست أعلم ، حسبما أظن ، أنه يمكن أن أكون قد ارتكبت شيئاً ينفرها . ذلك أنى كنت أبتلع غدائى الدسم فى المخبز ، ولا أتناول فى حضورها إلا كسرة وجرعة خمر من باب اللياقة .

وقال بوب مترفقاً :

ـــ يقينا أنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً أكثر من هذا .

واستطرد صاحب الطاحون قائلا وهو يشعر بشىء من الحيف وقع عليه :

ـــ إذا كان سلوكى صالحاً بما يكفى فى نظر أناس حسنى التهذيب كأسرة جارلاند ، فهو صالح بنفس القدر بالنسبة لها .

ـــ هذا حقيق . ولا بد أن يكون المخطىء هو ديفيد . يا ديفيد ، تعال هنا! كيف كان سلوكك فى حضرة السيدة ؟ والآن ، احرص على أن تقول الصدق !

وقال ديفيد فى جد :

ـــ نعم ، أيها السيد الربان روبرت . أؤكد لك أنى قمت على خدمتها على نحو ما تخدم الملكات . وقد وضعت على المائدة خير الملاعق الفضية ، وإبريق جدتك المسكينة الفضى ، كما رأيت بنفسك . ووضعت لها وسادة الريش لتجلس عليها .

وقال بوب فاصلا فى الموضوع ، وهاويا بيده إلى قاعدة النافذة :

ـــ الآن عرفت الأمر . . كان فراشها خشنا ، وليس هناك شىء يثير السيدة الحقة مثل هـــذا . إن الفراش فى تلك الغرفة كان جامدا دائما كصخرة جبل طارق .

ـــ لا يا كابتن بوب ! لقد بدلنا الفراش . . أليس كذلك ياسيدى ؟ فوضعنا الفراش المحشو بريش البط فى حجرتها ووضعنا الآخر المحشو بالقطن ، الذى كان هناك ، فى حجرتك .

— نعم ، لقد فعلنا ذلك . لقد بدلنا الفراشين بأيدينا لأنهما كانا أشد ثقلا من أن تنقلهما النساء .

وغمغم بوب :

— أنا لم أدرك قطعا أن الفراش القطنى كان عندى فقد نمت دون أن أفكر كثيراً فيما سأسهر عليه . حسنا ، حسنا ، لقد رحلت ، ولن أجد مثيلا لها أبداً مهما بحثت ونقبت ! إنها كانت أفضل بكثير من أن تكون لمثلى . ولابد أن الفتاة المسكينة قد حملت صندوق ملابسها بيديها . ومعها يكن الحد الذى ذهبت إليه الأمر فإنى أستطيع أن أستعيدها حتى الآن ، ولكنى لن أحملها على غير ما تريد لست أنا الذى يقدم على مثل هذا .

وعمل ميلر لفدى وديفيد على الانسحاب بالتدريج إذ شعرا بأن وجودهما أجدر أن يشوب عواطف بوب المقدسة . وراح هذا الأخير ينغمس فى أكثر أماكن الطاحون الموحشة امتلاء بالدقيق ، فهذه كانت موئله الذى لا يتغير عندما يستبد به الاضطراب . إذ أن لقعقعتها تأثيرا يهدىء أعصاب أولئك الذين تمرسوا سماع موسيقاها كما ينبغى .

وبلغ من نفاذ صبر بوب أنه غادر البيت للقاء جون بعد أن صعد إلى غرفتها ليتأكد ثانية من أنها لم تستبدل كساء النوم بثوبها ، واكتفت بالاضطجاع فوق غطاء الفراش . وقد انتظر فى منحدر التل المشمس حتى ظهر له أخوه . وبدا جون فائق الشجاعة ، وحسن المظهر ، والشكل العسكرى إلى حد أن بوب لم يتمالك إلا أن يشعر ، حتى وهو فى محنته الراهنة ، بمودة صادقة وفخار بأن له مثل هذا الأخ . ولكن خطر له مع ذلك أن جون لم يقبل عليه بنفس المشية المدهشة التى أظهرها أمس وما اقترب الجاويش البروجى حتى نظر قلقا إلى الملاح وانتظر منه أن يبدأ الكلام .

وقال روبرت محدقا فى عينى أخيه دون تهيب :

— أأنت على علم بمحنتنا الكبرى يا جون ؟

وقال الجاويش البروجى دون أن يبدى أية دهشة :

— تعال اجلس وأنبئنى بكل ما فى الأمر .

واتجها إلى أخدود غير عميق حيث الجلوس فيه أسهل من الجلوس فوق الأرض المنبسطة . واتكأ جون هناك بين الجراد ، وأشار إلى أخيه أن يحذو حذوه وقال روبرت :

— ولكن ، أتعلم ما الأمر ؟ هل أخبرك أحد به ؟

وقال جون :

— أنا على علم به . لقد رحلت ، وأنا أحمد ذلك .

وقال بوب ، ناهضا على ركبتيه فى دهشة :

— ماذا ؟

وقال الجاويش البروجى متباطئا :

— أنا وراء ماحدث .

— أنت ، ياجون ؟

— نعم . وإذا أنصت إلى أفضيت لك بكل شىء أتذكر ماحدث عندما دخلت عليكم الغرفة ليلة أمس ؟ حسنا ، لقد تغير لونها وأوشكت أن يغمى عليها ذلك أنها كانت تعرفني من قبل .

وحدق بوب فى أخيه بوجه دل على الألم والشك . . . . . واستطرد جون قائلا :

— أنا مضطر يا بوب ، لمرة فى حياتى أن أقول لك شيئا سيؤلمك ألما شديدا إنها ليست بالمرأة التى يمكن أن تكون لك زوجة . . . وعلى هذا رحلت .

— أأنت أبعدتها ؟

— نعم . أنا فعلت ذلك .

— جون . خبرنى بكل شىء . . . خبرنى .

وقال الجاويش البروجى ، وعيناه الزرقاوان تستريحان على صفحة البحر النائى الذى بدا عاليا كحائط يبلغ من الارتفاع ما بلغه التل الذى يجلسان فوقه :

— لعل الأفضل أن أفضى إليك بما تريد .

ومن ثم قص عليه قصة عن الآنسة جونسون وفرقة الدارغون رقم . . وقد عصر قلبه الإفضاء بتلك القصة كما عصر قلب بوب الإنصات إليها ودل ذلك على أن جون قسا قسوة مؤقتة من حيث أراد أن يشفق إشفاقا مطلقا . واستطاع حتى بوب ، على ما كان يعانى من هياج نفسى، أن يدرك من طريقة حديث جون ، أية مهمة رهيبة كانت بالنسبة لهذا الأخير وهو يضطلع بها فى ذلك المساء. ولتبرير الخطة التى اختطها لابد من القول بأن ضرورات الواجب كانت قاهرة. ولكن الجاويش البروجى ، وقد أخذ ينتابه تحفظ لم يستطع أخوه بالطبع أن يقدره فى هذا الوقت لم يكن يطيل فى وضوح شرح السبب الذى اضطره إلى سلوك ذلك المسلك . ولا شك أنه يصبح من الصعب على أى إنسان ، بعيد عن أن يصل إلى ما وصل إليه جون من تواضع جم ، أن يبرر موقفه من مثل هذه العلاقة الخطيرة عندما يكون المستمع هو عاشق السيدة . . ولا عجب أن يكون بوب قد هب واقفا على قدميه ، وباعد فى المسافة ما بينه وبين جون . وسأل فى صوت جاف مكظوم

— وفى أى وقت حدث ذلك ؟

— كان ذلك قبيل الساعة الواحدة .

— وكيف استطعت معاونتها على الرحيل ؟

— كنت حاصلا على إذن غياب . وحملت صندوقها إلى مكتب عربات السفر وكانت سترحل عند الفجر .

— لكنها لم يكن معها مال .

— بل كان معها . . وقد اهتممت بهذا الأمر اهتماما خاصا .

ولم يضف جون إلى قوله — كما كان يمكن أن يفعل — أنه اعطاها من باب الشفقة كل ما كان يملك من نقود . وأنه لم يعد لديه الآن من مال الدنيا إلا ثمانى عشرة بنسا

— حسنا . لقد انقضى الأمر يابوب .

ثم أضاف :

— وعلى ذلك اجلس وحادثنى عن الأزمنة السالفة .

وقال الملاح المضطرب :

— آه ياجاك . إنه ليطيب لك بمقدار أن تتحدث على هـذا النحو ، ولـكنى لا أستطيع الشعور بأن ما ارتـكبته عمل قاس . وهى على أية حال كانت لا ثقة لى بما يكفينى . وليتنى لم أعرف ذلك عنها قط ! . . ياجون ، لم تدخلت فى الأمر؟ فإنه لم يكن من حقك أن تعدل أمورى على هذا النحو . . . لماذا لم تفض إلى بكل ما تعلم فى صدق ، وتدعنى أعمل وفق ما أختار ؟ طردتها من البيت وهذا عار علينا ! فلو أنها رجعت إلى ! ! لماذا لم ترجع إلى ؟

— لأنها أدركت أن من الأفضل أن تفعل غير ذلك .

وقال بوب فى توكيد :

— حسناً . سأذهب وراءها باحثا عنها .

وقال جون :

— لك أن تصنع ماتشاء ، ولـكنى أنصحك ملحا أن تدع الأمور حيث هى .

وقال بوب مستشاط الغضب :

— لن أدع الأمور حيث هى . لقد جعلتنى تعسا دون أن يكون ثمة سبب يدعو إلى ذلك كله . أقول لك إنها حسنة إلى حد يكفينى . ومادمت لم أعرف شيئاً عما تحدثنى أنت عنه من تاريخها فأى فرق يمكن أن يحدثه ذلك لى ؟ أنا لم أجد قط فتاة أفضل صحبة منها . وهى تحب أغنية سارة كما أحبها أنا . نعم ، سأتبعها .

وقال جون :

— أوو يابوب ، إنى لم أكن أتوقع ذلك فى سهولة !

— ذلك لأنك لم تعرف أخاك . أستطيع أن أسألك مكرمة واحدة ؟ أحسب أنى أستطيع ذلك . . . أستطيع أن أسألك عدم التفوه بكلمة واحدة تسىء إليها أمام أى واحـد من قومنا ؟ ولنفس هـذا السبب حملتها على الرحيل بغير ضجة ، كما حدث .

— بالتأكيد . والسبب الحقيقى الذى جعلنى أبعدها فى صمت ، كما حدث لها ، هو الحيلولة دون أى قول يقال ضدها هنا ، دون أية فضيحة يمكن أن تصل إلى الآذان .

— قد يكون ذلك . ولـكنى سأرحل فى أثرها . وسأتزوج بتلك الفتاة .

ـــ ستندم على ذلك .

وأجاب بوب مصمما :

ـــ هذا ما سنراه .

وتوجه صوب الطاحون مسرعا . ولم يطاوع الجاويش البروجى قلبه على اللحاق به . . ولم تكن ثمة فائدة يمكن أن تجنى من التمادى أكثر من ذلك فى معارضته وظل هناك فوق التل كصورة منحوتة حتى توارى بوب عن نظره داخل الطاحون .

ولم يدخل بوب بيت أبيه إلا ليترك كلمة يقول فيها إنه سيرحل للبحث من جديد عن ماتيلدا ، وليحزم بعض الضروريات التى تستلزمها رحلته .

وخرج ثانية بعد عشر دقائق وفى يده حزمة . ورآه جون يخترق الحقل الأدنى متجها صوب الطريق العمومى .

وقال جون وهو يعدل ، متأملا ، رباط رقبته حيث جرحها ، وينحدر متجها إلى الطاحون :

ـــ أهذا هو الخير الذى صنعته ؟

كيف خففوا

من أثر المحنة

(٢٠)

وفى هذه الأثناء كانت آن قد عادت إلى داها . ولما كان تطوافها بحثا عن ما تيلدا قد أنهكها فقد جلست صامتة فى ركن من أركان غرفتها . وكانت أمها تزجى وقتها بذكر كل تصور معقول عن إختفاء ماتيلدا يمكن للعقل البشرى أن ينسقه . وأجابتها آن بإجابات مقتضبة . وليس ذلك نتيجة لعدم المبالاة ، ولكن لاشتغال بالها إلى حد كبير ولم يلبث لفدى الأب أن جاء بالباب . وذهبت أمها معه وتواريا ، وظلا معا فى غرفة مغلقة الباب مدة طويلة . وخرجت آن إلى الحديقة ، وجلست تحت الشجرة الفينانة التى حمتها غصونها ساعات طويلة خلال إقامتها فى هذا المكان . وكان اهتمامها منصرفا إلى جناح صاحب الطاحون فى ذلك البناء المعوج البادى أمامها أكثر من انصرافه إلى الجناح الذى تحتله أمها . ذلك أنها لم تستطع إلا أن تتوقع فى كل لحظة أن يخرج منه ركضا إنسان ما وحشى الوجه ، وأن يذيع تفسيراً بشعا للسر .

وكانت كل نأمة تدفعها إلى التيقظ والانتباه . ودارت ببصرها فى لهفة إذ سمعت خطوات حصان يقطع الطريق . وحدقت فى ذلك الطريق من فوق الحاجز فإذا فستوس دريمان يمتطى صهوة حيوان طويل طولا غير معقول إلى حد أن راكبه يستطيع أن يراها إلى إخمص قدميها من فوق السياج الكثيف العريض الأشواك .

وما أن عرفته حتى ردت طرفها عنه ، ولكن عينيه ظلتا مسلطتين عليها دون تحول ،كانت هذه الخطة منه غير مجدية ... وصاح غاضباً :

ـــ رأيتك تشيحين بوجهك عنى ! فأى ذنب جنته يداى يجعلك تعاملينى على هذا النحو ؟ تعالى يا آنسة جارلاند . كونى لطيفة . . . لا فائدة من إدبارك .

وواصل قوله إذ ظلت توليه ظهرها :

— والآن هذا يكفى لإثارة قديس ... الآن أقول لك يا آنسة جارلاند إنى سأظل مقيما هنا حتى تدورى صوبى، ولو بقيت عصر اليوم بطوله .وأنت لاتجهلين خلقى ، فأنا أعنى ما أقول .

وجلس ثابتاً فوق سرجه ، وقطف بعض أوراق من نبات السياج ، وبدأ يترنم بأغنية ليظهر لها كم هو لا يبالى على الإطلاق بوثبات الزمن .

وسألته آن عندما استنفدت آخر الأمر صبرها.. .سألته وهى تنهض وتواجهه بحرية مستجدة أضافها شعورها بوجود السياج القائم بينهما :

— ماذا دعاك إلى الحضور وجعلك مهتما بلقائى إلى هذا الحد ؟

وقال وقد غزت وجهه الغاضب ابتسامة بدت معها أسنانه البيض كأنها البياض تنفرج عنه الحمرة فى رقعة الشطرنج :

— هاك ، لقد كنت أعلم أنك لابد ستدورين صوبى .

فقالت له :

— ماذا تريد يا سيد دريمان ؟

— « ماذا تريد يا سـيد دريمان ؟ » أنصتوا الآن إلى هذا ! أهذا هو تشجيعك لى ؟ .

وانحنت له آن فى كبرياء ، وخطت لتغادر المكان . فقال العملاق وهو يلحظ حركاتها فى حنق ساهم .

— إنى سمعت توا أنباء تفسر هذا كله ، فعمى جهر بأشياء . . .لقد كان هنا فى ساعة متأخرة من ليلة أمس ، ورآك .

وأجابت آن :

— إنه لم يرنى بالتأكيد.

— أوه ، وبعد ! . . . لقد رأى الجاويش البروجى لفدى يغازل فى الحديقة فتاة تشبهك . وما أقبل حتى ركضت إلى داخل الدار .

— هذا غير حقيقى . ولست أرغب فى سماع مزيد من القول .

ـــ أقسم بحياتي أنه قال ذلك. كيف أمكنك الإقدام على ذلك يا آنسة جارلاند في حين أني أنا الذي يملك من المال ما يكفي لشراء أسرة لفدى بأسرها ، يسره أن يصل معك إلى اتفاق ؟ أية ساذجة لابد أن تكوني لتفرطي في من أجله ! .. وها أنت ذي غضبي الآن لأني قلت عنك إنك ساذجة ! أنا لم أقصد أن أقول « ساذجة » ، ولكني قصدت « مضللة » ... بزعم مضلل .

واستطرد بصوت عال عندما اتجهت آن صوب باب الحديقة :

ـــ هذا ما قصدت ... اذهبي . ولكني سأفوز بك رغم ذلك ، إن لديك من الأسباب الكثيرة ما يجعلك تتعالين على قبول الإقامة معي ، ولكن ذلك لن يدوم طويلا . إني سأتزوجك يا سيدتي متى اخترت ذلك ... كما سوف ترين .

عندما مضى كلية ، وهدأت أعصاب آن من الخوف والانفعال اللذين كان يسببهما لها دائماً ، واللذين لم يكونا غير مستساغين تماماً ، عادت إلى مقعدها تحت الشجرة ، وبدأت تفكر فيما تعنيه الحكاية التي رواها فستوس دريمان ، تلك الحكاية التي بدا من صدق لهجته كأنها ليست مجرد ابتداع . وخطر على بالها فجأة أنها سمعت هي نفسها أصواتاً منبعثة من الحديقة ، وأن الشخصين اللذين رآهما المزارع دريمان الذي أخبرها صاحب الطاحون بزيارته ومطالبته بصندوقه ، قد يكونان ماتيلدا وجون لفدى . وتذكرت فوق ذلك اضطراب الآنسة جونسون العجيب في الليلة السابقة ، وأن اضطرابها حدث في نفس الوقت الذي دخل فيه الغرفة جاويش الدراغون . ظل الشك يتدرج حتى بلغ حد اليقين من أنه يعرف عن اختفاء تلك السيدة أكثر من أي شخص آخر يفترض فيه أنه يعرفه .

وكان ذلك في نفس الوقت الذي نزل فيه الجاويش البروجي إلى الطاحون بعد حديثه مع أخيه فوق التل . ووفقاً لمشيئة الأقدار عرج على الحديقة بدلا من دخول الدار ، واجتاز ذلك السياج المبهج ليرى ما إذا كان من المحتمل أن يجد في الناحية الأخرى منه تلك المرأة التي يحبها كل ذلك الحب .

نعم ، كانت هناك تجلس تحت شجرة التفاح على المقعد الذي أصلحه لها ، وهو مصنوع من جذوع الشجر ، ولكنها لم تكن تواجه الناحية التي أتى منها . فمشى بخطوات أشد جلبة ، وسعل ، وهز فرع شجرة . وبمجمل القول أنه فعل كل شيء

إلا الشيء الوحيد الذى يفعله فستوس فى هذا الظرف ، وهو مناداتها . فهو لم يكن ليقدم على ذلك ولو فى سبيل ملك العالم . وإن أية إشارة من إشاراته هذه كانت منذ يوم أو يومين تكفى لاجتذابها . ولكنها لم تلتفت إليه الآن . وأقدم فى النهاية ، وهو يكابد قلقه اللطيف ، على ما لم يكن يقدم عليه من قبل دون دعوة ، وعبر نصف الحديقة الخاصة بالسيدة جارلاند حتى وقف تجاه الفتاة .

ونهضت عندما لم تجد مفراً ، وإذ قالت له فى لهجة باردة على خلاف عادتها : « مساء الخير أيها الجاويش البروجى » انتقلت إلى مكان آخر من الحديقة .

ولم يملك لفدى ، وهو فى حيرته المطبقة ، قدرة على التفكير تمكنه من الدأب أكثر من ذلك . وقد أدرك على نحو غامض أنه قد نمت إلى آن معلومات ناقصة عن المسألة المكدرة التى وقعت فى الليلة السابقة . ولما لم يكن يستطيع معالجة الشر دون أن يفضى بما لا يجرؤ على الإفضاء به ، فقد دخل مبنى الطاحون . وكان أبوه لا يزال هناك يبدو كئيباً بمقدار كاف . وذلك من أثر اشتغال باله بالأحداث ، وكمية الدقيق الكبيرة التى كست وجهه بسبب ارتباطه الوثيق بالعمل طوال ذلك اليوم .

— حسناً يا جون . لقد أخبرك بوب بكل ما حدث دون شك ؟ إنه لشيء عجيب غريب محير ، أليس كذلك ؟ إنى لا أستطيع تفسيره بحال . لابد أن يكون هناك عيب بهذه المرأة ، وإلا لما حدث الذى حدث . إنى لم أرتبك على هذا النحو الشديد منذ سنين .

وقال جاويش الدراغون :

— ولا أنا أيضاً . وكنت أود ألا يقع ما وقع ولو كلفنى ذلك كل ما أملك فى الحياة . . . هل حادثت آن جارلاند اليوم . . . أو هل حادثها أحد سواك ؟

— جاء فستوس دريمان على صهوة جواده منذ نصف ساعة وحادثها من وراء السياج .

واستنتج جون الباقى . وبعد أن قضى فترة من الزمن واقفاً مطبق الفم على عتبة الباب ، سار صوب المعسكر .

وفى أثناء ذلك الوقت كله كان أخوه روبرت يسرع الخطو فى أثر المرأة التى

انسحبت من المشهد لتتجنب الخطر والسقوط التام اللذين كانا لابد أن ينجما من بقائها. وإذ بعدت المسافة بين بوب والطاحون ، شعر بأن الانفعال الذى دفعه إلى الانصراف وراءها قد أخذ يهدأ، ولكنه لم يتوقف عن مسيره حتى وصل إلى أول النهر الذى يمد جدول الطاحون بالماء. وبسبب غير محدد ، أباح هنا لعينيه أن يجتذبها النبع الغائر الذى لم ينقطع ماؤه قط ولم يقل . وتوقف كما لو أنه أراد أن يطيل النظر إلى المشهد ، ولكنه توقف فى الواقع لأنه كان مستغرق الذهن فى حكاية جون.

كانت الشمس دافئة ، والمكان مبهجا ، فوضع صرته على الأرض وجلس . وترعزعت اعتقاداته بالتدريج إذ تدبر وجهة نظرجون أولا ، ثم وجهة نظره هو . وظل هكذا حتى أصبح شديد التأرجح بين الدافع الذى يدفعه إلى موالاة السير، والذى يدفعه للعودة أدراجه ، إلى حد أن أصبحت هبة واحدة من الريح متجهة إلى أحد الجانبين ، تكاد تكفى للبت فى الأمر نيابة عنه . وعندما سمح لحكاية جون أن تعيد نفسها على مسامعه ، وجد أن سدادها ومعقوليتها يبدوان فوق كل مناقشة . وعندما فكر، من الناحية الأخرى، فى عينى ما تيلدا ، وفى طرائقها التى بدت له لطيفة ، وفى ترتيبات زواجهما المبهجة ، وفى رغبته حتى الآن فى إتمامها على الأرجح ، لم يكد يسهل عليه إلا أن يتابع طريقه فى أقصى سرعة .

وحرص على هذا الصراع الفكرى حرصا شديدا إلى حد أنه ظل حول حافة النبع واقفاً وجالساً إلى أن امتدت الظلال شرقا ، وتضاءلت فرصة اللحاق بماتيلدا تضاؤلا متزايدا إلى حد كبير . ومع ذلك لم يسلك طريقه بالفعل صوب البيت . وأخرج آخر الأمر جنيها من جيبه واعتزم أن يترك حل المسألة للمصادفة وقال « إذا وقع على الجنب الأمامى ذهبت ، وإذا وقع على الجانب الخلفى عدلت عن الذهاب » ودارت القطعة الذهبية فى الهواء ثم وقعت على الجنب الأمامى .

وقال عندئذ « لا ، لن أذهب ، فأنا لن أقاد بالمصادفات بعد ذلك قط » .

والتقط صرته وعصاه ، وسار أدراجه إلى طاحون أوفركمب ، وأخذ أثناء سيره يطرح الحسك والشوك على الأرض بضربات يهوى بها فى تجهم وغير اكترات ورأى ديفيد فى الطريق عندما أصبحت الدار على مرأى منه . وصاح الخادم :

— لقد صلحت الحال . . صلحت الحال ثانية . وستتم حفلة العرس على أية حال . . مرحى !

وصاح بوب وقد أمسك بديفيد طروبا ، وأخذ يدور به راقصا :

— آه . . هل عادت ثانية ؟

— لا ، ولكن الأمر سيان . ولن تكون هناك عواقب سيئة ، ولن يقع ضرر . فالسيد والسيدة جارلاند عقدا اتفاقا ، واعتزما أن يتزوجا على الفور حتى يحولادون تبذير المأكولات المعدة للعرس . لقد شعرا بأنه مما يوجب ألف حسرة أن يدعا تلك الخيرات الطيبة تفسد لحاجتها إلى حفلة تستهلك فيها ، واهتديا آخر الأمر إلى تلك الفكرة .

وصاح بوب فى مرارة ، وفى لهجة تنم على تفكير أسمى مما سمعه بكثير :

— مأكولات ؟ .. أنا لا أهتم بالمأكولات ! لكم خيبت أملى ! . . وسار صوب البيت فى بطء .

وظهر أبوه عند مدخل باب الطاحون وقد بدا أكثر ابتهاجا مما كان عليه وقت فراقهما . . وقال :

— ماذا ياروبرت ، أذهبت تبحث عنها ؟ يقينا إنى لم أكن لأتبعها فيما إذا وثقت وثوقك من أنها رحلت هازئة بنا . وما دمت قدقلت لى ذلك فإنى ما كنت لأبحث عنها بحال .

وأجاب بوب مهموما وهو يلقى بصرته وعصاه على الأرض :

— كنت مخطئا يا أبى . . وإنى وجدت أن ما تيلدا لم ترحل سخرية منا ، ولكنهارحلت لأسباب أخرى . وقد قطعت بعض الطريق فى أثرها ، ولكنى عدت ثانية . . . ولها أن تذهب .

وسأل صاحب الطاحون الدهش :

— لماذا رحلت ؟

وكان بوب ينوى ألا يذكر لمخلوق سببا لرحيلها ، ولكنه لم يستطع معاملة أبيه بمثل هذا التحفظ ، ولذلك أخبره بما حدث .

وقال صاحب الطاحون متأملا :

— إنها استغفلتنا استغفالا شديدا ، وكان يمكن أن تستغلنا أكثر من ذلك لقد ظننتك أسلم إدراكا يابوب .

وقال بوب متوسلا :

— حسنا ، لاتذكرها بأى سوء يا أبى . لقد كانت شدة مؤسفة .وانتهى الآن أمرها ، فانفض يديك من الفتاة فى هدوء ، واكتم السر . أتعدنى بذلك ؟

— سأفعل .

وظل لفدى الكبير يفكر برهة ، ثم استطرد قائلا :

— حسنا . هذا هو ما أردت أن أقوله : لقد وفقت إلى خطة تنقذنا من الحرج الذى أوقعتنا الفتاة فيه . ولست أدرى ماذا سيكون رأيك فى تلك الخطة

— لقد ذكر لى ديفيد النقاط الرئيسية .

— وهل يؤذى ذلك شعورك فى مثل هذا الظرف ؟

وقال بوب وفى هيئة ما ينم عن التضحية الكريمة بالنفس :

— لا ... وسأحمل نفسى على احتمال ذلك على أيه حال ؟ وكيف أعترض على سعادة الناس بسبب فقدان سعادتى ؟

وأجاب صاحب الطاحون فى إخلاص :

— نعم ما قلت ! ولكن يمكنك أن تتأكد من أنه لن يكون هناك ابتهاج غير لائق يزعجك وأنت على حالتك الذهنية الراهنة وقد شعرت طوال الصباح بخجل أشد مما يهمنى الاعتراف به . . . خجل من فكرة كيف أن الجيران كبارهم وصغارهم . سيهزأون بما سيسمونه « حماقتك » لدى وقوفهم على ما حدث . وعلى ذلك اعتزمت أن أخطو هذه الخطوة لأنقذ الموقف فيما إذا كان ذلك مستطاعا . وعندما التقيت بالسيدة جارلاند أدركت أنى تصرفت تصرفا صائبا ، فقد أشفقت على إشفاقا شديدا بسبب قيامى بتنظيف البيت سدى ، وتزويده بمؤن ستذهب بددا ، فأوجد لها هذا مزاجا معدا لقبول طلبى . ونحن ننوى تنفيذ الأمر على الفور قبل أن تفسد الفطائر والكعك وما تحوى القدر المسودة من مأكول .

ثم اختتم قوله جذلا :

— كانت فكرة طيبة منى ومنها . وأنا سعيد لانتهاء الأمر على هذا النحو ..

وغمغم بوب :

— مسكينة ماتيلدا

وقال صاحب الطاحون شاعراً بتأنيب الضمير :

— ها هو ذا الأمر . . كنت أخشى أن يؤذى شعورك قيامنا بإعداد معدات زواجك ثم استعمالها لزواجى أنا !

وقال بوب فى شهامة :

— لا إن ذلك لن يؤذى شعورى بل سأجد فى غمتى عزاء إذ أحس أن الطعام الفاخر . والخمر ، وملابسك الجديدة المدهشة ، وأغطية الموائد الباهرة التى اشتريتها ، ستكون ذات فائدة كما لو أنى أنا نفسى الذى تزوج . . مسكينة ما تيلدا ولكنك لاتتوقع منى أن أحضر الحفل .إنه يصعب أن تتوقع ذلك . وسأستطيع كما تعلم ، أن أتوارى فى ذلك اليوم بسهولة .

وقال صاحب الطاحون فى لهجة عتاب :

— هراء يابوب !

— أنا لن أستطيع احتمال ذلك . . وسوف تنهار قواى .

— ليقبض الشيطان روحى فيما إذا كنت طلبت الزواج بها وأنا أعلم أن ذلك سيؤدى بك إلى الابتعاد عن المنزل . . تعالى الآن يابوب ، فإنى سأجد وسيلة لترتيب الأمر ، وصبغه بصبغة الوقار حتى يغدو ذا طابع حزن كما تبغى . وجمل القول إن الحفل سيكون كمأتم تماما فيما إذا وعدت أن تبقى ؟

وقال الفتى المتألم :

— حسنا ... سأبقى فى هذه الحالة .

وعاد إلى

التل

(٢١)

بعد أن أبرم لفدى ذلك الاتفاق الخطير مع ابنه ،كانت خطوته التالية أن يذهب إلى السيدة جارلاند ويسألها عن خير ما يمكن صنعه لصبغ العرس بصبغة خاصة . وقد قال لها :

ـــ من الواضح وضوحا كافيا أن إقامة حفل بهيج فى هذا الظرف بالذات يعنى الاستخفاف بشعور بوب . فكأننا لا نهتم بمن لم يتزوج مادمنا قد تزوجنا نحن الاثنين . ولكن ماذا سنصنع بالمأكول والمشروب فى هذه الحالة ؟

واقترحت السيدة :

ـــ أقم وليمة غداء للفقراء ، وستستطيع بهذه الطريقة أن تنتفع بكل شيء .

وقال صاحب الطاحون :

ـــ هذا صحيح ، إذ يوجد فى هذه الأيام قدر من هؤلاء يكفى لاستهلاك مازاد عن الحاجة أيا كانت كميته .

ـــ وسيؤدى ذلك إلى مراعاة شعور بوب على نحو مدهش . ولن يعرف الفقراء أن الغداء كان معدا لعرس من نوع مختلف ، ولمدعوين من نوع آخر . وبذلك تفوز بمحبتهم دون مقابل .

وابتسم صاحب الطاحون لما يتضمن هذا الرأى من دهاء وقال :

ـــ هذا لا يكاد يسمى إنصافا . وقد كنت أنوى مع ذلك أن أعطيهم بالفعل بعض الأطعمة ، فالأصدقاء الذين كنا نقصد دعوتهم لم يكونوا ليستطيعوا الإتيان عليها كلها .

بيد أن الفكرة فى مجموعها أعجبته كثيراً ، وعلى الأخص عندما فطن إلى نظرة ابنه البحار القانطة وهو يحوم حول المكان ، وتصور ماسيحدثه العزف على الكمان

والدف من تأثير أليم فى أعصاب بوب المحطمة بسبب مثل تلك الأزمة ، حتى ولو تم إخفات نغمات تلك الآلات باستعمال الأحرف الموسيقية الصامتة بينما بوب محتبس فى غرفة نوم نائية — وكانت هذه هى الخطة التى خطرت على باله أول الأمر ... وعلى ذلك أخبر بوب بأن خزانة المأكولات المكتظة سيتم إفراغها بإقامة الوليمة الخيرية المشار إليها ، وأنه يأمل ألا يضن ابنه بخدماته على مثل هذا العمل الطيب غير البهيج . ووافق بوب على هذه الخطة دون تردد، وتم تنفيذها ومدت الموائد على الفور .

ويبدو أن البهجة التى تم بها العرس « المستعاض به » دلت على أن الجارين المحترمين كان يمكن أن يقترنا منذ زمن طويل لو أنه حدثت هناك من قبل أية حادثة عائلية إلى جانب رغبتهما الشخصية فى الزواج ، توعز بأن اتخاذ مثل هذه الخطوة أمر مناسب .

وحل الصباح المحدد . وفى الساعة العاشرة البهيجة أقيم القداس فى هدوء بين الحشد المجتمع على هيئة مثلث قاعدته المقعد الأمامى ، والباب الغربى رأسه . والتفعت السيدة جارلاند بشال من « الموسلين » كالملكة شارلوت ، وهو الشال الذى جاء به بوب ، وارتدت ثوباً برقوقى اللون هو أجمل أثوابها وقد أطل من تحته حذاؤها المشدود برباط وردى . وكانت آن بين الحضور ، وقد خففت من تجملها بقدر ملحوظ حتى لا تخسف مظهر أمها خسوفاً شديداً جدياً . وفى خلال الحفل كان يعاودها بين وقت وآخر شعور بأنه لم يكن يجدر بها أن تولد . وقد سرها أن تقفل راجعة إلى بيتها .

والاهتمام الذى أثير فى القرية ، برغم أنه كان اهتماماً حقيقياً ، فإنه لم يصل إلى حد إخجال الخجل نفسه . فجيران العروسين قد ازدحمت عقولهم ازدحاماً شديداً بالاستعراض العسكرى الذى أبدى لهم ، إلى حد أن زواج اثنين من متوسطى العمر كان قليل الأهمية إلا من ناحية وضع حد لتساؤل الناس هل تعد السيدة جارلاند نفسها أرقى حسباً من أن تتزوج طحاناً .

وفى المساء أثلج فؤاد لفدى أن يرى الطعام المخبوز والمسلوق يلتهمه القوم الذين ملأوا المطبخ وقد تجمعوا فيه لهذا الغرض . وكانت ثلاثة أرباع ساعة من الزمن

كافية للقضاء نهائياً على مخاوفه من أن يفسد طعامه . ولما كان ذلك الزاد هو سبب الاجتماع ، وليس نتيجة له ، فقد انعقد العزم فى ذلك اليوم على الإتيان بكل ما لا يمكن الاحتفاظ به ، ولو تطلب ذلك البحث عمن يقومون بالاستهلاك فى الطرق العامة ، ووراء الحواجز ... وقد دعيت — بالإضافة إلى الفقراء والمحتاجين كل بنت من بنات ساكنى الأكواخ يعرفها صاحب الطاحون ، وطلب إليها أن تحضر معها حبيبها من المعسكر — وكانت هذه مناسبة من أسعد المناسبات التى عرفت ، لأنها أتاحت لأضواء النهار أن تدخل تحت القشرة إلى اللب المظلم .

وبينما كان كل من السيد والسيدة لفدى وآن وبوب واقفين فى الردهة يتحدثون عما يجرى فى الغرفة المجاورة دخل جون الذى لم ينزل إليهم من المعسكر طوال اليوم ، دخل البيت ، ونظر إليهم من خلال بابه المفتوح .

— كيف هذا يا جون ؟ لماذا لم تحضر من قبل ؟

وقال جاويش البروجى بلهجة تدل على عدم حماسته للشرح .

— كان على أن أقابل الكابتن . . . وكانت هناك واجبات أخرى .

واستطرد صاحب الطاحون بينما ابنه ظل يراقبهم متأملا وهو واضع يده على ركاز الباب :

— حسناً . . . ادخل مع ذلك .

وقال جون وهو يتقدم :

— لا أستطيع أن أبقى طويلا . . . لقد حل موعد مسيرنا ، وسنرحل .

— سترحلون ؟ إلى أين ؟

— إلى إكزنبرى(١)

— متى ؟

— صباح الجمعة .

— أسترحلون جميعكم ؟

— نعم . سيرحل بعضنا غداً ، وبعضنا فى اليوم الذى يليه . وسيرحل الملك فى الأسبوع القادم .

---

(١) المقصود إكسيتر (شرح الأصل)

وقال صاحب الطاحون دون يعبر بقوله البسيط عن نصف حزنه : .

— يؤسفنى ذلك .

ثم أضاف وهو ينظر إلى الأفق من خلال النافذة :

— وددت لو أنك استطعت الحضور اليوم مادام الأمر كذلك .

وعبرت السيدة لفدى كذلك عن أسفها الذى دعا جاويش البروجى ، على مايبدو إل تذكر حدث ذلك اليوم ، وتوجه إليها ، وحاول أن يقول شيئا يلائم هذه المناسبة . ولم تقل آن أهى آسفة أم سعيدة . ولكن خيل إلى جون لفدى أنه قد بدا عليها لدى سماعها النبأ أنها كانت أقرب إلى الشعور بالفرج . وكان حديثه مع بوب فوق التل قد جعل تصرف هذا الأخير بارداً أيضا برغم أنه اتبع نصيحة أخيه آخر الأمر ، وكان ذلك عقب الحادث بمدة أقصر جدا من أن يقدر خلالها ما جرى تقديرا صحيحا . ولم يعرف جون سبب عودة الملاح ، ولم يقدر قط أن سبب ذلك هو أنه غير رأيه فى الذهاب . . . وقال له على انفراد :

— ألم تلحق بها ؟

وقال بوب :

— لم أحاول ذلك .

— ألن تحاول ذلك فيما بعد ؟

— لا . . . سأدعها تهيم على وجهها .

وقال جون فى صدق وإخلاص :

— أنا سعيد حقا يابوب . لقد كنت حكيما .

ولكن بوب كان لايزال ، مع ذلك ، يحب ماتيلدا حبا جما إلى حد أنه لم يكن من الممكن إلا أن يكون غير راض عن جون وتسرعه فى كشف ذلك الحادث ، وهذا ما أدركه الأخ الأكبر على الفور ، وحمله على ألا يمكث تلك الليلة إلا وقتا قصيرا . وقبل أن يرحل قال لأبيه فى شىء من التردد ، ناظر الى آن وأمها نظرة تدل على أن قوله يشملهما ؟

ــ ألا تفكرون فى الصعود إلى التل لتوديعنا ؟

وأجاب صاحب الطاحون عن نفسه وعنهما بأنهم سيحضرون دون شك . وسأله :

ــ ولكنك ستهبط إلينا فيما بين ذلك ؟

وأضاف جون بعد فترة سكوت :

ــ سأحاول ذلك . ولكن تذكر ، فى حالة عدم حضورى ، أن ريفالى سيطلق صوت النفير فى منتصف الساعة الخامسة ، وسنرحل حوالى الساعة الثامنة . وربما أتينا فى الصيف الآتى ، وعسكرنا هنا ثانية .

وقال كل من أبيه والسيدة لفدى :

ــ آمل ذلك .

وكان هناك شىء فى تصرف جون دل آن على أنه لايكاد ينوى العودة إليهم، ولكن الاخرين لم يلاحظا ذلك ، ولم يقولا شيئا . ورحل بعد ذلك بدقائق وسط غبش ليلة من ليالى أغسطس تاركا آن فى شك من معنى التقائه على انفراد بالآنسة جونسون .

وكان جون لفدى ينوى أن يقول لهم إنه يمكن فى هذه الليلة الأخيرة ، بتصريح خاص ، أن يكون فى مقدوره الحضور والبقاء معهم إلى الساعة الحادية عشرة ، ولكنه عدل عن هذه النية لحظة رحيله ، فإن موقف آن منه ثبط عزيمته وجعله يتلهف على الرحيل . وقد أنفق الساعات المتوفرة له من هذه الليلة الأخيرة بطريقة أخرى .

وكان ذلك بنزوله مساء من أطراف المعسكر ، وجلوسه على أثر اشتداد الظلمة بالقرب من حافة حوض الطاحون حيث أخذ يرقب أضواء النوافذ المختلفة إلى أن بدا الضوء فى حافة مخدع آن ، وتقدمت هى بنفسها والشمعة فى يدها ، لتغلق النافذة الصغيرة . وسطع النور فوق جانب الطاحون الأمامى العريض العميق ، مضيئا على نحو ميز كل فراشة وبعوضة دخلت نطاق اللألاء الممتد إليه عبر الماء وكل فقاعة أو ذرة من الزبد طافية فى عرض الحوض . ووقفت تنظر من النافذة

بعض الوقت دون أن يخطر ببالها ما يخفيه عنها الظلام فى النـاحية الأخرى من الجدول العريض . وظلت كذلك إلى أن أغلقت النافذة فى النهـاية ، وأسدلت الستائر وارتدت إلى داخل غرفتها ، وانطفأ النور على الأثر ، وعاد جون لفدى على أثر ذلك إلى المعسكر ، ورقد فى خيمته .

وكان الصباح التالى ثقيلا عاصفا ، وترددت على سهل أوفركمب لآخر مرة نغمات النفير التى تعلن للفرقة ال . . الاستعداد للرحيل . وكانت آن قد نامت نوما عميقا إذ علمت بأن فرقة الدراغون سترحل ، واستيقظت توا على نغمات النفير المرنان ونظرت من النافذة لتجد أن صاحب الطاحون قد غادر الدار ، فطلعته البيضاء بدت فى آخر الحديقة حيث وقف يرقب استعدادات الرحيل دون حراك وأطلت آن أيضاً ، ممعنة النظر على قدر استطاعتها خلال الضباب الأشهب المكفهر ، ولم تلبث أن رأت دخان المطابخ الأزرق يزحف متلويا على طول الأرض بدل تصاعده رأسا فى أعمـدة كما كانت حاله خلال الطقس البديع لذلك الفصل . ثم الرجال يحملون أسرتهم وملحقاتها إلى العربات ، ويلقى آخرون بالنفـايا فى الحفر حتى أصبح التل يموج كأنه من تلال النمل . ولم تـكن آن ترغب فى رؤية جون لفدى ثانية ، ولـكنها ما سمعت الحركة الدائبة فى بيت الأسرة حتى بدأت ترتدى ثيابها على مهل وتطل على المعسكر خلال ذلك .

ورأت الجند بعد إفطارهم يبيعون أو يجودون بآنيتهم الزائدة عن الحاجة إلى الأهالى الذين احتشدوا حول المـكان ، ويهدمون ويزيلون المطابخ الوقتية التى أقاموها يوم مجيئهم . وبدأ دق أوتاد الخيام ، وأعقب ذلك هدم مراكز الشرطة الحربية ، ولم تلبث أعالى الخيام البيض التى أصبحت الآن جزءا أساسيا من ذلك المنظر الطبيعى . . لم تلبث أن سقطت على الأرض . وفى هـــذه اللحظة دخل صاحب الطاحون منزله ، وسأل عند أسفل السلم هل يصعد أحد معه إلى التل .

وبرغم الغيوم التى أحاطت بصورة جون فى ذهن آن فقد شعرت بأنه من غير المناسب فى الوقت الحاضر ألا تودعه عند رحيله ، ونزلت إلى الدور السفلى حيث كانت أمهـا قد سبقت إلى هناك ، ولو أن بوب لم يبد له أثر فى أى مـكان . . وتأبطت كل منهما إحـدى ذراعى صاحب الطاحون ، وصعد ثلاثتهم على هذا

النحو إلى أعلى التل . وكان الرجال قد جاءوا وخيولهم فى ذلك الوقت إلى مكان التجمع . ووصلت أسرة صاحب الطاحون بعد بقليل إلى الأرض المنبسطة ، وبدأت طوابير الجند تسير قدما فى بطء . واقترب عندئذ جاويش البروجى من المكان الذى وقفت فيه أسرة لفدى لتراه أثناء مروره ، وكان غائصا فى بزته العسكرية وأسلحته ورياش جواده ، ودار أبوه فى قلق إلى آن وقال :

— ستصافحين جون ، أليس كذلك !

وأجابت آن فى صوت خافت :

— نعم .

وأباحت لصاحب الطاحون أن يصطحبها وهى تتأبط ذراعه إلى طريق المرور ليصبحا ملاصقين لجناح الطابور المقترب منهما ، ووصل الطابور ، وأمسك أناس كثيرون بأيدى الجند من كلا الجانبين مودعين . وما رأى جون لفدى أفراد أسرة أبيه حتى مد يده من وراء بندقيته المعلقة على جانبه الأيمن ليفعل مثلما فعل الآخرون . ومد إليه صاحب الطاحون يده ، وحذت السيدة لفدى حذوه ثم امتدت يد جاويش البروجى صوب آن . بيد أنه لما كان جواده لم يتوقف تماما فقد كانت مصافحته عملا مربكا نوعا تقوم به فتاة ، لهذا السبب الذى هو أبلغ من أى سبب آخر تراجعت آن ، ومر الفارس الأبى دون أن يتاقى توديعها . وأخذ ضمير آن يؤنبها اللحظة من اللحظات . ثم خطر لها أنه لم يرحل على أية حال إلى ساحة القتال ! وأنها ستراه ثانية عل الأرجح فى موعد غير بعيد حيث تأمل أن يكون سر تصرفه قد وضح تفسيره . وقطع عليها خواطرها صوت انطلق من ناحية مرفقها .

— شكرا لله ، لقد رحل ، وأصبحت لى فرصة .

والتفتت فإذا فستوس دريمان واقف إلى جانبها ، فقالت فى لهجة إزدراء :

— ليست لك أية فرصة .

— لم لا ؟

— لأن هناك رجلا غيره لايزال باقيا !

وقد أفلتت منها هذه الكلمات عن غير قصد ، وصبغ وجهها الاحمرار على

الأمر . وكانت على استعداد لبذل أى شىء فى سبيل استرداد ما قالت ، ولكنه كان قد سمعها وقال :

— من ؟

وتقدمت آن إلى صاحب الطاحون لتتجنب الإجابة ، ولم يلحق بها فستوس بعد ذلك . . وسأل رفيقا له :

— أهناك أى رجل كان يتردد على طاحون أوفركمب غير الجندى ابن لفدى ؟

وكان جواب سؤاله :

— ابنه الملاح .

وقال فستوس فى بطء :

— أوه ، ابنه الملاح ، اللعنة على ابنه الملاح !

الأسرتان

تتحدان

(٢٢)

فى هذه اللحظة بالذات لم يكن الشخص الذى سخط عليه فستوس ديمان منافسا خطراً بحال . فقد دخل بوب الدار بعد أن راقب الجند فى ذهول ، وهو واقف أمام المنزل ، حتى تواروا عن الأبصار . وجلس فى ردهة الطاحون حيث وجده أبوه وهو مستند بمرفقيه إلى المائدة ، وحامل رأسه بيديه ، بينما عيناه شاخصتان إلى وثيقة منبسطة أمامه .

ـــ ماذا تطالع يابوب بمثل هذا الوجه المكفهر ؟

وتنهد بوب . ثم دخلت السيدة لفدى وآن . وأجاب الفتى فى تجهم :

ـــ إنها ليست سوى ورقة رسمية ظننت فى بلاهة أنى سأفيد منها .

وتنحنح وهو ينظر إلى أسفل كما كان ينظر من قبل . وكأن دافعا داخليا كان يدفعه إلى الاستمرار فى المطالعة . وبدأ يقرأ بنغمات فياضة بالشعور دلت على أنه كان يقرأ وثيقة زواجه الملغاة :

« من تيموثى تيتوس فايلمون ، بإذن من أسقف بريستول ، إلى العزيزين علينا روبرت لفدى الأعزب التابع لأبرشية أو فركمب ، وماتيلدا جونسون من نفس الأبرشية فى سبينستر . . . تحياتى ... » .

وهنا تنهدت آن . ولكنها جاهدت لتكتم تنهدها وتحيله إلى مجرد لاشىء ....

وقال بوب :

ـــ لغة جميلة ، أليس كذلك ؟ ... أنا لم أحى على هذ النحو من قبل !

وقالت السيدة لفدى :

ـــ نعم . وكثيرا ما خطر لى أنا نفسى أنها لغة ممتازة .

وقال صاحب الطاحون :

ـــ دعك من هذا . إن الرجل الهرم سوف يحييك ثانية بمثل هذه التحية إذا منحته بضعة جنيهات .

— ليست هذه هي المسألة يا أبي ! - أنت لن تستطيع أبداً أن تدرك المعنى الحقيقي لهذه الأشياء . . . حسناً . . . وجاء في الوثيقة بعد ذلك : « ومن حيث أنك اعتزمت ، كما هو مقرر ، أن تدخل عالم الزواج المقدس ... » ولكن لماذا أواصل القراءة ، هذا كله لا يعني شيئاً الآن ، لا يعني شيئاً ، وقد تبددت الكلمات الجميلة كلها في الهواء ويبدو كما لو أن نبيا أشيب وقورا حياني ثم دار وابتعد عني ، وأحكم وضع خوذته ولم يسمع .

ولم يجبه أحد وقد ساد الشعور بأن إظهار العطف لايناسب المقام . وواصل بوب قراءة الوثيقة في سره ، مطلقا زفرة بين الحين والحين كأنها الريح تتخلل حبال صواري السفن . وقال أبوه آخر الأمر :

— لو كنت مكانك لما شغلت ذهني بها إلى هذا الحد .

— ولم لا ؟ .

— نعم فالناس قد يدعونك مجنونا ، ويقولون إن ذهنك قد ذاب وتحول إلى سائل .

وكان واضحا أن هذه الفكرة صدمت بوب . وبدلا من استمراره في القراءة طوى الوثيقة في عناية ، وأخذ يذرع الحديقة ذهابا وإيابا . وكان يتساءل على نحو مفزع ما قاله أبوه . وأسوأ من ذلك أن ما يمكن أن يرميه به الناس قد يكون صحيحا ، وتصبح مسألة ذوبان ذهنه حقيقة وليست خرافة . وصار شيئاً فشيئاً شديد القلق . وما واصل امتحان نفسه على هدى هذا الضوء الجديد إلا وأدرك في وضوح أتم أنه في مأزق شديد .

وتذكر أثناء تأمله أن شهيته للأكل نقصت إلى حد غريب منذ رحيل الآنسة جونسون . فهو لم يعد يأكل من صنف اللحم يوميا إلا قدر أربع عشرة أوقية أو خمس عشرة . . . ولم يعد يأكل من فطير « البودنج » ، في المتوسط ، إلا ثلث « كوارترن »(١) ، ومن صنف الخضروات إلا كومة صغيرة من البطاطس ونصف كرمبة من كرمب يورك .

ولم يتناول المرق أصلا .

---

(١) ما يوزي ربع الرطل .

وإذا راعينا لهفة الملاح على الطعام الغض بعد عودته من رحلة طويلة فإن ما ذكرناه لا يعد دليلا بسيطا على ما يساور ذهنه من هم . ثم إنه كان يصحو من نومه مرة كل ليلة ، وقد صحا مرتين فى إحدى الليالى . وهو منذ ذلك اليوم المشؤوم لم يعزف كل صباح ، أثناء ارتداء ملابسه ، سبع « فواصل » موسيقية من ألحان المزمار إلا توقف واستغرق فى تفكير مؤلم إلى أقصى حد . وهو لم يكن يقص على الجيران من الفلاحين إلا حكايات حقيقية لا يشوبها الكذب عن البلاد الأجنبية ، وذلك عندما كانوا يحيونه ، ويتجمعون حوله كالعادة ليروى لهم ما يحلو له أن يرويه . ولم تشذ عن ذلك إلا قصة الحوت الذى بلغ اتساع عينه قدر اتساع البركة فى حظيرة شياه «دريمان» ... وكأنما ذلك كان أشبه بإغراء الأقدار أن تقيد لسان الملاح فيه إلى الأبد .

وكل هذا الوهن العقلى والجثمانى حدث بسبب رحيل ماتيلدا .

وأخذ يفكر أيضاً فيما افتقده خلال تلك الأيام المشؤومة من ملاهى الرجولة المعقولة . فقد كان يستطيع أن يذهب بعد ظهر كل يوم إلى المنتزه الأنيق المجاور ويقف أمام قصر « جلوسستر لودج » حتى يخرج منه الملك والملكة ، وينعم دون مقابل ، وهو يحمل قبعة فى يده ، ببسمات جلالتيهما تقديرا لولائه... ويرقب شرطة الجيش وهم يمتطون جيادهم ، وينصت إلى زمر الناس عند تجمعهم ، ويلحظ العلم على ساريته . . . ويرى فوق ذلك ، فتيات المدينة الحسان وهن يتبخترن فى الميدان ، وتحدقن متأملات بعيونهن البريئة . فى البحر البعيد ، والصخور الشهب والسماء . ثم يحدقن مصادفة فى الجند ، وفيه هو ... وقال لنفسه :

ـــ سأستأصل صورتها من ذهنى ـ إنها لن تعبث بعقلى بعد ذلك .

وقد نجم تصميمه هذا عن خلق ينطوى على عناصر عظمة حقيقية .

وعاد إلى أبيه الذى وجده فى مخزن الطاحون ، وأبدى له الملاحظة التالية :

ـــ إن ما قلته يا أبى صحيح ، فذهنى سيتحول إلى قدر ماء فيما إذا فكرت فيها أكثر من ذلك . وأقسم قسم ملاح إنى أود لو أستطيع الإقلال من التنهد ، والإكثار من الضحك ! . لقد رحلت .. فلماذا لا أستطيع أن أدعها تذهب وأنعم بالسعادة ؟ .. ولكن كيف أبدأ ؟

وقال صاحب الطاحون :

— هون عليك الأمر . احمل نفسك على الخروج واستمتع بالطعام والشراب.

وقال بوب :

— آه ... إنها لفكرة !

— الطباق يصلح لهذا ، وكذلك خمر « سبيرتس » . ولو أنى أنصحك ألا تشرب الخمر صرفاً . .

وقال كابتن لفدى :

— « الطباق » ... لقد كدت أنساه .

وذهب إلى غرفته ، وفض لفافة الطباق التى أحضرها معه إلى بلده ، وبدأ يستعمل الطباق على طريقته بينما نادى على ديفيد طالبا إليه إحضار زجاجة خمر العسل التى كان قد وضعها فى خزانة المؤن فى هذه السنوات الإحدى عشرة الأخيرة. ووجده أبوه بعد مروره ثلاثة أرباع ساعة شيئا يظهر نصف ظهور من وراء سحب الطباق .

وتنفس صاحب الطاحون الصعداء ، وقال :

— ماذا يا بوب ، لقد ظننت البيت يحترق !

— إنى أدخن تدخيناً أميل إلى السرعة لأغرق تأملاتى يا أبى ، فلا فائدة من مضع الطباق .

وفى سبيل إغراء شهيته الواهنة طلب هذا الزوج الشق إلى ديفيد أن يطهو له « عجة بيض » ، ويخبز فطيرة محشوة . وقد حشيت هذه الأخيرة حشواً بلغ من قدره الكبير أن أصبحت تتفتح للسكين كأنها زهرة منمنمة من الشقيق الأصفر . وفى سبيل نفس الغرض نصب حبائل ليلية لها طعم لصيد السمك فى شط حوض الطاحون ، وسحبها فى الصباح التالى مليئة بثعابين البحر ، وقد سلخ جلد بعضها ، وأعده لطعام الإفطار . وكان هذا النوع من السمك هو الذى يؤثره ، ولكن حالته كانت قد وصلت حتى اللحظة التى قام فيها بذلك المجهود ، إلى حد أنه نسى تماماً وجود ذلك النوع من السمك بالقرب من باب أبيه الخلفى .

ولم تمر أيام قليلة حتى تحسن بوب لفدى تحسناً مذكورا لونا وقوة . وكان هناك علاج واضح آخر لخور عزيمته وهو أن ينغمس فى صحبة الآنسة جارلاند ،

فالخلاص من الحب بأن يستبدل به ، أقوى أثراً بكثير من محاولة القضاء عليه . ولكن اعتقاد لفدى بأنه أساء إلى هذه الفتاة إساءة أبعد من متناول الغفران ، وشعوره الدائم حيالها بأنها امرأة جديرة ، بتربيتها وأصلها ، أن تزين بيتاً أرقى من بيته ، حالا حيلولة ناجحة دون تقربه إليها مدة طويلة برغم أنهما كانا يقطنان فى نفس المنزل . بيد أن هذا التحفظ انهار ذات صباح ، إلى حد ما ، بظهور طرف منشار فى الحائط الفاصل بين غرفة آن ومسكن لفدى القائم فى النصف الآخر من الدار ، وحدث هذا فى حقبة متأخرة من ذلك الفصل . وبرغم أن الفتاة كانت تتناول الغداء والعشاء مع أمها وأسرة لفدى ، فقد ظلت تقطن فى مسكنها القديم ، لأنها وجدت بقاءها هناك أكثر ملاءمة وتمكيناً من مزاولة هواياتها من نسج خيوط الصوف ، ونسخ صور أبيها القديمة . ولم يكن الحائط الفاصل بين المسكنين قد انهار بعد .

وقفزت آن تاركت رسمها بينما كان المنشار يعمل تحت بصرها المندهش ، متخذاً طريقه إلى أسفل . ولم يلبث الخيش والورق الذى كان يكسو على نحو مؤقت باب الاتصال بين المسكنين أن تمزق عن آخره . وانفتح الباب دفعة واحدة ، وظهر بوب واقفاً فى الناحية الأخرى والمنشار فى يده . وقال وهو يرفع قبعته التى كان يعمل وهى على رأسه ، بينما انفرج وجهه الجميل عن ابتسامة :

— أرجو المغفرة من سيادتك . أنا لم أكن أعلم أن هذا الباب يؤدى إلى حجرتك الخاصة .

— نجحاً ، ياكابتن لفدى !

— أنا أصلا أزيل الحاجز بيننا ما دمنا قد أصبحنا أسرة واحدة . ولكنى ظننت حقاً أن الباب يؤدى إلى ممر سكنكم .

— لا أهمية للأمر عندى ، فأنا أستطيع أن أتخذ لنفسى غرفة أخرى .

— أبداً ، فأبى لن يسمح لى أن أخرجك من غرفتك . سأعيد إغلاق الباب .

ولكن آن كانت مهتمة بطريق الباب الجديد إلى حد أنها اجتازته ، ووجدت نفسها فى ممر منخفض مظلم لم تكن قد رأته من قبل قط .

وقال بوب :

— إنه يؤدى إلى الطاحون ، أتريدين أن تدخلى وترينها وهى تدور ؟ ولكن لعلك رأيتها من قبل ؟

— لم أدخل إلا الدور الأرضى .

— تعالى لنطوف فى كل ناحية منها . إنى أتدرب على الطحن لأساعد أبى .

وتبعته مخترقة الممر المظلم حيث فتح باباً صغيراً فى جانبه ، وعندئذ رأت كهفا ضخما لزجا تتهاوى فيه أذرع عجلة الطاحون ، وتدور فى بطء وشرود . والتقت قطرات الماء المتطايرة بالنور الذى ضل طريقه إلى المكان المظلم ، فتحولت إلى أنجم وومضات من نور ... وهبت على وجهيهما نفحة رطبة من الهواء . وإذا العجيج المنبعث من الداخل يضطر آن إلى الصياح قائلة :

— هذا فظيع ! دعنا نواصل سيرنا .

وأغلق بوب الباب الصغير فسكن العجيج . وواصلا السير إلى الجزء الداخلى من الطاحون ، حيث كان الهواء دافئاً ، رائحته كرائحة الجوز ، يغشاه ضباب من الدقيق . ثم صعدا فى السلم ورأيا أحجار الرحى تدور وتدور ، وحبات القمح الأصفر تجرى خلال الغربال الهزاز . ثم تسلقا أبعد من ذلك إلى الدور العلوى حيث القمح موضوع فى أدراج ، وحيث خيوط طويلة من الأشعة كقرون الحشرات تمتد من الشمس إلى داخل المكان من خلال النافذة الصغيرة ، وتكاد تضل طريقها بين خيوط العنكبوت والأخشاب ، ثم تتم رحلتها بدمغ الحائط المقابل ببقعة متوهجة من الذهب .

ورفع بوب غطاء الغربال أثناء قيامه فى عيرة بمهمة عرض المكان ، وكان الغربال يدور فى سرعة . ونتج عن ذلك أن هبت على وجهيهما سحابة من الدقيق أذكرت آن أن لونها أصبح فى هذه الآونة أكثر شحوبا مما كان عليه عند دخولها المطحن . وشكرت رفيقها على ما تجشمه من تعب ، وقالت إنها ستنزل من الطاحون الآن . وتبعها وهو يحوطها بنفس الرعاية التى حاطها بها من قبل ، ويحس إحساساً مفاجئا متزايدا بأن هذا العلاج بالنسبة لجميع أنواع العلاج الأخرى التى توخى بها شفاء عاطفته السابقة التعسة ، قمين أن يكون أحسنها وأيسرها وأقواها أثراً فيما إذا كان سعيد الحظ إلى حد يستطيع معه الاحتفاظ بالفتاة على أساس شروط

ميسورة . ولكن الآنسة جارلاند لم تبد أى استعداد لقبول شيء غير خدماته بحسبانه مرشداً لها فى جولتها . ونزلت إلى الهواء الطلق ، ونفضت عنها الدقيق كما تفعل الطير . ودخلت الحديقة وسط أشعة شمس سبتمبر التى كانت خيوطها تمتد مستوية عبر الضباب الأزرق المنبعث من الأرض ، وكان البعوض يرقص مرتفعاً منخفضاً فى أسراب خفيفة كالهواء ، ونبات الحرف تشرق جماعات من خلال الحاجز المطلم الذى كانت تتسلقه ، وروائح أخريات الصيف الرطبة تفوح من كل شيء . وتبع بوب الفتاة حتى باب الحديقة . وشيعها ببصره وهو يراها كنفس الفتاة التى شجعته بعض التشجيع من سنوات خلت عندما كانت تبدو أسمى منه مرتبة إلى حد كبير . وبرغم أنهما كادا يصبحان اليوم متساويين فى المرتبة فإنها تظنه على ما يبدو دونها قدرا . وكان ذهنه يجنح فى شعور جديد من الابتهاج إلى واقعة أنها تقطن الآن فى منزل أبيه .

وظل على سلوكه الدمث خلال الأسبوع التالى . وقليلا ما كانا يجتمعان خلال ساعات العمل بالنهار ، ولكنهما كانا يلتقيان بانتظام فى مواعيد الطعام . وبدأت هذه المناسبات المبهجة تثير فيه الاهتمام بصرف النظر تماماً عن اهتمامه بالصحاف والأكواب . واعتاد ميلر لفدى أن يحي آن بصوت عال ، وهو يشحذ سكينه ، كلما دخلت وجلست فى مقعدها . ولكنها لم تتنازل وتقبل من بوب مثل هذه التحية الدالة على الألفة . وكانا يجلسان معاً ، على الأغلب ، وعين كل منها لا تنظر فى اتجاه الاخر . ولكن بوب كان يقص فى بعض الأحيان قصصاً جدية حقيقية عن ربابنة البحار ، والمرشدين ، وصغار الملاحين ، وضباط البحرية ، ورجال البحر الأكفاء ، وغير ذلك من القصص الخاصة بالحيوانات العجيبة الموجودة فى عالم البحر . ولكنه كان يوجه هذه القصص مباشرة إلى أبيه والسيدة لفدى ، ولا يشرك آن إلا بنظرة عند الموضع الهام من الرواية . وكان يفتح لها أحياناً زجاجات من شراب « عصير التفاح » الحلو ، وفى هذه الحالة كانت تشكره . ولكن لم يؤد حتى ذلك إلى تشجيعها له على مواصلة حديثه .

وفى ذات يوم ، بينما كانت آن تقشر تفاحة ، قال لها الفتى وقد تركا وحدهما على مائدة الطعام .

— لقد صنعت لك شيئاً .

ونظرت إلى كل ماحوت المائدة ، ولـكن لم يكن هناك إلابقايا المائدة العادية .

— أوه ، أنا لم أقصد أن ما صنعتة هنا ، ولـكنه فى الخارج هناك الى جوار الجسر عند رأس الطاحون .

ونهض ، وحذت آن حذوه وقد بدا الفضول فى عينيها ، وتحولت بفمها الصغير الدال على الحزم من العبوس إلى هيئة تدل على الحيرة . ووجدت عند وصولها الى الناحية الأمامية المعشوشبة للطاحون أنه أقام « قيثارة ريح »(١) كبيرة الحجم فى مهب التيار الشديد الرطب الذى يسود ناحية عجلة الطاحون دون انقطاع . وكانت الأوتار فى هذا الوقت مغطاة بقطعة من القماش ، فرفعها وبدأت الأوتار تصدر موسيقى سحرية تمتزج امتزاجا عجيبا برشاش العجلة الدائرة .

وقال بوب :

— لقد صنعتها لك خصيصا يا آنسة جارلاند .

وشكرته شكرا حارا جدا لأنها لم تر فى حياتها قط شيئا يشبه مثل تلك الآلة وقالت وقد أثارت اهتمامها :

— كان صنعك لهذه الآلة رعاية متكورة منك .

ثم أضافت :

— ما الذى جعلك تفكر فى مثل هذه الآلة ؟

وأجاب وكأنه لايهتم بأن تسأله فى هذا الموضوع :

— أوه ، لست أدرى على وجه التحديد . وأنا لم أصنع طوال حياتى قيثارة واحدة إلى الآن .

وفى كل ليلة تالية، أثناء هبوب رياح الخريف المشجية . كان ذلك المزيج الغريب من أنغام الماء والهواء والأوتار يصافح أذنيها وهو يعلو وينخفض فى إيقاع يكاد

---

(١) قيثارة ذات أوتار تحدث أنغاما موسيقية كلما تعرضت لتيار الهواء .
(شرح الأصل)

يكون خارقا للطبيعة . وكانت طبيعة هذه الآلة تختلف اختلافا كبيرا عن كل ما رأته من هويات بوب ، حتى أنها أعجبت فى ابتهاج عما كشفه اختراع تلك الآلةمن وجود تلك الأعماق الشعريةفى طبيعة الملاح الشاب . وسمحت لعواطفها أن تنطلق أبعد قليلا فى اتجاهها القديم ، برغم انعقاد عزمها الأخير الحازم على أن تصد تلك العواطف.

وفى ليلة نشطة النسيم ، بينما ظلت الطاحون تعمل فى الهزيع الأخير من الليل والريح تهب فى اتجاه مجرى الماء تماما ، امتزجت الموسيقى بأحلامها امتزاجا قويا إلى حد أيقظها ، وبدت أنغامها كأنها حلت فى وقع موزون محلهذه الكلمات « تذكرنى ! . . . فكر فى ! » وأثر ذلك فى الفتاة تأثيرا شديداً ، فقد كادت الأنغام تكون مثيرة للعواطف إلى حد كبير . وفى الصباح التالى حادثت بوب فى فى الموضوع ولاحظت فى رقة :

— ما أعجب أن تكون قد فكرت فى وضع القيثارة حيث يتدفق الماء ! إنها تؤثر خلال الماء تأثيراً يكاد يكون محزنا ! إنك شاعرى المزاج ياكابتن بوب... ولكنها مثيرة للحزن جدا . . . جدا ! . .

وقال كابتن بوب على الفور :

— سأنقلها من مكانها . إن أنغامها محزنةجدا بالتأكيد . وقدظللت أنا نفسى مسهدا فى إحدى الليالى .

— كيف توصلت إلى التفكير فى صنع مثل هذه الآلة الغريبة ؟

وقال بوب :

— حسنا . إنها لاتكاد تستحق ذكرسببصنعها. إن مكانها غير مناسب لمثل تلك الآلة الغريبة ذات الضجيج ، وسأنقلها من هناك .

قالت آن :

— إنى أود ، بعد إعادة التفكير ، أن تبقيها قليلا ، فهى تحملنى على التفكير .

وسألها فى صراحة جادة :

— التفكير فى أنا ؟

واحمر وجه آن فى سرعة . وقالت وهى تحاول أن تبعث فى صوتها لهجة طبيعية واضحة :

— حسنا ، نعم أنا مدفوعة بالطبع إلى التفكير فيمن ابتدعها .

وبدا على بوب ارتباك غير واضح السبب . ولم يواصلا الكلام فى هذا الموضوع . وعاد إليها ثانية بعد ما يقرب من نصف ساعة وقد بدا فى نظرته شىء من القلق . وقال :

هناك مسألة بسيطة لم أذكرها لك توا يا آنسة جارلارند . أقصد عن تلك القيثارة . إنى أنا الذى صنعتها دون شك ، ولكن أخى جون هو الذى طلب إلى قبيل رحيله أن أصنعها . إنه كا تعلمين موسيقى بارع ، وقال إن ذلك سيثير اهتمامك . ولكن بما أنه لم يطلب إلى إخبارك بأنه صاحب الاقتراح ، فقد كتمت عنك الأمر . ولعله كان يجدر أن أصارحك به ، ولا أنسب الفضل لنفسى .

وقالت آن فى سرعة :

— أوه ، إن هذا لا أهمية له . وهذه الآلة ، على أية حال ، بعيدة عن أن تكون كاملة . وسيكون سيان تماما أن تنقلها بعيداً كما اقترحت فى بادىء الأمر .

وقال إنه سيقوم بذلك ، ولكنه نسى أن ينفذ قوله فى ذلك اليوم ، وكانت الريح عالية فى الليلة التالية ، وصاحت القيثارة ، وأنت أنينا مثيراً إلى حد أن آن التى كانت نافذتها قريبة جداً منها ، لم تكد تحتمل الصوت وما يأتلف حوله من أفكار جديدة . وظل جون لفدى ماثلا فى ذهنها طوال الليل بحسبانه رجلا أسيئت معاملته ، ولكنها لم تستطع أن تقر بأنها أساءت معاملة .

ونقلت القيثارة من مكانها فى اليوم التالى . وإذ شعر بوب أن قدره من حيث الابتكار قد نقص فى عينيها ، شرع يطلى كشك الحديقة الذى تتردد عليه ، فى سبيل استرداد ما فقده . وأكد لها عندما خرج من بيته أن هذه الفكرة هى فكرته تماما .

وقالت فى لهجة حيادية :

— كان الكشك محتاجا إلى ذلك لا مراء .

— إن العمل الآن يوشك أن يكون متعبا .

— نعم ، فأنت لا تستطيع أن تطول أعلاه تماما . ذلك لأنك لست فارع الطول ، أليس كذلك يا كابتن لفدى ؟

— أنت لم تعتادى التفوه بمثل هذا قط .

— أوه . أنا لم أقصد أن قامتك تنقص كثيرا عن القامة الطويلة ! هل أحمل لك وعاء الطلاء حتى أجنبك مشقة النزول إليه ؟

— شكرا لك إذا قبلت ذلك .

وتناولت وعاء الطلاء ، ووقفت تتطلع إلى الفرشاة وهى ترتفع وتنخفض فى يده .

ولاحظ قائلا وهو يغمس الفرشاة :

— آمل ألا ألوث أصابعك برشاش الطلاء .

— أوه ، إن ذلك لا يهم ! إنك تحسن غمسها جداً .

— يسعدنى أن أسمع منك أنك ترين ذلك .

— ولكن لعل طلاء كشك حديقة لا يتطلب من الفن مثل القدر الكبير الذى يتطلبه رسم صورة زيتية ؟

وكانت تتكلم بلهجة فيها لذعة من السخرية إذا خطر ببالها أنها ابنة رسام ، وفتاة متعلمة تفوقه قدراً . وشعر بتحقيرها له وقال :

— إنك لم تتعودى مخاطبتى على هذا النحو .

وعلقت فى جرأة :

— لعلى كنت صغيرة جداً عن الحد الذى أجد فيه أية متعة فى إيلام الناس .

— أهذا يمتعك ؟

وأومأت آن إيجابا . وقالت بحدة دون أن تتحول بعينيها عن السائل الأخضر الذى تحمله فى يدها .

— أسألك العفو عن ذلك .

— أنا لم قل إنى قصدتك . . مع أنى قصدتك فعلا .

وظل بوب ينظر ، ويعيد النظر إلى جانب وجهها حتى بلغ من افتتانه بها أن وضع فرشاته جانبه ... وصاح :

ـ إنه نسيانى الأحمق لك بعض الوقت ! . . حسنا ، إنى لم أرك مدة طويلة جدا . تصورى كم كان عدد تلك السنين ؟

وقال وهو يتقدم ليتناول يدها :

ـ أوه ، ياعزيزتى آن ! . . كم كان كل منا يعرف صاحبه جيداً يوم أن كنا أطفالا ، لقد كنت ملكة فى عينى وقتئذ . . . وكذلك أنت الآن ، وستكونين كذلك على الدوام .

ومن المحتمل أن تكون آن قد ارتجفت رجفة لذيذة بمقدار كاف عندما أعادت هذا الفتى الريفى المارق ثانية إلى موطىء قدميها .

ولكن الفتى لم يجد الموقف سهلا كما تصور ، وهى لم تسمح له بعد بأن يتناول يدها . وقالت ضاحكة :

ـ هذا بديع جـــداً ! . . ولم يمر على رحيل الآنسة جونسون سوى ستة أسابيع !

وتوسل إليها بوب :

ـ أستحلفك ألا تقولى شيئاً عن ذلك ! أقسم أنى لم أحبها قط . . . أى إنى لم أحبها قط عن عمد مدة طويلة متصلة ، فقد كان الأمر نوعا من الأمور المفاجئة كما تعلمين . ولكنى ، بالنسبة لك ، ظللت طوال حياتى أمجدك وأحبك من آن لآخر محاطاً بالاحترام . هاك الأمر ، هذا حقيقى .

وأجابت آن فى سرعة :

ـ وأنا أريد من آن لآخر أن أصدقك يا كابتن روبرت . ولكنى لا أرى أية فائدة ترجى من إدلائك بهذه البيانات الخطيرة .

ـ اسمحى لى أن أشرح الأمر ياعزيزتى الآنسة جارلاند . إن القصد أن أحملك على التفضل بتجديد وعد قديم . . . يرجع إلى ســـنوات خلت . . . وهو أن تذكرينى .

ـ إنى لن أكرر كلمة واحدة من أى وعد .

ـــ حسنا ، حسنا ، إنى لن ألح عليك فى ذلك اليوم . وإنما دعينى أتوسل إليك فقط أن تنزعى عنك الفكرة الخاطئة التى كونتها عنى . وسيكون قصارى جهدى أن أفوز منك بحظوة كريمة .

ودارت آن فابتعدت عنه ، ودخلت المنزل حيث تبعها فى ظرف ربع ساعة طارقا بابها ، طالبا الدخول . وقالت له إنها مشغولة . ومن ثم مضى إلى سبيله ليعود ثانية بعد فترة وجيزة ، ويتلقى نفس الإجابة .

وقال لها من خلال الباب :

ـــ لقد أتممت لك دهان كشك الحديقة .

ـــ لا أستطيع أن أحضر لأراه ، فسأكون مشغولة إلى حين العشاء .

وسمعته يطلق زفرة عميقة ، ويقفل راجعا وهو يدمدم قائلا شيئا عن سوء حظه لكونه مقطوع الصلة من جذعه على هذا النحو ، ولكن الأمر لم ينقض بذلك بعد ، فعندما حانت وجبة العشاء ، وجلسا الى المائدة معا . أخذت على عاتقها أن تلومه على ما وجهه إليها من قول فى الحديقة .

ونم جبين بوب عن اليأس وقال :

ـــ والآن أسألك هذا الأمر الوحيد متوسلا : دعينى أعرف فقط كل ماينطوى عليه ذهنك ، وستتاح لى بعد ذلك فرصة الاعتراف لك بجميع اخطائى ، وإصلاحها أو أوضح سلوكى توضيحا يرضيك .

وأجابته فى عجلة ، ولكن صوتها لم يرتفع الى الحد الذى يسمعه معه الشخصان الهرمان اللذان يجلسان فى الطرف الآخر من المائدة :

ـــ سأقول لك إذن شيئا واحدا ياكابتن لفدى . سأذكر عيبا واحدا لعله كان يمكن أن يلائم طبعى أكثر مما يلائم طبعك . وهو أنك تتأثر فى سهولة شديدة بالأوجه الجديدة . وهذا يعطينى « فكرة سيئة » عنك . . نعم ، « فكرة سيئة » .

وقال بوب فى بطء وهو ينظر إليها بذلك الاحترام الشديد الذى يوليه التلميذ لأستاذه . وكانت قد نطقت بكلماتها على نحو يقف بالضبط بين الجد والهزل الى حد أنه أصبح فى شىء من الشك فى الكيفية التى يتلقاها بها .

ـــ أوو ، أهذا هو الأمر ! . . . أنا أتأثر بالوجوه الجديدة . . . هذا خطأ
منى دون أدنى ريب .

وكانت صوت القعقعة الصادرة من فتح سدادة الزجاجة ، وقيام صاحب الطاحون بصب الجعة القوية قاصدا أن يتوجها برغوة وفيرة . . . كان ذلك يشتت ذهنها تشتيتا ظاهرا يصفح لها عن عدم المضى فى الإنصات إليه . . وفى أثناء البقية الباقية من جلستهما بدا أن تأنيبها اللطيف أخذ يرسب فى ذهنه رسوبا جديا . ولعل قلبها قد أوجعها وهى تراه إلى أى حد كان يلوذ بالصمت . ولكنها ظلت تقصد معاقبته . وقد حافظت يوما بعد يوم ، خلال أسبوعين أو ثلاثة ، على نفس تصرفها ، متمكنة من ضبط نفسها على نحو أظهر متانة خلقها . ثم إنه من ناحيته هو ، نظرا إلى ما كان عليه أن يتجشمه . والى طريقة تملصها منه ، ورفضها الخروج له عندما يناديها ، وامتناعها عن مقابلته عندما كان يريد دخول الردهة الصغيرة التى وضعت يدها عليها الآن لاستعمالها الخاص . . كان صبره حيال هذا يشهد فى قوة على طبعه الرضى ؟

استعدادات عسكرية

على نطاق واسع

(٢٣)

انقضى عيد الميلاد . ومضى شتاء موحش ذوليال مظلمة ، مفسحا المجال لشتاء أشد إيحاشا ، لياليه مضيئة . وكانت سيول الجليد تنتهى بانهمار المطر ، وانهمار المطر ينتهى بهبوب الريح ، وهبوب الريح بانتشار الغبار . لقد أقبلت الأيام الممطرة . . أقبل فصل شروق الشمس الوردى وغروبها الأبيض . وود الناس أن ينتهى أوان جو مارس .

والواقعة الرئيسية المتعلقة بالأسرة التى تقطن فى الطاحون هى أن صاحب الطاحون تطوع فى الجيش مقتفيا أثر جميع جيرانه . وكان يظهر مرتين فى وقت معين من كل أسبوع ، ويرتدى سترة عسكرية حمراء طويلة الذيل ، وسراويل فى لون الفخار ، ورباط ساق من قماش أسود ، وخوذة مصقولة ذات زر مصنوع من الصوف الأخضر ، وأشرطة عسكرية على كتفيه منسوجة من صوف لايختلف عن صوف الزر مادة ولونا . وظل بوب على الحياد ، فهو إذ عجز عن أن يقرر أينضم إلى رجال البحر المدافعين عن وطنهم ، أم إلى الحرس الوطنى المحلى ، أم إلى المتطوعين ، اكتفى بمرافقة آن فى الرقص . وفطنت السيدة لفدى إلى أن هذين الفتى والفتاة يقف كل منهما قبل الآخر موقفا غريباً ، ولكنها لم تستطع أن تستوثق من معنى حركاتهما إذ لم يشاهد أحد رأسيهما يبدوان معا ، ونادراً ما كانا يجلسان حتى فى نفس الغرفة .

ومن العجيب إلى حد كاف (أو لعله من الطبيعى إلى حد كاف) ، أنها منذ انضمت هى نفسها إلى أسرة لفدى أخذ تحبيذها لفكرة اقتداء ابنتها بها يقل تدريجيا وعادت إلى فكرتها الأصلية ، فكرة تشجيع فستوس ، وذلك على الأخص لأنه أبدى أخيراً مثابرة متواصلة فى تردده على تخوم الطاحون ، وأغلب الظن أنه أقدم

على ذلك بقصد الالتقاء بالفتاة . ولكن حالة الطقس حملتها على ملازمة الدار أغلب الوقت .

وفى عصر أحد الأيام كان المطر ينهمر كالسيول . وكانت أوراق الشجر التى تظل على أفرعها فى هذا الوقت من العام — كأوراق شجر الغار ، وغيره من الشجر دائم الاخضرار — كانت تترنح تحت لطمات القطرات الشديدة التى كانت تتساقط عليها ، وترى بعد ذلك وهى تسيل على جذوع الشجر السفلى ، ثم تتسرب صامتة فى الأرض . وكان سطح حوض الطاحون يتوثب تحت ذلك الوابل المدرار فى آلاف من التموجات التى كانت تقرق على طول الشاطىء كالدجاجة الواقعة فى حجر فأر ، وهى تهتز فى مهب الريح . والمكان الوحيد الذى بدا من نوافذ دار الطاحون الأمامية جافا لم يبتل كان الجزء الداخلى من كوخ قائم فى الطرف المقابل من الفناء وقد توجه إليه فستوس ديمان ، ودخله ليحتمى فيه بينما كانت السيدة لفدى ترقب خيوط المطر عبر الظل الداخلى لذلك الكوخ الذى لم يكن ليوفر إلا حماية ضئيلة لرجل يضارع عمالقة(١) فريدريك وليام ، وذلك نظرا لما تكدس فيه من سقط المتاع .

وكانت هذه فرصة طيبة تعين السيدة لفدى على تنفيذ مشروعها . فابنتها آن كانت فى الغرفة الخلفية ، وهى إذا سألت فستوس أن يدخل البيت حتى يكف المطر عن الهطول ، جمعته وجها لوجه بابنتها التى رغبت الآن ، بعد كر الأيام ، فى تزويجها برجل من غير أسرة لفدى ... لقد رغبت فى ذلك الآن بعد أن جربت من بعض الوجوه نشوة قصة اقترانها بصاحب الطاحون . لقد أصبحت الان أحوط من ذى قبل . وهى ليست تعسة ، لكن الأمر الواضح هو أنها تزوجت بمن يقل عنها مستوى . وأشارت إلى فستوس من وراء زجاج النافذة فاستجاب لإشارتها على الفور ، وقد لجأ إلى ذلك المكان فى الواقع لتلحظه الأعين إذا كان يعلم أن الآنسة جارلاند لم تكن لتخرج من الدار فى مثل ذلك اليوم .

وقال فستوس وهو يدخل الدار :

---

(١) جنود فارعو الطول كان فريدريك وليام ، أبو فريدريك الكبير ، يختارهم حرسا له . (شرح الأصل)

— مساء الخير ياسيدة جارلاند . انظرى الآن . . وكأنه لم يخطر لى أن الأمر سيكون على هذا النحو !

واحتد صوته فجأة إلى درجة الغضب إذ رأى الباب يغلق فى الناحية الخلفية من الغرفة بعد أن مرقت من خلاله طلعة رشيقة .

والتفتت السيدة جارلاند ، ولاحظت أن آن قد انصرفت ، فقالت وكأنها لم تدرك ماحدث :

— ما الأمر ؟

وقال فستوس غاضبا :

— أوو . . لا شيء . . لا شيء ! إنك تعلمين ما حدث علما كافيا ياسيدتى ، وتتظاهرين فقط بغير ذلك ولكنى سأنا قشها مع ذلك الحساب . . سوف تتخلين عن مظاهر التعالى يافاتنتى ! فهى قليلا ما تظن أنى ظللت أحصى عليها كل ما ارتكبت .

وقالت السيدة لفدى وقد فرحت فى سرها لدلائل الحب التى لم يستطع السيطرة عليها :

— ولكن لابد أن تعاملها فى أدب ياسيدى .

— لا تحدثينى عن الأدب والكرم ياسيدتى ! إنها أكثر من ند لمثلى ، فهى تتغلب على دائما . . . وقد مررت بهذا البيت أكثر من خمسين مرة منذ عيد القديس مارتين الماضى . . وهذا هو كل ما نلته من جزاء على ذلك .

— ولكنك ستمكث هنا حتى يكف المطر عن الهطول ياسيدى ؟

— لا . أنا لا أهتم بالمطر . . سأخرج ثانية . . . إن هناك شخصا آخر نصب عينيها !

وخرج الفارس المتطوع مغلقا الباب فى عنف .

وفى هذه الأثناء كانت باعثة آماله المتقلبة قد سارت فى الممر المظلم واجتازت الفتحة الصغيرة المؤدية إلى العجلة واخترقت الباب إلى الطاحون حيث التقت ببوب الذى نظر إليها من مستودع الدقيق متسائلا ، وقال :

— أترغبين فى لقائى يا آنسة جارلاند ؟

وقالت الفتاة :

— أوو ، لا . أنا لا أريد إلا السماح لى بالمكث هنا بضع دقائق .

ونظر إليها ليعلم هل هى تعنى ما تقول ، وعاد إلى مكانه إذ وجد الأمر كذلك حقاً . ثم ارتد ثانية بعد أن ظلت الطاحون تقعقع بعض الوقت .

وقالت له إذ رأته يتحرك صوبها .

— تذكر يا بوب أنك قائم الآن بالعمل ، وليس لديك فراغ من الوقت لتقف فيه بالقرب منى .

وانحنى لها ، وعاد ثانية إلى عمله الأصلى بينما أخذت آن ترقب من النافذة خروج فستوس . وظلت الطاحون تقعقع كعهدها السابق . وجاء إليها بوب أخيراً للمرة الثالثة ، فبدأت تقول له :

— والآن يا بوب . .

— أقسم بشرفى أنى لم أجىء إلا لأسألك سؤالا . . . أتذهبين معى إلى الكنيسة بعد ظهر الأحد المقبل ؟

فقالت :

— قد أفعل ذلك .

وغادر الفارس المتطوع البيت فى هذه اللحظة ، فعادت آن إلى مسكنها من من حيث أتت لتهرب من التمادى فى المناقشة .

وحل بعد ذلك ظهر يوم الأحد . وكان أفراد الأسرة يقفون بالباب مترقبين بدء دقات الأجراس فى الكنيسة . وكانوا يستطيعون من هذا الجانب من البيت أن يروا إلى الجنوب ، عبر حظيرة خيل ، تلك الأرض التى تأخذ فى الارتفاع أمامهم عن بعد ، حيث تقوم شجرة دروار كبيرة تتقاطع تحت أفرعها آثار أقدام متجهة إلى مختلف الاتجاهات كخيوط الظهير عند القطب . وكانت الشجرة قديمة ، وكانت الحشائش الممتدة تحتها تبلى تماماً فى الصيف من وطء أقدام المتواعدين والمتسكعين الذين يقصدون هذا المكان . وهى تمثل هدفا باديا للعيان وسط المنظر الطبيعى المحيط بتلك البقعة .

وأقبل من أحد الطرق ، إذهم ينظرون جندى من المشاة فى سترة حمراء وسروال أبيض ، وقف تحت شجرة الدردار ، وأخرج من جيبه ورقة ، وشرع يسمرها من أطرافها الأربعة فى جذع الشجرة . ثم تراجع إلى وراء ، وألقى عليها نظرة ، ثم مضى فى طريقه . وجاء بوب بمنظار مكبر من داخل البيت ، وصوبه إلى ورق الإعلان ، ولكنه لم يتبين ، بعد أن أطال النظر ، إلا صورة أسد وحصان أسطورى(١) فى أعلاها . وسارت آن ، مبتعدة عن الباب، وكانت مستعدة للذهاب إلى الكنيسة ، برغم أن الوقت كان مبكراً . وأبدت رغبتها فى أن تسلك طريق شجرة الدردار . وكانت الورقة معلقة على نحو يثير الشعور إلى حد أن فضول الفتاة دفعها إلى قراءتها حتى فى هذا الوقت المخصص للعبادة . وانتهز بوب الفرصة وتبعها ، وقد ذكرها بالوعد الذى قطعته . وقالت له :

— سر إذن خلفى دون أن تقترب منى .

وأجاب وقد تخلف عنها على الفور :

— لك ذلك .

وحملها خضوعه المضحك فى تصرفه على أن تقول له من فوق كتفها ممازحة :

— هذا ما تستحق كما تعلم .. .

— أنا أستحق كل شىء . ولكن لا بد أن أتجاسر فأخبرك أنى آمل أن يكون مسلكى مع ما تيل ... وقد نسيتك فترة ما ... يجعلك ترغبين فى وضعى دائماً فى المؤخرة ؟ ...

وأسرت إليه قولها :

— إن سبب اهتمامى الجدى بألا أرى معك هو إمكان ظهورى أمام الناس مستقلة عنك . ولست أستطيع غير ذلك . علما منى بما يجب أن أصنعه إزاء أهواء ضعفك . لا بد من تدريبك على ...

وتنهد بوب :

— أوو يا آن ، أنت تصدمينني بعنف ... بعنف شديد ! إنى إذا مافزت بك

---

(١) حيوان خرافى على هيئة حصان له ذيل معقد طويل. وحوافر مشقوقة ، وقرن بارز من أمام . والمقصود بالأسد والحصان الخرافى الشعار البريطانى .

يوما فلا شك عندى أنى سأكون قد استحققتك عن جدارة .

وردت عليه فى دماثة :

— إنك لم تعد تبدو على نحو ما كنت تبدو عليه يوماً . وأنا لا أود كل الود أن أدع نفسى تقع فى حبك .

ولم تكن هذه الكلمات الأخيرة مسموعة تماماً . ولم تلتقط أذنا بوب شيئاً منها نظراً لتخلفه إلى وراء . ولم ير كذلك كيف أصبحت فجأة عاطفية المشاعر . وقطعا باقى الطريق صامتين ، وقرآ لدى وصولها إلى الشجرة ما يلى مكتوبا تحت « الشعار البريطانى » :

« إلى الإنجليز من جميع المراتب والهيئات » ،

« أيها الأصدقاء والمواطنون ، يقوم الفرنسيون الآن بجمع أضخم قوة أعدت من قبل ، مستهدفين غزو هذه المملكة ، معترفين بأنهم يرمون من وراء ذلك إلى إنزال الخراب والدمار التامين بنا . وهم لا يخفون مقاصدهم كما فعلوا غالباً مع الدول الأخرى ، بل يفاخرون بأنهم سيقبلون فى أعداد غفيرة إلى حد أنه لا يمكن صدها .

« وقد اعتاد الفرنسيون فى الآونة الأخيرة ألا يعفو أينما حلوا ، غنياً أو فقيراً ، كبيراً أوصغيراً . وإنما خلفوا الدمار كأنهم وباء مهلك ، ودمروا كل شىء كان من قبل جميلا مزدهراً .

ولن يرغم أحد فى هذه المناسبة على تقديم خدماته ، ولكنكم مدعوون إلى أن تتقدموا متطوعين للدفاع عن كل ما هو عزيز عليكم . وذلك بأن تقيدوا أسماءكم فى سجلات أرسلت إلى المسجل فى كل أبرشــــية ، وتنخرطوا فى سلك الجيش إما متطوعين منضمين من حاملى السلاح ، وإما كشافة وعمالا ، وإما سائقى عربات .

وبحسبانكم « متطوعين منضمين »، ستدعون مرة واحدة كل أسبوع ، إلا إذا نزل الأعداء فى أرضنا ، وأدى ذلك إلى جعل قيامكم بخدمات أكبر ضرورياً .

وبحسبانكم كشافة أو عمالا ستستخدمون فى تحطيم الطرق لتعويق تقدم الأعداء . والذين يملكون فؤوسا أو معاول أو مجارف أو مناجل أو غير ذلك من أدوات العمل ، فالمرجو منهم أن يذكروا هذه الأدوات « لكونستابل » الأبرشية أو المسجل حتى يمكن تدوينها فى كشوف تعلق إزاء بيوتهم ، وذلك لاستعمالها

فيما إذا اقتضت الضرورة ذلك ...

وقد رأينا من المستحسن أن نمدكم بهذا الإيضاح حتى لا تجهلوا الواجبات التى قد تدعون للقيام بها . بيد أنه إذا كان حب الحرية الحقيقية ، والسمعة الشريفة لا يزال يثير قلوب الإنجليز ، فأجر العمل فى هذه الحالة ، وإن كان دفعه ضرورياً ، لن يصبح إلا أقل جوانب مكافآتهم أهمية . فأنتم ستجدون خير ثواب لكم فى واجبكم للمليككم ووطنكم بصد عدوكم القديم المضطغن أو تحطيمه ، ذلك العدو الذى ينفس عليكم تمتعكم بحريتكم وسعادتكم ، ويسعى لذلك إلى تدميرها ... وستجدونه فى قيامكم بحماية زوجاتكم وأطفالكم من الموت ، أوما هو شر من الموت ، وهو ما سيترتب على نجاح عدوكم القديم فى غزوه .

«هبوا إذن ، واتحدوا كرجل واحد فى سبيل أشرف قضية ! إننا قد نستطيع بالاتحاد أن نتحدى العالم بأسره إذا حاول قهرنا ، ولكن النصر لا يمت بصلة أبداً إلى المتقاعسين وغير المتأهبين(١) . »

قال بوب :

— لا بد أن أذهب وأنضم إليهم فى الحال !

ودارت آن إليه ، وقد غاض من وجهه كل أثر للدعابة ، وغمغمت فى إنزعاج :

— وددت لو أننا نعيش فى شمال إنجلترا يا بوب حتى نكون على مسافة أبعد من المكان الذى سينزل فيه إلى البر .

— سيكون أى مكان تحل فيه جنة فى نظرى ، هذا فيما إذا جعلته أنت كذلك .

— ليس من الصواب أن تتحدث بمثل تلك الاستهانة فى وقت عصيب كهذا .

ودارت ثانية مستغرقة فى التفكير ، متجهة صوب الكنيسة .

وإذ هما يقتربان منها رأيا من خلال أفرع أكمة من أشجار اعترضت سبيلها ، وكانت الأفرع لا تزال جرداء ، ولكنها أخذت تنبثق عن براعم فى لون العنبر ... رأيا لألاء بدا أنه ينعكس من أسنة فولاذية ... ولم تمض إلا دقائق قليلة حتى سمعا صوتاً يعلو على رنين أجراس الكنيسة الرقيقة ... صوتاً جهورياً لرجل يلقى

---

(١) انظر المقدمة .

أوامر تحولت على أثرها فجأة جميع الأسنة المعدنية وكأنها قنفد ينتفش ، والتمع لألاؤها من جديد . وقال لفدى :

— إنه التدريب العسكرى . فهم يتدربون اليوم فيما بين الصلاة كما تعلمين ، لأنه لا يمكن جمع الرجال فى سرعة خلال الأسبوع . وهذا يجعلنى أشعر بأنه ينبغى على أن أقوم بما هو أكثر مما أقوم به !

وعندما دارا حول نطاق الشجر بدت لهم جماعة الجنود على نحو أوضح وهى تتألف من ذوى الأجسام القادرة من سكان القرى الصغيرة القريبة ، وهم معروفون على أقدار متفاوتة لكل من بوب وآن . وقد تجمعوا فى بقعة مكسوة بالخضرة خارج باب الفناء التابع للكنيسة ، وكانوا يرتدون ملابسهم العادية . والجاويش الذى أقامهم على التدريب كان نفس الرجل الذى سمر الإعلان فى الشجرة . وقد شغل الآن بفتح كيس نقود من خيش ، وأخرج منه قبضة « شانات » ، وأخذ يمنح كل واحد من الرجال شلنا أجراً للخدمة التى قام بها .

وصاح الرجل :

— أيها الرجال ... إنى أذنت لكم فى الانصراف قبل الموعد بمدة طويلة ... اصطفوا للعرض ... أقول لكم اصطفوا ثانية ... لقد وجدت أن ساعتى أسرعت . وهناك عشرون دقيقة أخرى باقية على بدء عبادة الله . وليرتد الآن إلى الطرف الأدنى كل من لا يحمل سلاحاً نارياً انظروا إلى اليمين وانتظموا .

واهتم كل رجل بأن يرى كيف يقف الباقون . ولذلك اندفع أولئك الذين كانوا يقفون فى طرف الصف إلى أمام حتى اتخذ الخط شكل القوس .

— انظروا إلى أنفسكم الآن ! ولكنكم معوجون فى وقفتكم جميعاً . انتظموا ، انتظموا ! .

وانتظموا من فورهم . ولكنهم عادوا إلى وقفتهم السابقة تحت ضغط الدافع نفسه ، وعلى ذلك أبيح لهم ، بعد اليأس منهم ، أن يظلوا على حالهم .

وقال الجاويش وهو واقف وسط ذلك القوس :

— أرجو الآن أن تعتصموا بقليل من الصبر ، وتنتبهوا انتباها دقيقاً إلى الأوامر على أثر إصدارها إليكم . وإذا ارتكبت خطأ فإنى أكون شاكراً كل

الشكر لأى صديق يردنى ثانية إلى الصواب ، فأنا نفسى لم أنخرط فى سلك الجيش إلا منذ ثلاثة أسابيع ، ونحن جميعاً معرضون للخطأ .

وقال الجنود المصطفون من صميم قلوبهم :

— سنكون كذلك ، سنكون كذلك .

— انتبهوا جميعاً إذن ... ثبتوا بنادقكم ... أحسنتم جداً .

وقال من بالطرف الأدنى من الصف فى يأس :

— خبرنا من فضلك ... ماذا نصنع نحن الذين لا نملك أسلحة نارية !

— والآن، هل سمع أحد قط بمثل هذا السؤال ! كيف ذلك، ينبغى ألا تفعلوا شيئاً بتاتاً ، ولكن فكروا فى كيفية تثبيتها فيما إذا كنتم تحملونها . وأنتم أيها الرجال المتوسطو العمر الذين تسلحتم بقضبان الحواجز ، وجذوع الكرنب لمحض الإيهام بأنكم تحملون سلاحاً ، ينبغى عليكم بالطبع أن تستعملوا هذه الأشياء كما لو أنها سلاح حقيقى . والآن إذن ، ارفعوا الزناد! استعدوا! أطلقوا النار !.. (أقصد أن تتظاهروا بذلك ، وأن تطلقوا خيالكم ، فى نفس الوقت ، إلى ميدان القتال .) هذا حسن جداً .... حسن جداً جداً . ما عدا أن بعضكم تسرع قليلا، والباقى أبطأ قليلا .

— من فضلك أيها الجاويش، هل أستطيع أن أنصرف إذ أنى رئيس العازفين فى جوقة المرتلين فى الكنيسة ، وأوتار كمنجتى الكبيرة «الباص» لا تحتمل العزف عليها فى هذا الوقت من العام إلا إذا شدت قليلا قبل أن يبدأ القداس ؟ ...

وقال الجاويش مقطباً :

— كيف يمكن أن تفكر فى نزهات مثل الذهاب إلى الكنيسة فى مثل هذا الوقت الذى أصبح موطنك فيه على وشك التعرض للغزو ؟ والتدريب العسكرى كما تعلم ينتهى قبل أن يبدأ ميعاد الكنيسة بثلاث دقائق . وهذا هو القانون ، ولا يزال هناك ربع ساعة باقياً على ذلك الميعاد ... وعليكم الآن ، لدى سماع كلمة « عمروا البنادق » أن تحشوا البارود فى خزانة الزناد (على فرض أن معكم بنادق) ، وتبقوا ثلاث أصابع وراء الزناد . ثم أغلقوا الخزانة . وضموا ذراعكم اليمنى بخفة إلى جسمكم . وكان ينبغى أن أخبركم قبل ذلك أن تمسكوا بالخرطوشة، وهى معدة،

وترفعوها بحركة سريعة إلى فكم ، وتقضموا أعلاها عن آخرها . . . وإياكم أن تبتلعوا قدراً كبيراً من البارود يجعلكم تسعلون وتبصقون بدلا من الانتباه إلى تدريبكم .. من هذا الرجل الذى يتكلم فى الصف الخلفى ؟

— من فضلك يا سيدى . إنه أنطونى كريبلسترو . وهو يريد أن يعرف كيف يقضم طرف خرطوشته بينما لم تعد هناك أسنان باقية فى رأسه ؟

— كيف هذا يارجل ! ... أين عبقريتك الحربية ؟ ارفعها بالتأكيد إلى فم الرجل الواقف إلى يمينك ، ودعه يقضمها لك ... حسناً ، ماذا تريد أن تقول أيها الجندى « تريمليت » ؟ ألا تفهم الإنجليزية ؟

— أسألك المعذرة يا جاويش . ولكن ماذا علينا أن نفعل نحن رجال فرقة المشاة غير المدربة إذا ما جاء بونى(١) قبل أن نحصل على بنادق ؟

— خذ حربة كسائر العاجزين . وستجد كمية منها معدة فى ركن برج الكنيسة... والآن ... البنادق على الكتف ... ف ... ف ...

وصاح ديفيد ، خادم ميلر لفدى ، وهو أحد الرجال الذى يكونون تلك الجماعة ... صاح إذ تحول رنين أجراس الكنيسة الثلاثة إلى دقات سريعة صادره من جرس واحد :

— ها كم ... إنهم يدقون الجرس فى الكنيسة !

وتنفس الصعداء رجال الصف جميعاً ، وألقوا بأسلحتهم ، وشرعوا فى مغادرة المكان ركضاً .

وقال الجاويش :

— حسناً ، ينبغى إذن أن أسرحكم . عودوا ثانية . . . عودوا ثانية . ميعاد التدريب التالى هو الساعة الرابعة من بعد ظهر الثلاثاء القادم . وتذكروا أنه إذا لم يسمح لكم مخدوموكم بترك العمل فى الوقت المبكر الكائن ، فأخبرونى بذلك ، وسأكتب عندئذ كلمة إلى الحكومة . . . انتباه ! إلى اليمين . . . الشمال در . . . لا ، لا . أقصد إلى اليمين در ... سر .

---

(١) يقصد نابليون بونابرت .

ودار بعضهم إلى اليمين ، وبعضهم إلى اليسار . وحاول بعض الرجال الأفاضل أن يدوروا إلى كلتا الناحيتين .

— توقفوا ، توقفوا . حاولوا ثانية . أيها الجند والرفاق ! . إنى لا أستطيع أبداً ، لسوء الحظ ، أن أتذكر عند العجلة يمينى من شمالى ، وأنا لم أتمكن قط ، وأنا صبى ؛ من أن أفرق بينهما . وينبغى أن تعذرونى ... أرجوكم ... إن التمرين يؤدى إلى الكمال على حد قول القائل . وبرغم كثرة ما تعلمت منذ تطوعى للخدمة العسكرية ،فإننا نجد دائماً الجديد الذى نتعلمه ... والان: إلى اليمين در !.. سر ! .. قف ! استرح ! .. انصراف . أظن أنى نفذت التعليمات. ولكنى سأراجع كتاب الحكومة قبل يوم الثلاثاء .

وآثر كثيرون من رجال الجماعة التى قامت بالتدريب أن ينطلقوا وينفقوا شلناتهم على دخول الكنيسة . ولكن آن وكابتن بوب دخلاها. وكان حتى داخل ذلك البناء المقدس قد تأثر بالهياج الذى ساد تلك الأوقات . ودين البلاد قد تحول من محبة الله إلى كراهية نابليون بونابرت . فالحراب المعدة لحملتها (جميع أولئك الذى قبلوا فى الجيش ، ولم يسلحوا إلا بهذا السلاح) كانت تحفظ فى كنيسة كل أبرشية ، وكأنما حدث ذلك بقصد تذكير كل متدين بذلك التحول ظلت تلك الحراب قائمة إلى جانب الحائط — وكانت أكداساً مكدسة مصنوعة من جذوع شجر الدردار الجديدة ، ركب فى أحد طرفى كل منها رأس حربة ، وعقدت صدورها بمقرعة لصيانتها من التشقق . وقد ظلت هناك فى ركن من برج الكنيسة عاما بعد عام حتى نقلت ووضعت تحت سلم الرواق، ومن ثم نقلت نهائياً إلى قبة الأجراس حيث أصبحت سوداء صدئة منخورة .وسرقها بالتدريج، ومضى بها موظفو الكنيسة الإداريون والكتابيون ، ومن يقومون بطلائها ، وإصلاح نوافذها، إلى غير هؤلاء من خدم الكنيسة ،وذلك لاستعمالها فى المنازل أيدى بحارف ، أو هراوات لنوادى التأمين المتبادل ضد المرض والعجز ، أو أيدى معاول ، وقد يجدها الإنسان عرضاً إلى الآن بعد انحدارها إلى هذه الحالات .

ولكنها كانت ، وهى فى حالتها الجديدة البراقة ، مصدر رعب لآن التى ظلت عيناها منجذبتين إليها قسراعنها وهى جالسة إلى جانب بوب أثناء الصلاة. وأخذت تلك الحراب تملأ ذهن الفتاة برؤى دموية لاحتمال استعمالها غير بعيد عن المكان

الذى اجتمعا فيه الان . وكانت الخطبة الدينية أيضاً عن موضوع الوطنية . حتى أن الفتاة ، بعد خروجها مع بوب من الكنيسة ، أخذت تضرب فى جزع على فكرة ترجيح طردهم من دورهم .

وأكد لها بوب أنه ليس ثمة سبب جدى للخوف مع وجود ستين ألفا ، من الجنود النظاميين ، ومائة وعشرين ألفا من رجال الحرس الوطنى الاحتياطى وثلاثمائة ألف من المتطوعين .. واستطرد بعد فترة صمت :

— ولكنى أخشى فى بعض الأحيان على جون المسكين أن يقتل فما لاشك فيه أنه سيكون من بين أول الذين سيواجهون الغزاة . ورجال البروجى معرضون للحصد .

وقالت آن :

— سيكون له حظ الآخرين .

— نعم . . . نعم . . . نفس الحظ إنه لكذلك حقا . أنت لم تميلى الى جون فقط منذ تلك المسألة المتعلقة بما تيلدا جونسون ، أليس كذلك ؟

وسألته فى سرعة :

— لماذا ؟

وقال بوب فى حياء :

— حسنا . . . بما أن الوقت الحاضر مزعزع بالنسبة له ، فهلا يستحق الأمر تسوية أيه خلافات بينكما قبل أن تقع الطامة ؟

وقالت آن فى شىء من الحزن :

— ليس هناك شىء بيننا لأسويه .

وكانت لاتزال تعتقد اعتقادا جازما أن جاويش البروجى أقدم على تهريب الآنسة جونسون لاهتمامه الخاص بتلك الفتاة مما جعل اعترافاتهلها (أى لآن) مجرد تسلية . ولكن هذا التصرف ذاته عاد عليها بفائدة عجيبة إذ هو الذى حرر بوب من قيد خطبته .

وواصل رفيقها حديثه قائلا :

— منذ رحيل جون وأنا أزداد إدراكاً لمعنى ماكان يقصده ، ولحقيقة اهتمامه بهرب هذه المرأة .هل عرفت أنه كانت له علاقة ما بهذه المسألة ؟

— نعم .

— إنه حملها على الرحيل ؟

ونظرت الى بوب فى دهشة . فهو لم يكن ساخطا على جون مع أنه يعلم مثل هذا القدر عن ذلك الأمر وقالت الفتاة .

— نعم . ولكن ماذا يعنى ذلك

ولم يشرح لها الأمر وقتئذ . ولكن احتمال موت جون . وهو ماتفيد به الأنباء التى وصلت إليه أخيرا عن أحداث ذلك اليوم العسكرية ، حملته على تطهير سمعة جون . وذهب إلى أبيه وهو يلوم نفسه على ترك آن هذه المدة الطويلة مضالة بفكرة خاطئة عن أخيه . . ذهب إليه على أثر عودته مع آن إلى المنزل ، ورجاه أن يحمل السيدة لفدى على أن تكشف لابنتها السبب الحقيقى فى اعتراض جون على أن تصبح الآنسة جونسون زوجة أخيه .

وهتف لأبيه مختتما قوله :

— هى تظن أنهما حبيبان قديمان تقابلا أخيرا . وأنه يريد أن يتزوجها .

وقال صاحب الطاحون :

— هذا إذن هو تفسير الصدع الذى أصاب العلاقة بين الآنسة نانسى وجاك .

وسأل بوب قلقا :

— ماذا ؟ هل كانت العلاقة بينهما أكثر من علاقة بين صديقين عاديين ؟

— لعل ذلك لم يكن من ناحيتها هى .

وأجاب بوب مدركاً فى ألم أن إنصاف جون قد يعرضه لمنافسة خطرة ، وبرغم ذلك اعتزم أن يكون منصفاً :

— حسنا . لابد أن تقوم بذلك . قص على السيدة لفدى القصة كلها ، واحملها على الإفضاء بها لآن ؟

خطاب وزائر

وعلبة من الصفيح

(٢٤)

لقد نجم عن ذلك الإيضاح فى نفس آن شعور مرير بتبكيت الضمير . وأسفت على ظلمها لذلك الجندى الرؤوف إلى حد أن ذهبت وحدها إلى التل ، ووقفت فى نفس المكان الذى كانت خيمة جون تظلل أرضه . . وحيث قضى جون ذلك العدد الكثير من الليالى . . . وقد خطر لها مبلغ الحزن الذى لا بد عاناه بسببها وقت أن حزم أمتعته ورحل . ثم مسحت من عينيها دموع الشفقة التى صعدت إليهما ، وانحدرت إلى البيت ، وكتبت إليه رسالة محركة للشاعر تضمنت الفقرات التالية التى بلغت حداً كافيا من التهور نظرا للظروف التى كتبت فيها :

« إنى أجد أن الحق كله ، والصواب كله ، فى جانبك أنت ياجون ، وأجد السفاهة كلها ، والطيش كله فى جانبى . وقد اقتنعت بالتزامك الشرف فى كل ماحدث إلى حد أنى لن أثق بنفسى فى شىء مستقبلا ... وإنى كلما اختلفت معك على شىء — إذا كان ذلك ممكنا — فسأقضى ساعة فى إمعان الفكر قبل أن أقرر أنى اختلفت معك . وإذا كنت قد فقدت صداقتك ، فلن ألوم إلا نفسى على ذلك ، بيد أنى آمل مخلصة أن تستطيع الصفح عنى » .

وبعد أن أتمت كتابة هذه الرسالة ذهبت إلى الحديقة حيث كان بوب يقص حشائش الربيع النابتة فى الممرات وقالت له وهى ممسكة فى يدها بالخطاب المختوم .

— ما عنوان جون ؟

وتلعثم بوب ، وانخسفت أسارير وجهه :

— ثكنات إجزونبرى .

وشكرته ودخلت البيت ... ومر بباب غرفة جلوسها الخالية حينما دخل البيت بعد فترة من ذلك اليوم ، ورأى الرسالة على رف المدفئة . وكره رؤيتها . ودخل الغرفة الأخرى إذ سمع أصواتاً منبعثة منها ، ووجد هناك آن وأمها

تتحدثان إلى كريبلسترو الذى كان قد حضر من توه برسالة من السيد ديريمان يرجو فيها الآنسة جارلاند أن تذهب وتقابله على الفور بحسبانها تقدر راحة بال رجل قلق متقدم فى السن .

وقالت آن غير ميالة إلى التعرض للمجازفة التى تتضمنها تلك الزيارة :

ـــ لا أستطيع أن أذهب .

وبعد ساعة جاء كريبلسترو فى نفس المهمة ، ودخل يدلف فى الممر :

ـــ سيدى يرجو فى مسكنة أن تحضرى يا آنسة آن ، وهو يريد أن يراك على الأخص فى أمر يتعلق بالفرنسيين .

وكانت آن قمينة أن تذهب خلال دقيقة لولا خوفها من أن يقابلها أحد عدا المزارع . وأجابت بمثل ما أجابت به من قبل .

ومرت ساعة أخرى ، ووصل إلى الآذان صوت عربة . فقد جاء كريبلسترو للمرة الثالثة راكباً عربة بعجلتين يجرها حصان ، مرتديا أحسن ماالديه من ثياب . وحمل معه بهذه المناسبة سلة تحوى زبيباً ولوزاً وبرتقالا وحلوى من الفطير . وكرر على مسامعها ، وهو يقدم لها هذه الأشياء هدية من المزارع المتقدم السن ، مطلبه السابق إليها ، وهو أن تذهب فى رفقته . وقد أرسلت لهـا العربة وخير فرس لترغبها ترغيباً إضافياً فى تلبية الرجاء .

وقالت أمها :

ـــ أعتقد أن الرجل الهرم يحبك يا آن .

وسألت آن كريبلسترو :

ـــ لماذا ! ألم يكن يستطيع أن يركب إلى هو نفسه ليلقانى .

ـــ إنه يريدك فى بيته ... من فضلك .

ـــ هل السيد فستوس هناك ؟

ـــ لا ، إنه متغيب فى بودماوث .

وقالت الفتاة :

ـــ سأذهب .

وقال بوب :

ـــ أأستطيع أن أحضر وأقابلك ؟

وقالت بدلا من أن تجيب على سؤاله :

ـــ هناك خطابى . . . ماذا سأصنع بشأنه ؟ اذهب به إلى مكتب البريد . وتستطيع بعد ذلك الحضور .

وأجاب موافقا وخرج . كذلك ارتد كريبلسترو إلى الباب حتى تعد آن نفسها للخروج . وقالت أمها :

ـــ أى خطاب هذا ؟

وقالت آن :

ـــ خطاب لجون ليس إلا . وقد سألته فيه أن يغفرلى ظنونى . ولم يكن فى استطاعتى أن أفعل أقل من ذلك .

وسألتها السيدة لفدى فى غلظة :

ـــ هل ترغبين أن تتزوجيه ؟

ـــ أمى !

ـــ حسنا . سيعد هذا الخطاب تشجيعا له . ألا تستطيعين أن ترى ، أيتها الفتاة الطائشة ، أنه سيعد الخطاب كذلك ؟

ورأت آن الحقيقة على الفور وقالت :

ـــ طبعا . أخبرى روبرت ألا داعى لذهابه .

وذهبت إلى غرفتها لتحجز الخطاب . فلم تجده على رف المدفئة . وبسؤالها عنه ظهر أن صاحب الطاحون أرسله مع ديفيد ، إذ رآه ، إلى بودماوث ، وذلك من ساعات خلت . ولم تقل آن شيئاً ، ورحلت مع كريبلسترو إلى « أكسويل هول ».

وقالت السيدة لفدى لصاحب الطاحون بعد أن رحلت آن ، واستأنف بوب عمله فى الحديقة .

ـــ يا وليم ، هل أرسلت ذلك الخطاب عن قصد ؟

— حسنا ، أنا فعلت ذلك . فقد أردت أن أتأكد من إرساله . إن جون يميل إليها ، والآن سيسوى الأمر بينهما . . . لماذا لا يتزوجها ؟ إنى سألحقه بالعمل هنا إذا كانت تقبله بذلك زوجا .

— ولكن لعلها ستتزوج فستوس دريمان .

وقال صاحب الطاحون فى عناد :

— أنا لا أريد لها أن تتزوج أحدا غير جون .

وسألته زوجته بلهجة المنتصر :

— حتى ولو أنها تحب بوب ؟ وظلت تحبه عدة سنين ؟ وهو كذلك يحبها ؟

وكرر لفدى القول :

— تحب بوب وهو يحبها ؟

وقالت وهى تغادر الغرفة وتتركه لتأملاته :

— بالتأكيد

ولدى وصول آن وجدت دريمان الهرم جالسا فى مقعده المعتاد . وقد صار لون وجهه أميل إلى اللون الرمادى ، ولكن حركاته إذ وقف عند دخولها ، وقدم لها مقعدا ، وأغلق الباب وراءها ، كانت أقرب ما يكون إلى عادته .

وقال فى جد :

— شكرا لله على مجيئك يا فتاتى العزيزة . آه ، إنك لا تنتقلين إلى الآن لتقرئى لى الصحف ! لماذا جعلتنى أتكبد كل ذلك فى سبيل إحضارك ؟ حقا ! كبدتنى فرساً وعربة ووقت رجل فى ذهابه ثلاث مرات . والأشياء التى أرسلتها تساوى كثيراً فى سوق بودماوث حيث كل شىء مرتفع الثمن كثيراً ، وكانت ستكلفنى ثمنا أغلى لو أننى لم أشتر العنب والبرتقال منذ شهور عندما كان ثمنها أرخص . وأنا أحدثك عن هذا لأننا صديقان من قديم ، وليس لدى أحد غيرك أحدثه عن همومى . ولكنى لا أحمل لك أى ضغن مادمت قد حضرت ! »

وقالت الفتاة :

— أنا غير راضية كثيرا عن حضورى ، حتى وقد حضرت الآن ! ماذا جعلك تهتم بحضورى هذا الاهتمام البالغ ؟

— حسنا ، فأنت فتاة صادقة طيبة . وقد خطر لى أنك خير أبناء الجيل الجديد الذين يمكن أن أثق فيهم . إنها مستنداتى وحجج تمليكى ، كما هى الحال . وعقود الإيجار كما تعلمين ، وبضع جنيهات فى رزم ... وفوق ذلك وصيتى التى لابد أن أتحدث عنها . والآن ، تعالى من هذه الناحية .

والتفتت فى دهشة :

— أوو ، مثل هذه الأشياء ! إنى لا أفهم شيئا عن هذه الأشياء أبدا .

— ليس هناك شيء ليفهم . المسألة لاتعدو ما يأتى : سيكون الفرنسيون بيننا هنا خلال شهرين . هذا أمر محقق ، فقدعلمت من أوثق المصادر أن الجيش المحتشد فى بولونيا مستعد ، والسفن مجهزة ، والخطط مرسومة ، والقنصل الأول لاينتظر إلا حلول المد ، والله يعلم ما سيحل برجال هذه المنطقة،ولكن الأرجح أن الأعداء سيبقون على النساء . والآن سأريك الأوراق .

وقادها عبر الردهة إلى سلم حجرى ، شبه حلزونى ، يؤدى إلى القبو .

وقالت الفتاة :

— هنا تحت ؟

— نعم . لابد لى أن أتبعك بالنزول هنا . لقد فكرت ثم فكرت فيمن تكون المرأة التى تستطيع أن تكتم السر أكثر من غيرها مدة سته أشهر ، وقلت إنها آن جارلاند . . إنك لن تتزوجى قبل مرور هذه المدة ؟

وغمغمت الفتاة :

— أوو ، لا .

— أنا لا أتوقع أن تظلى مطبقة الفم بعد إقدامك على مثل هذا الأمر ، ولكنه لن يكون ضروريا .

وعند وصولها إلى أسفل الدرج أضاء النور بقداحته ذات الزناد والصوفان ، وفتح بابا يقع وسط أبواب ثلاثة بدت فى الحائط المقابل المطلى بالجير . وتساقطت خيوط نور الشمعة على السرداب وجوانب قبو منخفض مستطيل مملوء بمنقولات من الأدوات الخشبية البالية المجلوبة من مختلف نواحى الدار ، ومن بينها أعمدة « درابزين » ، وألواح زخرفية منقوشة ، ولوحات رسم ، وخشب منحوت ازين جدران الغرف .

ولكن الذى خطف بصرها أكثر من غيره هو بلاطة مقلوبة وسط أرض القبو وإلى جوارها كومة من تراب ، وشريط لقياس الأطوال . وتوجه دريمان إلى ركن القبو وجذب من تحت القش صندوقا مغلقا بكلاب ، وخاطبه بحنان وهو يرفعه : « أنت ثقيل الوزن نوعا ياعزيزى ، هيه ؟ . ولكنك ستوضع كما تعلم فى مكان أمين وإلا امتدت يد ذلك الوغد إليك ، وحملك معه ، وأنزل بى الخراب » ثم أنزل الصندوق فى شىء من الصعوبة إلى قاع الثقب المحفور تحت البلاطة المخلوعة وردمه بالتراب ، ووضع عليه البلاطة التى قضى وقتا طويلا فى تثبيتها على النحو الذى يرضيه . وساعدته الآنسة جارلاند التى اهتمت بالأمر اهتمامها بقصة خيالية .. ساعدته على إزالة بواقى التراب المبعثر . وصعدا ثانية إلى الهواء الطلق بعد أن بعثر الرجل فوق أرض القبو شيئا من القش الموضوع هناك .

وقالت آن .

— أهذا كل ما فى الأمر ياسيدى ؟

— انتظرى دقيقة فقط ياعزيزتى : أتحضرين معى إلى غرفة الاستقبال الكبرى ؟ وتبعته إلى هناك ، واستأنف قوله :

— إذا وقع لى مكروه أثناء المعركة . . . وقد يكون ذلك فى هذا الميدان نفسه . . . فإنك تعرفين ماذا تصنعين عند ئذ . ولكن عودى إلى الجلوس أولا من فضلك حتى أكتب ما يجول بخاطرى . إنك لغالية . . انظرى ، هذا أحسن نوع من الورق ، وقلم جديد جئت به لهذا السبب .

وقالت وهى تجلس :

— إنها مهمة غريبة ، ولا أحسب أنى أميل إليها كثيرا ياسيد دريمان .

وكان قد بدأ فى الكتابة حينئذ ، وأخذ يغمغم وهو يكتب :

« ثلاثة وعشرون ونصف . . من الشمال الغربى ، وستة عشر وثلاثة أرباع .. من الشمال الشرقى ! . .

— ها هو ذا كل ما فى الأمر . والآن أغلف الورقة وأعطها إليك لتحتفظى بها مصونة حتى أطلبها منك أو تسمعى عن مصرعى بيد الأعداء .

وسألت وهى تتناول الورقة :

ـــ ماذا يعنى ما بها ؟

ـــ ك ل ك ها ! ها ! كيف ! إنها المسافة ما بين الصندوق وركنى القبو ، وقد قستها قبل مجيئك . وللوثوق التام من الأمر ياعزيزتى ، فسرى لأمك مضمون تلك الورقة فيما إذا تعقبك الجنود الفرنسيون ، أو فسريه لأى صديق إذا كان كانوا سيعدمونك ويضيع السر ولكنى أتمنى فى ثقة أنهم لن يفعلوا ذلك ، ولو أن وجهك الجميل يكون طعما محزنا للجنود . ولكم تمنيت لو أنك كنت ابنتى ، ومع ذلك فإنه كلما قلت شواغل بال الإنسان فى هذه الأيام كان أحسن حالا . وعلى ذلك يسرنى أنك لست ابنتى . أيذهب بك خادمى فى العربة إلى بيتك ؟

وقالت وقد حزنت حزنا شديدا لما قال :

ـــ لا ، لا . أنا أستطيع أن أتبين طريق . ولا حاجة تدعو إلى إزعاج نفسك بالنزول .

ـــ اعتنى بالورقة إذن ، وستجدين فيما إذا عشت من بعدى أنى لم أنسك ؟

فستوس يظهر

حبـــه . .

(٢٥)

بقى فستوس دريمان فى المنتزه البحرى الملكى طوال ذلك اليوم نظرا لأن حصانه كان مريضا فى « الاسطبل » ولكنه إذ رغب فى الحصول من عمه على مطية جديدة لفصل الصيف المقبل إما عن طريق الملاطفة المشاغبة ، فقد اتخذ طريقه إلى أوكسويل أوائل المساء مشيا على الأقدام . وعدمنا اقترب من القرية ، أو من بيت عمه الذى كان أقرب من القرية ، أدرك امرأة هيفاء ، حادة البصر ، تتجول هناك على مهل . وكانت ترتدى سترة خضراء ، على أحدث طراز ذات أكمام من نوع « المملوك »(١) وتضع على رأسها قبعة إسبانية النوع من قطيفة وريش .

وقال فستوس وقد أضفى على تحيته جوا عسكريا :

ـــ مساء الخير ياسيدتى . أخرجت للنزهة ؟

وقالت السيدة التى نقدته بطرف عينها دون أن يبدو عليها أنها فعلت شيئاً أكثر من احتفاظها بنظرتها الرزينة إلى أمام وقد منحته لقب « كابتن » ملتمسة تهدئة ما بدا لها من سلوكه .

ـــ لقد خرجت للنزهة ياكابتن .

ـــ أأنت من سكان البلدة ؟ أقسم أنك منها ياسيدتى . . . إنى لأقسم بشرفى !

فقالت له :

ـــ نعم أنا من البلدة ياسيدى .

---

(١) اسم أطلق على طراز من الأكمام كانت نساء باريس ترتديها فى عهد الإمبراطورية الأولى (شرح الأصل)

— آه ، لقد جئت زائرة ! أنا أعرف جميع السكان المقيمين بها ، فنحن نقصدها ونغادرها دون انقطاع . أنا فستوس دريمان ، من الفرسان المتطوعين . والواقع أن المنتزه البحرى تحت حراستنا . وسيعتمد علينا الناس كل الاعتماد فى النجاة من المعركة المقبلة . نحن نحمل حياتنا على أكفنا . وأستطيع أن أقول إننا نحمل حياتهم فى جيوبنا . ماذا حملك على القدوم إلى هنا ياسيدتى فى مثل هذا الظرف الحرج ؟ .

— لا أرى الظرف حرجا كما تقول .

— ولكنه حرج مع ذلك . فخبرينى إذن هل لك علاقة بشؤون الأمة العسكرية كما هى حال بعضنا .

وابتسمت السيدة وقالت .

— سيأتى الملك هذا العام على أية حال .

وقال فستوس مصمما :

— أبدا ! آه ، لعلك من بطانة البلاط الملكى . . هل أقدمت إذن لتعدى غرف الملك فيما إذا لم ينزل بونى إلى الشاطىء ؟

وقالت السيدة :

لا . أنا على اتصال بالمسرح ، ولو أنى لست كذلك فى الوقت الحاضر بالذات فقد خاننى الحظ فى السنة ، أو السنتين الأخيرتين . ولكنى عوضت ما فات ثانية وسأنضم للفرقة عند حضورها فى الموسم .

وراقبها فستوس باهتمام :

— حقا ! . أهو هكذا ؟ حسناً ياسيدتى ، ماهو الدور الذى تقومين بتمثيله .

وقالت وهى تنسحب فى وقار .

— أنا غالبا الممثلة الأولى ... البطلة .

— سأحضر وألقى عليك نظرة إذا سارت الأمور على خير حال ، وتأجل موعد غزو الشاطىء . . . سحقا لى إذا لم أحضر . . . هاللو ، هاللو ، من ذا الذى أراه .

وامتد بصره صوب حقل بعيد كانت آن جارلاند تقطعه فى هذه اللحظة مسرعة وهى فى طريقها من أكسويل هول إلى أوفر كومب . وصاح وهو يتقدم متعجلا !

— لا بد من ذهابى . كان يوماً سعيداً برؤيتك أيتها المخلوقة العزيزة ! وقالت السيدة وهى تبتسم وترّاقبه وهو يوسع فى خطاه قدماً :

— أوو ، أيها الوحش الماجن .

وقفز فستوس من فوق السياج ، وعبر بقعة الأرض الخضراء التى اعترضت طريقه ، ودخل الحقل الذى كانت آن لاتزال تجتازه . والتفتت بعد دقيقة أو دقيقتين ، وشعرت بالازعاج نوعا ما إذ رأت خلفها قامة الفارس المتطوع الهرقلية بيد أنها اعتزمت أن تظهر أن أى اختلاف لم يطرأ على هيئتها . ولكن الاحتفاظ بطبيعة مشيتها كان فوق طاقتها ، وأسرعت فى خطاها متشنجة ، ولم يجدها الإسراع مع ذلك ، فقد لحق بها ، وصاح إذ صار على بعد خطوات قليلة منها :

— حسنا ، ياحبيبتى .

وأخذت آن تعدو .

وكانت أنفاس فستوس قد انقطعت الان . ولم يلبث أن وجد أن اللحاق بها غير متوقع . وظلت تواصل جريها دون أن تدور برأسها حتى سمعت خلفها ضوضاء غير عاديه أرغمتها على التلفت . وكانت هيئته تدل على أنه أخذ يقع على الأرض ، فقد مال على جانب ، ثم سقط كتلة من الخشب على جانب سياج نباتى متاخم للطريق ، ورقد هناك بلا حراك .

وجزعت آن بعض الجزع . وبعد أن وقفت تحدق فيه دقيقتين أو ثلاثا اقتربت منه على دفعات ، متقدمة خطوة ونصف خطوة فى كل دفعة ، متعجبة متشككة كشاة وديعة تقترب من متشرد هائم على وجهه يلقى بنفسه على الحشائش بالقرب من قطيع الغنم .

وغمغمت الفتاة :

— لقد أغمى عليه .

وأسرع قلبها فى خفقانه ، وتلفتت حولها ولم يكن هناك أحد على مرمى النظر فاقتربت منه خطوة أخرى كذلك وطفقت ترقبه ثانية ، وبدا أن لون وجهه تحول إلى زرقة داكنة ، وأن تنفسه قد اختنق ... وقالت فى حزن عميق :

— هذا ليس إغماء ، ولكنها سكتة أو نقطة الذبحة الصدرية ينبغى أن أفك رباط عنقه .

ولكنها خشيت أن تفعل ذلك واكتفت بأن اقتربت منه قليلا مرة أخرى .

وقد أصبحت الآنسة جارلاند الآن على بعد ثلاث أقدام منه ، وعندئذ هب الرجل الفاقد الوعى واقفا على قدميه بعد أن عجز عن كتم أنفاسه مدة أطول ، واندفع إليها قائلا :

— ها ! ها ! .. إنها خطة لنيل قبلة !

وشعرت بذراعه تنزلق حول عنقها ، ولكنها إذ التفت حول نفسها بمهارة مدهشة ، تلوت منفلتة من حضنه ، وجرت على طول الحقل . وكانت قوة الدفعة التى تخلصت بها كافية لإلقاء فستوس على الحشائش . وفى خلال الوقت الذى نهض فيه على قدميه ثانية كانت الفتاة قد ابتعدت عنه عدة خطوات . وإذفاه بكلمة لم تكن دعاء طيباً على وجه الدقة ، شرع على الفور فى مطاردتها . وهكذا ركضا حتى دخلت آن مرجا يشطره من منتصفه جدول يبلغ عرضه حوالى ست أقدام . وكان هناك لوح خشبى ضيق ماقى فى الجدول دون قيد عند ملتقى الطريق به ، وما وصلت آن إليه حتى مرقت من فوقه فى الحال . والتفتت لدى وصولها إلى الجانب الآخر لتعلم باحتمالات الموقف التى دلت على أن فستوس يستطيع ، حتى الآن ، اللحاق بها . وانحنت إذ خطر لها خاطر مفاجىء ، وأمسكت طرف اللوح الخشبى ، وحاولت أن تسحبه وتبعده عن الشاطىء المقابل . ولكنه كان شديد الثقل عليها إلى حد أنها لم تستطع إلا أن تزحزحه قليلا ، واستأنفت الركض ثانية وهى ترسل زفرة يأس لفقد ثوان عديدة ثمينة .

ولكن محاولتها كانت كافية لزحزحة الجسر الصغير برغم عجزها عن سحبه وعندما وصل دريمان إلى منتصفه ، وذلك بعد مرور نصف دقيقة ، انقلب اللوح على حافته ، وأمال دريمان ، وألقى به فى الجدول دفعة واحدة . ولم يكن الماء

عميقا كل العمق ، ولكن الفارس المتطوع غاص فيه إلى قمة رأسه نظرا إلى أنه سقط منبطحا على وجهه ، ومضى بعض الوقت قبل أن يتمكن من جر نفسه إلى خارج الجدول . وعندما نهض فوق الشاطىء وهو يقطر ماء ، ونظر حوله كانت آن قد توارت من المرج . فتوهجت عيناه كالجمر ، وتفوه بلعنات مخيفة وهو يهز قبضة يده ، فى هواء الصيف الرقيق ، تجاه آن ، على نحو يفزع أية فتاة وعاد أدراجه خائضا الجدول ، ومشى على طول الشاطىء فى خطوات ثقيلة . وكان الماء ينهمر من ذيل سترته ، ومعصميه ، وأطراف أذنيه ، فى قطرات فضية تتلألأ فى لطف تحت أشعة الشمس . وهكذا أسرع إلى بيت عمه ، منعطفا حول ممر جانبى .

وكانت باعثة متاعبه فى هذه الأثناء ، تقترب فى سرعة من الطاحون ، ولفرط سرورها الذى لا يوصف رأت بوب متمبلا لملاقاتها . وكانت قد سمعت صوت قدومه ولدى شعورها بأنها أصبحت أبعد منالا من مطاردها تحول ركضها إلى مشى سريع . وما وصلت إلى بوب حتى ألقت بنفسها فى ضمة بالغة الإحكام إلى حد أن خطر سقوطها لم يعد محتملا ، مهما كان من الميسور أن يحدث ذلك السقوط غير المتوقع نوعا بسبب مبلغ إرهاقها ، وظلا على هذا الوضع صامتين إلى أن خطر لآن أن هذه هى أول مرة وقفت فيها هذه الموقف طوال حياتها ، فالتهب وجهها عند ئذ كالشمس الغاربة ، ولم تدر كيف ترفع بصرها إليه ، واعتزمت فجأة ، وقد شعرت أخيرا بأمان تام ، ألا تستسلم للدافع الأول الذى كان يدفعها إلى أن تروى له كل ماحدث . وذلك خشية أن يحدث عراك وقتال رهيبان بين بوب والفارس المتطوع ، وتنشأ صعوبات لأسرة لفدى بسببها حيث أن هناك معاملات خاصة بالقمح بينها وبين أسرة دريمان .

وقال بوب فى رقة :

— يبدو عليك الفزع ياعزيزتى آن .

فأجابت آن :

— نعم . لقد رأيت رجلا لم تعجبنى نظرته ، وكان ينزع إلى ملاحقتى . ولكن الأسوأ من ذلك أنى مضطربة بسبب الفرنسين . أوو يابوب ! أنا أخشى أن تقتل

أنت وأمى وجون وأبوك ، وأن يتصيدونا جيعا !

— لقد قلت لك قبل الآن أيتها العزيزة الرقيقة القلب ، إن هـذا مستحيل الحدوث فنحن سندفع بهم إلى البحر بعد موقعة أو موقعتين ، حتى لو نزلوا فى البر ، وهذا لا أعتقد أنهم سيتمكنون منه ، فان لدينا تسعين سفينة حربية ، وبرغم أنه كان من سوء الحظ نوعا أننا أضطرونا إلى إعلان الحرب على إسبانيا فى مثل هذا الوقت الحرج ، فإن لدينا مايكفى لمواجهة البلدين معا .

وطفق بوب يحصى فى دقة عدد السفن ، وأفراد الجيش ، والحرس الوطنى والمتطوعين ، ليطيل وقت إمساكه بها . وما انتهى من حديثه حتى زفر زفرة عميقـــة .

— ما الأمر يابوب ؟

— أنا لم أقدم نفسى للقوة المدافعة عن البحر . وكان ينبغى أن أفعل ذلك من مدة طويلة مضت .

— إنك لست إلا مجرد فرد . ولا شك أنهم يستطيعون العمل بدونك .

وهزبوب رأسه . وأفاقت من وضعها المريح . والتقت عينها بعينه وفيها تعبير حيعن استسلامها له فى النهاية . وأخرج لفدى من جيبه ورقة . وقال وهما يسيران على مهل :

— هاك شيئا يجعلنا شجعانا وطنيين . لقد اشتريتها من بودماوت أليست صورة مثيرة ؟

كانت صورة للناحية الجانبية من وجه نابليون مرسومةعلى الطراز الهيروغليفى كانت القبعة تمثل النصف الأعلى لنسر فرنسى ، والوجه مكون على نحو بارع من هياكل آدمية عقد بعضها ببعض ،وعقص فى اتجاهات مختلفة على نحو يصور سحنة نابليون وهناك شريط أو عمود رسم بشكل معين ليشبه المضيق الإنجليزى . قد التف حول عنقه ، وبدا أنه يخنقه والرمانة القصبية على كتفه كانت بدا تمزق بيت عنكبوت يمثل اتفاقية السلام مع انجلترا . وكانت أذنه عبارة عن أم تجثم على ابنها المحتضر وقالت آن :

— إنها صورة رهيبة . أنا لاأحب أن أراها .

وأفاقت من سورة انفعالها ، وسارت إلى جانبه بوجه مهموم مستسلم . ولم يشأ بوب أن يتمتع بميزات العاشق المقبول ، فيجذب يدها ويتأبطها . فهو يخشى نظرا لعلمه بأنها تنتمى بالطبع إلى طبقة أرقى من طبقته تهذيبا ،أن يكون ما أبدته من حنان محض اندفاع عاطفى قد تدفعها الأوقات الأكثر هدوءا إلى الندم عليه لحياة « بول وفيرجينى » (١) النقية لم تكن قد ابتدأت له تماما بعد ، وهو لاينبغى أن يتعجلها قسرا .. وعندما اجتازا الجسر الى الناحية الأمامية من الطاحون رأيا صاحبها واقفا ببابها وقد دل وجهه على اشتغال البال . . وقال لهما :

ـــ مر مندوب من الحكومة بنا ، منذذهابكما ، بجميع المنازل ،مسجلا عدد النساء والأطفال وأعمارهم ، وعدد الخيل والعربات التى يمكن حشدها فى حالة الاضطرار إلى التقهقر داخل البلاد بعيدا عن طريق الجيش الغازى .

واجتمع أفراد الأسرة معا ، شاعرين جميعا بالأزمة على نحو أكثر جدا مما رغبوا فى التعبير عنه . وخطر ببال السيدة لفدى أنه كم يكون الطموح الاجتماعى مضحكا فى وقت حرج كهذا ، وقطعت على نفسها عهدا أن تترك لآن حرية الاتجاه بحبها حيثما تشاء ونسيت أن هناك أيضا بعض الخصائص الغريبة فى لهجة وطبع كل من بوب وأبيه ، تلك الخصائص التى آذات شعورها الأسمى تهذيبا ، لحظة من اللحظات وحمدت الفتاة لهما حبهما وحمايتها إبان تلك الغمة التى أخذت تقع .

وتذكرت وهى تصعد إلى الدور العلوى ، تلك الورقة التى أعطاها لها المزارع دريمان ، وبحثت عنها طى صدرها فلم تجدها هناك . وقالت لنفسها . « لابد أنى تركتها على المنضدة » . ولم يهمها الأمر ، فقد تذكرت كل كلمة فيها وتناولت قلما فكتبت صورة منها ، وحفظتها فى مكان أمين .

ولكن كانت آن مخطئة فيما خطر لها ، فهى قد وضعت الورقة ، مع ذلك ، حيث افترضت وجودها ، وكان ينبغى أن توجد هناك ، ولكنها وقعت على الحشائش أثناء هرب آن من فستوس، عندما ادعى إصابته بالسكتة أو النقطة وبعد مرور خمس دقائق على هذا الحادث ، إذا كانت الطريدة ومطاردها قد

---

(١) عاشقان فى قصة كتبها برناردان دى سان بيير (١٧٣٧ — ١٨١٤) طبعت عام ١٧٨٧ وتعكس صورة الحب المثالى . (شرح الأصل)

تجاوزا مكان وقوعه بثلاثة حقول ، أخذت المرأة ، الزاهية الملبس ، التى باغتها فستوس تطل فى حذر ، من خلال السور على ركن الحقل الذى كان مسرحا للتدافع بالمناكب وتسلقت السور إذ رأت الورقة ، واستحوذت عليها وفضت غلافها دون أن تمزقها ، وقرأت المذكرة المدونة بها . ولما لم تستطع تلك الهائمة على وجهها أن تفهم معنـــاها وضعتها فى جيبها ، وإذ أبعدت هذه المسألة عن ذهنها مضت فى ذلك المنعطف المؤدى إلى الناحية الخلفية من الطاحون ووقفت هناك خلف السياج ، وأنعمت النظر فى السياج القديم بعض الوقت ، ثم دارت مستغرقة فى التأمل ، وعادت أدراجها إلى المنتزه الملكى البحرى .

---

(٢٦)

كانت الليلة التالية ليلة تاريخية ومشهودة . . لقد استيقظت السيدة لفدى على دوى مدفع أطلق من بعيد ، وأخبرت صاحب الطاحون بذلك ، وظلا مدة يتصنتان . ولم يتكرر الدوى ، ولكن حالة شعورهما كانت على نحو أدى إلى ذهاب السيد لفدى لغرفة بوب وسؤاله هل سمع ذلك الصوت . وكان بوب مستيقظاً تماماً ، ومطلا من النافذة وقد سمع الصوت المشؤوم ، ورغب فى استجلاء الأمر . وخيل إلى الأب وابنه ، وهما يرتديان ملابسهما ، أن هناك وهجاً يتصاعد إلى السماء فى اتجاه تل « الإشارة » وأكد صاحب الطاحون لآن وأمها ، رغبة منه فى عدم إزعاجهما ، أنه سيخرج هو وابنه لمجرد السؤال عن علة طلقة المدفع . وعلى أثر ذلك غاص كلاهما فى الظلمة . وبعد أن تقدما بضع خطوات انكشفت السماء أكثر من ذى قبل ، وكانت بالفعل مضاءة ، كما ظنا ، بنور مغبر . ولكنهما لم يستطيعا أن يقطعا أهو متصاعد من منارة التحذير ، أم من مكان أبعد . وأسرعا فى المسير صوب الأرض الصاعدة .

وكان هياجهما مجرد جزء من هياج الرجال كافة فى هذا الوقت العصيب . وبلغ توقع الشر فى كل مكان درجة حرارة الحمى . ففى غضون السنة أو السنتين الأخيرتين لم يفصل بين الدور الإنجليزية الهادئة وجيش الأعداء البالغ مائة وخمسين ألفاً من الرجال إلا مسافة خمسة وعشرين ميلا من الماء الضحل . وقد أخذنا الأمر مأخذ الاستخفاف نوعا ، منصرفين إلى الأكل والشرب كما كانوا يفعلون أيام نوح ، وإلى ترديد أغانى الهجو دون انقطاع ، والاغماز فى نابليون وسفنه الحربية ، وتصوير وجهه بالطباشير على مركبات السفر العامة ، ونشرها مطبوعة . وفيما بين نوبات المرح هذه كان الناس مع ذلك يتذكرون أحيانا أن انجلترا كانت الدولة الأوروبية الوحيدة التى لم تستسلم للرجل الجبار الصغير الذى كان أقل من أن يكون بشريا فى شعوره ، وأكثر من أن يكون بشريا فى إرادته ، وأن روح مقاومتنا كانت أكبر من قوتنا ، وأن المضيق الإنجليزى

كان هادئا فى أغلب الأزمنة . وبدت السفن المصنوعة من خشب كان أحضر ناميا فى غابته الأصلية منذ ثلاثة أيام سابقة على قطعه وتقويسه من طرفيه ليصلح جوانب للسفن ... بدت مضحكة نوعا ، بيد أنها قد تكفى مع ذلك لرحلة واحدة بين الشاطئين الباديين كل للآخر .

وراقب الإنجليز بونابرت فى تلك الاستعدادات كما راقب بونابرت الإنجليز . وغابت التفصيلات على بعد من شاطىء بولون . ولكننا تأثرنا خلال الأيام الصافية بالمنظر الجديد للجيش الضخم وهو يتحرك ويتلألأ تحت أشعة الشمس كسرب من سمك المقريل . والطريقة المتبعة بانتظام لتمضية الوقت ، عصر كل يوم ، فى البلاد الساحلية كانت التمشى إلى مراكز الإشارت ، والثرثرة مع ضابط النوبة عن آخر شىء معاد للأعداء ظهر فى البحر . وكانت تظهر فى الصحف ، زهاء مرة فى الأسبوع ، إما فقرة عن سيد إنجليزى مغامر أبحر فى سفينة نزهة حتى أصبح على مقربة كافية من بولون تمكنه من رؤية نابليون واقفا على مرتفع بين قواده . . وإما بضعة أسطر عن رجل أجنبي اللهجة استأجر مركبا من ثغر جنوبى بعد أن جمع قدرا كبيرا من المعلومات عن مواردنا وتوارى فى اتجاه فرنسا قبل أن يتمكن أحد من التكهن بحقيقة مقصده .

كان بونابرت ، فى تدبيره لمغامرته الكبرى ، يستنجد بالمعونة الإلهية إلى حد بعيد . وفى نفس الساعة التى ركب فيها جنوده السفن المسطحة القاع ، واستعدوا للإقلاع بها ، حدث أن تراكم ضباب كثيف نشر ظلة واسعة النطاق فوق طول المضيق وعرضه ، وأبقى الإنجليز عاجزين عن رؤية الأحداث التى تقع على الشاطى الآخر . وكان مقدرا للضباب أن يستمر مدة أربع وعشرين ساعة قد ينقشع بعدها. وساد السكون الثقيل الذى يلازم الضباب. وأدى ذلك من ناحيتين إلى الغاية وهى توفير انتقال سهل لمراكب الأعداء مع الحكم على سفننا بأن تظل ثاوية بلا حراك . . . وحدث « ثالثا » أن علا سد الربيع القمين بأن يؤلف بين مناوراته ومناورات الضباب والسكون .

ونحن نذكر من بين آلاف الرجال الإنجليز الثانويين الذين تأثرت حياتهم بهذه الخطط الرهيبة ، رجلين عرفناهما من قديم ، أحدهما هو الأنباشى تاليدج

الذى يتباهى بذراعه المحطمة . والآخر هو سيمون بيردن الجنـدى التائه الوعى الهرم المسكين الذى حارب فى « مندين » (١) . فبدلا من أن يقبع كلاهما مستريحين بمستقر « أولد شيب » (٢) فى القرية المتاخمة لأوفركب ، كانا مضطرين إلى القيام بالحراسة فوق التل . وقد وفرا لنفسيهما هناك سبل الراحة بقدر ما يستطاع فى مثل تلك الظروف ، فسكنا فى كوخ حيطانه من مدر وعشب متسلق ، وبه موقد للطبخ ذو مدخنة مبنية من طوب . ومن هنا كانا يرقبان القمر والنجوم فى مدارهما الليلى ، وألفا تنفس الطوابين(٣) ورقص الأرانب فوق الروابى ، وضباح الثعالب فى غابات الجزيرة الأبعد موقعا. ولكنهما لم يريا علامة على وجود الأعداء لدى صدور الإشارة بذلك — وكانت إحداهما مكونة من حطب شائك لإشعال لهبه فى سرعة ، والأخرى من عشب لإشعال ضوئه البطىء الطويل الأمد . وكانا يطوفان ، ليلة بعد ليـلة ، بالـكومتين اللتين كان من واجبهما أن يشعلاها وكانا يذكران الأرض السابقة ويتحدثان عنها. كذلك كانا فى تلك الأثناء يشربان الخمر فى وطنية من راقود خشبى يعاد ماؤه كل يوم .

ولم يلبث بوب وأبوه أن فطنا إلى أن النور كان يتصاعد من منارة التحذير هذه . وعندما وصلا إلى القمة كانت النار المشتعلة كتلة واحدة من النار المحلقة التى تساقط شررها على الـكلأ الأخضر كأنه طل متقد . وكان شكلا الرجلين الهرمين يبدوان للعيان وهما يمران ويكرران مرورهما وسط ذلك الضوء الساطع. وظل لفدى وابنه اللذان صعدا إلى الجانب الداخن يمعنان النظر لحظة فى ذلك المشهد ، ثم برزا وسط النور ، وقال الأنباشى تاليدج وهو يحمل بيده السليمة حربة موضوعة على كتفه :

— من الذى يسير هناك ؟ . . أوو ، إنه الجار لفدى !

وقال صاحب الطاحون فى عجلة :

— هل جاء تك إشارة إشعال النار من الشرق ؟

---

(١) فى وستفاليا حيث هزم البريطانيون والهنوفريون الفرنسيين فى أغسطس عام ١٧٩٩ (شرح الأصل)

(٢) معنى الـكلمة (السفينة القديمة)

(٣) جمع طوبين ، ويسمى تلبا أيضاً ، حيوان على شكل فأر كبير .

ــ لا . بل من ساحل أبوتسى .

ــ ولكن ليس عليك أن تذعن لإشارة ساحلية !

ــ سحقا . ألم تكن تعليمات الضابط الآمر أن نشعل النار عندما نرى منارة « رينباو » مشتعلة من الناحية الشمالية الشرقية ، أو منارة « هاجردون » مشتعلة من الناحية الشمالية الغربية ، أو نرى العدو موجوداً بالفعل على الشاطىء ؟

ــ ولكن هل العدو هنا ؟

ــ لا شك فى ذلك . ولم ينطفىء نور الشاطىء إلا الآن فقط . وقد سمع سيمون طلقات المدافع أوضح حتى مما سمعتها أنا ؟

وقال بوب :

ــ صه ، صه ! إنى أسمعها الان .

وطفقوا ينصتون وشفاههم منفرجة ، والهواء يهب من خلال أنياب سيمون بوردن القليلة كما يهب من خلال أنقاض ستونهينج . وترامى من المنحدرات البعيدة لجب عجلات ووقع حوافر خيل على طريق بوابة المكوس .

وقال صاحب الطاحون لفدى بلهجة خطيرة :

ــ حسنا ، لا بد أن يكون هنـاك أمر من وراء هذا . بوب ! سنذهب إلى البيت ، ونوفر الأمان للنساء . ثم أرتدى أنا ملابس الجندية وأنصرف . ويعلم الله متى سيجتمع شملنا ثانية !

وهبطا من التل مسرعين . وانتظرا وأنصتا ثانية لدى وصولهما إلى الطريق . وبدأ المسافرون يقبلون فى عربات من جميع الأنواع . وكان يصعب لفت نظرهم وسط هذا النور الضئيل . ولكن أمكنت رؤية بوب فى النهاية بوقوفه على سطح حائط يحجب الطريق ، وقد نادى قصابا يستقل عربته « الكارو » ويمر بها مسرعا بينما تجلس امرأته من ناحية العربة الخلفية دون أن تضع على رأسها قبعة .

ــ ما الأمر ؟

وقال الرجل دون أن يكبح الحصان .

ــ نزل الفرنسيون فى البر !

وصاح بوب :

— أين ؟

وأجاب الصوت وقد أصبح الآن خافتا لا بتعاده :

— فى « ويست باى »(١) . . . وبودماوث جميعها فى هرج ومرج !

وأسرع بوب وأبوه فى المسير حتى وصلا إلى بيتهما . ووجدا آن وأمها على الحال التى كان عليها أغلب الناس. وجداهما قد ارتدتا ملابسهما ووقفتا بالباب ، ولبستا القبعة والشال ، وأخذتا تنصتان إلى حركة المرور فى الطريق العام المجاور. وكان قد سبق للسيدة لفدى أن احتفظت بما كانت تملكه هى وزوجها من مال، وأشياء قليلة نفيسة ، فى جيب كبير التف حول خصرها ، فزادها حجا ووزناً إلى حد وفير .

وقال صاحب الطاحون :

— الأمر صحيح تماما ، لقد جاءوا !.. عليك أن تذهبى أنت ، وآن ، والخادمة ، إلى بيت ابن العم جيم فى « كينجزبير »(٢) ، وينبغى أن تصنعى هناك مثل مايصنع الآخرون . ولا بد لى من أن أنضم إلى فرقتى .

وقال بوب :

— وأنا ؟

— أولى بك أنت أن تعدو إلى الكنيسة وتأخذ لك حربة قبل أن تنفذ الحراب جميعها .

وشد الحصان إلى عربة الركوب ذات العجلتين ، وحشرت السيدة لفدى وآن والخادمة فى العربة دون إبطاء ، وأمسكت هـذه الأخيرة باللجام . وكانت واجبات ديفيد بحسبانه محاربا تحظر عليه الآن أن يفكر أى تفكير فى أعمال الخدمة المنزلية . ثم إن الكوب الفضى الكبير ، وإبريق الشاى ، والشمعدان ذا الذراعين الشبيهتين بالأعمدة الإيونية(٣) . . هذه الآنية وغيرها من الأدوات التى لا يمكن وضعها فى الجيوب لكبر حجمها ، قد ألقى بها جمعا فى سلة وضعت

---

(١) الترجمة الحرفية للاسم « الخليج الغربى »

(٢) أى « بير ريجز » . (شرح الأصل)

(٣) نسبة إلى الإيونيين وهم أسلاف اليونان .

خلف العربة . ثم حلت ساعة الوداع التى كانت محزنة بقدر ما كانت عجلة . لقد قبل بوب آن ، ولم يكن ثمة تكلف فى قبولها علامة محبته هذه وهى تقول له من خلال دموعها : « ليباركك الله ! » ومضت العربة بهن أخيراً وسط ضوء الفجر الباهت دون أن تعرف إحداهن الطريق الذى سيسلكنه . ولـكنهن اعتمدن فى الاهتداء إليه على مجرد الحظ .

وما غبن عن النظر حتى انصرف بوب ليحصل على حربة . وبدأ أبوه يحشو بندقيته من جديد ، ثم شرع فى ارتداء سترته العسكرية ، وتقصير (١) سرواله فى سرعة مستخفة إلى حد أن شوه جرموقه(٢) برشاش ذلك المزيج الزخرفى . وإذ وجد ، بعد تأهبه للرحيل ، أنه لم يتردد صوت أى نفير بعد ، ذهب مع ديفيد إلى حظيرة العربة « الـكارو » . وجر العربة إلى الخارج ، ووضع فيها أكثر الأشياء فائدة ، وأسهلها نقلا ، استعدادا للحالة التى قد تتاح فيها فرصة نقلها بعيدا . وفى أثناء القيام بذلك ، ودفع العربة إلى مكانها ثانية ، وإغلاق الباب عليها ، عاد بوب حاملا سلاحه . وقد أذله . إلى حد ، أن يقسم له التسلح بهذا النوع الرخيص من أسلحة الدفاع . وصافح صاحب الطاحون ابنه مصافحة الوداع ، واتفق معه على أن يقابله فى كينجزبير لدى سنوح أول فرصة فيما إذا كانت أنباء الغزو صحيحة ، أما إذا كانت لحسن الحظ كاذبة فيكون اللقاء هنا فى بيتهما .

وصاح وهو ينظر إلى زناد بندقيته :

ــ يا للمضايقة !

وقال بوب :

ــ ماذا ؟

ــ ليس لدى ذخيرة . . حتى ما يكفى لدورة مباركة واحدة فى القتـــال !

وسأله ابنه :

ــ وما فائدة ذهابك إذن ؟

---

(١) تبييضه بالأنابيب الفخارية .

(٢) الجيتر ، هو غطاء الحذاء والساق .

وتريث صاحب الطاحون قليلا ، وقال :

— أوو . سأذهب ، فلعل أحدا يقرضنى قليـــلا منها إذا خضت مأزقا حامى الوطيس .

وقال بوب يؤنبه :

— يقرضك قليلا منها ! . . إنك كنت ساذجا جدا على الدوام يا أبى !

وقال صاحب الطاحون :

— حسنا . . أنا أستطيع أن أختلس بعضا منها على أية حال .

وكان قد نفخ فى النفير قبل ذاك . وتوارى لفدى الأب منطلقـا إلى مكان الاجتماع ، وصندوق «خرطوشه» الخالى معلق خلف ظهره . وأخذ بوب غدارتين محشوتين كان قد جاء بهما من السفينة ، وإذ دجج نفسه بهماوبالحربة أغلق الباب ، وخرج ثانيا ، واتجه إلى طريق « بوابة المكوس » .

وفى هذه الأثناء كان الفرسان المتطوعون فى المنطقة يرتحلون أيضا ، ومن بينهم فستوس دريمان الذى بات ليلته عند عمه ، وأيقظه كريبلسترو من نومه . وحوالى الوقت الذى كان بوب وأبوه يهبطان فيه من المنارة وقف الفارس المتطوع العملاق فى فناء « الإسطبل » يثبت سيوره بينما كان كريبلسترو يسرج له حصانه ، وأخذ فستوس يصلصل بسلاحه رائحا غاديا وهو ينظر مغتما الى المنارة ، ويسمع صوت العربات المرتدة . ونادى كريبلسترو الذى جاء له من « الإسطبل » ، وهو يقود الحصان ، وحدث ذلك فى نفس الوقت الذى كان العم بينجى يطل فيـه ، غـير ملحوظ ، من شبكة نافذة فوق رأسيهما . وكان ضوء نار المنارة البعيد يلمس أسارير وجهه ويحيلها إلى لون ميناء ساعة نحاسية قديمة .

وقال فستوس الذى كان محياه المكفهر يعانى ابيضاضا متفاقما يثير العجب لدى النظر إليه :

— أرى يا كريبلسترو أن تذهب إلى بودماوث ، قبل أن أشرع فى الرحيل ، وتتحرى تحريا جريئا أنزل العـدو الجبـــان إلى الشاطى ، أم هو يبدو فقط فى المضيق ؟

وقال الآخر :

— لو أن ألم رجلى لم يعاودنى لذهبت على الفور . بل لـكنت انضممت الى فرقتى قبل ذاك . ولـكنهم قالوا فى آخر تدريب لنا إنى كبير السن جدا . وعلى ذلك سأنتظر الأنباء فى مخزن الدريس على أثر انتهائى من إعداد العدة لرحيلك أيها السيد المسكين !

— هل حدث قط أن أطلقت مثل إنذارات الخطر هذه يا كريبلسترودون أن يكون لها أساس ؟ إن بونابرت حقير . . شقى حقير .وقد يكون هذا الإنذار كاذباً قصد به تخييب أمل رجل مثلى ؟

— أوو ، لا ياسيدى ، أوو ، لا !

— ولـكن هناك إنذارات كاذبة فى بعض الأحيان ؟

— نعم ياسيدى . كانت هناك فى العام الماضى غارة وهميـــة قامت بها السفن الحربية .

— أليس هناك حادث آخر وهمى . . . شىء يشبه ذلك مثلا ؟

وهز كريبلسترو رأسه :

— إنى ألاحظ ياسيد فستوس تواضعك فى الاستهانة بالأمور . ولـكن هذا لم يحدث قط ، ويمكنك أن تتأكد من أنه جاء فعلا ، وشكرا لله على أن واجبى بصفتى من أهل هذا البلد لا يتطلب ذهابى إلى جبهة القتال ، ولـكن ذلك مقصور على على الرجال الشجعان من طراز سيدى . آه لو أن بونى يستطيع أن يفيد شيئا من ضابط مصمم ماهر مثلك إلا الضربات ورصاص البنادق !

— نعم ، نعم ياكريبلسترو . فأنا إذا ركبت الى بومادوث . وقابلتهم هناك فقدت كل ما أفدت من تدريب . فليست هناك مهارة تحتاج إليها مثل التفانى فى القتال .

— صحيح . هذا بيت القصيد ياسيدى ، إنك ستظهر عليهم جميعا ، وستطلق عليك النيران من أول القتال بحسبانك رجلا شجاعا شديد الخطورة .

— ولـكنى إذا مكثت هنا ، ودفعت بضعاف القلوب الى القتال ، أو دخلت سلم المنارة من ذلك الممر ، وأطللت على الغزاة من ثقب المراقبة ، فإنى

لا أكون قد ضعت ضياعا تاما . أليس كذلك ؟

— لن يكون ذلك يا سيد دريمان . ولكن النار المتقدة فى عروقك . . . كما كنت على وشك أن تقول بعد هذا .. ستحول دون إقدامك على ذلك . كن باسلا ، طيبا جدا ، فأنت لا ترغب فى اختزان بسالتك داخل بيتك . إن الحجة واضحة .

وغمغم الفارس المتطوع :

— لو أن أصلى كان أكثر خمولا ، وكنت مثلا من رجال الحرس الوطنى فحسب ، أو من حملة الرماح المتضعين ، لما كان يرجى مثل هذا الرجاء الكبير منى . . من طبيعتى المتوقدة . أهناك يا كريبلسترو جرعة من « البراندى » (١) يمكن العثور عليها فى البيت ؟ إذ أشعر بأنى لست فى حالة جيدة .

وقال الرجل الهرم من فوق ، ولم يكن أحد منهما قد لاحظ وجوده بعد :

— يا ابن أخى العزيز ، ليس عندى لسوء الحظ ، دن خمر مفتوح بعد ! ولكن هناك برميلا لطيفاً من خمر التفاح البرى لم ينضج ، وشيئاً من الشاى البارد متبقياً من ليلة أمس .

وقال فستوس شاخصاً إلى أعلى :

— ماذا ، أهو يسترق السمع ؟ أنا ضامن كم هو فرح الآن برؤيتى مضطراً إلى الرحيل ... يستدعوننى من فراشى للقتال دون أن أفطر ، بينما هو آمن تماما ، وواثق من نجاته لأنه رجل مسن ! .. يا كريبلسترو ! يطيب لى أن أكون فى سلاح الفرسان المتطوعين ، ولكنى وددت لو لم أكن فى صـــفوف جنده ... وددت لو أنى كنت طبيباً جراحاً فقط لأبقى فى المؤخرة حيث تنقل إلى الأجسام المصابة . . . أعنى أنه كان يجمل بى فى وقت كهذا أن أكون أشد ميلا بقلبى إلى شفاء الجرحى ، ووصل أعضائهم المهشمة .. أووج ! ... أشد ميلا إلى هذا من إحداث الجروح ... أنا يا كريبلسترو أكثر إنسانية من أن أكون ضابطاً فى الصف !

وقال محادثه وهو يخفض من روحه المعنوية إلى ما يشبه مستواه :

— نعم ، نعم . ومع ذلك هكذا القدر ، فإنك بدلا من أن تصل أعضاء

---

(١) نوع من الخمر .

الزجال المهشمة ، سيضطر إلى توصل لك أعضاؤك أنت . . . أيها الجنـــدى المسكين ! وهذا كله يسبب روحك العسكرية .

وغمغم فستوس :

— نعم .

وتوقف قليلا ، ثم استأنف قوله وهو يضع يده فوق أزرار صداره الوسطى:

— أنت لا تستطيع أن ترى يا كربلسترو كم أشعر بأنى غريب هنا ! فلكم أتمنى لو كنت طبيباً جراحاً ليس إلا !

وامتطى جواده فى بطء وكان العم بنجى فى هذه الأثناء يغنى لنفسه وهو يرقبه ، ما يأتى : « ثلاثة وعشرون ونصف من الجانب الشمالى الغربى ، وستة عشر وثلاثة أرباع من الجانب الشمالى الشرقى » .

وقال فستوس بوحشية :

— ما الذى تغنيه هذه المومياء العتيقة ؟

وأجاب المزارع فى وداعة ، وكان قد سمع الملاحظة :

— إنه مجرد نشيد لحمايتنا من أعدائنا يا ابن أخى العزيز ... ثلاثة وعشرون من الجانت الشمالى الغربى ...

وأباح فستوس لحصانه أن يخطو بضع خطوات ، ثم التفت ثانية وكأنما أصابت ذهنه فكرة مبتكرة سعيدة ، وبدأ يقول وهو يضحك :

— أنا مع ذلك مضطر ، يا كريبلسترو ، أن أعترف بألا بد لى من رؤيتها ! إنها ليست الطبيعة التى تحملنى على الارتداد .، ولكنه الحب . لا بد لى أن أذهب وأبحث عنها .

— أهى امرأة يا سيدى ؟

— أنا لم أرد أن أعترف بالأمر . ولكنها امرأة . ومن العجب أن أستمال كلية إلى عكس رغبتى الطبيعية فى الهجوم عليهم !

وإذ رأى كريبلسترو من أية ناحية تهب الريح ، وجد من المناسب أن ينفخ فى اتجاهها :

— آه يا سيدى ، لقد أدركت الآن أخيراً ! فبرغم أن قليلا من الناس الذين يعيشون اليوم جديرون أن يقودوك ، وبرغم أنك تستطيع الهجوم ، وتنظيم

الجيوش لتحقق النصر — كما يمكنني أن أقول — فماذا كان من الأمر بعد ذاك ؟ كان أن ابتليت بعيني امرأة فتملكك الخوف ! ومن ذا الذى سيظل على حاله يا سيدى دريمان عندما تتعلق امرأة بعنقه وكأنها حجر طاحون ؟

— إنها شيء من هذا القبيل .

— إنى أدرك المسألة . أأنت شجاع ؟ ... إنى أعرف بالطبع أن الكلمات ليست إلا مسألة شكل . . . إنى أسألك ، أأنت شجاع ؟ نعم ، بالطبع . . . أقول لك يا سيدى ادخر شجاعتك لحرب أسمى مرتبة ... ادخرها للدفاع عن سيدتك الجديرة بالعبادة . فكر فيما أنت مدين لها به فى مثل هذه الأوقات الرهيبة ! والآن ، أسألك مرة أخرى يا سيدى دريمان أن تطرح تلك الرغبة الأولى المتعجرفة فى الاندفاع إلى بودماوث . وأن تذهب إلى حيث تقيم حبيبتك وحيدة غير محمية .

— سأفعل ذلك يا كربلسترو ، بعد أن أوضحت لى الأمر على هذا النحو .

— أشكرك ، أشكرك من صميم القلب يا سيدى دريمان ، اذهب الآن واختبيء معها .

— ولكن ، هل أستطيع ذلك ؟ كف الآن عن الملق . أيستطيع الرجل أن يختبيء دون أن تشوبه شائبة . إنى لن أختبيء بالطبع اختباء ذا مغزى وضيع . لا ، لست أنا الذى يفعل هذا !

— إذا كنت تحب ، فمن الواضح أنك تستطيع فعل هذا بما دام الأمر لا يتعلق بحياتك أنت ، ولكن بحياة شخص آخر تهتم به ، فأنت لا تنقذ حياتك إلا لأنه لا حيلة فى ذلك .

— هذا حقيق بمعنى من المعانى يا كربلسترو ، ولكن هل يفسر الناس اختبائى على أساس هذا المعنى ؟ هل سيرونه اختباء باسلا ؟

— أنا أسلم لك يا سيدى بأن الاختباء يبدو غريباً إذا أنت لم تكن واقعاً فى حبائل الحب . ولكن إذا كان بقصد إنقاذ حبيبتك من الدموع والتأوهات والنوبات والإغماءات ، وربما من موت فتاة فى ريعان الشباب ، فإن مبدأك يكون سليماً ... إنك تتخلف فى شرف لأنك أشجع من أن تتقدم . وقد تقول يا سيدى إن ذلك غريب ، ولكنه واضح وضوحاً كافياً لمن كان ذهنهم أقل اتقاداً .

وحاول فستوس ، لبرهة من الزمن ، أن يكشف بابتسامة طبيعية عن أسنانه ، ولـكن الابتسامة ماتت على ثغره :

— أأنت تتملقنى يا كريبلسترو أم تعنى ما تقول ؟ نعم ، إن قولك يشتمل على صدق ، فأنا فى ذهابى إليها أشجع منى فى مسيرى إلى الشاطىء . ولـكننا لا نستطيع ، نحن الجند ، أن نحافظ فى عناية شديدة على حسن سمعتنا ، فينبغى ألا يرانى أحد ، إنى سأمضى .

وفتح كريبلسترو السياج الذى يسد معبر باب الإسطبل بينما كان العم بنجى يغنى فى نوع من الطرب العظيم أغنية « ثلاثة وعشرون من الجانب الشمالى الغربى » ، شاعراً — كما لاحظ فستوس — بأن ماله أصبح فى حرز مكين ، وبأن الفرنسيين لن يزعجوا رجلا متقدم السن ، متدثرا بتلك السترة البالية المتعفنة التى يرتديها ، والتى استعارها لهذا الغرض من فزاعة منصوبة فى أحد حقوله .

وسار فستوس على صهوة حصانه ممتلىء الخاطر بنية البحث عن آن ، ومرافقتها إلى كينز بير ، حيث كان على علم بأن هناك أقارب لأسرة لفدى ، متعللا بأنه يحميها فى ارتدادها إلى ملجأ . وقابل فى الطريق « جرانى سيمور » التى كانت قد وضعت كل ما تمتلك فى سـلة ، وسارت مرتدة إلى الجبال لتبقى هناك حتى تزول الغمة .

وسألها فستوس :

— حسنا يا جدتاه ، هل رأيت الفرنسيين ؟

وقالت وهى تنظر إليه من خلال عويناتها النحاسية :

— لا . فلو أنى رأيتهم لما وجدتك أنت !

وقال الفارس المتطوع :

— أف !

ومضى بجواده . وما وصل إلى الطريق القديم الذى كان ينوى مجرد عبوره ، ثم الابتعاد عنه ، حتى اكفهر وجهه . فقد كان هناك جنود نظاميون ، ظهر أنهم من فرقة الدراغون ، يقعقعون بأسلحتهم على طول الطريق . وأسرع فستوس إلى ممر مقابل ليصل إلى الحقل قبل أن يبصروه . ولـكنه لم يدخل الممر حتى وجد —

كما أراد له سوء حظه — ثلة من فرسان فرقة المتطوعين التى ينتمى إليها ، تبلغ ستة فرسان أو سبعة ، تسلك هائمة على وجهها نفس الحقل ، وتتجه إلى الموضع الذى كان فيه . ومر جنود الدراغون دون أن يبصروه . ولكنه دار فخرج إلى الطريق ثانية إذ كان من المستحيل عليه أن يرتد إلى قرب أفركب نظراً لوجود الفرسان المتطوعين . وعلى ذلك مضى قدماً ، وسمعهم يقبلون فى أعقابه ، ولم يكن هناك ممر آخر. ولم يلبث الطريق العام أن أصبح مستوياً كوتر القوس . واقترب فستوس شيئاً فشيئاً من الشاطىء المشؤوم إذ لم يتمكن من النكوص إلى وراء دون أن يقابلهم ، ووقع فى الورطة كما يقع ثعبان البحر فى « ماسورة الماء » . ولكنه لم يتخل عن الأمل . فهناك مفترق طرق أمامه رأساً ، وقد يواتيه حظ المروق من أحد تلك الطرق دون أن يراه أحد . وعند وصوله إلى ذلك المفترق لم يجد نفسه وحيداً هناك ، فقد أقبل فارس من طريق يقع إلى اليمين ، وشد لجام حصانه . وكان ضابطا فى الفرقة الألمانية ، وإذ رأى فستوس رفع يده ، فتقدم إليه هذا الأخير وحياه .

وقال الضابط .

— لقد كان خبراً كاذباً !

وعاد فستوس رجلا من جديد ، وشعر بأن ليس هناك شىء يكبر على همته . وقال الضابط ، بعد أن أدلى ببعض الإيضاحات عن سبب « الإنذار بالخطر » ، إنه سيعبر الممر إلى الطريق المؤدى إلى المستنقع ليوقف تقدم الجنود المتطوعين المتجهين إلى هذه الناحية ، وعرض عليه فستوس عندئذ أن يقوم هو نفسه بتبليغ النبأ إلى القادمين عن طريق كاستر بريدج . وعبر الألمانى الممر إلى طريقه . ولم يلبث أن غاب عن العيون بينما دار فستوس وعاد سالكا نفس الطريق الذى جاء منه . وكانت ثلة الفرسان المتطوعين تقترب فى عجلة ، وسرعان ما ميز من بين اللهجات المهتاجة أصوات « ستوب » و « دودل هول » و « نوكس » و « نيذر مويلتون » وغيرهم من رفقاء لهوه فى بيت عمه . وسنحت لفستوس فرصة عظيمة فشهر سيفه . وعندما أصبحوا على مرمى الصوت أدار بلجامه رأس حصانه إلى بودماوث وصاح :

— إلى الأمام يا رفاق ، إلى الأمام! إنى أنتظركم . إن المدة التى استغرقتموها للحاق بى طويلة بالنظر إلى طبيعة أعمالنا العظيمة اليوم !

وأجاب الفارس الذى كان فى مقدمة الركب :

— أجدت يا دريمان ، أجدت ! أما سمعت أنباء جديدة ؟

— لا شىء إلا أنه جاء إلينا بعشرات الآلاف من جنوده ، وأن علينا الركوب للقائه ، وسيوفنا فى أيدينا ، على أثر اجتماعنا كلنا فى البلدة البادية هنا أمامنا .

وقال « نوكس » ، وقد انخسف فكه الأسفل قليلا :

— أوو ، يارب !

وقال فستوس شاهراً سيفه فى وجه الشمس وهو لا يزال على رأس بقية الجنود :

— إن الرجل الذى تخور عزيمته الآن غير جدير بأن يسمى « الفارس المتطوع » . أوو يا نوكس . خسئت ! ... لقد بدأت تبدو شاحباً يا رجل .

وقال نوكس وهو يلقى على فستوس نظرة حسد على سلوكه الجرىء :

— حقاً ! فلعلك كنت تبدو شاحباً لو أن لك زوجة وأسرة تعتمد عليك !

وأجاب فستوس وهو لا يزال يلوح بسيفه :

— سأقضى بمفردى على ثلاثة من أكلة الضفادع الفرنسيين !

وقال آخر من الفرسان المتطوعين :

— إن لهم سيوفاً باترة كسيفك حسبما سترى عما قريب .

وقال فستوس :

— لو أنهم مسلحون بثلاثة أضعاف أسلحتهم ، أو بثلاثة أضعاف أضعافها ، لسعيت إليهم واحداً إلى ثلاثة . (ودار إلى جندى آخر) ما شعورك الآن يا صديق القديم « ستوب » ؟ أوو ، يا صديق ستوب ! لن يكون ثمة تباه بالعافية لحبيباتنا هذا الصيف فى أوكسويل هول كما كان الشأن فى الصيف الماضى ... أليس كذلك يا براون جون ؟

وقال براون جون متجهما :

ـــ أخشى ألا يتيسر ذلك .

ـــ ولن تكون هناك حفلات عشاء صاخبة فى فندق « ستاسى » بينما الملك فى الدور السفلى مع بطانته . ولن نخدع طارقى الأبواب ، ونرسلهم إلى المخبز للمجىء بفطيرة لم يطلبها أحد . هناك بالأحرى أسابيع عمل مفروض علينا !

ـــ أظن ذلك .

ولا حظ فتى من الفرسان المتطوعين هادىء الوجه ، عاقد العزم على أن يؤدى واجبه دون الإكثار من الكلام :

ـــ لو حاربنا بقدر ما نستطيع فإننا لن نتخلص من الطاغية قبل الخريف . وسيرقد تحت الثرى عدة آلاف من الرجال الشجعان قبل أن يتم ذلك .

واستأنف فستوس القول :

ـــ ولن تكون مباريات عنيفة هذا الصيف فى « ميدون كاسل (١)» ، ولا ولا لعبة « الفتلة والإبرة » فى « جرين فير »(٢) ، ولا الذهاب إلى المعارض ، وإطاشة صواب أصحابها بتشتيتنا لذهن المتفرجين .

ـــ أظن ذلك .

ـــ هل هذا يجعلك تبدو يانوكس منزعجا ولو انزعاجا طفيفا ؟ احتفظ بروحك العالية يارفيق القديم . تقدم . إننا نذمل بالخيل ذميلا وئيدا كبعض راكبات الحمير . إن علينا أن نصل إلى بودماوث وننضم إلى سائر الجيش . ثم نقطع الشاطىء غربا على ما يبدو لى . ولن نخوض غمار المعركة الحقيقية فى هذه الحالة قبل الساعة الثانية عشرة . حثوا الخيل بمهمازكم يا رفاق !

ـــ لن يكون ثمة رقص على الحشائش تحت ضوء القمر هذا العام يا لوكهام . لقد كنت تعطف على تلك الفتاة . يا إلهى ، ماذا سيكون مصيرها بعد هذا القتال ؟

وحاوره لوكهام قائلا :

ـــ مهلا ، مهلا يا دريمان ، هذا كله طيب جدا ، ولكنى لا أهتم به . أنا على

---

(١) صر الجبل الكبير ، وهو على بعد ميلين من دوشيستر (شرح الأصل)

(٢) « وودبرى هيل » وهو قريب من بريجيس ، ويقام به معرض سنوى (شرح الأصل)

استعداد للقتال كأى رجل آخر ، ولكن ...

وأضاف نوكس مؤيدا رفيقه ، وإن كان يضمر الإعجاب بشجاعة فستوس المتهورة :

— لعل شجاعتك تخمد قليلا يافستوس عندما نخوض غمار المعركة ، وترى على أى نحو هى !

وقال فستوس :

— سأصاب بطعنة قبل أن يحدث لى ذلك . لنصطف الآن ، وإلى الأمام .

ومنذ اعتزم فستوس أن يحث جواده بوحشية ، لم يشأ باقى الفرسان المتطوعين أن يبدوا متخلفين ، وأخذوا يقتربون من البلدة مسرعين . ولو أنهم كانوا هادئين بمقدار ما يكفى للتأمل ، فلربما لاحظوا أن أية عربات نقل أو ركوب لم تقابلهم على الطريق خلال نصف الساعة الأخيرة كما حدث قبل ذلك . ولم يعلم الجند ما علمه فستوس منذ ربع ساعة مضت إلا عندما وصلوا إلى «بوابة المكوس» وأغمد فستوس سيفه متنهدا لدى سماع النبأ . ولم تلبث جماعة أن وقعت على زملاء لها كانوا قد وصلوا من قبل ، ومن ثم دارت مناقشة عاصفة حول مصدر « إنذار الخطر » وتفاصيله .

وسأل أحد أولئك الذين قدموا أخيرا :

— كيف أنكم لم تعلموا بذلك الخطأ إلى الآن ؟ إنى التفت إلى الوراء بينما كنت أجتاز مفترق الطرق هابطا من التل ، ورأيت هذا الرجل يحادث الرسول الذى لابد أنه أخبره بالحقيقة .

وأشار المتحدث إلى فستوس ، فأدار رفقاؤه عيونهم الملأى بالحنق إليه ، إذ لم يلبث أن بدا للجميع أنه كان يعبث بأعمق أحاسيسهم وهو يعلم بأن الإشاعة كانت على غير أساس . وصاح منهم اثنان أو ثلاثة قائلين وهم يلوون رؤوس جيادهم ليرتدوا وينقضوا على فستوس ، وقد تبعهم فى حركتهم هذه أغلب الجماعة :

— لنوسعه ضرباً ببطون سيوفنا .

وكان فستوس ، إذ توقع الخطر الناجم عن إفشاء السر ، قد سبق فى حكمة

لجعل بينه وبين رفقائه الفرسان المتطوعين بضع خطوات . . . وغمز الآن جواده بمهمازه ، ودوى كالرعد والبرق قاطعاً الطريق إلى بيته . وزاد هذا الهروب المبيت مطاردته حرارة .

وكان أثناء ركضه بجواده ، والتفاته من فوق كتفه فى خوف ، يستطيع أن يراهم فى إثره عابسى الوجوه شاهرى السيوف . وظلوا على تلك الحال مسافة تزيد على ميل . ثم سره بعد ذلك أن رآهم ينكصون عنه واحدا بعد واحد ، ولم يلبث هو وحصانه اللاهث أن بقيا وحدهما فى الطريق العام ؟

الخطر يتهدد آن

(٢٧)

توقف وفكر كيف يحول هذه الخيبة إلى فائدة . فخطر له بعد خيبته فى خطة دخوله « المنتزه البحرى » وتمتعه بالتهنئات على سلوكه الوطنى أثناء تقدم الجيش . . . خطر له وهو عابس أنه قد يستفيد بعض الفائدة من انسحابه الإجبارى ، بركوبه إلى أوفركمب ، وتعظيم نفسه فى عينى الآنسة جارلاند قبل أن يتاح وصول الحقيقة إلى تلك القرية . وأعمل مهمازه بعد هذا القرار ، وقد صار أحسن مزاجا .

وكان المتطوعون فى هذه الأثناء يتقدمون . وقابل دريمان فرقة مشاة أوفركمب ، وهو يصعد فى الطريق حيث كان صاحب الطاحون لفدى يدب فى الأرض جنبا إلى جنب مع غيره من الملاك ذوى المكانة فى القرية وما يجاورها ، وكانوا مزودين كما ينبغى ، بأكياس وأحزمة متقاطعة ، وبنادق ، وصناديق الأزناد لقدح النار ، وملاقط ، وأسياخ لتنظيف فوهات البنادق ، وصناديق الذخيرة ، وأدوات وضع الفتيل ، وأعقاب الرصاص ، ودهان للجروح . ولم تعد هناك أية فائدة ترجى من كتمان الحقيقة مدة أطول . وبعد أن أخبرهم فستوس فى إيجاز بأن الخطر غير مباشر كما كان يظن ركض بجواده وبعد أن قطع مقدار ميل قابل فى نهايته رهطا كبيرا من حملة الرماح من بينهم بوب لفدى الذى عزم الفارس المتطوع أن يستبرغوره بشأن المكان الذى فيه آن . وكانت الظروف على حالة حملت بوب على أن يكون فى حديثه أكثر صراحة مما لو تحدث بعد روية ، وأفضى إلى فستوس بالجهة التى أرسلت إليها النساء . ثم أخبر فستوس الجماعة أن نبأ الغزو كان غير صحيح ، وترتب على ذلك أن دار الجميع ليعودوا إلى دورهم بروح معنوية شاعرة بفرجة كبيرة .

وسار بوب إلى جانب حصان فستوس مسافة قليلة ، إذ استقر رأيه بغتة على الذهاب والبحث عن النساء ، وإراحتهن من جزعهن بالافضاء إليهن بالنبأ الطيب

فى أقرب وقت ممكن . ولكنه لم يقل لفستوس شيئا من ذلك أثناء عودتهما معا . كذلك لم ينبىء فستوس بوب أنه اعتزم أن ينشدهم هو أيضا ، ويجعل من سبقه لكل من عداه فى هذا المسعى مناسبة عظيمة لإرجاع الآنسة جارلاند إلى صوابها بالنسبة له . وكان لايزال يتأذى مما تلقاه على يديها من سقوطه فى الماء ، ولم يمل إلى ترك هذه الإهانة تمر دون أن ينال نوعا ما من الثأر اللطيف .

وعلى أثر افتراقهما خب فستوس بجواده فوق التل ، ملتقيا فى طريقه بمتطوعى « لونجبودل » تحت قيادة النقيب كننجهام ، وهم يبلغون ستين رجلا جنودا وضباطا ، وبطابور « كاستربريدج » تحت قيادة النقيب ستريكلاند ، وهو مكون من تسعين رجلا من الأشداء (كان يعرف فى تلك الأيام باسم « كونسيدريشن كمبانى ») وبغير ذلك من العسكر . وكان الجميع مضطربى الوجوه ، يكسوهم الغبار . وما أن أفضى إليهم بالنبأ ، وتركهم واقفين ، حتى واصل الركض إلى الأمام مسرعا صوب « كينجزبير » . وانقضى بعض الوقت دون أن يظهر أحد فى الطريق حتى قابل بعد قطع عدة أميال أونباشيا من المتطوعين ضل طريقه . وردا على سؤال فستوس أخبره الأونباشى بأنه لم تمر قطعا أية عربة نقل محملة بالنساء على النحو الذى وصفه له ، وإذ اعتقد دريمان أنه أخطأهم بقطعه الطريق العام ، عاد أدراجه إلى الدرب لعلهن اخترن السفر فيه التماسا للتخفى برغم رداءته ، وعدم التثبت من اتجاهه . ولدى وصوله إلى مسافة تبعد خمسة أميال عن أوفركمب سمع فى نهاية الأمر أخبارا عن العربة التائهة ، وحملها الثمين ، وقد هامت متروكة كما يبدو لغريزة الحيوان الذى يجرها كسفينة نوح عندما انطلت من بلاد الفلسطينيين (المعادين لإسرائيل) . وكان أحد العمال قد رأى الجماعة العاجزة ، عند شروق الشمس تماما ، وهى تسير فى بطء على مسافة بعيدة أشار إليها .

وما فارق فستوس مبلغ هذا النبأ حتى رأى بوب يقرب منه وهو يمتطى حصان صاحب الطاحون الثانى الأشد بطئا . وبدت الدهشة على بوب نوعا ما ، وشعر فسفوس بأن المجد المقبل الذى سيحققه فى خطر . وقال وهو يشير إلى عكس الاتجاه الصحيح تماما :

— لقد سلكوا هذا الدرب . أنا كنت أبحث أيضا عن أصدقاء تائهين .

ولم يكن هناك سبب يدعو إلى الشك فى نبأ فستوس ما دام أنه عاد أدراجه .

حوسار لفدى على حصانه حسبما ضلله ذلك الرجل . ولم يكد يغيب عن النظر حتى غير فستوس خط سيره على الفور ، وسلك الطريق الذى شوهدت آن ورفيقاتها يسلكنه آخر مرة .

وكانت العربة التى نتحدث عنها تصعد فى ذلك الطريق قبل الآونة الحاضرة بزهاء ساعتين ، وقد أمسكت الخادمة « مولى » بالزمام ، وجلست السيدة لفدى بجوارها كما جلست آن خلفها . ولم يكن يتقدمن إلا فى بطء نظراً لافتقار « مولى » إلى مهارة القيادة من ناحية ، وإلى انحدار الطريق من ناحية أخرى ، ومروره بحفر واسعة إلى حد ما لم يتناولها الإصلاح إلا نادرا ، أو لم يتناولها قط . وكان صباحاً مزعجاً لهن جميعاً ، ووقعت محاسن الصيف فى إبانه على أعين غير مكترثة . لقد كن أشد جزعا من أن يسترسلن فى الحدس والتخمين . وجلست كل منهن تستغرق فى خواطرها الخاصة ، وتتلفت أحياناً إلى الغرب ، أو توقف الحصان لتنصت إلى الأصوات الصادرة من دروب مطروقة أكثر من غيرها ، حيث كانت جماعات أخرى ترتد على طولها . وفى إحدى المرات التى كن ينصتن ويحدقن على هذا النحو رأين لألاء على بعد ، وسمعن وقع أقدام خيول كثيرة . وكان حشداً كبيراً من الفرسان يمضى فى اتجاه المنتزه البحرى الملكى . وهو فى الواقع نفس فرقة الدراغون التى رآها فستوس تمضى فى طريقها على مسافة أبعد . ولم يشك النساء فى العربة أن هؤلاء الرجال فى طريقهم إلى الالتقاء بالعدو على الفور . ومن باب إدخال التغيير على رتابة الرحلة كانت دموع « مولى » تنبجس أحياناً من الارتياع لاعتقادها أن بونابرت ، فى شكله وعاداته ، يشبه الصور الكاريكاتورية التى تمثله كل الشبه . وحاولت السيدة لفدى أن تشيع البهجة بتأكيد مدنية الأمة الفرنسية لرفيقاتها . تلك الأمة التى تأمن النساء العاجزات معها على أنفسهن من الأذى ، إلا إذا استثنينا تهور الجنود العرضى الخارج عن نطاق الرقابة . وكانت هذه تعزية هزيلة لآن التى كان خاطرها أكثر اشتغالا ببوب من نفسها . وشعرت بخوف تعس من أن تمتنع عليها رؤيته حيا من جديد ، وأشاع ذلك فى وجهها الشحوب ، وأخرن نظرتها الشاخصة إلى حد أن قالت لها أمها فى النهاية:

— فيمن كنت تفكرين ياعزيزتى ؟

وكان رد آن الوحيد نظرة إلى أمها امتزجت بها دمعة .

وألهبت « مولى » بسوطها ظهر الحصان فجعلته بذلك يسرع خمس خطوات، عاد بعدها إلى تباطؤه العنيد مما أظهر كيف أنه يدرك إدراكاً كاملا بعثه العقل المتسلط والشخصية الرئيسية بين أربعتهم . وكان كلما بدت بركة ماء على جانب الطريق يدور إليها ليشرب ملء فمه ، وتبقى هناك متأنيا كما شاء برغم شده « مولى » للجام ، وإنزال الضربات الخاطفة على دبره . وقد وصلن الآن إلى المنطقة الحجرية حيث لا تقوم حواجز على جانبي الطريق ، وحيث بذلت محاولة لإصلاحه بإلقاء كتل هائلة من تلك المواد الخشنة تكومت أكواماً دون بذل أى جهد لتسويتها أو إزاحتها إلى الخارج . وكانت رجة العربة هنا مؤلمة إلى أبعد حد ، وبدا أنها ستحطم اللولب ، وقالت مولى آخر الأمر :

— كم تتخلخل هذه العجلة .

ولم تكد تنطق حتى انفصلت العجلة ، وتدهور ثلاثتهن من فوقها إلى الشارع. ولحسن الحظ وقف الحصان ساكنا ، وبدأن يلممن شعثهن . وكانت آن ، بين ثلاثتهن ، هى الوحيدة التى لم تعان إلا الأقل من الوقوع ، فهى لم تشعر إلا برجة عنيفة جعلتها فى شبه ذهول فترة من الوقت . ورقدت العجلة منطرحة فى الطريق ، وعلى ذلك لم يعد من المستطاع ، وهن فى مثل هذه الورطة ، أن يتقدمن مسافة أخرى إلى الأمام . ونظرن حولهن طلباً للمعونة . ولم يكن شيء قريب ودى المظهر إلا كوخ وحيد يتضح من موقعه أنه بيت راعى غنم . وفك الحصان من العربة ، وربط فى مؤخرها . وعبر النسوة الثلاث الطريق إلى البيت ، ووجدن لدى اقترابهن منه أن مصاريع النوافذ السفلى مغلقة جميعها . ولكن الباب فتح بأيديهن لدى معالجته . ولم يكن بالبيت أحد ، وبدا أن من كانوا به غادروه مرتبكين بعض الارتباك. والمرجع أن راعى الغنم هرب لدى سماعه إنذار الخطر. وقالت آن عندئذ إنها تشعر بأثر سقوطها حادا جداً بحيث لا تستطيع فى الآونة الحاضرة أن تمضى فى طريقها مسافة أخرى . فتم الاتفاق على أن تترك هناك بينما تمضى السيدة لفدى ومولى طلبا للنجدة ، ذلك لأن السيدة الكبيرة وجدت مولى أصغر كثيراً ، وأفرغ عقلا من أن يعتمد عليها فى ذهابها بمفردها . واقترحت مولى أن تأخذا الحصان ، إذ قد تكون المسافة التى ستقطع طويلة ، وأن تركبه كل منهما مناوبة

حينما تمسك الأخرى بقيادة . وفعلا ذلك وآن ترقبهما وهما تتواريان خلف الطريق الأبيض غير السوى .

ونظرت فى أرجاء الغرفة بقدر ما مكنها الضوء النافذ من الباب المفتوح . وكان يتضح من بقاء النوافذ مغلقة أن راعى الغنم غادر بيته قبل الشروق ، ودل على نفس النتيجة وجود الشمعة وطفئتها على المنضده . وظلت هناك تجيل طرفها بين حين وحين فى إمتداد تلك الكثبان التى اقفرت ، وغمرتها أشعة الشمس ، ولم ينقذها من الخواء التام إلا العربة المقلوبة عن بعد : وكانت الغنم قد رحلت على ما يبدو . ونادراً ما حوم عبر المكان طائر ليزعج الوحدة السائدة . وكانت آن قد استيقظت مبكرة هذا الصباح ، فلم تلبث أن غفت غفوة غير مريحة وهى مستلقية على المقعد الخشبى الذى وضعته وراء الباب . وصحت منها على وقع أقدام حصان يركض عن بعد . وقامت فى اهتمام وهى تشعر بأنها برئت إلى حد كبير من أثر سقوطها ، ونظرت إلى الخارج . ولم يكن ذلك الحصان حصان لفدى ، ولكن كميت شديد المراس ، على صهوته رجل يرتدى البزة الكاملة للفرسان المتطوعين

ولم تنتظر آن لتتحقق من الأمر أكثر من ذلك ، بل دخلت البيت على الفور ، وأقفلت الباب وأرتجته . وجلست فى الظلام وأنصتت . . . ما من صوت . وبعد انقضاء عشر دقائق ، وقد ظنت أن الفارس يكون قد مر دون اهتمام إذا لم يكن فستوس ، وإذا كان فستوس فهو لم يرها . . . صعدت فى هدوء إلى علو البيت وأطلت من النافذة . وكان الطريق الرملى مقفرا تماماً باستثناء بقعة الظل التى كونتها العربة على نحو ما فعلت من قبل . وعندئذ فتحت النافذة ومدت منها عنقها إلى الخارج .

وجاءها صوت كقصف الرعد من مسافة تحتها تبلغ ثلاث أقدام أو أربعا .

ـــ هاه ! ! هأنت ذى أيتها الصبية ! لقد أمسكت بك الآن !

ورأت ، وهى تدير عينيها الخائفتين ، فستوس دريمان يكمن ملتصقاً بالحائط . وكان قد لفت انتباهه فى بادىء الأمر إغلاقها باب الكوخ ، ثم العربة المقلوبة . فترجل بعد فحص العربة للتأكد من أنه لم يخطىء فى التعرف عليها ، وتسلل لاصطيادها .

وارتدت آن فزعة إلى داخل الغرفة ، وبقيت هناك جامدة كقطعة من الحجر . واستطرد فستوس قائلا :

— تعالى ، لابد أن تثق بي . إن الفرنسيين نزلوا إلى البر . وقد حاولت فى كل ساعة أن ألتقى بك منذ الخدعة المخزية التى خدعتنى بها . إنك ألقيت بى فى الماء . وفى الحق إنه كان من حسن حظك أنى لم ألحق بك وقتذاك ! فإنى كنت قميناً أن أثأر لنفسى بطريقة أفضل من التى سأثأر بها الآن. أعنى أنى كنت سأحصل منك على تلك القبلة . تعالى يا آنسة نانسى ... أتسمعيننى ؟ لا فائدة من اختبائك هناك داخل الكوخ ، فإنك ستضطرين إلى الخروج حالما يأتى بونى من فوق التل . اسمعى ، هل تفتحين الباب وتحدثيننى بطريقة مهذبة ؟ من تظنيننى إذ تتحصنين وراء الباب منى كأنى وحش ضار أو جندى فرنسى ؟ افتحى الباب ، أو أطلى برأسك ، أو اصنعى أى شىء ، وإلا فإنى قسما بالله سأحطم الباب !

وخطر لآن عند وصول المشادة إلى هذا الحد أن خير سياسة تتبع هى أن تسايره حتى يأتى إليها أحد ، فأطلت برأسها ووجهها الذى شحب الآن بعض الشحوب.

وقال فستوس :

— هذا أفضل ، فأنا أستطيع محادثتك الآن . هيا يا عزيزتى ... هل تفتحين الباب ؟ لماذا تخشيننى ؟

وقالت آن غير صادقة وهى تلقى نظراتها جازعة على الطريق الرملى المقفر :

— لست خائفة منك قط . وإنما أنا آمنة هنا من الفرنسيين .

— دعينى أخبرك إذن أن إنذار الخطر كان خاطئاً ، وأنه لم تقع محاولة للنزول إلى البر . فهل تفتحين الباب الآن وتسمحين لى بالدخول ؟ إنى مجهد ، فقد ظللت على صهوة جوادى منذ الفجر ، وجئت أحمل إليك النبأ السار.

وبدا على آن كأنها تشك فى صحة النبأ . وقال فستوس :

— هيا .

وغمغمت بعد فترة صمت:

— لا ، لا أستطيع أن أدعك تدخل .

وصاح وقد أتقد وجهه :

— أف لك إذن . سأجد وسيلة للدخول ! ولا تستثيريني الآن ! ! فإنك لا تعلمين ما أنا قادر على ارتكابه . إنى أسألك مرة أخرى : — هل تفتحين الباب ؟

وقالت متخاذلة :

— لماذا ترغب فى فتحه ؟

— قلت لك إنى أريد أن أجلس ، وأن أسألك سؤالا .

— تستطيع أن تسأله وأنت حيث تقف .

— لا أستطيع فى هذه الحالة أن أسأله كما يجب ، فهو يتعلق بمسألة جدية ... وهى هل تقبلين حبى وطلب زواجى بك ... أنا لن أرتمى على قدميك ، ولكنى أسألك أن تؤدى واجبك بحسبانك امرأة . أى أن تقطعى على نفسك عهداً أن تقبليني زوجاً على أثر انتهاء الحرب وتيسر الوقت لبقائى إلى جانبك . وإنى لآنف أن أتقدم بهذا الطلب إلى متبجحة متعالية تأبى أن تحادثنى إلا من خلال النافذة . بيد أن أدع الأمر بين يديك لآخر مرة يا سيدتى .

ولم يكن فى الطريق الرملى أثر يدل على مجىء أحد ... وقالت الفتاة :

— سأفكر فى الأمر يا سيدى .

— إنك فكرت فيه مدة كافية ... أريد أن أعرف ... أتقبلين أم ترفضين ؟

— حسناً جداً . أظن أنى أقبل .

ثم أحست أنها ، بتهربها منه على هذا النحو ، ربما تكون قد اشترت أمنها بثمن باهظ جداً ما دام أنه سيذيع نبأ قبولها الزواج به ، وسيسبب ارتباكات لا نهاية لها . . . فقالت :

— لا . لقد غيرت رأيى . أنا لا أستطيع قبولك زوجاً يا سيد دريمان .

وصاح ضارباً الأرض بقدمه :

— هكذا أنت تعبثين بى ! فنى إحدى اللحظات تقولين « نعم » ، وفى اللحظة التى تليها تقولين لا . هيا ، فأنت لا تعلمين أى عرض ترفضين . إن بيت عمى القديم ملك له ، وليس هناك أحد يتركه له من بعده غيرى . وسأهجر الزراعة حالما تحين منيته ، وأصبح « سيداً » .

وأضاف فى سخرية مريرة :

— والآن أية حمقاء تصبحين حين تعرضين عن انتهاز مثل هذه الفرصة !

وقالت آن .

— شكراً لك . أنا لا أقدر ذلك .

— ألأنك تمقتين الذى سيجعل هذا البيت ملكا لك ؟

— قد لا يكون فى استطاعتك أن تفعل ذلك .

— ماذا !.. أكان الرجل الهرم يحدثك فى شؤونه ؟

— لا .

— لماذا إذن تسيئين بى الظن ؟ والآن ، هل تفتحين لى الباب بعدما تقدم ، وتظهرين لى أنك تعاملينني كأنى صديق ، فيما إذا رفضت معاملتى كأنى عاشق ؟ إنى لا أريد إلا أن أجلس وأحادثك .

ورأت آن أن تأتمنه . فقد بدا أنه يكاد يكون من المستحيل أن يستطيع إيذاءها . وارتدت عن النافذة ونزلت إلى سفل الكوخ . وما وضعت يدها على رتاج الباب حتى راجعها عقلها ، وبقيت صامتة حيث كانت بدلا من أن تسحب المزلاج . وبدأ يقول ثانية :

— هل تفتحين الباب ؟

ولم تنبس آن بكلمة .

— والآن أف منك . سأصل إليك ! إنك أجهدتنى فوق ما أحتمل . إن قبلة واحدة كانت تكفى ذلك اليوم فى المرج ، والآن سأنال منك أربعين قبلة إما برضاك،وإما قسرا عنك !

وارتمى بنفسه على الباب ، ولكن هذا لم يحدث أى أثر إذ كان الباب مرتجا ، وكان هناك فوق ذلك « ترباس » خشبى ضخم مثبت بعرضه . وصمت فستوس لحظة ، ثم سمعته الفتاة المرتعبة يحاول فتح النافذة المغلقة ؛ فصعدت راكضة إلى الدور العلوى ، ودققت النظر فى الطريق الرملى من جديد . وكانت العربة الصفراء لاتزال ملقاة تحت وهج الشمس ، وحصان فستوس واقفا فى ركن الحديقة ولم يبد أى شىء آخر . وصك سمعها فى هذه الآونة صوت سيف يسحب من غمدة

ورأت الذى يرهقها ، وهى تطل من فوق حافة النافذة ، ينفذ سيفه بين مفاصل النافذة محاولا شقها وفتحها ، وقصف السيف فى يدة ، وشده وهو يسب ويلعن وأعاد نصفيه الى غمده . وصاح وقد لمح قة رأس الفتاة :

— ها ، ها ! إنها مجرد دعابة كما تعلمين ، ولكنى سأدخل أيا كان الأمر .كل ذلك فى سبيل قبلة . ولكن لابأس ، وسأدخل مع ذلك !

وكان يتكلم بلهجة مصطنعة مستهترة كأنما أخجلته سورة مزاجه الصاخبة السابقة.ولكنها استطاعت أن ترى من زرقة قفاه الداكنة أنه مفعم بشهوة مكبوتة .

واستطرد قائلا :

مجرد دعابة كما تعلمين .كيف تقوم بالأمر الآن ؟ لماذا ! بهذه الطريقة . سأذهب وأحضر سلما ، وأدخل من النافذة العليا حيث توجد حبيبتى والسلم موضوع تحت كومة القمح فى أول حقل محاط بسياج . سأعود بعد دقيقتين ياعزيزتى ! وجرى مبتعدا ، وغاب عن نظرها ؟

آن تصنع العجائب :

(٢٨)

عاينت آن مقامها فى خوف ... كانت نوافذ الكوخ العليا مصنوعة من ألين أنواع الرصاص . ولم يكن ثمة أمل فى صد فستوس عن الدخول . وشعرت بأنه لم يبق لديها دقيقة تفرط فيها دون الهروب وهبطت إلى أسفل الكوخ ، وفتحت الباب ، ثم خطر على بالها المضطرب أنه ليس هناك فرصة للإفلات منه جريا على قدميها عبر ذلك السهل الشاسع مادام يستطيع أن يمتطى جواده ، ويركض خلفها فى سهولة . وكان ذلك الحيوان لا يزال مقيدا فى ركن الحديقة . فلو أنها استطاعت أن تحل وثاقه ، وتستنفره إلى الانطلاق قبل عودة فستوس ، لما ظلت لطاردها هذه الميزة كلها عليها وعلى ذلك أطلقت الحصان من قيده إذ صعدت فوق مرتفع الأرض . وبعد أن نزعت عنها منديلها الحريرى ، أخذت تلوح به أمام عينيه لتخيفه ، ولكن الحصان الشهم لم يتحرك ، ولم تختلج له عين . وأعادت المحاولة ، ولكن بدا أن ذلك سره أكثر مما ساءه . وسمعت عندئذ صرخة من ناحية الكوخ ، ورأت خصمها ، وهى تتلفت ، مقتربا من وراء ركن البناء .

وصاح فستوس مبتهجا :

-- خطر لى أنه ينبغى استدراج الفأر بهذه الحيلة !

لقد اكتفى بأن اختبأ فى الناحية الخلفية ليغريها بالخروج بدلا من الذهاب لإحضار السلم .

لقد يئست آن المسكينة الآن . وكان مرتفع الأرض الذى وقفت فوقه محاذيا لظهر الحصان . وبدا هذا المخلوق وديعا كالحمل ، فأمسكت لجامه بعزيمة تقدر عليها عند الضرورات الطارئة ، وألقت بنفسها فوق ظهره على فروة الغنم ، واستوت متشبثة بعرفه . ورفع الحصان الدهش رأسه ، واشتم الهواء . وأدار أذنيه هنا وهناك ، وانطلق راكضا عبر السهل فى سرعة مخيفة .

وقال فستوس ملتقطا أنفاسه ، وقد انزعج كل الانزعاج وهو ينظر وراءها

— أوو ! يا لقلبي وأطرافي ! إنها تمتطي « شامبيون » ! ! . سوف تحطم عنقها ، وأحاكم أنا متهما « بجناية قتل » ، ويلطخ اسم دريمان بالعار !

وواصل « شامبيون » ربعه بخطى واسعة ، ولكنه لم يرتكب ماهو أسوأ من ذلك : فلو أنه شب أو قفز لتحققت مخاوف دريمان ، وسقطت آن على الأرض في شدة مميتة . ولكن الرحلة كانت طيبة ، ويسرت سرعة الحصان أمانا نسبيا . ونادرا ما كانت آن تهتز في جلستها المقلقة المنحنية ، بيد أنها كانت ترتعب من رؤية الحشائش ، والحجر المنثور ، وغير ذلك من الأشياء وهي تمر من تحتها كلما فتحت عينيها ، وكأنها لطمات تلطمها . . . ولم يكن ذلك يحدث إلا لمدة ثوان معدودة بين فترات تبلغ كل منها نصف دقيقة . . وكان يرعبها كذلك أن تحس كيف يتأرجح سرجها العنيف ، وهذا هو زناد الغدارة يصطدم بركبتها ، وهذا هو قراب الطبنجة يؤلم ذراعها .

وقطعا السهل في سرعة . وأدركت آن أن الحصان كان يتجه إلى حماه . وما أخذت الأرض ترتفع صوب النطاق الخارجي لمرتفع الأرض الواقع بينها وبين الشاطىء حتى خفف « شامبيون » من سرعة ، معانيا كلالا شديداً ، وقد أصبح الآن يلهث ويتصبب عرقا . وواصل رحلته وهو يخب خبباً مرتجا . وشعرت آن بأنها لا تستطيع أن تحسن تماسكها بمقدار نصف ما فعلت من قبل ، فالركض لم يكن إلا لعب أطفال إذا قيس بهذا الخبب . وكانا يقطعان طريقاً يصعد إلى ربوة ، واستقر رأى آن أن تلقى بنفسها من فوق الحصان .

وكانت هناك على الربوة بقعة متحركة تصعد إلى أعلى فأعلى ، وظهر أنها كانت الجزء الأعلى من قامة إنسان ، وأن الإنسان كان جندياً . وكانت آن في وضع لا يتيح لها إلا أن تلمحه لمحة عرضية . وبرغم أنها خشيت أن قد يكون فرنسيا ، فقد كانت تخشى الحصان أكثر من العدو ، كما كانت تخشى فستوس أكثر من الحصان . وبقية لها بقيت من الهمة تكفي لصياحها قائلة ، والجندي يقترب: «أوقفه ... أوقفه ! . . »

وسبق الجندي فوقف وسط الطريق ، دهشا لمرأى حصان من خيول الجيش على ظهره حزمة من الأقمشة . وقد بسط الآن ذراعيه حتى اتخذ هيئة صليب لا تيني مغروس وسط الطريق . واقترب شامبيون منه ، وانحرف ، وتوقف توقفاً كاد

يكون مباغتا . وكان ذلك صدمة تكفى لوقوع آن على الأرض منزلقة من فوق جنبه . وتقدم الصديق الذى جاء فى أوانه ، وساعد آن على النهوض ثانية ، وعندئذ رأت أنه جون لفدى .

وقال فى سرعة . وقد شحب وجهه تماماً عندما رآها تقع .

ـــ أ أصبت بأذى ؟

وقالت آن وهى تستجمع قواها ناهضة فى حفة قهرية لتهون من أمر المكروه الذى وقع :

ـــ أوو ، لا . لم أصب بأى أذى .

ـــ ولكن كيف وصلت إلى مثل هذا المكان ؟

وبدلا من أن تجيبه على سؤاله صاحت وقد أسل شامبيون حول جون لفدى ، وانطلق منتصرا صوب أوكسويل .

ـــ ها هو ذا يمضى !

ولاحقت المشهد بعينيها .

ـــ ولكن كيف جئت على صهوته ؟ وحصان من هو ؟

ـــ سأخبرك .

ـــ حسناً ؟

ـــ أنا ... لا أستطيع أن أخبرك .

وشخص جون ببصره إليها دون أن يقول شيئاً .

وسألته :

ـــ وكيف أتيت أنت إلى هنا ؟ ألم ينزل الفرنسيون إلى البر حقاً ؟

ـــ نعم ، كل الحق ، فإنذار الخطر لم يقم على أساس ، وسأنبئك بكل مايتعلق به . أنت تبدين مجهدة جداً ، وكان خيراً لك أن تجلسى بضع دقائق . لنجلس على هذه الحافة .

وساعدها على التقدم إلى الحافة المشار إليها . وواصل قوله وكأنما أفكاره كانت لا تزال مشتغلة بسر حالتها الأخيرة أكثر من اشتغالها بالموضوع الذى يتحدث عنه :

ـــ وصلنا إلى ثكنات بودماوث هذا الصباح ، وعلينا أن نمكث هناك طوال الصيف . ولم أتمكن من الكتابة إلى أبى لأخبره بأننا قادمون . ولا يرجع قدومنا إلى الإشاعة التى راجت عن الفرنسيين ، فنحن لم نعلم شيئاً عنها حتى التقينا بالناس فى الطريق ، وقال الكولونيل على الفور إن النبأ غير صحيح ، وبونابرت ليس حتى فى بولونيا الآن . وكنت أتوق إلى أن أعرف كيف احتملتم الفزع ، وأسرعت لذلك إلى أوفركمب فور تمكنى من مبارحة الثكنات .

ومالت آن التى لم تكن تتجاوب مع ما يقول ... مالت الآن بثقلها عليه ، ووجد وقد انخفض بصره إليها أنها قد أغمى عليها فى صمت . وأول ما نازعته نفسه إليه كان بالطبع أن يسندها بين ذراعيه ، ولم يكن من الميسور الحصول على ماء ، وبذلك لم يستطع التفكير فى شىء آخر غير أن يمسكها فى رفق حتى تثوب إلى رشدها ، ولا شك أنه لم يتق إلى شىء أكثر من ذلك .

وسأل نفسه ثانية عن معنى هذا كله ؟

وانتظر مائلا ببصره إلى جفنيها المجهدين ، وصفى أهدابها الراقدين على كل من خديها اللذين نمت استدارتهما على كمال حسنهما المتفرد بعد أن تخلى الآن احمرارهما المعتاد عن مكانه للألاء باهت مستمد من الجو المحيط بهما ... وإلى جدائلها القصيرة المدلاة على جبهتها وقذالها ، تلك الجدائل التى كانت مشدودة فى العادة كالزنبرك ، فأصبح بعضها الآن مفككا بفعل ذلك الركض العنيف ، ومبعثرا فى ذؤابات على جبهتها وعنقها ... وكان جون الذى لم يعش خلال أشهر غيابه الطويلة إلا ليراها ثانية ، كان فى حالة تبجيل مذهل . وإذ انحنى عليها قبلها فى رقة .

وكانت آن تفيق على التو من غيبوبتها ، وغمغمت وهى تمر بيدها على وجهها :

ـــ أوو ، ياسيد دريمان ، أبدا . أبدا !

وقال جون :

ـــ لقد ظننت أنه وراء الأمر .

وفتحت آن عينيها ، وجفلت متراجعة عنه . وقالت فى حدة :

ـــ ما الأمر ؟

وأجاب جون وهو يرتجف قلقاً ، ويتناول يدها :

ـ أنت مريضة ياعزيزتى الآنسة جارلاند .

وقالت الفتاة :

ـ أنا لست مريضة ، ولكنى منهكة القوى . ألا نستطيع أن نمضى . . . كم نبعد عن أوفركمب ؟

ـ حوالى ميل . ولكن خبرينى ... هناك أحد كان يؤذيك ... كان يرعبك . وأنا أعلم من كان هذا الرجل ... كان دريمان ، والحصان كان حصانه . فهل تفضين إلى الآن بكل شيء ؟

وفكرت آن ، وقالت :

ـ وإذا أفضيت إليك بذلك فهل تناقشنى إذن فيما يحسن بى أن أصنعه ؟ وهل تمتنع عن إبلاغه فى الوقت الحاضر إلى أمى وأبيك ؟ أنا لا أريدأن أزعجهم ، ولا ينبغى لى أن أدع شؤونى تعكر صفو علاقة العمل بين الطاحون وأوكسويل هول ، تلك العلاقة التى دامت سنوات عديدة .

ووعدها جاويش البروجى بذلك ، وقصت عليه آن الواقعة . واحتقن جبينه وهى تمضى فى روايتها ، وقالت بعد أن انتهت منها :

ـ إنك الآن غاضب ، فلا تقدم على أمر رهيب ، أليس كذلك ؟ تذكر أن فستوس هذا سيخلف عمه فى أوكسويل برغم المظاهر الحاضرة ، وإذا خلف بوب أباه فى الطاحون فيجب ألا تقوم عداوة بينهما .

ـ هذا صحيح . أنا لن أقول شيئاً لبوب ... دعى أمره لى . أين دريمان هذا الآن ؟ ... إنه فى طريق عودته إلى بيته على ما أظن ... سأناقشه الحساب بعد مرافقتك إلى البيت ... وسيتم ذلك فى هدوء تام حتى أنه لن يقول عنه كلمة.

ـ نعم ، الجأ إليه ، افعل ذلك ! فقد تتحسن حاله عندئذ .

وسارا معا، وقد بدا على لفدى أنه ينعم بقدر كبير من سعادة هادئة ...وقال:

ـ جئت أبحث عنك مدفوعاً بدافع ذلك الخطاب العزيز المعسول الذى كتبته لى .

وقالت مقرة بذلك ، وقد ساورتها الريبة الآن بعد أن بدأت تدرك خطأها :

ـ نعم ، أنا كتبت لك خطابا بالفعل ، وكان ذلك لأنى أسفت على تأنيبى لك .

وقال جون مغتبطا :

— أنا أكاد أكون سعيدا بهذا التأنيب ، إذ لولاه لما وصل إلى الخطاب وقد أعدت تلاوته خمسين مرة فى اليوم .

وجعل هذا القول آن فى حالة تعسة . وواصلا سيرهما دون أن يزيدا قدرا آخر كبيراً من الـكلام حتى بدت مداخن الطاحون تحتهما .

وقال جون عندئذ إنه يريد تركها لتدخل البيت بمفردها .

— آه ، هل تعود أدراجك ثانية لتقع فى خطر كبير بسببى ؟

وقال جون مبتسما :

— لا يمكن أن أقع فى خطر كبير بالتقائى ومثله هذا الفتى ، أليس كذلك ؟

وقالت فى استهانة طرأت فجأة على لهجتها :

— طيب ... لا .

كان لاغنى عن مصارحته بالحقيقة . ولعل البدء فى انتهاج هذا النهج بإبداء استخفاف مفتعل بمخاطراته الشخصية يكون طريقة مجدية كأية طريقة ناجية أخرى . فعندما تؤول الصداقةعلى أنها حب يكون التظاهر بعدم الاكتراث هو التعبير الذى لابد منه عن تلك الصداقة .

وعلى ذلك تركته يذهب . وإذ طلبت إليهأن يعود مبكرا على قدر مايستطيع ، هبطت من التل بينما أقدام جون اتبعت طريق الصعود .

وقضى جاويش البروجى طوال بعد الظهر والعشية فى ذلك البحث الطويل العسير عن فستوس دربمان . والتقى بالسيدة لفدى ومولى وهو يجتاز السهل فى آخر الساعة الثانية من ساعات بحثه . وكانت عربتهما قد أصلحت ، وعلتا بأن إنذار الخطر كان على غير أساس . وكان يمكن أن تعودا إلى البيت سعيدتين بمقدار لولا جزعهما على آن . وأخبرهما جون فى اقتضاب أنها أعينت على الوصول إلى بيتها ، ثم واصل شق طريقه .

أما الشخص القيم الذى كان موضوعا لبحثه فقد قضى هذه الأثناء يكد فى المسير إلى بيته على قدميه ، عابسا لفقد حصانه ، مثقلا بسيفه ونطاقه ، وحذائه العالى ، وبزته العسكرية ، غير مبال وهو متعثر فى خيبته أتعرضت حياة آن للخطر أم لا .

ووصل دريمان فى النهاية إلى حيث ارتفع كثيبان على جانبى الطريق ، فصعد فى أحدهما ، وواصل مسيره هناك بدلا من طريق المرور الوعر . ورأى أمامه رجلا هرما يجلس وعيناه شاخصتان إلى تراب الطريق ، وكأنما قصد من جلوسه الراحة والتأمل فى نفس الوقت . وإذ تيقن فستوس تماما من أنه عرف عمه فى شخص هذه الطلعة الوقورة ، تقدم إليه خلسة حتى أصبح يعلو ظهر الرجل مباشرة. وكان هذا الأخير يرتدى سروالا من جلد الماعز ، وجوربا ملطخا بالأوساخ ،وقبعة مبتذلة ، وسترة كانت فيما مضى ذات لون لازوردى، ولكن تعرضها لتقلبات الجو فوق فزاعة الطير جعلها تتخذ لون وشكل النسيج المعجن المجفف . كان المزارع فى طريق عودته فعلا إلى بيته الذى غادره فى الصباح بعد مغادرة ابن أخيه له ببعض الوقت ، وذلك التماسا للمأوى فى جوف شجرة على بعد ميلين . وكانت هذه الشجرة تقع فى مكان يشرف على منظر بيته . وحزم العم بنجى رأية على أن يتسلق إلى جوف هذا الحصن الطبيعى على ارتفاع يكفى لمراقبة بيته من ثقب فى لحاء الشجرة . وظل هناك حتى اجترأ على الخروج ثانية إلى وضح النهار بعد أن استخلص من الكلمات التى فاه بها المارون عرضا أن إنذار الخطر كان على الأقل سابقا لأوانه .

وكان مشتغلا الآن وهو شارد الذهن فى تخطيط رسم على التراب بالعصا التى يتوكأ عليها ، وتمتمة أقوال لنفسه بصوت عال . ولم يلبث أن نهض وسار فى طريقه دون أن يتلفت . وتملك فستوس فضول كاف دفعه إلى النزول وإلقاء نظرة على الرسم . وكان يمثل مستطيلا ذا نصفى قطرين ، ومربع صغير فى وسطه . وقد كتب على القطرين العددان ١٧ر٢٠ ، وعلى خطى محيطة المتوازيين علامة تشير إلى نقطة الارتكاز .

وقال فستوس لنفسه : « أية خواطر مخبولة تمر بباله الآن ! » قال ذلك مشفقا فى عجرفة وقد تذكر أن المزارع كان يتغنى بهــذه الأرقام نفسها قبل ذلك فى الصباح الباكر . ولما لم يستطع أن يستخلص شـيئا من ذلك أوسع فى خطاه ، ولحق بقريبه سائرا على أطراف أصابع قدميه ، ومحنيا بخمش ظهره كما تفعل الدجاجة . ودار المزارع الهرم المنزعج راقصا حول نفسه كالنخلة الخشبية وقال لا هثا وقد تبين ابن أخيه :

— ماذا ! فستى ! إنك لم تقع من فوق حصانك إذن ، وتندق عنقك أخيرا !

— كلا ياخبيث . وماذا جعلك تظن ذلك ؟

— مر بى شامبيون منذ ساعة بينما كنت مختبأ . . أحمى نفسه المسكينة الهيوبة إذ ليس لدى شيء غيرها أخشى فقده بمجيء الفرنسيين . . . مر بى وقد بدأ شنيعا بركابه المدلى ، وسرجه الخاوى . كان منظراً كئيبا أن ترى يافستى حصانا يركض دون أن يكون عليه راكبه . . وخطر ببالى أنك قد تكون . . خشيت أن يكون قد ألقى بك من فوق ظهره ، وقتلت ، وأصبحت ميتا كالصئبان .

— بارك الله فى قلبك الهرم العزيز لجزعه الشديد على ، وما هو ذلك الرسم الجميل الذى كنت ترسمه توا بعصاك !

— أوو ، ذلك الرسم . إنه الوسيلة الوحيدة التى ألهى نفسى بها . . وهو يظهر ، كما تعلم ، كيف كان يمكن أن يتقدم الفرنسيون فى حالة هجومهم . إن مثل هذه الترهات تملأ رأس رجل ضعيف هرم مثلى .

— أم هو رسم المكان الذى أخفى فيه شيء ؟ . . . أخفى فيه مال مثلا ؟ . . وقال المزارع عاتبا :

— فستى ، أنت تعلم أنى استعمل دائما القفاز القديم الموجود بخزانة غرفة النوم ، فأضع فيه أى جنيه أو جنيهين أملكهما .

وقال فستوس ساخراً :

— أعلم ذلك بالطبع .

ووصلا إلى نزل منعزل على مسافة ميل ونصف ميل تقريباً من « هول » ، ودخله فستوس وحده بعد أن أبى عمه الاستجابة إلى دعوته الكريمة ، والدخول وتناول شيء على حسابه . وكان أغبر متسخا منهك القوى ، وبقى طويلا فى النزل . وسمع الجاويش البروجى وقتئذ ، وقد بحث فى الطرق سدى ، عن وصول الفارس المتطوع فى غضون المساء إلى ذلك المكان ، وعن أرجحية استمرار وجوده هناك . وعلى ذلك أخذ أخذ يدنو من الباب ، ووصل إليه فى نفس الوقت الذى تحول فيه اغبرار المساء إلى ظلام .

ولم يكن ثمة نور فى الممر ، ولكن جون سار فيه مجازفا ، وسأل عن دريمان ،

وقيل له إنه يمكن العثور عليه فى البهو الخلفى جالسا بمفرده . ولم يستطع لفدى ، أول ما دخل الغرفة ، أن يرى شيئاً ، ولكنه وصل إلى الفراش الذى يرقد فيه فستوس ، مهتديا بهدى شخير عنيف . وقد دل دلالة طفيفة على مكان الراقد ، لمعان أزراره وأجزاء أخرى من بزته العسكرية . ووضع جون يده على الهيكل المتمدد ورجه . فتوقف دريمان عن الشخير شيئا فشيئا ، واعتدل جالسا ، وقال فى نبرات رجل أفرط فى الشراب :

— من أنت ؟ أهى أنت ياعزيزتى آن ؟ دعينى أقبلك . نعم ، سأقبلك .

— صه أيها الأحمق الجدير بالرثاء . سأعلمك طباعا ألطف من أن تضطهد فتاة بهذه الطريقة !

وشد أذن فستوس شدة طيبة إذ أمسك بها . وثار هذا الأخير فسب الدين وضرب الهواء بقبضته فى غير تبصر . وعلى ذلك بادره جاويش البروجى بلكمة على أذنه اليمنى ، ثم بأخرى مثلها على أذنه اليسرى ليعادل بها الأولى معادلة فنية . وقفز فستوس واقفا ، واستعمل قبضتيه بوحشية ، ولكن دون أية نتيجة حاسمة . وقال جون .

— أتريد المنازلة ؟ هيه؟ . . . هراء ! أنت لا تستطيع أن تقاتل أيها الطفل الكبير ، ولم تستطع ذلك قط . أنت لا تصلح إلا لصفعك !

وصفع وجه فستوس براحة يده صفعة أخرى من نفس النوع .

— لا ، ياسيدى ، ياسيدى ، لا ! أوو أنت الفتى الذى ستتزوجه على ما أظن ؟ أقسم أنى لم أرد إيذاءها ياسيدى .

— نعم ، أنا أدعى لفدى . وستعرف أين تجدنى ما دمنا لا نستطيع أن نحسم الأمر بيننا الليلة . المبارزة بالغدارة أو بالسيف ، ولك الخيار بينهما يابنى . خذ هذه اللطمة ، وهذه ، حتى لا تستطيع أن تنسى المرور بى .

وعاد فلطم الفارس المتطوع على أذنيه وخديه ، واستطرد قوله :

— أتعرف لم هذه اللطمات ؟ هيه ؟

— لا ، يامستر لفدى ... ياسيدى ... نعم ، أقصد أنى أعرف .

— لم هى إذن ؟ سأظل ألطمك حتى تنبئنى بسببها . يا إلهى ! لو أنك لم تكن ثملا لما تركتك هنا الليلة إلا نصف مقتول .

— السبب هو أنى أسأت معاملتها . وعلى اللعنة إذا كانت تهمنى ! إنى لن أعود إلى مثلها ولو أشنق لذلك . أين حصانى شامبيون ؟ خبرنى عن ذلك .

وسدد ضربة إلى جاويش البروجى .

ودرأ جون عن نفسه الضربة . ودفعه إذ أخذه بقوة من خناقه ، وألقى به على المقعد قائلا :

— سأظل ممسكا بك هنا حتى تسألنى العفو عن أعمالك اليوم . هل تريد مزيدا من اللكمات ؟ هل تريد ذلك ؟

ورج الفارس المتطوع رجا عنيفا .

— أسألك العفو ... لا ، لن أفعل ذلك . أنا أقول لك إنك لن تجترىء ثانية بمثل ما اجترأت به على ابن أخ السيد الشريف « سكواير دريمان » أنت ياقذر ، يا ابن الطحان ، يادودة الدقيق ، ياحشف القمح ! سأذهب إليك غدا صباحا ، وأثأر لنفسى .

— ستفعل ذلك دون شك ، فهو ما أتيت أنا من أجله .

وبعد أن دفعه لفدى إلى ركن المضجع خرج من النزل وهو يشعر بقدر كبير من الارتياح لأنه بدأ يخوض بسبب آن معركة بلغت من الظرف المبلغ الذى يمكن أن يتمناه أشد العشاق غيره .

ولكن لم تكن لدى جون أية فكرة عن وجه خاطىء من أوجه تلك المغامرة العجيبة . ذلك أن فستوس دريمان الذى ضللته ظلمة المكان وأبخرة الخمر التى شربها ، ورؤيته المستمرة لآن وبوب معا ، لم يحسب قط أن يكون من اعتدى عليه رجلا آخر غير بوب ، لا سيما وهو يعتقد أن جاويش البروجى على بعد أميال .

وكان القمر مطلا أثناء الشوط الأول من مسير جون إلى بيته ، ولكنه عندما صار على بعد ميل من أوفركمب تلبدت السماء بالسحب ، وبدأت السماء تمطر فجأة فى شىء من الشدة . وكان بالقرب منه مخزن غلال خشبى قائم على كومة مرتفعة من الأحجار . وإذ أدرك أن المطر لن يلبث أن ينقطع لأنه ليس إلا وليد عاصفة عارضة ، صعد فى سلم المخزن ، وعبر عتبة بابه حيث وقف يرقب القمر شبه المحتجب من خلال المطر المنهمر . وعلى الأثر رأى لدهشته طلعة امرأة

تجرى قدما فى سرعة كبيرة ، ولم تتجه إلى المخزن لتحتمى فيه، ولكن إلى الأرض الفضاء . ففيم جريها فى هذا الاتجاه ؟ وجاءه الرد بظهور أخيه بوب مقبلا من تلك الناحية على ظهر حصان أبيـــه الثقيل . وترجل بوب وقتما قابلته المرأة ، واحتضنها بين ذراعيه . وظلا واقفين معتنقين والمطر يصطدم بهيكليهما غير الواعيين. والحصان ينظر إليهما .

وارتد جاويش البروجى إلى داخل المخزن ، وارتمى فوق كومة من الأكياس الفارغة المكدسة فى الركن .. لقد عرف أن المرأة كانت آن . واضطجع هناك فى ذهول حتى أنهضه تردد أصوات تحته . تلك كانت أصوات آن وأخيه اللذين احتميا فى أسفل المخزن بعد أن فطنا إلى بللهما .

قالت آن :

— لقد عدت إلى البيت ، وكذلك رجعت أمى وهولى إليه منذ زمن طويل . وكنا جميعا قلقين عليك ، فخرجت أبحث عنك . أوو يابوب ، كم يسرنى أن أراك ثانية !

وكان يمكن لجون أن يسمع كل كلمة من الحديث الذى استمر على هذه الوتيرة مدة طويلة . ولكنه سد أذنيه ولم ينصت . وظلا باقيين ، وظل هو مصمما على ألا يرياه .

وبرغم الأمل الذى تحطم فى لحظة بعد أن صانه أكثر من نصف عام ، فقد استطاع أن يشعر بأن قسوة الاحتجاج قد تكون أكبر من عدم جدواه . ثم إن هذا الوضع لم يتكون مطلقا إلا بوساطته هو ، فلو أن بوب ترك وشأنه لكان قد أصبح زوج امرأة أخرى منذ عهد بعيد .

وخفت حدة المطر ، وانصرف العاشقان ، وشيعهما جون بنظره وهما يسيران وقد لونهما القمر الشاحب والضباب فصارا كصور الألوان المائية . كان بوب يضع إحدى ذراعيـه حول لجام الحصان ، وذراعه الأخرى حول خصر آن . وخرج جاويش البروجى بعد أن تواريا خلف المنحدر ، وسار إلى البيت فى خطوات أبطأ حتى من خطواتهما . وخلع عن وجهه مسحة اليأس بينما كان يتقدم ، ليستبدل بها تصميما رصينا . ولجأ إلى طريقة التمويه لأول مرة فى معاملة

أصدقائه فنسق أسارير وجهه على نحو يخفى خواطره ، وأوصى لسانه أن يتبع مثل ذلك . وأدخل الاصطناع على مشيته نفسها ، حتى منذ الآن وما من أحد يراه . وأخذ يضرب سيقان البقدونس البرى بخيزرانه العسكرية على نحو ما اعتاد فى أول عهده بالجندية ، أيام كانت الحياة فى عمومها مبهجة .

وبعد أن أخفى أفكاره السقيمة على النحو المتقدم هبط إلى الطاحون كما فعل الآخرون قبله ، ناظرا بين حين وحين إلى السبيل المبتل ليتبين إلى أى مدى كان أثر أقدام آن قريبا من أثر أقدام بوب على طول طريقهما ، وكيف أن كل ميل فى خط سيره . كان يتبعه انحراف مماثل فى خط سيرها . ولكنه رفع رأسه بعد ذلك ، وسار صوب الباب الأمامى فى نشاط شديد إلى حد أن صوت مهمازه جلجل فى الفناء .

كان الجميع قد وصلوا إلى المنزل ، ولكن قبل أن يتمكن أحد من أن يقول كلمة ، صاح قائلا :

— آه ، يابوب . كنت أفكر فيك ، كيف حالك بالله يا ولدى ؟ ليس هناك بعد ذلك كله فرنسيون سفاحون كما ترى . فها نحن أولاء نسعد باجتماع شملنا ثانية .

وقالت السيدة لفدى مبتهجة :

— إن العناية الإلهية الطيبة سهرت علينا : نعم نحن بين يدى الله فى كل زمان ومكان .

وقال صاحب الطاحون ، وهو مازال يتألق فى بزته العسكرية الصارمة :

— نحن كذلك ، نحن كذلك ! حسنا ، لنشرب الآن جرعة من الخمر .

وقال ديفيد مقبلا عليهم ، وقد استطال وجهه :

— لم يبق منها شىء .

وقال صاحب الطاحون :

— مـاذا !

— نزعت سدادات جميع البراميل يامعلمى قبل أن أذهب إلى الكنيسة لآخذ

رمحا أحمى به وطنى من بونى . ذلك أنى رأيت ... عليه اللعنة !.. ألا أدعه يشربها هو أو أى واحد من رجاله ما دمنا لا نستطيع نحن شربها .

وقال صاحب الطاحون مذهولا :

— لم يكن يجدر بك أن تفعل ذلك حتى تتأكد من مجيئه .

وقال ديفيد :

— سحقا ، لقد كنت متأكدا من ذلك . وإنى لأوثر أن أرى الكنائس تتهدم، على أن أرى الخمر الجيدة تضيع هباء ، ولكن كيف لى حينذاك أن أكون أصدق علما ؟

وقال لفدى وهو يندفع فى ضوضاء الى مخزن الخمر الذى وجد فيه الصهباء الراكدة تعلو على الأرض بمقدار عدة بوصات :

— حسنا ، حسنا . إن هذا اليوم سيكلفنى ، بهذا وذاك من الخسائر ، مبلغاً طيباً من المال ...

ولدى عودته الى الغرفة استطرد القول فى يأس :

— كيف أستطيع الترحيب بك يا جون ، ما عليك إلا أن تذهب وتنظر ماذا صنع !

وقال ديفيد :

— لقد اغترفت بعضا منه بملعقة ياجاويش البروجى .. وهو ليس بالمشروب الردىء ، وإن كانت له فى الحق ، رائحة الأرض .

وقال جون إنه لا يطلب شيئاً على الإطلاق ، وعندئذ جلس الجميع الى مائدة العشاء ، ومرحوا مرحا معتدلا بشرب كمية من نبيذ خفيف أقدم من الآخر وجدته السيدة لفدى فى قاع دن من الدنان . وطفق جاويش البروجى يذكر لهم وهو مستمسك بالدور الذى قصد أن يلعبه ، وقائع فكهة من النوادر التى وقعت له منذ آخر مرة جلس فيها بينهم هناك . وأخبرهم أن موسم الصيف سيكون لطيفاً جداً ... فالأسرة الملكية ستحضر كالعادة ، وستحدث أشياء أخرى كثيرة هامة . وترتب على ذلك أنه عندما غادر البيت ليعود الى الثكنات لم يخطر إلا ببال القلة أن فى الجيش البريطانى رجلا أروح قلبا .

وكانت آن هى الوحيدة التى شكت فى حقيقة هذا السلوك . وقد وقفت بعض الوقت ، بعد صعودها إلى غرفة نومها ، وقفت تنظر إلى ذبالة الشمعة كما لو كانت شيئاً مؤلماً ، فقد تشكل تعبير وجهها على أساس تيقنها من أن عبارات جون بعــد الظهر ، حينما عاونها على الإفلات من شامبيون ، لا تطابق عباراته الليلة ، وأن القبلة التى شعرت بها شعوراً غامضاً أثناء غيبوبتها لم تكن قبلة وهمية ، ولكنها نظراً للظروف السعيدة التى أعادت إليها بوب ثانية ، جنحت إلى الخواطر المتفائلة ، وأقنعت نفسها بأن جون لن يلبث أن ينظر إليها من جديد على أنها أخته ؟

المموه :

(٢٩)

كان جون لفدى يبدو للنظرة العابرة أنه يحقق ذلك فى سهولة مدهشة . فهو كلما أتى من الشكنات إلى أوقركب ، وكان ذلك يحدث مرة أو مرتين فى الأسبوع ، قص عليها وعلى بوب أخبارا من كل نوع فى حماسه شديدة . وجعل الوقت يمر كأسعد ما عرفه قطان الطاحون ، ما عداه هو نفسه ، ولم يقل شيئاً عن فستوس إلا مالم يتجاوز إخبار آن أنه توقع أن يراه فخاب فأله . وظهر جون ثانية فى الليلة التالية لوصول الملك إلى مقره الصيفى ، وقد بقى لتناول العشاء ، وأخذ يصف الدخول الملكى للمصيف ، وأنوار الزينة الحسنة التنسيق ، والشفوف التى استعرضتها السيدات ، وشموع الدهن التى أضيئت لهذا الغرض . وحشود علية القوم الذين تبعوا الملك هناك .

وخرج بوب من المنزل ، عندما فرغوا من العشاء ليغلق مصاريع النوافذ التى غالبا ما كانت تترك مفتوحة مدة من الزمن بعد إضاءة النور فى الداخل .

وعندما اقترب أخو جون من النافذة كان هذا الأخير لا يزال جالسا إلى المائدة ، وإن كان الباقون قد نهضوا وغادروا الغرفة . وصدم بوب إذ رأى من خلال زجاج النافذة مبلغ التغير الذى طرأ على وجه جون الذى كان طوال تناول العشاء يتحدث إلى آن بطريقته المرحة التى اعتاد أن يتحدث بها فى الآونة الأخيرة . وقد خلع ذلك على تجهم مظهره الحاضر غرابة أشد . فإنه ظل مستغرقا فى التفكير برهة ، وأخرج رسالة من جيب صداره ، ونشرها ، وفى لحظة ضعفه قبل خط الرسالة ، وهو يبتسم ابتسامة رقيقة ، قبل أن يعيدها الى مكانها . وكانت الرسالة هى التى كتبتها إليه آن وهو فى إكزنبورى .

ووقف بوب حائراً . ثم ساوره الشك فى أن جون يتظاهر برضاه عن الأحداث الأخيرة ، مدفوعاً بصدق أخوته ، دون أن يشعر بذلك فى الواقع . وقعقع بوب الآن بمصراعى النافذة ، فنهض جون على أثر ذلك وخرج حيث تبعه بوب على الفور .

وقال الملاح فى صراحة :

ــ ياجاك ، أنا آسف أشد الأسف لأنى أخطأت فى حقك . .

وسأله أخوه :

ــ كيف ذلك ؟

ــ فى مغازلة فتاتنا الصغيرة آن . حسنا . أنت ترى ياجون أننا كنا نعيش تحت سقف واحد ، وقد جعلت نفسى فتاها المحب على نحو ما . ولكنى أخذت أفكر فى أنك قد تكون صاحب الحق الأول عليها ، فإذا كان الأمر كذلك ياجاك فإنى سأفسح لك فى المكان . وأنا . . . أنا لا أهتم بها كثيراً كما ترى . . لا أهتم بها كثيرا جداً . أنا أستطيع أن أبتعد عنها فى يسر . وليست بيننا علاقة جدية بحال . نعم يا جون . أبذل أنت جهدك لتفوز بها ، وأنا أستطيع أن أبحث فى مكان آخر .

ولم يدر بوب الى أى مدى كان يحب آن حتى وجد نفسه ينطق عبارة استعداده لنبذها .

وقال جاويش البروجى الذى لم يجز عليه قول أخيه :

ــ أوو يابوب ، أنت مخطىء . فإنى أعجبت بها أول ما رأيتها ، وأعجب بها الآن ، وأميل إليها . وقد بلغ مدى ميلى إليها الحد الذى يجعلنى أسعد أن أراك تتزوجها .

وأجاب بوب متردداً .

ــ ولكنى حسبتك تبدو حزينا جداً كما لو كنت عاشقاً . وبجمل القول أنى رأيتك تخرج من جيبك خطاباً . وهذا ما أقلقنى وحملنى على المجىء إليك .

وقال جون فى ضحكة مغتصبة :

ــ أوو ، إنى أرى وجه خطئك !

وفى هذه اللحظة مرت السيدة لفدى وصاحب الطاحون بالقرب من المكان الذى وقف فيه الأخوان ، وكانا يتمشيان حول الحديقة فى الشفق : وتحدثت السيدة بلسان طلق عن أحداث بودماوث كما كان يفعل أغلب الناس فى ذلك الآوان.

وكانت تقول :

ــ أخبرونى أن المسرح أعيد طلاؤه ، وأن الممثلين جاءوا لإحياء الموسم ، ومن بينهم أجمل الممثلات اللواتى رأتهن عين .

وواصل جون القول بعد مرورهما :

ــ أنا عاشق يابوب ، ولكنى . . . لا أعشق آن .

وقال البحار وقد راوده الأمل :

ــ آه ! . . ومن هى التى تعشقها إذن ؟

وأجاب جون وهو ينظر فى تدبر الى طلعتى السيد والسيدة لفدى وهما يتواريان :

ــ إحدى ممثلات المسرح ! واعلم أنها إمرأة جميلة جدا . ولكن دعنا من التحدث أكثر من ذلك عن الأمر . . . فالحب هكذا يداهم الرجل . . .

وقال بوب فاغر الفم :

ــ أوو ، إحدى الممثلات !

وواصل جاويش البروجى القول فى حماسة :

ــ لكن إياك أن تذكر شيئاً عن هذه المسألة ، فأنا لا أريد أن يعلم بها أحد .

ــ لا ، لا . لن أذكر شيئاً عنها بالطبع . وهل أستطيع أن أعرف اسمها ؟

وأجاب جون :

ــ لا ، ليس الآن يابوب .

وقد قال لفدى ذلك صادقاً ، لأنه لم يكن يعرف اسم أية ممثلة من ممثلات العالم .

وعقب انصرافه أسرع بوب الى آن ، وهو فى حالة انفعال شديد ، ووجدها على قمة ربوة مجاورة كانت بقية ضوء النهار لم تكد تنحسر عنها . وقالت له فى نبرات عتاب رقيقة :

ــ لقد تأخرت فى حضورك مدة طويلة ياسيدى .

ــ نعم ، يا حبيبتى . وسيسرك أن تسمعى السبب . إنى وقفت على السر بأكمله ... نعم عرفت سبب غرابته ... عرفت كل شىء .

وبدأ على آن الفزع :

ـــ إنه غارق فى الحب إلى ذقنه ! وينبغى أن نعاونه ، وإلا فإنى أخشى أن تصل كآبته إلى مايشبه الجنون .

وسألته آن متخاذلة الصوت :

ـــ نحن نعاونه ؟

ـــ لقد أضاع قلبه وراء إحدى الممثلات فى بودماوث ، وأظنها تستخف به.

وصاحت :

ـــ أوو ، كم أنا مغتبطة !

ـــ أمغتبطة لأن مغامرته لن تثمر ؟

ـــ أوو ، لا . بل لأنه على هذا النحو المرهف من الحس . . . كم من الوقت مضى على ذلك الإنذار بمجىء الفونسيين ؟

ـــ ستة أسابيع ياحبيبتى . . . لماذا تسألينى عن ذلك ؟

ـــ يستطيع الرجال أن ينسوا فى ستة أسابيع ، أليس كذلك يابوب ؟

وكانت لا تزال متأثرة بأن جون قبلها فعلا .

ولاحظ بوب فى حكمة :

ـــ حسنا . قد يستطيع ذلك بعض الرجال ، ولكنى لا أستطيعه أنا . بيد أن جون قد يستطيعه . أنا لن أتمكن من نسيانك بعد مدة يزيد طولها على تلك المدة عشرين ضعفا . اعلمى يا آن أن شطرا من تفكيرى انصرف إلى حسبان جون يهتم بك أنت ، وقد انزاح حمل عن قلبى عندما أنكر ذلك .

ـــ هل أنكر هو ذلك ؟

ـــ نعم . لقد أكد لى بنفسه أن الشخص الوحيد الذى يتملك قلبه هو تلك الممثلة الجميلة ، ولا أحد غيرها.

ـــ كم أود أن أراها !

ـــ نعم ، وكم أود ذلك أنا أيضاً !

ـــ كنت أوثر لو أنها إحدى فتيات الجيران اللواتى نعرف أصلهن ونشأتهن .

ولكن إذا كان هذا هو اختياره فإنى آمل مع ذلك أن تطيب له الخاتمة . لكم أسرع فى تبدله ! إنى أود فعلا أن أراها .

ــ إنى لا أعرف عنها شيئاً كما لا أعرف اسمها ، فهو كتوم جدا ، ولم يشأ أن يذكر شيئاً عنها .

ــ ألا تستطيع أن تحمله على الذهاب معنا إلى المسرح ؟ فنحن نستطيع فى هذه الحالة أن نراقبه ، ونقف فى سهولة على حبيبته الحقيقية ، ونعرف هل هى فتاة صالحه فى مقتبل العمر . فإن كان الأمر كذلك فهلا نستطيع أن ندعوها إلى المجىء هنا ، ونسهل الأمر عليه ؟ لقد كان مرحا جداً فى الأيام الأخيرة ، وهذا يدل على انبثاق الحب . وكانت تمر به أحيانا لحظات كآبة بين خلجات مرحه ، وهذا يدل أيضا على وجود صعوبات .

ورأى بوب خطتها صالحة ، واعتزم أن يضعها موضع التنفيذ فى أقرب ليلة مؤاتية . وكانت آن شديدة التطلع إلى معرفة هل ينطوى صدر جون حقا على عاطفة جديدة ، فإن حكاية بوب أدهشتها كل الإدهاش . ومن المحتمل أن تكون حقيقية إذ انقضت ستة أسابيع على إبداء جون للعلامة الوحيدة الدالة على علاقته القديمة . . وأى أثر لا يستطيع هذا الردح من الزمن أن يحدثه فى قلب جندى مهنته نفسها تحشد الفتيات وراءه ؟

وظل جون لفدى بعد ذلك أكثر من شهر دون أن يحضر لزيارتهم ، وهذا إهمال قدمه بوب دليلا إضافيا على أن عواطف أخيه لم تعد مركزة بنوع خاص فى دائرة بيته القديم . وعندما حضر أخيراً ، وذكروا أمامه نبأ افتتاح المسرح ، خلا وجهه خلوا لا يمكن تعليله من فورة الشعور التى توقعت آن أن تراها مرتسمة عليه . وأجاب فى اهتمام :

ــ نعم ، يابوب ، أنا أود كثيراً أن أذهب إلى المسرح ، ومن ذا الذى سيحضر غيرك ؟

وقال له بوب :

ــ لا أحد غير آن .

ثم بدا أنه خطر ببال جاويش البروجى أن شيئاً كان ينتظر منه ، فنهض وقال لبوب على حدة فى شىء من الارتباك .

— أوو ، نعم . سنذهب بالطبع . وبما أن لى علاقة بإحدى اللواتى . . . مختصر القول أنى أستطيع إدخالكما المسرح دون مقابل . دعنى على الأقل أرتب جميع الأمور.

— نعم ، نعم . إنى لأعجب كيف لم تعرض علينا يا جاك أن تذهب بنا إلى المسرح وتتيح لنا أن نراها مليا !

— كان ينبغى أن أفعل ذلك . وستذهبان ليلة حضور الملك . وأنت لا تريدنى يابوب أن أدلك عليها ، فإن لدى الآن أسبابا تحملنى على أن أطلب إليك أن تمتنع عن ذلك .

وقال له أخوه :

— سنقنع بالحدس والتخمين .

وقالت آن بعد انصراف جون الكريم النفس :

— لكم تغير يابوب ! إنى راقبته فلم يبد عليه أى تأثر حتى عندما انقضضت عليه فجأة بذكر الموضوع الأقرب إلى قلبه .

وقال كابتن بوب :

— لا بد أن هذا يرجع إلى عدم ملاءمة بزته العسكرية لذلك ؟

في المسرح الملكى

(٣٠)

وبعد يومين أو ثلاثة أيام وصلت إليهما رسالة تدعوهما للحضور إلى المسرح فى الليلة التالية ، وتطلب إليهما أيضا أن يرتديا أزهى ملابسهما حتى تناسب المكان المحجوز لهما . وعلى ذلك رحلا بالعربة أثناء العصر وقد ارتدى بوب حلة بديعة اشتراها حديثا كمحاولة للاقتراب من طراز آن حين يظهران معا أمام الجمهور . وبعد أن أكمل أناقته بهذه الحلة الجريئة الحديثة النمط حقا أصبح صورة كاملة لتبيع الحسان الغرير فى أيام الشعرى(١) . فالسروال والحذاء مفصلان على آخر طراز . « وياردات » ، « وياردات » ، من حرير « الموسلين » ملفوفة حول عنقه ، ومكونة نوعا من المأوى للجزء الأسفل من وجهه . وصداران للزينة ، وأزرار ستره كمرايا الحلاقة المستديرة . . . والمبالغة السخيفة فى هندام المرأة التى تلبس الحرير فى شهر يناير كان يضارعها فى ذلك العصر لبس الرجال فى شهر أغسطس قدراً من الثياب يكفى لإذابة أجسادهم . ولم يكن أحد ليحزر من مظهر بوب الآن أنه ركب ظهر المحيط الأطلسى فى كل ليلة ليلاء ، أو عرف مئات من الطرف التى يمكن تحقيقها بطرف حبل ومثقب فى مثل سهولة التحدث بلغة بلاده .

ذلك اليوم كان يوم الأيام . وقد ارتدت آن معطفها النهير المصنوع من الفراء ذى اللون الأزرق السماوى ، وقبعتها من طراز « لجهورن » وثوبها الحريرى المنطق تحت الذراعين . وذلك النطاق مزين « بدانتيلا » مقاطعة « هونيتون » البديعة المشتراة من السيدة التى جاءت من تلك المنطقة إلى أفركب وما جاورها حاملة سلة مملوءة بمنسوجات صبغتها بنفسها كما صنعت غطاء حشية أثناء الطريق . . وقابل جون العاشقين فى النزل الواقع خارج البلدة . وبعد أن أودعوا الحصان « الإصطبل » دخلوا المدينة جميعا ، وأنبأهم جاويش البروجى أن المنتزه البحرى لم يكتظ بالوافدين عليـــه قط مثل اكتظاظه اليوم ، وأن الحاشية الملكية ، وولى العهد ، وكل ذى شأن ، كانوا هناك . وأنه لم يكد يصبح من المستطاع استئجار

---

(١) أشد أوقات الصيف قيظا . (شرح المؤلف)

مأوى بأى مبلغ من المال ، وأن الملك خرج فى « يخته » إلى نزهة بحرية ، وأنه يمكن أن يصلوا فى الوقت الذى يستطيعون أن يروا فيه عودة الملك إلى الشاطىء .

وسمعت أصوات الطبول والصفافير . ورأوا بعد دقيقة أو دقيقتين «الجاويش ستانر» يطوى الشارع صارم الوجه مشتعل الرأس ، شاخص النظرات جادها . وكان يتقدم زمرة رجاله المجندين ، شاهرا سفيه الذى انتظم نصله المتألق أوراقاً مالية من ذات الجنيه الواحد تبعد كل منها عن الأخرى بمقدار بوصتين أو ثلاث بوصات ، وترفرف معبرة عما بذل لأولئك الرجال من نعم بلغت حد الإسراف . وأومأ لجماعتنا إيماءة جافة نصف مكبوتة تعبيراً عن صداقته لأفرادها ، ثم مر بهم . وجاء هؤلاء بعد ذلك إلى عربة مظللة بأوراق الشجر والزهور إلى حد أن الناس لا يكادون يرون من بداخلها .

وتعالى صوت أحد الموجودين بها قائلا .

— تعالوا لتروا الملك . . هيب . هيب . . . هورا !

ودار الجماعة فرأوا من خلال أوراق الشجر أنف كريبلسترو ووجهه . وكانت العربة تحتوى على جميع من يشتغلون عند دريمان . وقال له جون :

— هل سيدك هنا ؟

— لا ياسيدى جاويش البروجى ، ولكن السيد الصغير سيحضر فى الساعة التاسعة ليعود بنا فيما إذا لم تسعفنا الرؤية الكافية لقيادة العربة إلى المنزل .

— أوو ! وأين هو الآن ؟

وقالت آن متململة .

— ماعلينا من ذلك .

ومضى عندئذ جاويش البروجى مطيعا .

وكانت الساعة قد وافت السادسة عندما وصلوا إلى رصيف الميناء . وهناك وحدوا اليخت الملكى فى طريق عودته من النزهة . وهذه واقعة أعلنتها السفن الراسية فى الميناء بإطلاق مدافعها محيية . ونزل الملك إلى البرحاملا قبعته فى يده ، ورد تحيات الجماهير الحسنة الملبس بطريقته المعهودة التى لا يميز فيها بين الناس . ووقفت آن بين الأخوين خلال ذلك الهتاف والتلويح بالمناديل ، وكانا قد ضما

يديهما خلف ظهرها ليحمياها حتى لكأنها تمثال دقيق صغير قد تتلفه صدمة . ولم يلبث الملك أن مر ، وبعد أن أدت له شرطة الجيش التحية العسكرية لحق بالملكة والأميرات فى قصر جلوسستر ، وهو البيت البسيط ، المبنى بالطوب الأحمر ، الذى يقيم به فى غير أبهة .

ولما كان لايزال هناك وقت متبق على فتح أبواب المسرح هاموا على وجوههم فوق الرمال المخملية ، وأنصتوا الى أغانى البحارة ، وكانت أحداها مرتجلة للمناسبة الراهنة .

« ياطريق بورتلاند . الملك فى عرض البحر ، فى عرض البحر !

« ياطريق بورتلاند ، الملك فى عرض البحر .

« لقد تدبرنا الأمر ، وأبحرنا من طريق بورتلاند(١) ! »

وبعد أن تفرجوا بعض الوقت على مباريات العصى التى كانت تجرى عن بعد ، ورأوا خمسة الجنيهات التى أعطيت للسيد المتواضع الذى فلق بعصاه أغلب الرؤوس ، عادوا الى قصر جلوسستر حيث ظهر الملك الآن من جديد هو وغيره من أفراد أسرته ، وركبوا عربات سارت بهم على مهل ، معرجة على المسرح ، تجرها خيول بيض من هانوفر كانت معروفة جيدا فى تلك البلدة وقتذاك .

ووجدت آن وبوب لدى دخولهما المسرح أن جون قد حجز لهما مقعدين ممتازين ، واستدلا من ذلك على أنه حصل عليها دون مقابل بوساطة نفوذ السيدة التى اختارها قلبه . أما واقع الأمر فهو أنه دفع الثمن كاملا لهذين المقعدين كما يدفعه أى رجل أجنبى عن المسرح . بل إنه حتى فى هذا وجد صعوبة فى الحصول عليهما نظرا لمجىء الملك فى تلك الليلة . وبعد أن أجلس آن وأخاه فى المقعدين ارتد الى مكان تحت قبة البناء باهت النور لاتكاد خشبة المسرح تظهر معه .

وقال بوب فى نبرة أرستوقراطية بينما هو يضع فى أنفه قبضة دقيقة من النشوق ، ويخرج من جيبه المنديل الباهر الذى جاء به من الشرق لمثل هذه المناسبة .

---

(١) راجع المقدمة (ذكر ذلك فى الأصل)

ـــ نحن نستطيع أن نرى المسرح على أحسن وجه ، ولكنى أخشى أن تتعذر على جون المسكين رؤيته كلية .

وأجابت آن :

ـــ ولكننا نستطيع أن نراه ونلاحظ على وجهه أى فتاة بين هؤلاء أعجب بها هذا الإعجاب ، فإن ضوء شمعة ذلك الركن يقع على وجهه تماما .

وظهر الملك بعد ذلك فى مقصورته التى أسدل عليها ستر من الحرير الأحمر المزركش الحواش بالذهب . واحتل أفراد أسرة الملك وحاشيته مايقرب من عشرين مقعدا . وظهر وراءهم جمع من شخصيات معفرة بمسحوق « البودرة » ، متألقة متأنقة على أحدث طراز ، ملأت منتصف ذلك المكان الضيق عن آخره ، ولو أن الملك كان يعاضد المسرح المحلى خلال هذه السنوات التى لم يكن التخلى عنه فيها غير ملائم .

ورفع الستار ، وبدأ تمثيل مسرحية كانت هـذه الليلة من تأليف كولمان(١) الذى حظى فى ذلك الوقت بشهرة واسعة النطاق .

وقام السيد « بانسترا »(٢) بتمثيل شخصية المسرحية الرئيسية وساندها بذلك : وأخذت آن ، وهى تقبض بكفها على كف بوب فى خفية ، أخذت تتابع المسرحية تارة ، وتنظر إلى وجه جون المتأثر تارة أخرى ، جون الذى اتجه بعواطفه إلى امرأة أخرى ـــ وتتظاهر بأن ذلك يصدر عنها عفوا . ولم يكن عليها أن تنتظر طويلا . فعندما اعتلت منصة المسرح إحدى ممثلات المسرحية الثانويات لم يبد على جاويش البروجى انه انتبه إليها فحسب . ولكنه انزعج وحدق فيها فاغر الفم . وهمست آن على عجل .

---

(١) هو ابن جورج كولمان ، ويسمى باسمه . وقد تلقى الأب وابنه العلم فى وستمنستر وأكسفورد ، وكتبا عدة مسرحيات . ولكولمان الابن أربع مسرحيات من نوع « الفارس » كتبها ونشرها باسم مستعار هو « آرثر جريفيهون » خشية أن تتأثر شهرته الدرامية تأثرا جديا فى حالة وقوف الناس على أنه يكتب مسرحيات من نوع الفارس (شرح الأصل)

(٢) جاك بانسترا (١٧٦٠ ـــ ١٨٣٦) كان الممثل الشهير ديفيد جاريك قد دربه على التمثيل فأصبح ممثلا مشهورا منذ صباه حتى شيخوخته . وقدكان ملحوظ الجمال ذا عينين سوداوين حادتين ، ولون صابح ، وصوت موسيقى جميل . (شرح الأصل) .

— لا بد أن تكون هذه حبيبته . انظر . إنه يضطرب !

وتلفتت إلى بوب ، ولكن يده أطبقت متشنجة على يدها فى هذه اللحظة بينما شخصت عيناه هو أيضا فى عجب ، إلى السيدة التى اعتلت المنصة أخيرا .

— ما الأمر ؟

وتنقل نظر آن من أحد الرجلين إلى الآخر دون أن يتجه الى المسرح مرة واحدة . وجاءها رد سؤالها من صوت الممثلة التى تكلمت الآن لأول مرة ، فقد كانت نبراته هى نبرات صوت ماتيلدا جونسون . ونفذت الى ذهن كليهما على الفور فكرة واحدة ، وكان بوب أول من عبر عنها .

— ماذا ! . . هل هذه هى المرأة التى اختارها أخيرا ؟

وغمغمت آن :

— إذا كان الأمر كذلك فهو فظيع !

ولكن جون التعس (حسبما يمكن أن نتصور ، كان لا يقل دهشة لهذا اللقاء عن الآخرين . لقد كان على جهل تام بفرقة المسرح وكل ما يتعلق بها . وهو فوق ذلك لم يكن يدرى قط ، على كثرة ما كان يعلمه عن الآنسة جونسون ، أنها تدربت على التمثيل منذ صباها ، وأنها بعد ما لاقت من عقبات وصعاب خلال خمس سنوات ، أسعدها الحظ بأن تحصل ثانية على عمل هنا .

ورأت ماتيلدا الآن جاويش البروجى برغم أنه لم يكن يجلس فى مكان بارز ، كما لاحظت على نحو أوضح وجود خطيبها السابق وآن جالسين فى الناحية الأخرى من قاعة المسرح . ولم يهتم جون ، فيما يتعلق به شخصياً ، أن يجابهها وجها لوجه ، ولكن الذى همه هو الشك الغريب الذى لا بد أن يثيره هذا الاتصال الظاهر بها فى ذهنى صديقيه المحبوبين . ودق ركبته بعد لحظات من التأمل المؤلم ، وقال لنفسه: « قسما إنى لن أفسر لهما شيئاً ، وسيظل الأمر يجرى كما يجرى الآن ليظنا أنها فتاتى، فذلك أفضل من الحقيقة على أية حال .

ولو كان حسن هذا المشهد ، من الناحية الشخصية ، يتناسب فى هذه الآونة مع تيقظ المشاعر ، لتبدد جميع النظارة ، من أفراد الأسرة الملكية إلى الآخرين ، غارقين فى ضباب غامض بمؤخرة القاعة ، غير تاركين من الوجوه البارزة المعبرة.

غير بوب وآن فى ناحية ، وجاويش البروجى إلى اليسار ، وماتيلدا فى الركن المقابل من المسرح . ولـكن هذا المأزق من الحيرة المزعجة التى وقع فيها أربعتهم ، انتهى لحسن الحظ بحادث . فقـد دخل مقصورة الملك رسول يحمل له رسالة . وتوقف التمثيل لحظة . وظل الملك ، بعد فتح الصندوق المشتمل على الرسائل ، ظل يقرأ بضع دقائق فى اهتمام شديد . وشخصت إلى وجهه فى قلق عيون جميع من بالقاعة ، ومن بينهم آن جارلاند ، لأن الأحداث الرهيبة تقع فى غير توقع ، خلال هـذه الفترة الحرجة من التاريخ ، كما تنقض الصواعق . وأومأ الملك فى نهاية الأمر إلى اللورد ... الذى كان يقف وراءه مباشرة . وتوقف التمثيل من جديد ، وألقيت فحوى الرسالة على مسامع النظارة .

إن سير « روبرت كالدر(١) » الذى غادر « فينستر » إلى عرض البحر ، شاهد سفن « فيلنف » ، فأعطى إشارة بدء العمليات الحربية ، وبرغم أن رداءة الجو عاقتها ، فقد أسفرت عن أسر سفينتين من أسطول أسبانيا الحربى، وتقهقر « فيلنف » إلى فيرول .

وقوبل النبأ بحماسة وطنية حقيقية إذا كان الضجيج يمكن أن يتخذ دليلا على حب الوطن . وطلب عزف نشيد « احكمى يا بريطانيا » ، واشترك كل من بالقاعة فى إنشاده . ولـكن أهمية هذا النبأ كانت أبعد من أن تدرك على حقيقتها فى ذلك الوقت . ولم يمر ببال بوب لفدى ، بينما جلس هناك وسمع النبأ ، إلا خاطر ضئيل عن مدى تأثيره فى مصيره .

---

(١) أميرال الأسطول البريطانى الذى قهر الفرنسيين على مبعدة من رأس فينستر « وهم تحت قيادة « فيلنف » . وهكذا انهارت خطة نابليون التى كانت ترمى الى غزو انجلترا بينما أسطولها متغيب ، وقضى على هذا المشروع . وكانت الأوامر قد صدرت الى فيلنف أن يستدرج الأسطول الإنجليزى بقيادة نلسون الى جزر الهنـد الغربية ، ثم يروغ منه ويعود فى سرعة الى مضيق المانش ليحمى السفن المسطحة التى تقصد الشاطىء الانجليزى لغزوه . وسارت الأمور بادىء الأمر فى مصلحة الفرنسيين ، ولـكن نلسون وقف على الحقيقة ، ولئن كان ذلك قد تم فى الوقت الذى لم يسمح له بالعودة فى الوقت المناسب . فأرسل سفينة سريعة الى قيادة الأسطول البريطانى لتحذيره ، وترتب على ذلك أن اعترض « كالدر » سبيل « فيلنف » عند وصوله الى رأس فينستر ، وتصدى له بخمس عشرة سفينة ، وانتصر فى الموقعة . وتقهقر الفرنسيون الى ميناء فيرول بالقرب من كورونا ، ثم الى ساحل قادس . وهكذا قضى على المشروع الذى أعده نابليون لغزو انجلترا .

هذه الحماسة التى قطعت التمثيل شغلت عينى بوب وآن عن الجاويش البروجى مدة بضع دقائق ، وعندما استؤنف التمثيل ، والتفتا إلى ركنه وجداه قد انصرف .

وقال بوب عن معرفة :

ــ لقد انسل فقط إلى ما وراء « الكواليس » ليحادثها هناك ، فهل نذهب نحن أيضاً لنغيظ ذلك الكلب الماكر ؟

ــ لا ، فأنا أوثر ألا أذهب .

ــ هل نعود إلى البيت إذن ؟

ــ لا ، لن نعود إلا إذا كنت لا تحتمل وجودها ؟

ــ أوو ، أبداً . سنبقى إذن هنا . آه ! هى هى ذى تعود ثانية .

وظلا ماكثين ، وأنصتا إلى كلام ماتيلدا الذى كانت تلقيه فى عدم اكتراث لطيف لم يلبث أن بدأ يثير اهتمام واحد من الجماعة إلى حد ملحوظ .

وقال بوب أخيراً فى لهجة إعجاب وهو يحدق فى الآنسة جونسون بكل قواه :

ــ أية أعصاب تملكها هذه الفتاة ! إن ذوق جاك ليس رديئاً على كل حال. إنها ماهرة مهارة شيطانية .

وقالت آن فى سرعة :

ــ بوب ! سأعود إلى البيت إذا رغبت فى ذلك .

ــ أوو ، لا . . . دعينا نرى كيف ستتخلص من المأزق الذى تمثله الآن . ما أمهرها فى ذلك بالتأكيد !

ولم تزد آن شيئاً على ماقالت ، ولكنها ظلت تنتظر فى ضيق شديد ، وأوشكت أن تبكى . وبدأت تشعر بأنها لا تميل إلى الحياة وتستطيبها على نحو خاص ، فالحياة شديدة التعقيد . ولم تر شيئاً من المشهد ، ولكنها تاقت إلى الرواح ، وأخذ بوب معها . وانسدل الستار بعد المشهد الأخير . وبدأ تمثيل المسرحية الهزلية « لا عشاء إذا لم يكن غناء(١) » ، وهى من نوع « الفارس » ، ولم تشترك ماتيلدا فى تمثيلها . وعادت آن فسألت هل من الممكن أن يعودا إلى البيت . ووافق بوب

(١) « أوبرا كوميك » من فصلين مثلت على المسرح الملكى « درورى لين » ، ولحن موسيقاها على البيانو والقيثارة « ستيفن ستوريس » (١٧٦٣ — ١٧٩٦) وقد اختاره لينلاى لتلحين « أوبرات » درورى لين عام ١٧٨٧ . (شرح الأصل)

على ذلك هذه المرة . ورافقها فى هدوء إلى خارج المسرح وهو يحوطها برعايته فى محبة مضاعفة ليكفر عن ألوان الفتور التى استولت على لبه بعض الوقت .

وعندما خرج إلى الميدان كان قمر أغسطس يضىء عرض البحر من ناحية رأس « سانت ألدهم » . وتمهل بوب دون قصد ، وعرج على رصيف الميناء. ولدى وصولهما إلى آخر المطاف أخذا يرقبان البحر المتموج صامتين بعض الوقت إلى أن رأيا خطا أسود مستطيلا يخترق الماء من وراء رأس نوث ، وينساب قدما إلى الميناء .

وقالت آن :

— أية سفينة هذه ؟

وقال بوب بلا اكتراث وهو يدور بآن ويشدها بذراعه شداً لطيفاً ،ويعرج بخطوته إلى طرف البلدة المؤدى إلى بيتهما :

— يبدو أنها فرقاطة ترسو فى « رودز » .

وفى هذه الأثناء بدلت الآنسة جونسون ملابسها على عجل ، بعد أن أتمت واجبات عملها تلك الليلة ، وخرجت من المسرح هى الأخرى . وكان المقعدان الممتازان اللذان جلس فيهما بوب، وآن جنباً إلى جنب فى قاعة المسرح لا يتيحان لها إلا أن تظن أن بوب رتب هذا الوضع كنوع من أنواع تحديه لها . وأصبح قلبها ، كما هو الواقع ، منغصا مغيظا منه على قدر هذا التحدى . وبرغم الازدهار الذى طرأ على حال الآنسة جونسون ، فهى ما زالت تذكر — وستظل تذكر دائماً — رحيلها المذل من أوفركمب . وكان خضوع بوب لأمر أخيه أشد إيلاما لها حتى من تدبير هذا الأخير لماحدث . وأثناء هذا الوقت الذى خرجت فيه تملكها يقين ثابت من أن بوب سيأتى فى أثرها ، وينقض تدبير أخيه . ولكنه لم يأت قط برغم انتظارها .

وسارت مارة بجانب المنازل المطلة على البحر ، وتأملت الشاطىء ، ومر السائرين على الأقدام ، والطريق العريض القريب الذى ما أضاءه القمر المنحدر

---

(١) « ذى نوث » رأس تل بارز فى البحر عند ويماوث كانت تقوم عليه قلعة تشرف على الميناء . وهو الآن مرتاد للناس ومتنزه عام . (شرح الأصل)

إضاءة شديدة الإشراق ، حتى تلألأ بوميض سطح الأملاح المتبلورة المتخلفة من رشاش الماء الذى تساقط خلال النهار . وبدت جوانب المتجولين الظليلة فى الطرف الأبعد . وامتد وراءهم البحر الرمادى الذى تشطره خيوط القمر الدقيقة المترامية عبر الأمواج .

ومرت طلعتان بهذا الطريق على مقربة مروعة منها فعرفتهما فى الحال على أنهما آن وبوب لفدى . كانا يسيران على مهل ، وغفلا وهما مأخوذان بحماسة حديثهما عن أى مخلوق آخر غير نفسيهما . ووقفت ماتيلدا بلا حراك حتى مرا بها .

وقالت وهى تواصل خطوات مسيرها السابق قدماً فى حمية لا تتطلبها النزهة :

ـــ كم أحبهما !

وصدر صوت من جوار إبطها قائلا :

ـــ وأنا أيضاً ... لا سيما أحدهما .

ودار رجل حولها ، ونظر إلى وجهها الذى تعرض للقمر تعرضاً كاملا ... وسألته :

ـــ أنت ... من أنت ؟

ـــ ألا تذكرين ياسيدتى ؟ لقد سلكنا طريقاً ما معاً صوب أوفركمب إبان الصيف .

ونظرت إليه ماتيلدا نظرة أكثر تدقيقاً ، وأدركت أن المتكلم هو دريمان فى ملابس عادية . واستأنف الرجل القول :

ـــ أنا أعلم أنك إحدى ممثلات المسرح . هل أستطيع أن أسألك لماذا قلت على هذا النحو العجيب إنك تحبين هذين الإلفين ؟

ـــ على هذا النحو العجيب ؟

ـــ نعم ، وكأنما أنت تبغضينهما .

ـــ لا يهمنى أن تعلم أن لدى سبباً جدياً يدعونى إلى بغضهما . ويبدو أنك تبغضهما أنت أيضاً .

وقال فستوس بوحشية :

ـــ هذا الرجل جاءنى ذات ليلة فى شأن هذه السيدة بعينها ، وأهاننى قبل أن

أتأهب له ، وفر هاربا قبل أن أطلع له وأثأر لنفسى . والمرأة تخدعنى كل مرة ! وأنا أريد أن أفرق بينهما .

— لماذا لا تقدم على ذلك إذن ؟ إن هناك فرصة ذهبية . هل ترى ذلك الجندى الذى يسير قدما ! إنه نوتى وهو فى كل ليلة ينعم النظر فى رواق المسرح ، وعلى صلة « بفرقة الإرغام »(١) التى وصلت إلى الشط الآن من الفرقاطة الراسية فى « بورتلاند » . وهى غالبا ما تأتى هنا لجمع الرجال .

— نعم . وملاحونا يخشونها .

— هذا صحيح . وما علينا إلا أن نخبره أن لفدى من رجال البحر فنتخلص منه فى هذه الليلة بعينها .

وقال فستوس :

— ليكن ذلك ! تأبطى ذراعى ، وتعالى من هذه الناحية .

وسلكا ممشى السائرين على الأقدام .

— ليلة جميلة ياجاويش .

— إنها كذلك ياسيدى .

— أظن أنك تبحث عن أيد تعمل فى البحر ؟

— لا علم لى بذلك الآن ياسيدى . فعملنا لا يبدأ إلا فى العاشرة والنصف .

— أسفا على أنك لا تبدأ الآن ، فأنا أستطيع أن أدلك على صيد ثمين .

— ماذا ، أتقصد ذلك الوكر الذى يضم الشبان فى « أولدرومز » عند « كوف رو » ؟ لقد سمعت عنه ذا الوقت .

— لا ، تعال هنا .

وقاد فستوس الجاويش ، والآنسة جونسون تتأبط ذراعه ، وسلكوا

---

(١) هيئة مكونة من بعض الجنود بقيادة ضابط تقوم بتلك الطريقة القديمة ، السيئة الشهرة ، التى كانت تتبع لجمع الرجال وحملهم على الخدمة فى الاسطول . وكان أولئك الجنود ينتظرون عودة الصيادين أوغيرهم من الرجال الذين على شاكلتهم ، ويضغطون عليهم ، أو « يرغمونهم » على الخدمة البحرية .

الطريق على عجل . وعندما وصلوا إلى « ناروز »(١) ظهر العاشقان أمامهم إذ كانا يسيران على مهل .

وقال فستوس :

— ها هو ذا رجلك .

— هذا الظبي فى السروال والحذاء القصير . . . البادى فى مظهر السيد ؟

— كان منذ اثنى عشر شهراً وكيل ربان على ظهر السفينة الشراعية « بيويت » ، ولكن أباه جمع ثروة واستبقاه فى البيت .

— حقاً ، لقد أخبرتنى الآن . . . فإن فيه شيئاً يشير إلى مشية رجال البحر النشطة . ما اسم هذا الفتى الغرير ؟

وهمست ماتيلدا وهى تتشبث بذراع فستوس فى انفعال :

— لا تخبره ،

ولكن فستوس كان قد قال من فوره :

— روبرت لفدى ، ابن صاحب الطاحون فى « أفركمب » . ويمكنك أن تجد فى الأنحاء المجاورة فتياناً كثيرين على شاكلته .

وقال الجندى البحار إنه سيتذكر ذلك ... وغادراه .

وقالت ماتيلدا دامعة العينين :

— وددت لو أنك لم تذكر له اسمه ، فإنها هى أردأ الأثنين !

— اجترئى على الآن ، . . أنصتوا إلى هذا !. . . كيف هذا ! إنك وافقت على ذلك موافقتى أنا أيتها الرعديدة الداهية .. ألم يعاملك معاملة سيئة ؟

وعاودت ماتيلدا غلظتها ، وقالت :

— لقد كنت فى محنة ، ولولا ذلك لما واتته الفرصة .

— حسناً . دعى الأمور إذن تجرى فى مجراها ؟

(١) معنى هذا الاسم « المسالك الضيقة »

زوار منتصف الليل

(٣١)

سارت الآنسة آن وبوب على مهل إلى النزل ، وطلبا العربة وحصانها ، وذهب السائس يستحضرهما بينما أخذ صاحب النزل يحادث بوب فى الممر محادثة هادئة . وكان يعرفه ويعرف أسرته معرفة وثيقة ، قال وهو يلقى نظرة إعجاب إلى رداء بوب :

ـــ أهذا اللبس إذن لأنك تريد ذر الرماد فى عيـــون فتيان سفينة « بلاك دياموند » ؟

وقال بوب :

ـــ « بلاك دياموند » ؟

وشحب وجه آن .

ـــ كانت تبدو للعيان صاعدة هابطة بعد حلول الظلام مباشرة ، وفى الساعة التاسعة ركب اكثر من اثنى عشر بحاراً مرتدين عباآتهم ، قارباً ساروا به مجدفين إلى الميناء .

واستغرق بوب فى التأمل . وقال :

ـــ ستكون هناك كبسة إذن الليلة ، كونوا على ثقة من ذلك .

وقالت آن منزعجة :

ـــ إنهم لن يعرفوك . . أليس كذلك يا بوب ؟

ولاحظ صاحب النزل وهو يضحك ويعيد النظر إلى بوب تصويباً وتصعداً :

ـــ لا شك أنهم لن يعرفوه نوتيا الآن . ولكنى لو كنت مكانكما لركبت إلى البيت رأساً فى هدوء يا سيد لفدى . ولانهمكت فى العمل بالطاحون كل الانهماك غد .

وركباً العربة وسارا بها وضيقت آن جفنيها محدقة باهتمام شديد فى اتجاه بورتلاند ، ولم يظهر هيكل السفينة المعتم وهو جاثم فى البحر كالحوت ،

إلا على قدر ما تراه العين ، إذ كان كعارض خلفى لأضواء ست سفن أقرب منه إلى الشاطىء .

وسألت آن :

— إنهم لا يستطيعون إرغامك على الذهاب الآن وقد أصبحت من السادة التجار . أليس كذلك ؟

— إذا كانوا فى حاجة إلى فسيأخذوننى يا حبيبتى . ألم أقل مراراً إن على أن أتطوع ؟

— ولا تهتم بى مطلقاً ؟

— إن هذا بالذات هو الذى أبقانى فى القرية . وأنا لن أتركك ما دمت أستطيع ذلك .

— لا يمكن أن يكون هناك فرق كبير لدى الدولة فى بقاء رجل واحد أو ذهابه . ولكنك إذا أردت الذهاب فأولى بك أن تتعجل ، ولاتهتم بنا إطلاقاً !

ووضع بوب حداً لحديثه بإبداء علامة مودة يجود التاريخ بأمثال عديدة منها فى كل عصر وأوان . ولم تذكر آن شيئاً بعد ذلك عن « بلاك دياموند » . ولكنهما لم يصعدا فى تل إلا تلفتت لترمق أضواء « بورتلاند رودز » ، وامتداد البحر الرمادى القائم دونها .

وبرغم ما ذكره كابتن بوب من أنه لا يرغب فى التطوع ، وأنه لن يتركها ما دام قادراً على ذلك ، فإن قوله هذا كان يحتاج إلى بعض التعديل . فصحيح أن آن كانت فاتنة وودوداً إلى الحد الذى يربطه بأى مكان ، ولكنه بدأ يدرك أن العمل فى الطاحون عمل على نحو مزعج فى بعض الأحيان . وكثيراً ما كان يتثاءب خلال الشهر الأخير بينما هو واقف بين الدواليب المقعقعة فى سترةالطحان الجديدة التى لا تلائمه ... ويذكر فى لهفة صدار الملاحين القديم ، وماء البحر الأزرق العميق الغور ، وكان شديد الخوف من أن يكدر أباه بإبداء شىء من هذا التغير الذى طرأ على ميوله . بيد أنه كان يمكن أن يقدم على ذلك لولا علمه بأن زواجه بآن يتوقف كل التوقف على استمساكه بالعمل فى الطاحون ، هذا الزواج الذى كان يؤمل فى إمكان عقده فى العام المقبل . ثم إنه حتى إذا لم يهتم

أبوه بالأمر ، فالسيدة لفدى لن تودع ابنتها الوحيدة أمانة بين يدى زوج سيتغيب عن داره خمسة أسداس أيامه .

ولكن برغم عدم نفوره من الملاحة فى حد ذاتها ، فهو لم يكن يحتمل ، بصرف النظر عن آن ، أن يتم تهريبه إلى هناك بوساطة ذلك الجهاز المكون من « عصابة الإرغام » . وإن عملية القبض والصعق والتصفيد وحمل الأيدى غير الراغبة فى العمل برغم إرادتها ، هى إحدى العمليات التى اعتزم بوب دائماً ، بحسبانه رجلا ، أن يقاومها بكل ما يملك من قوة . وعلى ذلك أكثر من إرهاف السمع لأصوات قد تصدر وراءه وهو فى طريقه إلى البيت ، ولكنه إذ لم يسمع شيئاً أكد لحبيبته أنهما سيقضيان ، ولو الليلة فقط ، فى أمان . وكانت الطاحون لا تزال تدور لدى وصولها . وإن كان السيد لفدى الكبير لم يظهر لها . فلقد أوى إلى البيت على أثر سماعه وقع حوافر الحصان على الطريق ، وترك لبوب ملاحظة الطحن حتى الساعة الثالثة ، وعندئذ يصحو الرجل الكبير ويأوى بوب إلى فراشه ... ذلك ترتيب مألوف بينهما منذ شغل بوب وظيفة طحان .

وعندما وصلت آن إلى غرفتها الخاصة مختلية بنفسها ، فتحت النافذة على مصراعيها لأنها لم تكن تنوى قط أن تأوى إلى فراشها بعد فى هذه الساعة . وكانت حكاية السفينة « بلاك دياموند » قد أزعجتها بطريقة بطيئة غادرة هى أقبح من الخوف المفاجىء . وكانت نافذتها تطل على الساحة التى امتدت أمام البيت ، وقد التفت الآن بظلال الأشجار والتل . ومالت آن على قاعدة النافذة منصتة فى اهتمام شديد . وكانت تستطيع أن تسمع الأصوات الصادرة من إحدى النواحى فى وضوح كاف ، ولكن جميع الأصوات الخافتة الصادرة من الناحية الأخرى كانت تتلاشى فى قعقعة الطاحون ، واصطخاب الماء المتدفق فى مجراه .

ومع ذلك كان الصوت الذى وصل إلى سمعها صادراً حتى الآن من الناحية الساكنة ، وظهر فى لحظة أنه وقع أقدام رجال مقبلين . وحاولت أن تدخل فى روعها أنهم شاردون من بودماوث تأخروا فى تجوالهم ولكن لا ، واأسفاه ، فوقع أقدام القادمين كان أكثر انتظاماً من أن يكون لجماعة من الفلاحين . ودارت فى سرعة وأطفأت الشمعة ، وأنصتت من جديد وكان محتملا كل الاحتمال

أن هذه الجماعة ، وهى تقطع الطريق العام ، ستعبر الجسر الذى يؤدى إلى مدخل فناء الطاحون دون أن تعرج عليه ، أو حتى تفطن إلى وجود مثل ذلك المدخل. وخاب أمل آن حتى فى هذا . فقد عبر أولئك القوم الجسر وأقبلوا على الطاحون دون توقف . واضطربت الآن دقات قلبها فما السبب الذى يدعو أولئك الرجال، فيما إذا كانوا من « جماعة الإرغام » ، وغرباء عن هذه الناحية ، إلى الظن بأنهم سيجدون ملاحاً هنا ما دام أن أصغر الرجلين المشتغلين بالطحن من أسرة لفدى لم يره أحد فى ثوب ينم على أنه غير طحان قح كأبيه .

وقال أحد أولئك الرجال :

— لست واثقاً من أن هذا هو المكان المقصود .

وقال آخر:

— هذه طاحون على أية حال .

— توجد طواحين كثيرة فى هذه النواحى .

— تعال إذن لحظة بمصباحك من هذه الناحية .

وتوجه اثنان من الجماعة إلى « اسطبل » العربات فى الناحية المقابلة من الفناء ، وفتحا منوراً مظلماً عند وصولهما إليه ، وسلطا النور على الجانب الأمامى من عربة صاحب الطاحون .

واستأنف الرجل القول وهو يقرأ المكتوب على العربة :

— « لفدى وولده ، طاحون أفركمب » . أنظر، إن الكلمة مكتوبة بالطلاء حديثاً . هذا هو رجلنا .

ومضى ليطفىء النور ، ولكن الضوء غمر طلعتى المتكلمين قبل أن يتم ذلك ، وكشف جاويشاً ، وضابطاً بحرياً ، وثلة من الملاحين .

ولم تنتظر آن لترى أكثر من ذلك . وكثيراً ما كان بوب يجلس فى غرفته أثناء قيامه بنوبة رقابة الطحن ، كما فعل الليلة ، بدلا من إنفاق الوقت بطوله فى الطاحون. وكانت غرفته هذه قائمة فى عزلة فوق المخبز ، والوصول إليها يتطلب النزول ثم الصعود إليها فى سلم خشبى ، مستند إلى الحائط ، مخصص لصعوده . ونزلت آن فى الظلام ، وتسلقت السلم الخشبى ، ورأت النور ينفذ من شق عتبة الباب .

وكانت نافذة بوب تواجه الحديقة فتعذر لذلك على عصبة « الإرغام » أن ترى نورها .

وقالت آن من خلال ثقب المفتاح :

— بوب ، عزيزى بوب ! أطفىء النور ، واهرب من الباب الخلفى !

وقال بوب ، وهو يدق غليونه على مهل لينفض رماد الطباق الذى دخنه :

— لماذا ؟

— عصبة الإرغام !

— هل جاءوا ؟ يا إلهى! من ذا الذى استطاع أن يشى بى؟ حسناً، ياعزيزتى، إلى طريدة لهم .

ونزلت آن فى السلم وهى لا تكاد تدرك ما تفعل ، وجرت إلى الباب الخلفى، وشرعت تفض رتاجه لتوفير وقت بوب ، وتفتحه بلطف لتهىء له الخروج . وهى لم تكد تفعل ذلك حتى شعرت بيدين يضعهما عليها صاحبهما من الخارج ، وسمعت صوتاً يصيح :

— نحن نؤدى عملنا على هذا الوجه ... أيها الفتى المفضال !

ولم تهتم آن بنفسها رغم خشونة اليدين اللتين أمسكتا بها ، وإذ دارت إلى الوراء ، صاحت يائسة بنبرات عالية قصدت بها أن تصل إلى أذنى بوب : « إنهم عند الباب الخلفى ، فحاول الخروج من الباب الأمامى ! » .

ولكن الآنسة جارلاند، غير المجربة ، لم تعرف إلا القليل عن خبث ما اعتاده السادة الذين تعاملهم ، فقد سبق أن أقاموا أنفسهم ، وهم الذين مارسوا هذا اللون من التسلية ، على كل منفذ من منافذ الدار .

وصاح الفتى الذى يقبض عليها :

— هات المصباح ... ماذا ! .. إنها فتاة . لقد ظننت ذلك .

واستطرد يقول لرفاقه وهو يسرع إلى أسفل السلم الذى يؤدى إلى غرفة بوب :

— ها هو ذا طريق للدخول .

وقال بوب وهو يفتح الباب فى هدوء ، ويظهر لهم وهو لا يزال متأنقا

فى كامل ثيابه التى ارتداها فى المسرح الملكى محدثاً ذلك الأثر الكبير ، وكان يوشك أن يخلعها ، ويستبدل بها كسوة العمل ساعة أنذرته آن بالخطر .

ولاحظ أحد الملاحين وقد تأثر نوعا بمظهر بوب :

ـــ لا يمكن أن يكون هذا السيد هو الرجل المطلوب .

وقال الجاويش :

ـــ نعم ، نعم . بل هو الرجل. والآن خذ الأمر بيسر يافتاى الغرير المصنوع من شمع . إنك تبدو كأنك نويت ذلك ، وهذا تصرف حكيم منك .

وقال بوب :

ـــ إلى أين تأخذوننى ؟

ـــ إلى السفينة « بلاك دياموند » ليس إلا . وإذا اخترت أن تتفضل بالمجىء معنا متطوعا ، فسيسمح لك أن تنزل إلى الشاطىء كلما رست سفينتك فى ميناء . أما إذا أبيت ذلك فإننا سنقيد يديك ، ولن تكون لك بعد حرية على الإطلاق. وما دمت ستحضر إن طواعية ، وإن قسرا ، فعليك أن تتبع الخطة الأولى إن كنت على أى قدر من الذكاء .

وبدأت أعصاب بوب تثور :

ـــ لا تتبجح على هذا النحو بتصفيد يدى يا رجل . فإنى عندما استقر قرارى . . .

وقاطعه منذره :

ـــ الآن أو أبداً أيها العنيد .

وقال الملازم قادماً :

ـــ هيا ... ما هذه الثرثرة ؟ أحضروا رجالكم .

ووضع أحد الملاحين قدمه على السلم الخشبى ، ولكن بوب قذف فى هذه اللحظة حذاء أصاب المصباح إصابة مباشرة محكمة التصويب ، وأوقعه كلية من قبضة الرجل الذى يحمله . وبرغم الظلام أخذوا يتسلقون السلم . وأغلق بوب عندئذ الباب الذى كان يعلم أنه واق مؤقت نظراً لضعف تركيبه . ولكن ذلك له وقتاً كافياً لفتح النافذة ، ورفع رجليه إلى قاعدتها ، والقفز إلى شجرة

تفاح نامية خارجها . وقد امتطاها دون أن يصاب بأذى شديد غير بضعة خدوش أصابته بها أفرعها . ودل وابل التفاح الذى انهمر منها على شدة وثبته .

وصاح كثيرون من تحت وقد رأوا وجه بوب يتنقل عبر السماء ، وكأنه وجه غراب .

— ها هو ذا !

وساد السكون الشجرة لحظة من اللحظات . ثم أسرع الهارب إلى تسلق فرع منها مائل صوب الحديقة ، واندفع الواقفون تحت الشجرة جميعاً إلى ذلك الاتجاه ليمسكوا به أثناء هبوطه وهم يقولون : «تستطيع أن تنزل على أية حال أيها الصديق. لقد كانت قفزة رشيقة ، ونحن نقر لك على ذلك بالإبداع . »

وكانت حركة بوب التالية محض خدعة ، إذ تسلل ، وقد ستر ورق الشجر بعضه ، إلى الجانب الآخر من الشجرة حيث كان من السهل عليه أن يقفز إلى بناء خارجى مظلل بسقف من القش . ويبدو أن نيته هذه لم تدر بخلدهم ، فأتيحت له بذلك فرصة الانزلاق على ذلك الغصن المتدلى ، ودخول باب الطاحون الخلفى .

وصاح الرجال وهم يرتدون عن الشجرة صائحين :

— ها هو ذا ! .. ها هو ذا !! . .

وكانوا قد حصلوا فى ذلك الوقت على مصباح آخر ، وتعقبوا بوب عن قرب فى الجوانب الخلفية للطاحون . ودخل بوب الغرفة السفلى ، وأمسك بالسلسلة الحديدية الموصولة بعجلة الطاحون ، المستعملة فى رفع أكياس الدقيق من طبقة إلى طبقة ، وجذب الحبل المعلق إلى جانبها بقصد إلقائه على الآلة الدائرة . ووصل متعقبوه ، المتقدمون على زملائهم ، فى نفس الوقت الذى رأوا فيه من خلال باب السقف رجلى الكابتن بوب ، وإبزيم حزائه ، تغيب وراء دعائم السقف ، وقد دار جسمه بوساطة الآلة كأى كيس من أكياس الدقيق ، وهوى مصراع باب السقف خلفه .

وقال الجاويش وهو يتسلق سلماً فى أحد الأركان إلى الدور الثانى ، ويرفع النور فى اللحظة التى بدا له فيها وجه بوب المعلق يصعد بنفس الطريقة ماراً بباب سقف من نفس النوع إلى الدور العلوى :

— لقد صعد بوساطة القذافة !

وهوى مصراعا باب السقف الثانى أيضاً وراء بوب الذى توارى عن الأنظار كالمرة السابقة .

وأصبح اقتفاء أثره أصعب الآن . فلم يكن هناك إلا سلم صغير واه . وصعد الرجال فيه بحذر ، وعندما خرجوا إلى علو الدار وجدوه خاوياً .

وقال أحد الملاحين ، وكان يعرف عن الطواحين أكثر مما يعرفه الآخرون :

— لا بد أنه غادر الآلة هنا ، فلو ظل متشبثاً بها لحظة أخرى لاصطدم بهذه الدعامة وتحطم .

ونظروا إلى أعلى . وكان الكلاب الذى أمسك به بوب قد صعد إلى السقف، وأخذ يلتف حول الأسطوانة . ولم يبد شىء فى أى مكان آخر غير أقسام مجزأة بألواح خشبية ، كحواجز الخيل فى « الاسطبل » ، بدت على جانبى المكان الذى وقفوا فيه ،وتضمنت، على قدر متفاوت، أكواماً من القمح والشعير على ما يبدو.

— ربما دفن نفسه فى القمح .

وقفز الملاحون جميعهم إلى صوامع القمح ، وحركوا محتواها الأصفر ، ولكن لم تنكشف لهم ذراع أو رجل أو طرف سترة . ونقلوا الأكياس من مكانها ، ونظروا فيما بين عوارض السقف ، ولكن فى غير طائل . وأخذ الملازم يتميز غيظاً لضياع الوقت سدى .

— عليكم اللعنة من حمقى لتمكينكم الرجل من الهرب ! كيف ذلك ! انظروا هنا ، ما هذا ؟

وفتح الباب الذى يستعمل فى نقل الأكياس إلى الداخل من عربات النقل فى الخارج . وتدلى من رأس العاتق البارز من أعلى حبل يرفعون به تلك الأكياس.. واستأنف الضابط قوله :

— هذا هو الطريق الذى نزل منه . لقد ذهب الرجل .

ونزل جماعة الملاحين فى السلمين بين الضجيج واللعنات ، وخرجوا الى الهواء الطلق . ولكن لم يظهر للكابتن بوب أثره فى أى مكان . وعندما وصلوا إلى باب البيت الأمامى كان صاحب الطاحون يقف على عتبته وهو فى نصف ثيابه . وقال الملازم :

— ان ابنك فتى بارع ياصاحب الطاحون . ولكنه لو أتى معنا فى هدوء لكان ذلك أفضل له بكثير .

وقال لفدى :

— إنها مسألة نظر .

— أنا لا أشك أنه داخل البيت .

— قد يكون ذلك ، وقد لا يكون .

— هل تعرف أين هو ؟

— لا . ولو أنى عرفت لما أخبرتك .

— هذا طبيعى .

وقال الجاويش :

— سمعت وقع أقدام تدب فى الطريق ياسيدى .

وداروا عن الباب . وبعد أن تركوا أربعة منهم ليواصلوا الرقابة حول البيت سارت بقيتهم فى الطريق حتى وصلت إلى حيث يتفرع طريق آخر . ورفع أحد الجند المصباح بينما كان زملاؤه قد وقفوا ليقرروا أى الطريقين يسلكون . وبدا شىء أسود على الأرض أمامهم ، وتبينوا أنه قبعة . . قبعة بوب لفدى .

وصاح الجاويش ، وقد استقر رأيه على السير فى هذا الاتجاه :

— نحن نتبع الأثر الصحيح .

وساروا على عجل . ولم يلبث وقع الأقدام الذى سمع فيما مضى أن أصبح مسموعا من جديد ، وازداد سماعه وضوحا ، وقد دل ذلك على أنهم أخذوا يقتربون من الهارب الذى توقف بعد خمس دقائق أخرى . ودار إليهم . وسلط ضوء شمعة المصباح على آن .

وقالت الفتاة مبدية وجهها المرتعب :

— ماذا تريدون ؟

ولم يجبها أحد ، ولكنهم داروا حولها وغادروها . وارتمت على حافة الطريق لتستريح بعد أن قامت بكل ما فى وسعها : وكانت هى التى أخذت قبعة بوب من مشجب بالبيت ، وألقت بها عند منحنى الطريق بقصد تضليلهم حتى يتمكن صاحبها من الهرب .

(٣٢)

ولكن آن جارلاند كانت أشد جزعا من أن تظل بعيدة عن مركز العمليات . وقد وجدت عصبة الإرغام ، لدى عودتها ، واقفة فى الفناء تناقش الخطوة التالية .

وقال الملازم :

ـــ لا داعى لتبديد مزيد من الوقت هنا ، فعلينا أن نزور الليلة قريتين أخريين أقربهما تقع على بعد ثلاثة أميال . وليس ثمة شخص آخر فى هذا البيت ، ونحن لن نتمكن من العودة ثانية .

وأثناء انصراف الجنود الملاحين تحايل أحدهم حتى استطاع أن يهمس فى أذن آن ، وهو يمر بها قوله « سنعود ثانية وقتما تبزغ الخيوط الأولى من الفجر. ولم يقل الآن إلا لخداعكم ، أبعدى فتاك عن طريقنا » . وكان قد لزمها بنظره ، ولاحظ كربتها .

وذهبوا كما أتوا . واجتمع أفراد الأسرة عندئذ . وكانت السيدة لفدى قد ارتدت أثناء ذلك ثيابها ونزلت إلى سفل الدار . وعلى أثر ذلك دارت مناقشة طويلة مضطربة .

ولاحظ لفدى :

ـــ لا بد أن شخصا ما وشى بالفتى . إذ كيف يمكنهم العثور على مكانه بطريقة أخرى وقد مضى الآن على عودته إلى القرية من البحر اثنا عشر شهرا ؟

وذكرت آن عندئذ ما أخبرها به الملاح المتودد فقاموا وبحثوا عن بوب ، ونادوا عليه فى كل مكان خشية أن يكون مختبئا فى المنزل ، وأن يجده الملاحون عند حلول النهار .

وقال صاحب الطاحون :

ـــ أية ثياب يرتديها ؟

وأجابته زوجته :

— ثوبه الجديد البديع ، وأراهن أنه تلف .

وقالت آن :

— لقد ذهب بغير قبعة .

وقال لفدى :

— حسنا . اذهبا أنتما الآن لترقدا ، وسأبقى أنا منتظرا . ولدى حضوره ، وأغلب الظن أن ذلك سيحدث فى غضون الليل ، سأخبره أنهم سيعودون ثانية .

وذهبت كل من آن والسيدة لفدى إلى غرفة نومها . ودخل صاحب الطاحون طاحونه وكأنه لا يقصد من المكث فيها إلا مباشرة الطحن . ولكنه لم يكف عن مغادرة مستودع الدقيق ليخرج إلى العراء ويدور هناك دورة . ولم يتمكن فى أية مرة من أن يرى مخلوقا حيا حول هذه البقعة . واستلقت آن أثناء ذلك على فراشها وهى فى كامل ملابسها ، وأرهفت أذنيها والنافذة لا تزال مفتوحة ، وأنصتت إلى صوت وقع الأقدام خائفة من انبثاق نور الصباح وعودة العصابة . ونزلت إلى المطحن ثلاث مرات أو أربع مرات لتسأل زوج أمها هل ظهر بوب ، ولكن الإجابة كانت دائما نفيا .

وبدأ شكل كلل سريرها يظهر فى النهاية ، والتمعت مقابض الأدراج النحاسية ، وطلع الفجر . ونهضت آن بينما نور الفجر لم يزدعن كونه خضابا شاحبا ، ووضعت قبعتها على رأسها ، واعتزمت أن تستكشف الأماكن المحيطة بها قبل مجىء الرجال وخرجت إلى خلاء الفجر الخام ، واجتازت الجسر وفحصت بنظرها أدنى الطريق وأعلاه . ووجدته كما تركته خاويا . وازدادت الوحدة إلحاحا بسبب سكوت عجلة الطاحون التى أوقفت الآن عن الدوران بعد أن كف صاحب الطاحون عن توقع عودة بوب ، وأوى حوالى الساعة الثالثة إلى فراشه . وظلت آثار أقدام الملاحين مرسومة على التراب فوق الجسر ، وكانت كعوبها المتجهة صوب البيت تدل على أن العصبة لم تعد بعد .

وسمعت وهى تتريث هناك صوتا خفيفا صادرا من الناحية الأخرى ، ورأت وهى تدور ، امرأة تقترب . وكانت المرأة تقبل فى سرعة ، ولدهشة آن تبينت

أنها ماتيلدا . كانت خطواتها متشنجة ، ووجها شاحبا بل يكاد يكون بشعا ، وقد خلع عليه ضوء الصباح البارد كل بشاعة شبح الموت . وظهر فى وضوح أنها قطعت على أقدامها طول الطريق من بودماوث لأن حــــذاءها كان مغطى بالغبار . وقالت لاهثة :

ــ أكانت « عصبة الإرغام » هنا ؟ إذا كانت لم تجىء بعد فسوف تجىء !

ــ كانت هنا .

ــ هل أمسكوه . . لقد جئت متأخرة جداً !

ــ لا ، ولكنهم سيعودون ثانية . لماذا أنت ...

ــ أنا جئت لإنقاذه . أنستطيع إنقاذه سويا ؟ أين هو ؟

وأنعمت آن النظر فى وجه المرأة ، وكان من المستحيل عليها أن تشك فى جدها . . وأجابت :

ــ لست أدرى . أنا أحاول أن أجده قبل مجيئهم .

وصاحت ماتيلدا النادمة على ما فعلت :

ــ ألا تدعينى أعاونك ؟

ودارت آن وسارت فى الطريق المؤدى إلى الجانب الخلفى من ملحقات البيت دون أن توافق على سؤالها أو تعترض .

وكانت ماتيلدا قد شقيت أيضا فى تلك الليلة ، إذ تملكها منذ اللحظة التى فارقت فيها فستوس دريمان شعور الامتعاض من الفعلة التى اشتركت فيها ، وتزايد هذا الشعور حتى صار فى النهاية فيضا من الندم لا تستطيع احتماله فى استسلام . ونهضت قبل بزوغ النهار ، وأسرعت إلى هناك لتقف على أسوأ ما قد يحث ، وتعمل ، فيما إذا كان ذلك ممكنا ، على تحاشى العواقب التى كانت هى أول من جرها عليهم .

ودخلت آن الحديقة بعد أن سارت هنا وهناك فى الحقل المجاور ، وكانت الممرات مبتلة بطل رمادى . وبدا لآن ، وهى تسير فيها بعين مراقبة ، كأن أقداما اخترقتها مسرعة فى ساعة مبكرة جداً . وكان فى آخر الحديقة دغل من عشب وأشجار غار وزرنب تكونت منها غيضة أخذت تزحف على الحديقة باطراد ، وكاد طلوعها يكون عن طريق المصادفة ، ولم يتناولها التشذيب قط . وفيما وراء هذه الغيضة مقعد من مقاعد الحديقة ، وكان بوب ينام فوقه نوما عميقا .

والتصقت أطراف شعره من البلل ، وغشيت أزرار سترته الشبيهة بالمرآة وإبزيم حذائه اللامع ، غشاوة من ضباب . وأطفأت نفس هذه الرطوبة الغادرة مجموعة خواتم أصابعه الذهبية الجديدة . وأصبحت أطراف قميصه ، وأربطة عنقه الحريرية لزجة كأعشاب البحر . وقد وضح أنه ظل هنا مدة طويلة . وهزته آن ، ولكنه لم يستيقظ ، وكان تنفسه بطيئا يتخلله الغطيط .

وقالت آن فى جد برىء :

— استيقظ ، يابوب . إنها فتاتك آن !

ثم أدارت رأسها على خوف ، ورأت ماتيلدا خلفها عن قرب .

وقالت ماتيلدا فى مرارة :

— لا داعى لاهتمامك بى ، فأنا من حزبك . هزيه ثانية .

وهزته آن ثانية ، ولكنه ظل مستغرقا فى النوم . ثم لاحظت أن علامة جرح عميق ترتسم على جبينه .

وقالت رفيقتها وهى تتقدم وتحاول إيقاظ بوب بنفسها :

— يخيل إلى أنى أسمع صوتا !

ثم قالت :

— إنه غائب الوعى أو مخدر ، ويستحيل إيقاظه .

ورفعت آن رأسها ، وأنصتت . وترامت من الناحية الشرقية أصوات خطوات منتظمة ، فشبكت يدا بيد وقالت :

— إنهم عائدون ! وسيأخذونه وهو على هذه الحالة من المرض . إنه لن يفتح عينيه . . لا ، لا فائدة من المحاولة ! أوو ، ماذا سنصنع ؟

ولم تجب ماتيلدا . لكنها وقد جرت إلى طرف المقعد الذى رقد عليه بوب ، أخذت تخبر وزنه بين ذراعيها ، وقالت :

— إنه ليس شديد الثقل . تولى أنت ذاك الطرف ، وسأتولى أنا هذا ، وسنحمله إلى مكان نخبئه فيه .

وأمسكت آن على الفور بالطرف الآخر ، ومضتا بحملهما فى خطى بطيئة إلى باب الجانب الأدنى من الحديقة ، ووصلا إليه بينما تردد وقع أقدام « عصابة الإرغام »

فوق الجسر الذى يؤدى إلى فناء الطاحون ، وقد حجبه الآن عن الأنظار سياج الحديقة وشجرها .

وقالت آن فى خور :

ـــ سنذهب إلى جوف هذا الحقل

وقالت الأخرى :

ـــ لا ، فسيرون أثر أقدامنا فوق الطل . لا بد أن نذهب إلى الطريق .

ـــ إن هذا الطريق هو نفسه الذى سيسلكونه عند مغادرة الطاحون .

ـــ لامهرب من ذلك . وليس أمامنا الآن إلا الحياة أو الموت .

وطلعتا على الطريق ، وترنحتا وهما تسلكانه دون أن تنبسا بكلمة ، وكانتا بين حين وحين تخلدان إلى الراحة لحظة لتريحا ذراعيهما . وتهزان بوب لتوقظاه وتعودان إلى الإمساك بالمقعد بعد أن تجدا عدم جدوى ذلك . وأظهرت ماتيلدا دلائل التعب بعد أن سارتا مقدار ما يقرب من مائتى خطوة ، وسألت رفيقتها .

ـــ ألا يوجد ملجأ قريب ؟

وقالت آن :

ـــ هناك عندما نصل إلى هذا الحقل الصغير من القمح .

ـــ إنه بعيد جداً . ولا بد أن يكون هناك مكان ماقريب ؟

وأشارت إلى دغل من بعض الأعشاب الحقيرة المتدلية فوق جدول صغير يمر فى أسفل الشارع على مقربة من ذلك المكان .

وقالت آن :

ـــ ليست الأعشاب كثيفة إلى حد كاف .

وقالت ماتيلدا :

ـــ دعينا نأخذه إلى ما تحت الجسر ، فأنا لا أستطيع التقدم خطوة أخرى .

وخاضتا ، وقد دخلتا فى ممر تنحدر فيه السوام لتشرب . . . خاضتا فى ماء مملوء بالعشب يعلو على كعبيهما فى هذا المكان بمقدار بضع بوصات . وكان الصعود إلى الجدول ، والانحناء للمرور من تحت القوس للوصول إلى الطريق العام عملا يستغرق بضع دقائق . وغمغمت آن :

— سيكون مصيرنا الضياع فيما إذا أطلوا من تحت القوس .

— ليس هناك حاجز للجسر ، وقد يمرون عليه دون انتباه .

وانتظرتا ورأساهما يكادان يلامسان القوس المتصاعدة الأبخرة ، وأقدامهما محاطة بماء الجدول الذى انخفض سطحه إلى مستواه الصيفى . ومرت دقائق لم تستطيعا أن تسمعا خلالها إلا خرير الماء المار فوق كعوبهما وفوق أرجل المقعد الذى ينام عليه بوب . وكان ذلك الخرير يرتد رنينا موسيقيا من جانبى القوس المجوفين . وأصبح خوف آن فى هذه الآونة ألا يظل بوب نائما حتى يتم البحث عنه ، بل يهب من نومه فى رعونته المعتادة ، ويندفع مرتميا بين أيديهم ، مستخفا بوسائل الأمان هذه .

ومر ربع ساعة يدب دبيبا . ووصلت الى آذانهما دلائل تدل على أن إعادة فحص الطاحون قد بدأت وتمت ، واقترب وقع الأقدام المعروف لهما جيدا ، وارتد فوق رؤوسهما عبر الطريق ، واستدلت المنصتتان من مقداره على أن الجماعة قد زيد عددها برجال متحمسين بعد ما كان من ليلة أمس . ومرت العصبة بالقوس ، وتضاءل صوتها بالتدريج ، وكأنما لم يخطر ببال رجل منها أن ينظر ، لبرهة واحدة ، إلى جانب الطريق .

وقطعت ماتيلدا السكوت ، وقالت والشك يساورها :

— إنى لأتساءل هل تركوا وراءهم عيونا ترصد المكان ؟

وقالت آن :

— سأذهب لأقف على ذلك ، وانتظرى أنت حتى أعود .

— لا ، أنا لا أستطيع أن أصنع شيئا فوق ماصنعت . وسأكون قدغادرت المكان لدى عودتك . وإذا مرت بكما الأمور على خير ، وأقدم على زواجك ... لا تنزعجى فإن خططى تنزع منزعا آخر . . إذا أصبحت زوجته فأنبئيه عمن عاون على نقله بعيدا . ولكن لا تذكرى اسمى لسائر أفراد أسرتك ، سواء الآن أو فى أى وقت آخر .

وتأملت آن من تحادثها لحظة من اللحظات ، ثم وعدتها بما طلبت ، وخاضت فى الماء خارجة من طريق القوس .

ووقفت ماتيلدا تنظر برهة إلى بوب ، وكأنما تعد بذلك نفسها للرحيل ، وظلت كذلك حتى انحنت عليه فى خفة ، مدفوعة إلى ذلك بنازع نفسى وقبلته قبلة واحدة .

وصاحت آن تونها :

— كيف تستطيعين ذلك !

وكانت قد مالت إلى الوراء وهى تغادر ممر القوس ، ورأت المشهد . واحمر وجه ماتيلدا ، وقالت ساخرة :

— أيتها الطفلة الغيور !

وترددت آن لحظة ، ثم خرجت من الماء ، وأسرعت إلى الطاحون .

ودخلت البيت عن طريق الحديقة ، وتقدمت إذ لم تجد أحدا ، وأطلت على الداخل من خلال النافذة ، وكانت أمها والسيد لفدى يجلسان هناك كعادتهما .

وقالت آن فى صوت منخفض :

— هل انصرفوا جميعا ؟

— نعم . وهم لم يزعجونا بأكثر من دخول كل غرفة ، والبحث فى الحديقة حيث رأوا آثار أقدام . وقد واتاهم الحظ الليلة إذ أمسكوا بخمسة عشر رجلا أو عشرين فى أمكنة أبعد من هنا . . إنى لأعجب فى أى بقعة من العالم يختبىء الفتى المسكين !

وقالت آن :

— سأريك هذه البقعة .

وإذ شرحت ما حدث فى بضع كلمات سار كل من ديفيد ولفدى خلفها فى الطريق بسرعة . ورفعت ذيل ثوبها ، واجتازت القوس منزعجة بسبب ماتيلدا . ولكن الممثلة كانت قد انصرفت ، وكان بوب لايزال راقدا فوق المقعد كما تركته .

وأخرجوا بوب من مكمنه ، ورشوا الماء على وجهه . ولكنه لم ينهض ، برغم تحركه ، إلا بعد مرور فترة من الزمن على حمله إلى داخل المنزل . وعندئذ فتح عينيه ، ورآهم يحيطون به ، وأخذ يسترد قدرا قليلا من وعيه .

وقال له أبوه :

— أنت بخير ياولدى ! ماذا حدث لك ، وأين أصبت بهذه الضربة الفظيعة ؟

وغمغم بوب ، وهو يدير حوله نظرة ذاهلة :

— آه . . أنا أستطيع أن أتذكر الآن . لقد سقطت وأنا انزلق على حبل أعلى الشراع . . ذلك أن الحبل كان أقصر مما ينبغى . وكان سقوطى على رأسى . ثم مضيت . وخطر لى ، عندما عدت ، ألا أزعجكم . وعلى ذلك رقدت هناك لأنام وأكون على رقبة . ولكن ألم رأسى كان شديدا جدا إلى حد أنى لم أستطع النوم . ولهذا قطفت بعض أزهار الخشخاش من جانب الممر : وقد سمعت ذات مرة ، أنها تصلح فى جلب النوم للناس عندما يتألمون . وهكذا مضغت كل ماوجدته منها ، واستغرقت فى النوم استغراقا عميقا .

وقالت مولى :

— لقد تساءلت عن قطفها ، فإنى لاحظت أنها زالت من مكانها .

وقالت السيدة لفدى وهى ترفع يديها :

— ما هــذا ، فقد كان من الممكن ألا تستيقظ أبدا ! وكيف حال رأسك الآن ؟

ووضع الفتى يده على جبينه وقد أخذ يهوم من جديد .

— لا أكاد أعرف . وأين أولئك الفتيان الذين هاجمونا ؟ ينبغى أن نهرب منهم مع هذا الماء الساكن . . . والريح المؤاتية . . . اجذبوا الشراع . . . من مقبضه الأيسر . . واستقبلوا به الريح .

وقالت آن وهى تنحنى عليه :

— أنت فى بيتك ياعزيزى بوب . وقد رحل الرجال .

وقال أبوه :

— تعالوا إلى علو الدار ، فهو يكاد يكون مستيقظا الآن .

وأعين بوب على الانتقال إلى فراشه .

استكشاف

يقلب كفة الميزان

(٣٣)

عاد بوب إلى حالته الطبيعية خلال أربع وعشرين ساعة . ولكنه لم يطمئن على موقفه من ناحية وطنيته برغم أنه استرد عافيته ثانية من الناحية البدنية . فإنه كان ذا معرفة عملية بفن الملاحة الذى تحتاج البلاد الى الملمين به أشد الاحتياج وقد أذله أن يجد الإرغام ضروريا ، على ما يبدو لتلقينه كيف يفيد بلاده بهذه المعرفه . وهناك كثيرون من شباب الأماكن، ممن هم أضأل حظا منه ، قد أخذوا مرغمين ، وبدا غيابهم كأنه تأنيب له . وذهب وحده الى سطح الطاحون ، ونفس عن نفسه هناك بتقريعها وهو محاط بأكياس القمح : « لاشك أنى لست برجل مادمت قد قبعت هنا هذه المدة الطويلة بقصد التمتع بالنظر إلى هذه الصبية أربعين مرة فى اليوم الواحد ، وبتركها تنظر إلى — بورك فى عينيها — حتى أحتاج ، لا محالة ، إلى « عصبة الإرغام » لتلقننى ما نسيته . وهل انتهى أمرى إذن بحسبانى مــلاحا بريطانيا ؟ سوف نرى . »

وعندما وقع ثانية تحت تأثير عينى آن اللتين ازدادتا الآن بالذات جمالا خداعا عن أى وقت مضى ، (فهكذا بدتا له) قدر لانعقاد نيته على بذل خدماته لحكومته أن يضمحل ويضعف ، وقدر له أن يرجىء اتخاذ القرار الحاسم إلى الغد . ورأت آن تقلبات عقله هذه بين حبه ووطنيته . ولما كان قد أفزعها ماسمعت عن المعارك البحريه فقد بذلت غاية ماتستطيع من مهارة لتغريه بالرجوع عن قصده المرسوم وجاءت إليه فى المطحن وهى ترتدى أجمل سترة تملكها من سترات الصباح ، تلك السترة التى جاوزت خصرها بقدر قليل جدا ، وطرز ما حول عنقها وصدرها تطريزا زخرفيا حسن الذوق . . ثم يحدث بعد ذلك أن تظهر مرتدية قبعتهـــا الجديدة المزينة بزهر الربيع المعلق بإحدى ناحيتها . وفى يوم الأحد التالى تسير أمامه فى حذائها الليمونى حتى تبدو قدماها كأنهما مطرقتان صفراوان تتنقلان تحت ثوبها .

وكانت الملابس أضعف الوسائل التى اتخذتها لتبقيه رهن قيدها . لقد تحدثت فى صوت أرق من كل ما عهد قبلا ، وطلبت إليه أن يقوم لها ببعض الأعمال الهينة فى الحديقة . وتغنت فى أرجاء البيت حتى يمكن أن يبدو المكان مبهجا عندما يغشاه وكان هذا الغناء الذى يستهدف هدفا يتطلب منها جهدا كبيرا ، ويدعها بعد ذلك تعانى كآبة شديدة . وكلما سألها بوب عما بها كانت تقول :

— لا شىء إلا أنى أفكر فى مقدار ما ستسببه من حزن لأبيك . ومن معارضة لأغراضه إذا حققت فكرتك القاسية الرامية إلى عودتك للبحر ، وتخليك عن عملك فى الطاحون .

وكان بوب يجيبها فى قلق :

— نعم ، سيزعجه الأمر . أنا لا أجهل ذلك .

ويعود إلى التأجيل إذ كان على علم تام بمقدار ما سيسببه لها ذهابه من كدر . وهكذا ينقضى أسبوع آخر .

ولم يحضر جون إلى الطاحون حتى مرة واحدة خلال هذا الوقت بطوله . وبدا كأن الآنسة جونسون قد استنفدت كل وقته وتفكيره . وكثيرا ما كان بوب يضحك من هذه المناسبة ويقول : « الوغد الكبير ! . . يزعم يوم جاءت لعقد القران أنها غير جديرة بى بينما يريدها هو لنفسه ! إنه لفوق مقدورى أن أعرف كيف أمكنه أن يقنعها بالرحيل ! »

ولم تستطع آن أن تنازع حبيبها فى هذا الاعتقاد ولاذت بالصمت . ولكن الشك فى أرجحيـــة ذلك طرق ذهنها أكثر من مرة . بيد أنها لم تنبذ فكرة تدبير جون لمسألة ماتيلدا إلا لتعتنق الفكرة الخاطئة المضادة ، وهى أنه أشفق على السيدة عندما وجد أنه أساء إليها ، ومن ثم نما حبه لها .

واستأنف بوب القول :

— ومع ذلك كان جاك أيام صباه أبسط الفتيان طوية . وأقسم رغم ذلك أنى كنت قمينا أن أحتد عليه لمثل الخدعة التى ارتكبها لو لم أجد بعد فقد ماتيلدا من هى خير منها ! .. ولكنها لن تنحدر إليه وتقبله زوجا بحال ، فقد أصبحت لها الآن سوانح أفكار متعالية ، وأخشى أن يكون مقدرا له التنهد فى غير طائل !

وبرغم أن بوب أسف على هذا الاحتمال إلا أن آن لم تشاركه فى شعوره . وصحيح أنها لم تعلم شـــيئا عن خيانة ماتيلدا ، ولم تصدق حكاية افتقارها إلى الفضيلة ، ولكنها لم تحب هذه المرأة . وقالت لنفسها : « لعل الأمر لايهم إذا كان مقدرا له أن يتنهد سدى ، ولكنى لا أضمر له نية سيئة ، فقد أفدت من أفعاله ، وإن كانت غير مفهومة القصد » . ومالت بعينيها الجليتين إلى بوب وابتسمت .

وبدت الريبة على بوب . وقال لنفسه : « هو يظن أنه جرح شعورى بعد أن استشففت الآن سره ، وأنى سأعارض فى الاجتماع به ! ولكنى لست بالطبع سريع الغضب إلى هذا الحد ، فأنا أستطيع أن أحتمل النكتة العملية كما يستطيع ذلك أى رجل جاب البحار . وسأذهب لزيارته ، وسأراه وأقول له هذا .

وحدث بوب نفسه ، قبل ذهابه ، عن شيء قد يكون برهانا جديدا لجون المخطىء على العفو عنه . وذهب إلى غرفته ، وأخرج من صندوقه لفافة تحتوى على خصلة من شعر الآنسة ماتيلدا كانت أهدتها له خلال علاقتهما القصيرة ، وكان قد نسيها حتى الآن . وعندما ودع آن ، وهو على أهبة الذهاب ، صاحبته ابتسامة أشرقت على نحو فهمت منه الفتاة أن فكرة تستحوذ عليه تماما ، وتساءلت عما يكون هذا الشيء الذى سره إلى هذا الحد .

وقال وهو يضرب على جيب صداره :

— ولكن ، هاهى ذى . . إنها خصلة كانت ماتيلدا قد أعطتها لى .

وتراجعت آن فاغرة الفم :

— سأعطيها لجاك ... وسيقفز فرحا لحصوله عليها . وستدله على مقدار رغبتى فى إعطائها له برغم كونها تحفة بديعة .

وسألته آن وعلى ثغرها ابتسامة غير مستقرة .

— هل تقابلها اليوم يابوب ؟

— أوو ، لا ... إلا إذا وقع ذلك مصادفة .

وعرج رأسا على الثكنات لدى وصوله إلى مشارف البلدة . وواتاه قدر من الحظ جعله يجد جون فى مسكنه الواقع فى الركن الأيسر من البناء المربع ، وسر

جون برؤيته ، ولكنه لم يبد ، لدهشة بوب ، أى شاهد مباشر على ندمه ، ولم يهيء بذلك مجالا ما للحديث الأخوى الذى كان بوب سيدلى به عن الصفح . وشعر هذا الأخير بأنه من المرغوب فيه أن يطرق الموضوع مادام لم يطرقه جاويش البروجى . وقال وهما يجلسان إلى النافذة ، ويطلان على ساحة فناء المعسكر الواسعة :

— جئت لك بشيء ستقدره يا جاك ، فلم تعد له بعد فائدة عندى ، وكان قمينا أن تحصل عليه قبل ذلك لو أن الأمر خطر ببالى .

وقال جون وهو ينظر سارح البال إلى جمع من الفتيان المرتبكين كانوا يقومون بالتدريب العسكرى فى الحوش :

— أشكرك يابوب . وما هو هذا الشيء ؟

— إنه خصلة من شعر فتاة .

وقال جون وقد أفاق تماما من شرود فكره ! واحمر وجهه احمرارا خفيفا :

— آه !

أيمكن أن تكون قد وقعت مشاجرة بين بوب وآن ؟ .. وأخرج بوب لفافة الورق من جيبه وفضها .

وقال جون :

— خصلة سوداء !

— نعم ، سوداء إلى حد كبير .

— لمن هى ؟

— ماذا ، خصلة ماتليدا !

— أوو ، خصلة ماتليدا !

— ولمن ظننتها إذن ؟

واحمر وجه جاويش البروجى ، بدلا من أن يجيب ، حتى صار فى لون الشمس الغاربة ، ودار إلى النافذة ليخفى ارتباكه .

وصمت بوب . ثم اتجه بنظره إلى الفناء هو أيضاً . ونهض أخيراً ، وخطا صوب أخيه ، ووضع يده على كتفه ، وقال بصوت يغاير صوته السابق :

— أنت فتى طيب يا جاك . أنا أرى كل شىء الآن على حقيقته .

وقال جون على عجل :

— أوو ، لا . ليس فى الأمر شىء .

— كنت تدعى اهتماما بهذه السيدة حتى لا يحدث أن ألوم نفسى على إبعادى لك عن الأخرى ، وهو ما حدث منى فعلا دون أن أدرى .

— وما أهمية ذلك ؟

— ولكنه يهم ! لقد ظللت أشقيك طوال أسابيع وأسابيع بعدم تبصرى . واعلم يا جون أنهم كانوا يظنون فى البيت ، على ما بدا لى ، أنك لم تعد تهتم بها . ولولا ذلك لما أقدمت على ما أقدمت عليه ولو فى نظير العالم بأسره !

— تعلق بها يا بوب ، ولا تهتم بى . فهى فتاتك ، وتحبك أنت . وليس لى عليها حق ، وأنا لا أخطر لها على بال .

— إنها تميل إليك كل الميل يا جون ، وكذلك يميل إليك الجميع . آه لو أننى لم أعد إلى بلدى ، ولم أضع فى البيت قدمى ! . . لقد كانت عودتى إلى البيت نقمة حقيقية على الأسرة ، وكان ينبغى ألا أعود أبداً ... إن البحر وطنى ، فلماذا لم أستطع أن أظل هناك ؟

وابتعد جاويش البروجى بحديث بوب عن هذا الموضوع حالما استطاع ذلك . وبدا على بوب ، بعد أن أدلى ببعض أجوبة وملاحظات غير ممحصة ، أنه يرغب كذلك فى تجنب الموضوع الآن . ولم يطلب إلى جون أن يحضر فى رفقته إلى البيت وفق ما كان ينوى . وعرج على الجنوب بعد مغادرة المعسكر ، ودخل البلدة ليتجول هناك حتى يستقر رأيه على ما هو صانع .

كان ذلك فى اليوم الثالث من سبتمبر ، ولكن مصيف الملك البحرى كان لا يزال يحتفظ بمظهره الصيفى . وقد جىء « بكشك الاستحمام »(١) الملكى فى نفس الوقت الذى وصل فيه بوب إلى قصر جلوسستر ، وقد وقف هناك برهة إذ لم يجد تسلية أخرى يتسلى بالنظر إليها : وما خاضت « آلة استحمام » الملك

---

(١) «كشك» استحمام ذو عجلات يدفع إلى داخل الماء فى شواطىء البحر .

فى المـاء حتى ظهر جمع من رجال متألقى المظهر يحملون الـكمان والقيثارة والمزمار والطبل ، وتقدموا وأحتشدوا فى « كشك استحمام » آخر كان فى انتظارهم . وسحب « الـكشك » إلى حيث تتراقص الأمواج فى مؤخرة « الـكشك الملكى » . وكان خفق البحر البطىء هو كل ما يمكن سماعه مدة بضع دقائق . ثم انفجر من داخل « الـكشك » الثانى صوت يصم الآذان . وقد بلغ من قوته أن شق جوانب الـكشك شقاً . وقد حدث ذلك من حشد الموسيقيين المتـكأكئين داخله وهم يعزفون نشيد «حفظ الله الملك» ، وعندئذ أطل جلالته برأسه من الماء . ورفع بوب قبعته ، وانتظر حتّى انتهاء هذا المشهد الذى قصد به نواب المقاطعة المخلصون أن يكون مفاجأة سارة لجورج الثالث . ولعل ذلك الملك المـكتنز الشحم(١) كان يجده مضايقاً أكثر مما كان يجده مرغوباً فيه نظراً إلى ظروف المصيف فى ذلك العام .

وانتقل لفدى بعد ذلك إلى الميناء حيث قضى بعض الوقت متطلعاً إلى منظر الحركة الدائبة الخاصة بشحن السفن وتفريغها ، وبتنظيف ظهور « اليخوت » ... وإلى القوارب والصنادل المحتكة برصيف الميناء ، وإلى بيوت التجار ، وهى تنقسم إلى أبنية قديمة مشيدة من حجر صلد ، وأخرى من خشب أخضر موشح ، لها نوافذ خشبية مقوسة ثقيلة الوزن تبدو كأنها ستسقط فى الميناء لثقلها . لقد أنعم النظر فى هذه الأشياء كافة ، وانحصر تفـكيره فى شىء واحد ... هو أنه أشق أخاه جون إشقاء شديداً .

ودقت ساعة المدينة . وعاد بوب أدراجه إلى أن اقترب من «المنتزه» ، وقصد قصر « جلوسستر » الذى سطعت الشمس على جوانبه الأمامية حتى لم يبد أن هناك بقعة ظليلة يمكن تفيؤها . وتردد هتاف جذب انتباهه ، ولاحظ أن عدداً من الناس احتشد أمام قصر الملك حيث وقفت عربة ذات عجلتين ، ونزل منها رجل فى مقتبل العمر ، متين البنيان ، يرتدى بزة زرقاء ذات أشرطة مذهبة على الـكتفين ، وقبعة مزينة بريشة ، يحمل سيفاً . وقد اجتاز الرصيف ، ودخل القصر . وتقدم بوب فانضم إلى الحشد وقال :

---

(١) تراجع المقدمة (ورد هذا فى الأصل) .

— ماذا يجرى هنا ؟

وأجاب أحد الواقفين إلى جواره :

— كابتن هاردى(١) ؟

— وما شأنه ؟

— دخل الساعة ... منتظراً مقابلة الملك .

— ولكن الكابتن فى جزائر الهند الغربية ؟

— لا . لقد عاد الأسطول إلى الوطن . إنهم لم يعثروا للفرنسيين على أثر فى أى مكان .

وسأل بوب :

— وهل يرحلون ويبحثون عنهم ثانية ؟

— أوو ، نعم . . فإن نلسون مصمم على أن يجدهم . وسيعود إلى عرض البحر بعد إعداد الأسطول من جديد . آه ! ها هو ذا الملك يدخل القصر .

وقد اهتم بوب بما سمع الساعة اهتماماً شديداً إلى حد أنه لم يكد يلاحظ قدوم الملك وحاشيته من السادة النبلاء . واسترسل مفكراً فيما سمعه أخيراً . . . لقد جاء كابتن هاردى ! لا شك أنه يقيم بين أسرته فى منزله بموطنه « بوس — هام(٢) » الذى يبعد أميالا قليلة عن أوفركمب . وقد اعتاد أن يقضى فيه الفترات التى تتخلل طوافه بالبحار .

وعاد لفدى إلى الطاحون دون أن يتأخر مدة أطول من ذلك . وبعد أن أوضح باختصار أن جون بخير ، وسيحضر قريباً ، راح يتحدث عن مقدم ربان السفينة المعقود لواؤها لنلسون .

وقال صاحب الطاحون وهو ينفذ خواطره إلى سنين خلت :

— وهل حضر آخر الأمر ؟ حسنا ، إنى أستطيع أن أذكر يوم غادر البلاد على ظهر السفينة « هيلينا » ، وهو يعمل بها صف ضابط !

---

(١) هو سير توماس ماسترمان (١٧٦٩ — ١٨٣٠) قائد السفينة « النصر » التى كانت ترفع علم « الأميرالية » تحت إمرة نلسون فى موقعة الطرف الأغر . (شرح الأصل)

(٢) المقصود « بورتيشام » موطن أسرة هاردى منذ السلف . (شرح الأصل)

وقالت السيدة لفدى :

— ليست هذه بالذكرى العويصة ، فأنا أيضاً أستطيع أن أتذكرها .

— إنها ترجع على أية حال إلى ما قبل أكثر من عشرين سنة مضت . وأنا أستطيع أن أذكر أيضاً يوم ولد ، وكنت وقتذاك غلاماً يزاول المرانة على المهنة. وقد جاء فى صباه إلى هذا البيت مراراً وتكراراً . ومكث فى هذه الأنحاء مدة طويلة بعد عودته من رحلته الأولى ، واعتاد أن يزور الطاحون كلما مر به . وقالت له أمى ذات يوم وهو يولى قائمة الباب ظهره : « ماذا ستصبح بعد ذلك ياسيدى ؟ » . فأجابها « ملازماً » ياسيدة لفدى .!! وقالت له : «وماذا بعد ذلك؟» « قائداً . » « وبعد ذلك ؟» « بعد ذلك ساعد ربان ». « ثم ماذا ؟ » «ثم أميرالاً» « وبعد ذلك ؟ » ، « بعد ذلك تحين الوفاة » . وأنا ضامن أنه يذكر ذلك حتى يومنا هذا فيما إذا سألته .

وسمع بوب هـــذا كله وهو مشغول البال . ولم يلبث بعد ذلك أن عاد أدراجه إلى الطاحون . ومن ثم توجه إلى غرفته سالكا الممر الخلفى . وأخرج ثياب رحلات البحر من خزانة مظلمة داخل الحائط ، ونقلها إلى «الغرفة المسحورة» فى أعلى الطاحون ، وقضى بقية لحظات الفراغ من يومه فى نفض الأوساخ العفنة عن طيات تلك الثياب ، ونشر كل قطعة منها فى النافذة لتهويتها . وفى المساء عاد إلى الغرفة المسحورة ، وبعد أن ارتدى ثوبه البحرى القديم خرج من البيت دون أن يلحظه أحد ، وصعد فى الطريق إلى البلدة التى قضى فيها كابتن هاردى أيام صباه ، واتخذها فى الوقت الحاضر محل إقامة مؤقتة .

ودكنت البيد الخالية من الظل بفعل جفاف الصيف الجارى ، ولم يقع بصر بوب إلا على قليل من الأحياء . ولم يشب استدارة الربوة الطبيعية إلا مكان يبدو بين حين وحين مكونا من كومة تراب ، وعشب شائك ، أو قطعة يابسة باقية من حائط حاولوا إقامته سوراً حول المكان . وكان الظلام قد نشر ظلاله لدى وصوله إلى القرية ، وأخذت النجوم الكبيرة تشع وهو يسير إلى باب البيت العتيق الطراز الذى كان مقراً لفرع أسرة هاردى الذى استوطن جنوب ويسكس .

وسأل لفدى بعد أن أوضح من يكون ، وما حرفته .

— هل يسمح لى الربان أن أنتظر لأقابله الليلة ؟

وغاب الخادم بضع دقائق ثم قال له إنه يستطيع مقابلته فى الصباح التالى :

وأجاب بوب شاعراً بابتهاج شديد لأن إخفاقه لم يكن شاملا .

— مادام الأمر كذلك ، فسأعود ثانية ،

وما ابتعد عن الباب غير خطوات حتى نودى ثانية ، وسئل هل قدم من أوفركمب ماشياً لهذا الغرض وحده .

وأجاب بوب فى اتضاع بأنه أقدم على ذلك فعلا :

— هل تتفضل بالدخول إذن ؟

وتبع محدثه إلى غرفة مطالعة صغيرة أو غرفة مكتب . ولم تمض دقيقة أو دقيقتان حتى دخل كابتن هاردى .

وكان الكابتن فى ذلك الوقت أعزب فى نحو الخامسة والثلاثين ! أقرب إلى سمنة البدن ، لون عينيه زاه ، وحاجباه كثيفان ، ووجهه مربع عريض ، وذقنه كبيرة ، وركنا شفتيه يتراوحان بين البشاشة والعبوس . وقد فحص بوب بنظره من قمة رأسه الى إخمص قدمه .

وقال بوب منحنيا انحناءة بسيطة :

— أنا روبرت لفدى ياسيدى ، ابن صاحب الطاحون فى أوفركمب .

وأجاب الملاح الدمث :

— آه ، أنا أتذكر أباك ، لفدى . حسنا ، فيم تريد محادثتى ؟

وإذ وجد بوب يعانى بعض الصعوبة فى افتتاح الحديث مال الهوينا على سطح المدفأة ، واستأنف القول :

— هل أبوك فى صحة وعافية ؟ إنى لم أره منذ سنوات عديدة جدا .

— إنه على أحسن حال ... شكراً .

— كان لك أخ فى الجيش على ما أظن ؟ ماذا كان اسمه ... جون ؟ شاب ممتاز جداً ! هذا إذا كانت الذاكرة لم تخنى .

— نعم ، ياكابتن . وهو لا يزال هناك .

— وأنت فى البحرية التجارية ؟

— كنت وكيلا لربان السفينة بيويت .

— وكيف لا تعمل على ظهر سفينة حربية ملاحاً محارباً ؟

وقال بوب وهو يستعيد الثقة بنفسه :

— نعم ، يا سيدى . هذا هو الأمر الذى جئتك فى شأنه . وكان ينبغى على أن أكون كذلك ، ولكن النساء عرقلننى . وقد ظللت أنتظر وأنتظر فى بلدى بسبب فتاة . . . أو سيدة ، على ما كان ينبغى أن أنعتها ... لأنها نشأت فى طبقة من المجتمع أرقى من طبقتى . كان أبوها يشتغل مصورا للمناظر الطبيعية ... ولعلك سمعت باسمه ياسيدى ، إن اسمه « جارلاند » .

وقال كابتن هاردى ناظراً الى لوحة صغيرة قاتمة تبدو فى أحد أركان الغرفة :

— لقد رسم هذا المنظر من قريتنا هنا .

وتطلع بوب إلى اللوحة ، واستأنف القول وكأنه يخاطبها :

— حسناً ، ياسيدى ، لقد رأيت أنه ... وبرغم ذلك جاءت «فرقة الإرغام» منذ أسبوع أو أسبوعين ، ولم تستطع القبض على . فأنا لا أود أن أركب البحر مرغما .

— كانت الحاجة إلى ذلك ماسة جدا . إنها بالطبع ضرورة كريهة ، ولكن لم يكن يستطاع تجنبها .

— وقد حدث منذ ذلك الوقت أمر جعلنى أتمنى يا سيدى لو أنهم وجدونى . وإنى جئت أسألك الليلة هل أستطيع العمل على سفينتك « فكتوريا » ؟

وهز الكابتن رأسه بشدة ، ولاحظ على الفور :

— يسعدنى أن أجدك تفكر فى القيام بالخدمة العسكرية بالفدى ، فالحاجة الى الرجال الحاذقين ماسة جدا ، ولكنه لن يكون فى مقدورك أن تختار سفينتك .

وقال بوب ، وقد نم وجهه على اليأس الذى لم يشأ أن يفصح عنه كل الإفصاح :

— حسنا ، حسنا ياسيدى . ينبغى على إذن أن أجرب حظى فى مكان آخر . وكل ما فى الأمر أن شعرت بأنه أولى بى كثيراً أن أعمل تحت إمرتك قبل أى

قائد غيرك . وأنت ياكابتن هاردى تعرف أبى وتعرفنا جميعاً ، وأسرتانا من نفس هذه النواحى .

واهتم كابتن هاردى بترفع بوب اهتماماً أشد ، وسأله متأملا :

ــ هل أنت ملاح طيب متمرس ؟

ــ نعم ياسيدى . . أعتقد أنى كذلك .

ــ ونشط ؟ وميال الى المرح ؟

ــ حسناً . إننى لا أعرف شيئاً عما ذكرته أخيراً ، ولكن بوسعى أن أقول أنى نشط بقدر كاف . فأنا أستطيع أن أسير على « طرف الراجع » فيما إذا تطلب الأمر ذلك ، وأن أنتقل فوق الحواجز من شراع الى شراع ، وأقوم بكل ما يقوم به الفتيان الذين يسمون أنفسهم بارعين .

وسأله الكابتن فى إثر ذلك بعض الأسئلة عن تفاصيل علم الملاحة . وأجاب عليها الفدى إجابات مرضية ، وكان لحسن الحظ قد خبر أجهزة السفن المجهزة العريضة . وأضاف قوله :

ــ أما عن لف أعلى الشراع فإنى أتمه فى مثل ومض البرق ، وإذا لم أفعل ذلك فإنى أستطيع أن ألفه على نحو يتحمل الجو العاصف . ولم تكن « بيويت » سفينة بطيئة ، وعندما رافقنا الفرقاطة فى طريق عودتنا من لشبونة إلى بلدنا ، استطاعت سفينتنا وهى تسير بأقصى سرعتها ، أن تظل على مرمى البصر من تلك السفينة الحربية المندفعة مع الريح على مبعدة منا . وكان لدينا عدد كاف من الملاحين الذين يلفون أعالى الأشرعة على طريقة الجنود البحارة ، وهذا أمر عزيز النوال فى هذه الأيام ياسيدى إذ يندر وجود الملاحين الأكفاء الآن فى مجال الملاحة التجارية . . .

وأردف بوب فى إخلاص :

ــ وإنى لأسمع أن الأسطول الحربى يفضل كثيراً الملاحين الذين عملوا على السفن المجهزة العريضة لكونهم مدربين معدين للعمل ؟ وعلى ذلك لن أكون ناقص الدراية كلية إذا ما استطعت الالتحاق بسفينتك ، بيد أنى إذا لم أستطع ذلك فما باليد حيلة .

وقال الكابتن مستغرقاً فى التفكير :

— قد أطلبك يالفدى فاذهب إلى هناك إذن على هذا الاساس . ومجمل القول أنى قد أستطيع الإفضاء إليك ! على ما يبدو لى ، بأنى سأطلبك ، وعلى ذلك عد الأمر مقضيا .

وقال لفدى :

— أشكرك ياسيدى .

— هل أنت لا تجهل أن فكتوريا سفينة أنيقة ، وأن النظافة والنظام لاغنى عنهما فيها ، والإصرار عليهما هناك أدق من الإصرار عليهما فى أى مكان آخر !

— أنا على بينة من ذلك تماماً ياسيدى .

— حسنا . أرجو أن تؤدى واجبك على ظهر السفينة الحربية ، بمثل الهمة التى أديته بها وأنت نائب ربان على ظهر السفينة ذات الشراعين ، فهذا الواجب قد يكون خطيراً .

وأجاب بوب بأن محاولة ذلك ستكون أهم محاولة له . ودار لينصرف بعد أن تلقى بضع تعليمات عن ركوبه سفينة الحراسة ، وانتقاله إلى بور تسموث . واختتم الكابتن قوله وهو يطل من النافذة :

— ستقطع شوطا شاقاً يا لفدى قبل أن تصل فى هذه الليلة المظلمة إلى طاحون أوفركمب ، ولهذا سأرسل لك كأسا من الخمر لتعينك على قطع الطريق .

ومن ثم انصرف الكابتن تاركا بوب لنفسه ، وبعد أن شرب هذا الأخير كأس الخمر التى جىء له بها بدأ يسلك طريق بيته بقلب لم يشعر بالخفة تماماً ، ولكنه امتلأ بابتهاج وطنى ظل دون اضمحلال لدى دخوله بيت أبيه بعد أن سار فى سورة انفعاله على عجل الى حد أن نضدت حبات العرق جسمه .

وكان الجميع ساهرين فى انتظاره . ورفعوا فى قلق أعينهم الناعسة لدى اقترابه ، فقد كادت الساعة توافى الحادية عشر . وصاحت آن قافزة ضاحكة لدى شعورها بالفرج :

— ها هوذا . كنت أعلم أن تأخره لن يطول كثيرا ! .. لقد رأوا أن حالتك

كانت غريبة جداً اليوم يابوب ، رأنك كنت تلوذ بالصمت ، ولكن هذا غير صحيح ! أليس كذلك ؟

— وقال صاحب الطاحون :

ما الأمر يابوب ؟

ذلك لأن الحادثة الأخيرة خلعت على وجه بوب جلالا أشبه بجلال القس ساعة خروجه من « أعماق » المعبد .

ولاحظت السيدة لفدى :

— إنه يرتدى سترة وكيل ربان ، كما كان يرتديها تماما لدى عودته من الغربة.

وفطن جميعهم الآن الى أن لديه كلاما يريد أن يفضى به . وقال عندما جلس :

— إنى . سأرحل . سأرحل لألتحق بالخدمة العسكرية فى الأسطول ، ولعلى سأخدم على ظهر السفينة « فيكتوريا » .

وقالت آن متخاذلة القوى :

— سترحل ؟

ومضى فى قوله عابسا ، وهو يقبض على يدها :

— والآن ، لا عليك من ذلك ، فهناك عزيز مازال باقيا . وأنت ياأبى لا تشرع فى أخذ الأمر مأخذ الجد . (وكان صاحب الطاحون يبدو مهموماً) كانت فرقة الإرغام هنا . وبرغم أنى أبديت لها أنى رجل حر ، فسأبدى للناس كافة أنى قادر على القيام بواجبى .

ولم يجبه أحد الثلاثة الحاضرين ، وكان كل من آن وصاحب الطاحون يرخى بصره إلى الأرض ، وحاولت الفتاة أن تكف دموعها عن الجريان .

واستأنف بوب القول :

— والآن لا يحزن كل منكما ، ولا يتكدر لأن ذلك قد حدث . وأرجو ألا تغضب على يا أبى لأنى تخليت عنك وعن الطاحون التى أنت فى حاجة إلى عملى بها ، فإنى مضطر إلى الذهاب . فقد ظللنا نحن وسائر المواطنين نخاف العدو طوال هذه السنوات الثلاث ، واضمحلت التجارة ، وجاع المساكين ، وتحول كثير من الأغنياء إلى فقراء . ولابد أن يكون ثمة خلاص من هذا . وذلك الخلاص

لن يتم إلا فى البحر وقد قابلت كابتن هاردى ، وسأعمل تحت إمرته إذا كان ذلك فى استطاعتى .

ــ كابتن هاردى ؟

ــ نعم . وقد ذهبت إلى بيته فى « بوس هام » حيث ينزل هو وأخواته . وقطعت المسافة على قدمى ذهاباً وإياباً ، وما كنت لأقبل أن يفوتنى ذلك ولو فى نظير خمسين جنيها . وكان أملى فى أن يقابلنى ضعيفا ، ولكنى قابلته فعلا . وهو لم ينسك يا أبى .

وبدأ بوب يقص قصته مرتبة ، ذاكراً على نحو مؤثر الحادثة التى كان طرفا فيها . وأنصتوا إليه فى انتباه انبهرت له أنفاسهم .

وقال صاحب الطاحون فى انفعال :

ــ حسناً . إذا كان لابد من ذهابك ، فليكن ذلك . ولكنى أظن أن يصعب على بعض الشىء من ولدى الاثنين ألا يتيسر حمل أحدهما على البقاء ومعاونتى فى العمل بينما تتقدم بى السن .

وقالت السيدة لفدى قاصدة تهدئته :

ــ لا تجزع ، ولا تتكدر لذلك ، فإن كليهما أداتان فى يد القدر وقع عليهما الاختيار للاقتصاص من ذلك الغول الكورسيكى ، وبذل ما فى وسعهما لخدمة وطنهما فى هذه السنوات العصيبة .

وقال بوب :

ــ هذا هو تكييف الأمر تماماً يا سيدة لفدى .

وواصلت السيدة قولها متلفتة صوب آن .

ــ وسيعود قريباً ، وسيحدثنا عندئذ عن كل ما شاهده ، وعن المجد الذى حققه ، وكيف عاون على اكتساح هذه المحنة البونبارتية من ظهر الأرض .

وسأل أبوه :

ــ متى سترحل ؟

ــ غداً إذا كان ذلك فى استطاعتى . وسأزور المعسكر عند مرورى به ، وأخبر جون بالأمر . ولدى وصولى إلى بورتسماوث ...

وقطع عليه القول دوى من زفرات انطلقت من آن التى كانت تجلس من قبل، هادئة فى الظاهر كل الهدوء ، ويدها فى يد بوب وقفزت السيدة لفدى من مكانها، وقبل أن تقول شيئاً يهدىء من روع الفتاة المهتاجة تمكنت هذه الأخيرة من تهدئة نفسها بمثل السرعة التى تميز بها انهيارها الفجائى ... وقالت :

— أنا لا أهتم برحيل بوب ، بل أرى أن عليه أن يرحل ... لا تظن يابوب أنى أريد بقاءك !

وغادرت الغرفة بعد ذلك ، وذهبت إلى الغرفة الصغيرة الجانبية التى اعتادت هى وأمها أن تقوما فيها بأعمال التطريز . ولحق بها بوب بعد دقائق قليلة ،وأصبح لدى عودته فى حالة شديدة من الاكتئاب والانفعال . وكان فى وسع كل واحد أن يدرك أنه قد جرى وداع بينهما برح بكل منهما تبريحاً عميقاً ... وقال :

— إنها لن تعود إلى هنا الليلة .

وقالت أمها :

— هل تراها غداً قبل رحيلك ؟

فأجاب :

— قد أستطيع ، وقد لا أستطيع . أرجو أن تأويا الآن إلى فراشكما يا أبى ويا سيدة لفدى ، فإن على الآن أن أتفقد حاجياتى ، وأعد نفسى للرحيل ، وسيستغرق ذلك قليلا من الوقت . فإذا سمعتما جلبة فأعلما أنها ليست إلا صوت تنقلى .

وعندما تركوا بوب وحيداً أصبح على حين فجأة نشطاً ، وعكف على تهيئة ملابسه وأشيائه الأخرى بطريقة منظمة . وكانت الساعة قد جاوزت الثانية عند ما أتم إعداد صندوقه ، وطوى الأشياء التى قصد تركها بالبيت فى خزائن الملابس ، وأعدم الأشياء التى لم تعد لها فائدة . ثم أوى إلى فراشه فى هدوء شديد إلى حد أن صرير درجة واحدة قلقة من درجات السلم نمت على صعوده إلى علو البيت . وفى لحظة مروره بباب غرفة آن كانت أمها تميل عليها وهى راقدة فى فراشها وتقول لها .

— ألن تريه غداً ؟

وقالت آن :

ـ لا ، لا ، فأنا أوثر ألا أراه ، وقد قلت إن ذلك محتمل ، ولكنه لن يكون ، فأنا لا أستطيع أن أراه ثانية !

وعندما استيقظ أفراد الأسرة صباح اليوم التالى لم يجدوا لبوب أثراً . وكان من عادته أن يحتجب على هذا النحو ليتحاشى مشاهد الفراق المؤثرة . وفى وقت جلوسهم إلى مائدة الإفطار متجهمين كان بوب يركب قاربا صغيراً للعبور ، ويمر فيه بجوانب سفينة الحراسة ، ويمسك بحبل الصعود ، ويصعد ويتوارى عن أعين الناظرين من الخارج. وأقلعت السفينة فى غضون النهار ، ورفعت «شراعها الملكى»(١) ، ومخرت البحر إلى بور تسموث ، مقلة خمسمائة رجل للعمل على ظهرها ، وبعض هؤلاء من الرجال المرغمين على العمل ، وبعضهم الآخر من المتطوعين ، ومن بين هؤلاء الآخرين روبرت لفدى ؟

---

(١) شراع ملكى صغير يخفق فوق الشراع الكبير (شرح الأصل)

بقعة صغيرة

فوق متن البحر

(٣٤)

قال بوب لجون وهو يفارقه ، وكان هذا الأخير قد رافقه إلى رصيف الميناء :

— هذه هى كلماتى الآخيرة لك الآن يا جاك : إنى أتنازل لك عنها ، ورحيلى هذا عن قصد ، وسيطول غيابى . وإذا مالت إليك فاحرص على أن تنالها مهما يكن هذا الميل قليلا . إن لك عليها حقاً يسبق حتى أنا ، فإنك اخترتها وقتما كان بالى مشغولا بغيرها ، وأنت أجدر بها ، فإنى لم أعهد منك نسيان امرأة واحدة بينما نسيت أنا أكثر من عشر نساء . خذها إذن فيما إذا أقبلت ، وليبارك الله كليكما .

وكان هناك شخص آخر فى توديع بوب غير جون . هذا الشخص هو دريمان الذى كان يقف عند « المرابط »(١) فى رصيف الميناء ، على بعد قليل منهما . وهو لم يكتم رضاه عن هذا المشهد . ونظر إليه جون نظرة ازدراء صريحة ، فإن اللكمات التى كالها للفارس المتطوع لم ترفيه ، على حد علم جاويش البروجى ، أية رغبة فى الأخذ بالثأر لتلك الإهانة . وكان جون لايعلم قط بالطبع أن فستوس نسب الأمر خطأ إلى بوب على طريقته الغريبة ، وإن كانت لا تكاد تمت إلى العسكرية بصلة . ومضى جون إلى سبيله إذ وجده لم يقدم الآن حتى على الاقتراب منه ، وأخذ يفكر فيما اعتزمه من المحافظة على علاقة الحب بين آن وأخيه سليمة دون أن تمس .

وقد أدهشه ، عندما ذهب بعد ذلك إلى الطاحون ، أن يجد كيف سر الجميع برؤيته . ولم تعد آن تعيش على ظهر الأرض منذ اللحظة التى عاد فيها بوب إلى جوف المحيط . وقد ينظر الناس إلى جسدها البشرى ويقولون إنه انطلق إلى

---

(١) حبال أو سلاسل حديدية مثبتة فى رصيف الميناء تربط بها السفن عند رسوها . (شرح الأصل)

هناك . فالبحر وكل ما يتعلق بالبحر كان مجال تفكيرها بالنهار ، وحلمها بالليل . وكانت الاثنتان والثلاثون ريحا تحت بصرها ، وكل عاصفة ترافق تلك الرياح لدى عودة الخريف مسجلة فى ذهنها . وأصبحت على علم دقيق بالجهات التى تقع فيها بور تسموث ، وبريست ، وفيرول ، وقادس وغيرها من الأمكنة المماثلة . وبدلا من ترديد صلواتها الخاصة المعتادة فى المساء ، رددت مكانها ، وهى تعانى بعض البلبلة الفكرية ، « صيغ الصلوات » التى تردد فى البحار . ولاحظ جون على الفور لجيعتها ، ونظراتها الشاردة ، فرثى لها — ولكم رثى لها ! وسألها عندما اختلى بها هل هناك مطلب يمكن أن يؤديها لها .

وقالت وفى عينيها حماسة تكاد تكون صبيانية :

— هناك مطلبان .

— سيقضيان لك .

— أولهما أن تعرف هل عاد كابتن هاردى إلى سفينته . وثانيهما ... أوو ، هل تقضيه لى يا جون ! ... أن تحضر لى جرائد كلما أتيح لك ذلك .

وغاب جون مدة ثلاث ساعات بعد هذا الحديث الذى دار بينهما ، وظن من بالبيت أنه عاد إلى المعسكر . ومع ذلك فقد دخل فى نهاية هذا الأمد ، وخلع قبعته المصنوعة من قش ، ومسح عرق جبهته .

وقال أبوه :

— يبدو عليك التعب يا جون .

— أوو ، لا .

ودار فى أرجاء البيت حتى وجد آن جارلاند . وقال لها :

— أنا لم أقض إلا أحد مطلبيك .

— ماذا ! أبهذه السرعة ؟ أنا لم آمل ، ولم أقصد أن تقوم بذلك اليوم .

— لقد غادر كابتن هاردى بوس هام ، وكان ذلك منذ بضعة أيام . وسنسمع عما قريب أن الأسطول أقلع .

— أقطعت الطريق إلى بوس هام لهذا الغرض ؟ ما ألطف ذلك منك !

حسناً ، لقد كنت مهتما ، أنا نفسى ، بمعرفة الوقت الذى يحتمل أن يسافر فيه بوب . وإنى أتوقع الآن أن ترد لنا أخبار منه

وعاد بعد يومين يحمل جريدة ، ويحمل كذلك ما يفوقها أهمية ، وهو رسالة لآن معفاة من أجرة البريد بخاتم نائب الربان الأول للسفينة « فيكتورى » .

وقالت آن وهى تأخذ الرسالة فى لهفة :

— إنه على ظهرها إذن .

كانت الرسالة قصيرة ، ولكنها وافية بالقدر الذى يمكن أن تتوقعه آن فى مثل هذه الظروف . وقد أخبرهم فيها أن الكابتن كان عند حسن وعده ، وحقق لبوب رغبته الصادقة فى العمل تحت إمرته . وكان مقرراً للسفينة التى تحمل الأميرال لورد نلسون على ظهرها أن تبحر خلال يومين ، فى صحبة الفرقاطة « أوريالوس » ، إلى بليماوث حيث تلحق بها سفن أخرى ، ومن ثم تقلع جميعا إلى ساحل إسبانيا .

واضطجعت آن تلك الليلة صاحية تفكر فى « فيكتورى » وفى الذين أبحرو على ظهرها . وكانت هذه السفينة الحربية ، وفقا لأدق تقديرات آن ، ستمر خلال الساعات الأربع والعشرين القادمة على بعد بضعة أميال من هذا المكان الذى ترقد فيه . . والشىء الذى كان أجدر بإسعادها من أى شىء آخر فى الدنيا ، بعد رؤية بوب ، هو أن ترى السفينة التى تضمه .. أن ترى مدينته العائمة ، وموئله الوحيد فى معمعان الحرب والعاصفة ، ومناط أملها كله فى سلامته من الرياح العاصفة من أعدائه .

وكان الصباح التالى هو ميعاد انعقاد السوق فى الميناء ، وقد وجدت آن فى ذلك فرصتها . وكانت هناك عربة بريد تغادر أوفركمب إلى هناك فى الساعة السادسة ، واحتاجت آن لشراء أشياء قليلة فاتخذت من ذلك حجة للتغيب الذى نوته فى ذلك اليوم ، واتخذت لها مكاناً فى تلك العربة . وكان الصباح مازال باكرا عندما وصلت إلى البلدة ، ولكن المكان كان قد وصل إلى أوج صخبه وتجليه اليومى . واعتاد الملك فى الساعة السادسة من كل يوم أن يكون خارج قصره . وفى مثل هذه الساعات المبكرة تحدث بين السكان فى جلوسستر حركة عاثلة . ونزلت آن من العربة ، وانحدرت إلى المتنزه الساحلى الذى اكتظ بأناس عصرى الملبس فى هذا الوقت ذى الضباب وأشعة الشمس الهادئة ، وكان المكان فى اكتظاظه أشبه بمتنزه بحرى من متنزهات ذلك العصر فى الساعة الرابعة من

بعد الظهر. وحلق فى آن وهى تمضى سرعة ، فتيان بجترئون ، من كل غرير وتبيع نساء ، يرتدون قبعات مزخرفة ، وأثواب سود ذات حواشي وثنيات . واحتشد الشاطىء بنساء يبتردن وكل منهن تتمنطق بوشاح كتب عليه بأحرف من ذهب ذلك الشعار الوطنى « حفظ الله الملك » وكانت الحوانيت مفتحة الأبواب جميعا ، والجاويش ستانر ، بسيفه الذى ينتظم الأوراق المالية ، ونظارته الباسلة ، يهز فى الهواء مبلغ جنهين « وريال إنجليزى » ، وكان « الريال » مخصصا لمعاقرة الخمر فى صحة صاحب الجلالة .

وانتهت أخيراً من شراء حاجياتها ، ثم واصلت مسيرها على طول الطريق الساحلى إلى بورتلاند بعد أن عبرت البلدة القديمة . وبعد مسير ساعة ركبت قاربا اجتازت به مراكب الأسطول المصطفة (التى لم تكن تصلح جسرا ملائما) ووصلت إلى قاعدة « بورتلاندهل » . وكان جانب التل ، الشديد الانحدار ، البادى أمامها ، منمنما بدور تتجلى عن خصائصها العجيبة ، وهى أن يقوم باب كل جار خلف مدخنة جاره ، وأن تكون المادة العامة المستعملة فى إقامة الحيطان والأسقف ، ورصف الأرض ، وبناء حظائر الخنازير ، ومذاود «الاسطبلات» وبماسح الأرجل أمام الأبواب ، وقوائم مداخل الحدائق ، هى قطع البلاط . ووصلت آن إلى أعلى التل ، ومن ثم اتبعت الطريق الرئيسى سائرة فوق كومة الحجر الرملى الضخمة التى تكون شبه الجزيرة . وكان منظر البحر العريض ينبسط أمام آن كلما سارت قدما . واقتربت ، وقد أجهدتها الرحلة ، من قمة الصخرة الواقعة إلى أقصى الجنوب ونظرت من المنحدر إلى « بورتلاند بل » أو « بيل » وهو النطق الأصح الذى كان ينطق به فى تلك الأيام .

وكان رأس التل ، الممتد فى البحر ، الموحش المقفر ، البالى بفعل تقلب الجو ، فى عزلة تامه ، ولولا منارة قديمة قائمة على ارتفاع خمسين ياردة من المنحدر لندرت رؤية علامة تدل على أن إنسانا اقترب من هذه البقعة . ووجدت آن لنفسها مقعدا فوق حجر ، وأجالت طرفها فى امتداد العباب الهائل المحيط بها ، وكان يبدو أنه يرتل تعاويذ غير مفهومة لا تنقطع . وكان الموج يغطى ارتفاعا يبلغ مائتين وستين درجة من مجموع ارتفاع الخط الأفقى الذى تقف عليه والذى يبلغ ثلاثمائة وستين درجة . « والنظرة السريعة » تشمل منطقة المياه

المضطربة المعروفة باسم « ذى ريس » حيث يلتقى بحران يتسببان فى تحطيم مثل تلك السفن التى لا يمكن لبحر واحد أن يتغلب عليها . وأحصت آن القوارب الواقعة تحت بصرها ... كانت خمسة .. لا ، بل كانت أربعة فقط ... لا ، بل كانت سبعة ، فالواحدة من بعض هذه البقع المرئية كانت تنشطر إلى اثنتين . وكانت جميعها من القوارب الساحلية التى تظل دائماً على مرمى النظر من البر .

واستغرقت آن فى شرود ذهنى . ثم سمعت جلبة خفيفة عن يسارها . وتلفتت فرأت ملاحا هرما يقترب حاملا منظارا ، ويصوبه إلى البحر فى الاتجاه الجنوبى الشرقى ، مبتعدا قليلا عن المكان الذى كانت عيناها تجولان فيه . وخطت آن بضع خطوات إلى ذلك الاتجاه حتى يتكشف لعينها مجال أوسع من هذه الناحية ، وعلى ذلك اهتدى بصرها إلى سفينة أكبر حجما من أية سفينة سبق أن بدت أمامها فى عرض البحر . كانت قلاعها على الأغلب جديدة نظيفة ، وبدت السفن الصغيرة ، قياسا إلى تقدمها السريع ، كأنها واقفة فى مكانها لا تتحرك . وكان منظار الرجل الهرم ماثلا صوب هذا الشىء العجيب . وسألته :

ـــ ماذا ترى أيها النوتى ؟

فأجاب :

ـــ لا أكاد أرى شيئاً ، فقد ضعف نظرى أخيراً إلى حد أن الأشياء جميعا تبدو لى كضباب شهر نوفمبر . وأنا مع ذلك أتوق إلى الرؤية اليوم . إنى أنظر باحثا عن السفينة فيكتورى .

وسألته على عجل :

ـــ لماذ ؟

ـــ لى ابن على ظهرها ، وهو أحد ثلاثة من أهالى هذه الأنحاء . فهناك ربان السفينة ، وهناك ابنى جيم ، وهناك لفدى الابن ، من أوفركمب ، وهو الذى انضم إلى البحرية أخيراً .

وقالت آن بعد فترة صمت :

ـــ هل أنظر نيابة عنك ؟

ـــ بالطبع يا آنسة ، وهذا يكون من فضلك .

وتناولت آن منه المنظار ، وسنده لها بذراعه . وقالت الفتاة :

— إنها سفينة كبيرة ذات ثلاثة قلاع ، وثلاثة صفوف من المدافع عل طول جانبها ، وقلوعها منشورة جميعها .

— لقد حزرت أن بها كل ذلك .

— وهناك علم صغير مرفوع من أمام على « بومبريسها » .

— إنه العلم البحرى .

— وهناك علم آخر كبير يخفق فوق مؤخرتها .

— إنه علم جنسية السفينة .

— وعلم أبيض فوق أعلى مقدمتها .

— إنه علم الإميرالية . . علم سيدى لورد نلسون . ما هى الصورة الرئيسية المرسومة عليه ؟

— إنه شعار فارس نبيل يسنده نوتى من هذه الناحية .

وأومأ رفيقها فى رضا ، وقال :

— وهناك جندى بحار من الناحية الأخرى .

— إن السفينة تلتوى وتدور على نحو عجيب ،وشراعها ينخسف كخد العجوز . وهى تنتفض كورقة الشجر فوق فرعها .

— إنها تتريث لتتخذ خط سيرها إلى اليسار ، وأنا أستطيع أن أرى ما تصنع . فقد اقتربت من الشاطىء لتتجنب عباب المد ، إذ الريح تهب صوب الجنوب الغربى بينما وجهتها سفلية . ولكن ما انحسر المد حتى أداروا دفتها إلى الغرب . والكابتن هاردى يمكن الاعتماد عليه فى هذا ، فهو يعرف كل تيار مائى فى هذه النواحى بحسبانه من أهلها .

— أنا أستطيع الآن أن أرى الناحية الأخرى للعلم ، فالصورة فيه لجندى بينما كانت من قبل لملاح . هل أنت واثق من أنها السفينة « فكتورى » ؟

— أنا واثق من ذلك .

وبعد ذلك ظهرت الفرقاطة « ذى أوريالوس »،وكانت تسير فى نفس الاتجاه . وجلست آن ، ولم تتحول عيناها عن السفينتين قط . وقالت :

— زدنى قولا عن السفينة فيكتورى .

— إنها أحسن سفينة فى الأسطول الحربى ، وتحمل على ظهرها مائة مدفع . وأثقل تلك المدافع منصوبة على سطحها الأدنى ، والمدافع التى تليها فى الحجم قائمة على سطحها الأوسط ، ثم ذات الحجم الذى يلى ذلك على سطحها الرئيسى والأعلى . ومكان عمل ابنى جيم على سطحها الأدنى ، لأنه قصير ، وهم يضعون القصار فى الجانب الأسفل من السطح .

وبرغم أن بوب ليس بالطويل ، فهو لا يمكن أن يعد ، بوجه خاص ، بين القصار . وتصورته آن على ظهر السفينة الأعلى مرتديا سرواله الناصع البياض ، وسترته البحرية الزرقاء ، ولعله ينظر صوب نفس البقعة التى هى عليها الآن .

ومرت السفينة الضخمة بمن هى آهلة بهم من نوتية ، وجنود بحريين ، وضباط ، وربان ، والأميرال الذى قدر ألا يعود إلى وطنه حيا ... ومرت بذروة «ذى بل» كالشبح . وكان منظرها يبدو أحياناً كضرب كرة كبير أبيض ، ويبدو أحياناً كآخر أشهب . ورأت الفتاة المترقبة ، مع مرور الزمن ، أن السفينة جاوزت أقرب نقطة من الساحل . وأخذ شراعها العريض يتضاءل حتى اتخذت السفينة شكل بيضة قائمة . وبدا بعد ذلك كأن شيئاً يتلألأ . وعادت آن إلى الملاح الهرم ، وكانت قد ابتعدت عنه ، ونظرت ثانية من خلال المنظار : وكان اللألاء عبارة عن انعكاس الضوء على نوافذ الحجرات فى مؤخر السفينة . وشرحت ذلك للرجل الهرم .

— نحن إذن نرى الآن مالم يره العدو إلا مرة واحدة . وكان ذلك عام ١٧٧٩ عندما شاهدت السفينة الفرنسيين والإسبان على بعد من صقلية . ولكنها ارتدت إلى الوطن خوفاً من نزول الفرنسيين بأرضه . حسناً ، إنها سفينة باسلة تحمل رجالا بواسل .

وخفق صـــدر آن الرقيق ، ولكنها لم تفه بكلمة ، وعادت فاستغرقت فى تأملاتها .

وكانت « ذى فيكتورى » تدور بسرعة . وظهرت على خط الأفق ، ثم وضح أنها تتقلص . وبدا أن تواريها الراهن أشبه ببداية خاتمة أجل وأروع .

ولم تستطع آن جارلاند أن تبقى إلى جانب الملاح مدة أطول ، وابتعدت مسافة مرمى حجر منه حيث احتجبت عن بصره نظراً إلى تعرج سطح الهضبة الصخرية . وكانت السفينة فى هذه اللحظة بالضبط تتوارى نهائياً وهى تناضل البحر متجهة صوب « ذى ستارت » ، وقد تناقص حجمها حتى أصبح فى نسبة حجم الريشة . وجلست آن ثانية ، وأخرجت بحركة آلية بعض « بسكويت » كانت قد جاءت به، متوقعة أن انتظارها قد يطول . ولكنها لم تستطع أن تأكل قطعة منه ، وبدا أن الأكل لا يلائم توتر هذه اللحظة الذهنى . وظلت نظرتها المثابرة تلاحق السفينة المضمحلة فى ولاء الإبرة الثابتة الاتجاه إلى حجر ممغنط ، بينما بقى كل عضو فيها بلا حراك . وتلاشى هيكل السفينة فى اليم ، ثم توارى أعلى قلاعها ، ثم أعلى سواريها ، ولم تعد شيئاً أكثر من جناح ذبابة معلق على خيط بيت عنكبوت . ثم توارت حتى هذه البقية الباقية . ولم تستطع آن احتمال هذه النهاية إلا بصعوبة ، ولكنها اعتزمت مع ذلك ألا تنكص على أعقابها . وغاص علم الأميرال وراء خط الأفق . وفى غضون دقيقة تبددت حتى أسطوانة ربط الحبال فى أعلى آخر شراع ... ومضت « ذى فيكتورى » .

وارتجفت شفة آن وهى تغمغم دون أن تتحول بعينيها المبتلتين عن الأفق الخالى العبوس :

« أولئك الذين يركبون متن البحر على ظهور السفن ، ويقومون بالعمل فى المياة الشاسعة » ...

وأجابها صوت رجل صادر من خلفها :

— هؤلاء يرون آيات الخالق وعجائبه فى أعماق البحار .

ودارت فى سرعة فرأت جندياً يقف هناك ... وكانت عينا جون لفدى المهمومتان تحنوان عليها .

وقالت محاولة أن تحتفظ بتوازنها :

— هذا ماكنت أفكر فيه .

وأجاب برفق :

— هذا ماكنت تقولينه :

ـــ أكنت أقوله ؟ لم أكن أعلم ذلك .

وأضافت على الفور :

ـــ كيف أتيت إلى هنا ؟ ...

ـــ ظللت واقفاً خلفك مدة طويلة ، ولكنك لم تتلفتى قط .

وقالت فى صوت خافت :

ـــ كنت فى شغل شاغل .

ـــ نعم ... إنى جئت كذلك لأراه وهو يمر . وقد سمعت صباح اليوم أن لورد نلسون استقل سفينة ، وعلمت فى الحال إنهم سيبحرون على الفور . وستلحق « ذى فيكتورى » و « أوريالوس » بباقى الأسطول فى بلماوث . وقد احتشد جمع غفير لمشاهدة الأميرال وهو يقلع بسفينته ، وهتفوا له بينما السفينة تشق طريقها... ويقولون إنه أخذ كفنه على ظهر السفينة معه .

وقالت آن وقد شحبت شحوبا قاتلا :

ـــ كفنه ! إن شيئا رهيبا يقصد بذلك إذن ! أوو ، لماذا قضى على بوب أن يبحر على ظهر تلك السفينة ؟ وقد قدر لها أن تدمر هكذا منذ البداية !

وقال جون :

كان قد عقد عزمه على الإبحار تحت إمرة كابتن هاردى دون أى قائد غيره . وقد ينتظره هناك عمل يتقد حرارة ، ولكن علينا أن نؤمل خيراً .

ثم أضاف بعد أن لاحظ مبلغ شقائها :

ـــ ولكن ألا تسمحين أن أعاونك على العودة إلى بيتك ؟ وإذا استطعت أن تمشى إلى هوب كوف فهذا يكفى ، فإن هناك مركب « ليريت »(١) سيبحر عبر الخليج ، فى غضون ساعة ، عائداً إلى الميناء فى طريق بيتك . وهو مركب رجل أعرفه ، وأنا واثق من أن فى استطاعتهم اصطحاب مسافر آخر .

وأدارت ظهرها إلى القناة « ذى تشانل » ، ووصلت بمعاونته إلى المكان الذى

---

(١) نوع من المراكب خارج بورتلاند ، وقد بنى خصيصاً ليتحمل العباب الذى ينقض على ساحل تشيذيل « تشيذيل بيتش » (شرح الأصل) .

أشار إليه . وكان القارب راسيا هناك كما قال ، ووجدت أنه مملوك للرجل الهرم الذى كانت معه فى « ذى بل » ، ويتولى ولدا ذلك الرجل الأصغران العمل به ، وساعدها جاويش البروجى على الانتقال إليه فوق كتل الأحجار الزلقة ، ونشر أحد الشبان سترته لتجلس عليها ، وما غادروا الشاطىء حتى صعد جون فى الهضبة ذات اللون الرمادى المائل إلى الزرقة ، وتوارى خلف قمتها ليعود إلى مقره سالكا طريق اليابسة .

ووصلت آن إلى البلدة زهاء الساعة الثالثة ، وكانت رحلتها فى مؤخرة القارب قد أنعشتها تماماً مع معاونة « البسكويت » الذى استطاعت أخيراً أن تأكله . بيد أن مركبة السفر بين الميناء وأوفركمب لم تكن لتبدأ رحلتها إلا فى الساعة الرابعة . وتحولت آن مجتازة قصر الملك إلى الضاحية إذ لم تعد تشعر باهتمام مستجد بمباهج البلدة ، وقد عاد ذهنها ، بعدما وجدت نفسها وحيدة ، فعلق بسوء مصير « ذى فيكتورى » المحتمل ، ولم تتعجل فى مسيرها ، إذ بقيت حتى الآن مدة نصف ساعة أخرى على رحيل مركبة السفر ، وعرجت على ضرب ضيق لتفلت من تطلع المارين العديدين إليها . وكان كل شىء هنا خاليا ساكنا . وجلست تحت شجرة صفصاف ، ونظرت شاردة الذهن إلى المنظر الطبيعى الذى بدأ يتزين بالألوان الفنية للصيف الموشك على الزوال . ولكن ذلك المنظر بدا لها كما يبدو المسرح الخاوى الباهت فى النهار . ولم تستطع أن تحتمل فوق ما احتملت ، فدفنت وجهها فى يديها ، وبكت بكاء لم تكبح جماحه .

وكان وراءها نبع ماء صغير على بعد خطوات منها ، يحيط به حد من أحجار مرصوصة لمنع البهائم من ارتياد جوانبه وتلويثه بالقاذورات . وغشى هذا المشهد ، بينما كانت تبكى ، سيدان لم تشعر بمجيئهما ، وسارا إلى حافة النبع ، وتوقفا هناك ، ونظرا إليه ، ثم دارا حوله ، ثم مالا كأنما يقصدان شمه وتذوق مائه . وكان النبع فى واقع أمره كبريتيا ، وقد استكشفه أخيراً طبيب يقطن فى النواحى المجاورة ، وبدأ يجذب بعض الانتباه بعد أن نسبت إليه الشائعات المتواترة أنه يتضمن من أنواع العلاج العجيبة ما يفوق حد المعقول .

وبعد مناقشة طويلة بين السيدين دارت على ما يبدو عن الكيفية التى يمكن بها

تحسين حوض النبع لينتفع به على نحو أفضل ، قفل أحد السيدين المتقدمى السن راجعاً ، وقد ترك الآخر وهو يسبر ماء النبع بعصاه . ثم عاد ذلك الغريب الأول الذى كان يرتدى سترة زرقاء ذات أزرار مذهبة ، عاد من الجهة التى جلست فيها آن ، وأسرع إليها إذ رأى جلستها الحزينة ، وقال بغتة :

— ماذا بك ؟

وأزاحت آن التى لم تلحظ وجود السيد وهى مستغرقة فى حزنها ... أزاحت منديلها عن عينيها ، وهبت واقفة على قدميها ، وعرفت على الفور أن محدثها هو الملك .

وسألها جلالته فى رفق :

— ماذا ، ماذا ، هل تبكين ؟ .

وقالت متخاذلة ، وهى تغض طرفها :

— كنت . . . كنت فى توديع صديق عزيز يامولاى .

— آه ! . . . الفراق محزن . . . محزن جداً . . . لنا جميعاً . ينبغى أن تؤملى فى عودة صديقك قريباً . وأين ذهب ؟ أو أين ذهبت ؟ .

— لا أدرى ياصاحب الجلالة .

— لاتدرين ؟ . . . كيف ذلك ؟ .

— إنه ملاح على ظهر « ذى فيكتورى » .

وقال الملك فى اهتمام :

— إن له إذن مايدعوه إلى للفخر . هل هو أخوك ؟

وحاولت آن أن تشرح له من يكون ، ولكنها عجزت عن ذلك ، واحمرت خجلا وقد توقد جسمها توقدا موجعا .

— حسناً ، حسناً ، حسناً ... وما اسمه ؟

وبرغم ارتباك آن وتضعضع معنويتها ، فقد حدثتها أنوثتها الثاقبة على الفور بأنه لا يمكن أن يكون ثمة ضرر من جهرها باسم بوب . فقالت :

— اسمه روبرت لفدى يامولاى .

ـــ لفدى ... اسم جميل . أنا لن أنساه أبداً . جففى وجنتيك الآن ، ولا تبكى بعد ذاك . لفدى ... روبرت لفدى .

وانحنت آن للملك ، فابتسم فى بشاشة ، ، ودار ليلحق برفيقه الذى عرف فيما بعد أنه الدكتور ... طبيب الملك الخاص بقصر « جلوسستر » . وكان ذلك السيد قد ملأ فى هذه الأثناء قارورة من الماء الطى ، ووضعها بعناية فى جيبه . وعندما وصل إليه الملك عادا معاً أدراجهما ، وتواريا عن الأنظار . وعلى أثر ذلك تبعت آن نفس طريقهما ، وكانت حواسها قد تنبهت تماماً ، وسارت فى خطى حذرة حتى رأتهما فى آخر لحظة يستقلان عربة كانت فى انتظارهما عند منحنى الدرب .

ونسيت تماما عربة السفر وكل مايتعلق بركوبها إلى بيتها ، وسارت غير واعية فى الطريق ، مسرعة حتى تكاد تطير ، وعندما فطنت إلى الناحية التى هى فيها كانت قد اقتربت من أوفركمب إلى حد أن الأمر لم يعد يستحق انتظار قيام تلك العربة . وكانت قد شجعتها على هذا الإسراع فى السير الجاد ، فى أخريات يوم مجهد ، أحلام عن ترقية بوب إلى رتبة أميرال ، أو رتبة باهرة مثلها ، بأمر خاص من الملك ، على أن تكون النتيجة الرئيسية لهذه الترقية ، وفقا للرواية الأدبية التى نسقتها ، أن يظل فى داره فلا يبحر بعد ذلك أبداً . ولكنها لم تكن بالفتاة التى تسترسل طويلا وراء تلك الأوهام الشاطحة . وخطر ببالها ، قبل وصولها إلى بيتها ، أن الملك يكون فى هذه الأثناء ، قد نسى ، على الأغلب متاعبها واسم حبيبها .

ملاح يدخل البيت

(٣٥)

انقضى الأسبوعان الباقيان من شهر سبتمبر مسجلين هبوطاً عاماً للهياج الذى صحب الصيف . وغادرت الأسرة المالكة مصيفها البحرى فى الأسبوع الأول من شهر أكتوبر . ورحلت الفرقة الألمانية مع مدفعيتها فيما بين ذلك الوقت . وظلت فرقة الدراغون فى المعسكر الواقع على تخوم البلدة . وجاء جون لفدى لآن بكل صحيفة وقعت يده عليها لا سيما ما اشتمل منها على نبذ من أنباء السفن ، وقرب ذلك بينهما كثيراً . وكثيراً ما بدا جون مرتبكا بسبب ما يبذل من جهد غير مطلوب منه فى سبيل مداراة حبه الكبير لآن .

وقد نمت اهتماماتها نمواً كبيراً ، متجاوزة تخوم أوفركمب ، والحياة اليومية فى البلدة التى لا تبعد عنها كثيراً ، إلى أن وسعت أوربا حقاً. بيد أن قطرة واحدة من أنباء متعلقة بنلسون وأسطوله المرابط خارج ثغر قادس لم تصل إليها ، أو إلى أحد غيرها ، خلال شهر أكتوبر بأكمله . ولم ينقطع السخر اللاذع المعتاد ببونابرت ، لا سيما بعدما ظهر من أن الجيش الفرنسى بأسره أولى بولونيا ظهره، واتخذ طريقه إلى الرين . ثم وصلت بلاغات عن الزحف عبر ألمانيا إلى داخل النمسا ، ولكن كلمة واحدة لم ترد عن السفينة « فيكتورى » .

وفى إبان الخريف جاءها جون بأنباء أحزنتها إلى حد مفزع ،فقد سلم الجنرال النمسوى ماك هو وجيشه بأسره ، ثم عادت الهواجس القديمة عن الغزو . وجاء فى مقال الصحيفة التى نشرت الخبر : « وبدلا من أن تكون علينا مقاومته وقد أمله الانتظار ، أصبح علينا أن نجابه ذلك الرجل لدى مجيئه منتعشاًمن ساحة النصر » .

ولكن الأسبوع الذى بدأ بمثل هذه النغمة الرهيبة كان مقدراً أن يختتم أيامه بنغمة أخرى ، ففى ذات اليوم الذى كان جيش ماك يكوم أسلحته عند قدمى قاهره ، سدد لفدى وزملاؤه ضربة للعدو أبادت قوته البحرية إلى الأبد . فلم تمر أربعة أيام على وصول الأنباء النمسوية حتى جاء الأونباشى توليدج ركضاً إلى دار

صاحب الطاحون ليخبره بأن الملازم « لابينوتيير » وصل بالسفينة الصغيرة « بيكل » إلى فولماوث فى الساعة الحادية عشرة من يوم الاثنين السابق حاملا أنباء عن الأسطول، وأنه مكتوب بالطباشير على عربات السفر التى تمر « بويسيكس » عبارات « نصر كبير ! » « فوز باهر ! » وما ماثل ذلك ، وأن أهل الريف جميعاً فى هياج لهفة على معرفة التفصيلات .

وفى عصر يوم الجمعة جاء جون يحمل الأنباء الوثيقة عن موقعة « الطرف الأغر » ، وموت نلسون ، وبقاء كابتن هاردى على قيد الحياة ، ولو أن نجاته من الموت كانت من أضيق السبل. وقد أطارت رصاصة إبزيم حذائه . وأوجس الجميع خيفة من أن السفينة فيكتورى ، كانت من بين السفن التى اشتبكت فى المعركة مسرحاً لأبشع المذابح ، ولكن لم تصدر حتى ذلك الوقت نشرات عن القتلى والجرحى إلا نشرة غير نهائية عن المصابين فى بعض السفن .

وكان ترقب الأنباء كبيراً إلى أقصى حد بين أفراد الأسرة الصغيرة فى طاحون أوفركمب . وظل جون يحضر إلى هناك يومياً خلال أكثر من أسبوع ، ولكن لم ترد إلى إنجلترا تفصيلات أخرى حتى نهاية ذلك الوقت . ثم ورد فقط ذلك النبأ الضئيل الذى يقول إن زوبعة هبت بعد المعركة مباشرة ، وأضاعت عدداً عديداً من الأسلاب. وكان تعقيب آن على هذا كله قليلا ، واحتفظ محياها بقناع من الهدوء والسكينة . ولكن يبدو أن صوتاً باطنياً كان يهمس لها بأن بوب لم يعد حياً . وركب ميلر لفدى عدة مرات إلى بوسهام ليسأل أخوات الكابتن هل تلقين أنباء أقطع من تلك البلاغات الخاطفة ، ولكن تلك الأسرة لم تسمع شيئاً يمكن أن ينفس عن صاحب الطاحون جزعه .وفى النهاية ظهر فى آخر نوفمبر كشف أخير محص عن القتلى والجرحى أصدره الأميرال كولينجوود ، ولكن هذا الكشف كان بالنسبة لأسرة لفدى مجرد صفحة من الورق لا طائل تحتها ، فهو لم يشتمل — لشدة ألم تلك الأسرة — إلا على أسماء الضباط ، إذ نيط فى تلك الأيام القديمة الطيبة ، بأصدقاء الملاحين وجنود الأسطول العاديين أن يبحثوا عمن فقدوا هم أنفسهم بقدر ما وسعوا من جهد .

وازداد اقتناع آن بفقد بوب فى بدء إظلام الأيام الأولى من الشتاء . فبوب

لم يكن بالحذر الذى يتجنب التعرض للخطر الذى لا موجب له ، وقد بلغ عدد الذين قتلوا من ملاحى « ذى فيكتورى » ، أو أصبحوا غير صالحين للخدمة مائة وخمسين رجلا . وكل من أجال الطرف فى غرفة آن وقتذاك كان يستطيع أن يرى أن قراءتها المفضلة كانت تتناول صلاة دفن الذين ماتوا فى البحار ، وهو الذى يبدأ بهذه العبارة « نحن لذلك نستودع أعماق البحر جسده » . وفى هذه الأيام الأولى من ديسمبر عادت إلى الميناء سفن كثيرة من الأسطول الظافر ، ولكن السفينة فيكتورى » لم تكن من بينها . ودار فى خلد كثيرين أن السفينة الكريمة التى أصيبت بالعجز فى المعركة ، غاصت إلى قاع البحر بفعل الجو العاصف اللاحق ، وظل الناس على هذا الاعتقاد حتى قيل فى البلدة وفى الثغر إنها شوهدت وهى تعبر المانش . ووصلت السفينة « فيكتورى » إلى بورتسماوث بعد ذلك بيومين .

ثم بدأت رسائل من الناجين تظهر فى نشرات عامة اعتاد جون أن يحضرها لآن بانتظام . ولم يرد أى خطاب من بوب برغم أنه كان يرقب البريد فى يقظة لا تنقطع . وخطر بباله أحياناً أن أخاه قد يكون على قيد الحياة ، وبخير ، وأنه تراخى فى الكتابة عمداً وهو يرغب فى التمسك بهجر آن والحياة فى دياره وفقاً لقصده الذى عبر عنه . فإذا كان الأمر كذلك فإن بوب يكون قد نفذ فكرته معنا فى عدم التبصر إلى حد كبير كما يمكن أن يبدو من ملاحظة آثار الترقب الظاهر على وجه الضحية الجميل ، وجزع أفراد الأسرة الباقين .

وفى يوم صاف من أيام ديسمبر إذ ندفت السماء على الأرض بقدر طفيف من ثلج ذلك الفصل من العام ، ولمس البياض جانباً من جوانب شجرة التفاح القائمة فى حديقة صاحب الطاحون — ولو أن قدراً قليلا من أوراق الشجر كانت لا تزال باقية متربثة فى أعالى الأشجار الأقصر عمراً ... فى ذلك اليوم اجتاز فناء الطاحون ملاح قصير من رجال البحرية الملكية » وهو لم يكن بوب أو أحداً آخر من هذا القبيل... وجاء إلى الباب . وخرج إليه صاحب الطاحون مسرعاً ، واصطحبه إلى الغرفة التى كان جون والسيدة لفدى وآن جارلاند حاضرين بها . وقال البحار :

— أنا أعمل على ظهر « السفينة فيكتورى » ، واسمى جيم كورنيك ، وفتاكم حى وبخير ...

وغلب تنفسهم الصعداء ، وما شعروا به من فرحة ، على التعبير له عن شكرهم . واغرورقت عينا صاحب الطاحون وهو يدور جانبا ليهدىء من روعه ، وإذا آن التى هبت من كرسيها واقفة أول الأمر فى انفعال جامح ، تسقط ثانيــة تحت ضغط الفرح الذى لا يكاد يحتمل ، والذى تغلغل مرتجفا إلى أعضائها حتى أطراف أناملها .

وواصل الملاح قوله :

ــ لقد جئت من سبيتهيد إلى بوسهام . وسأمضى الآن إلى أبى فى بودماوث .

وصاح جاويش البروجى :

ــ آه ! . . . أنا أعرف أباك ، جيمس كورنيك الهرم .

لقد كان هو الرجل الذى نقل آن فى قاربه من « بورتلاند بيل » .

وقال صاحب الطاحون :

ــ ألم يصب بوب بخدش ؟

وقال كورنيك :

ــ لم يصب بأى خدش.

ثم خرج لفدى فى جلبة ليأتى الى الزائر بشىء يشربه . وانسحبت آن وعلى وجهها حمرة خجل متوهجة ، إلى الجانب الخلفى من الغرفة حيث كانت التجسيد الفعلى للرضا العذب وهى تميــل بنفسها فى رفق دون أن تتكلم . وبدا أن تيار صغيرا من السعادة ظل يعتورها فى مد وجزر وهى تنصت إلى كلمات الملاح وتحرك رأسها على وقعها . ومضى الملاح وجون فى المحادثة :

ــ كان على جون أن يضطلع بعمل جسيم لتحصين « ثقبى الحبال (١) » قبل بدء المعركة ، وقد رضى الأميرال والـكابتن كل الرضا عن الطريقة التى أدى بها هذا العمل . وقال الـكابتن لبوب كلمة أو كلمتين بينما كان الأميرال يصعد فى سلم الحبل الخاص بقطر السفينة ، ولكنى لا أعرف ماذا قال لأنى كنت أقف على أحد المدافع بعيدا عنهما بعض الشىء . بيد أن بوب رأى الأميرال يترنح عندما أصيب

---

(١) ثقبان فى حنايا مقدمة السفينة تجرى خلالها الحبال (شرح الأصل)

بجرح ، وكان واحداً من أوائل الرجال الذين حملوه إلى مكان قيادة السفينة . وقد قفز بعد ذلك ، هو وبعض الفتيان ، إلى ظهر السفينة الفرنسية . وأعتقد أنه كان هناك عندما أصيب عليها . ولا أستطيع أن أروى لكم مافعله بعد ذلك لأن الريح سكنت عندئذ ، وصار الدخان كسحابة مخيمة . ولكنهم تحدثوا عنه كثيرا . ويقال إن هناك ترقية مدخرة له .

وعند هذا الموضع من الرواية توقف جيم كورنيك عن القول ليشرب كأسه . وصدرت همهمة خفيفة لاشعورية من ركن آن البعيد، وكانت هذه النغمة الخافتة تتصل على قدر متفاوت عندما يستأنف الملاح وأسرة لفدى الحديث الدائر بينهم . وقال صاحب الطاحون :

— سمعنا من قبل أن السفينة « فيكتورى » كانت على وشك أن تتحطم إربا.

— تتحطم إربا ! . . . لو قدر لك أن تستطيع رؤيتها لأمكنك أن تقول ذلك ! يا إلهى ، كانت جوانبها تتهشم كقطعة النقود القديمة من ذات « البنى »(١) وتهوى أشرعتها ككثير من شباك الصيد التى تشد بحبل ، بينما القذيفة التى أصابتها لاتزال تعلق بالثقب الذى أحدثته . وقد قطعنا طول المسافة إلى وطننا ونحن نستعمل « قلاع » التحكيم (٢) ، أما عن ظهرها فإنك تستطيع أن تغسله بماء ساخن أو بماء بارد ، ولكن بقع الدم تظل لاصقة هناك ، وستظل لاصقة هناك أبدا . ونجا الكابتن بأعجوبة ، وكذلك كان شأن كثير من البحارين ، وقد حلقت إحدى الطلقات النارية مفصل قدمه كفعل الموسى ، وكان عليك أن ترى وجه ذلك الرجل عند اشتعال المعركة إذ كانت ملامح وجهه كأنها سبكت من صلب .

— كنا نتوقع من باب أولى أن ترد لنا رسالة من بوب قبل ذاك .

وقال جيم كورنيك ، وعلى ثغره ابتسامة تجاوز :

— حسنا ، ينبغى أن نتسامح . وحقيقة الأمر أنه مشغول الآن بالذات فى بورتسماوث . وشأنه فى ذلك شأن عدد كثير من سائر ملاحى سفينتنا . . . إنها لفتاة لطيفة جدا ، تلك التى يغازلها . ولا شك عندى أنها ستكون له زوجة ممتازة .

---

(١) البنى يساوى خمسة مليمات تقريباً .

(٢) اسم يطلقه الملاحون على الأشرعة المؤقتة بدلا من تلك التى انتزعت أو تحطمت .

وقالت السيدة لفدى بصوت ينطوى على تحذير :

ــ مغازلة . .. زوجة ؟

ونظروا إلى آن بدافع غريزى .وكانت الفتاة قد جفلت كأنما رجتها يد خفية . وبدا أن ضبابا كثيفا من الشك غامض على إدراكها . ولم يظل ذلك إلا مدة دقيقة أو دقيقتين . ونهضت وهى شديدة الشحوب ، وتوجهت إلى الملاح رأسا . وحاول جون أن يعترض طريقها برفق ، ولكنها حاوزته ، وقالت دون أن ينم أقل شيء على انفعالها :

ــ هل تتحدث عن روبرت لفدى على أنه يغازل فتاة ليتزوجها ؟

وأجاب كورنيك وهو يدور إليها :

ــ أنا لم أرك يا آنسة . نعم ، لقد وقعت عين أخيك على زوجة ، وهو يستحق ذلك ، وآمل ألا تكونى قد اكترثت الأمر ؟

وقالت وهى تضحك ضحكة مسرحية :

ــ أنا لم أكترث له البتة . ولكنه يهمنى بطبيعة الحال . . . . وعلى أى نحو هى ؟

ــ إنها ابنة صاحب مخبز ، وهى صبية طريفة جــدا يا عزيزتى . واختيار الفتى لها اختيار حكيم جداً .

ــ أهى شقراء أم سوداء الشعر ؟

ــ لون شعرها أميل إلى الشقرة .

ــ أنا أحب لون الشعر الأشقر . وما اسمها ؟

ــ اسمها كارولين . ولكن أيمكن أن تكون روايتى مؤلمة لك ؟ إذا كان الأمر كذلك . . .

واعترض جون منزعجا :

ــ نعم ، نعم . إننا لانحرص على سماع مزيد من ذلك فى الوقت الحاضر بالذات.

وقالت آن فى شدة :

ــ إننا نحرص على سماع المزيد منه . أفض بكل ما عندك أيها الملاح . . .

كارولين . . إنه اسم جميل جدا . ومتى يتزوجان ؟

وأجاب جيم وهو لايكاد يدرك حتى الآن ما أحدث من تدمير فى صدر فتاة جميلة .

— أنا لا أدرى على أى نحو استقر رأيهم بشأن تحديد اليوم . ولكنى أستطيع أن أقول ، من واقع السرعة التى اندفع بها غزلهم ، إن موعده لن يطول.

وقالت آن باستخفاف وهى تنصرف :

— إذا قابلته لدى عودتك ، فأبلغه أحسن تمنياتى .

وأضافت فى صرامة مهيبة :

— وقل له إنى مغتبطة لسماعى أنه يفيد مثل هذه الإفادة الطيبة من الأيام الأولى لهروبه من وادى الموت !

وخرجت وهى تعبر عد عدم اكتراثها بالتغنى من بعيد بصوت مسموع .

« أنرقص « رقصة الدوران » ، « الدوران » .

« أنرقص « رقصة الدوران » ؟ . . . . . . »

ولاحظ جيم كورنيك :

— لقد أثار النبأ حماسة أختك .

وغمغم جون متجهما ، وهو يعض على شفته السفلى . ويحدق بعينيه فى النار .

وواصل بحار « سفينة فيكتورى » القول :

— حسنا ، وإنى لن أقول إن طريق أخيك لم تعبد بعض التعبيد ، وهذا من حسن حظه الشديد ، فلربما كان يحدث له أن ينتقى فتاة لاتملك جزءا من قطعة نقود نحاسية . ولاشك أننا حظينا بوقت ممتع عند نزولنا إلى الأرض ! لقد كانت بيتامفتح الأبواب لنا جميعاً .

وبعد أن حكم جيم عقله بضع دقائق وهو يلاحظ المشهد ، أفرغ كأسه ونهض لينصرف .

وإذ كان صاحب الطاحون يحدثه فى أمر خارج البيت ، وآن لا تكاد تكف عن الغناء فى الدور العلوى . وجون يقف إلى جانب المدفئة ، والسيدة لفدى تجتاز الغرفة لتلحق بابنتها التى سبب لها تصرفها بعض القلق ... ترامى صوت من فوق السقف يشبه صوت سقوط جسد ثقيل . واندفعت السيدة لفدى إلى السلم وهى تقول . « آه ، كنت أخشى وقوع أمر ما !! » . واندفع جون فى أثرها .

وعندما دخلا غرفة آن ، وقد كادا يدخلانها فى نفس اللحظة ، وجداها راقدة على الأرض ، فاقدة الوعى ، ورفعها جاويش البروجى بين يديه ، مطبق الفم كل الأطباق ، ووضعها على الفراش .

وارتد بعد ذلك إلى الباب ليفسح فى المكان لأمها التى كانت تنحنى على ابنتها وفى يدها بعض محلول النشادر .

ولم تلبث السيدة لفدى أن رفعت بصرها وقالت له :

— ليس ثمة إلا أنه أغمى عليها ، وقد بدأ لونها يعود إلى طبيعته ، فدعها لى الآن ، وسأهبط إلى سفل البيت بعد دقائق ، وأخبرك كيف حالها .

وغادر جون الغرفة ، وعندما وصل إلى الدور الأرضى ، وجد أباه يقف إلى جوار المدفأة ، إذ كان الملاح قد انصرف ، وتقدم جون إلى النار ، وأمسك بطرف إطار المدفأة ، ووقف صامتاً .

وسأله أبوه فى صوت ينم على التوجس :

— هل صك أذنى صوت بينما كنت خارج البيت ؟ .

وقال جون :

— نعم إنك سمعت صوتا ، وكانت « هى » مصدره ... ولكن أمها تقول إن حالها تحسنت الآن :

ثم أضاف فى تهور :

— أبى ، إن بوب أحمق تافه ! ولو كان فيه أى خير لكان قد غرق منذ سنوات !

وقال صاحب الطاحون :

— جون ، جون . . . لاتتماد فى التسرع . فإن ماقلته عن أخيك قول قاس ، وعليك أن تخجل منه .

— حسنا ، إنه يبتلينى بأشد مما أحتمل . يا إلهى الكريم ! من أى شىء يمكن أن يخلق إنسان يتصرف مثل تصرفه ؟ لماذا لم يعد إلى بلده ، وإذا كان لم يتمكن من الحصول على إجازة من عمله فلماذا لم يكتب إلينا ؟ إنه لتصرف فاضح منه أن يعامل امرأة على هذا النحو !

— مهلا ، مهلا ، فقد أدى الفتى واجبه بحسبانه ملاحا . وبرغم أن علاقة ما قد تكون بينه وبين آن فقد قالت لى أمها مرارا ، وهى تحادثنى فى الأمر ، إنها لا تستطيع تصور زواجهما قبل أن يستقر بوب فى عمله هنا فى بلده ، وينبغى أن يسمح للذين يحرزون الانتصارات ببعض الميزات . انظر إلى الأميرال نفسه فيما يتعلق بهذا الصدد .

وظل جون يتطلع إلى الجمرات الملتهبة حتى إذا سمع وقع أقدام السيدة لفدى على درجات السلم ذهب ليلتقى بها .

قالت السيدة لفدى :

— إنها أحسن حالا ، ولكنها لن تنزل إلى هنا ثانية اليوم .

ولو أتيح لجون فى هذه اللحظه أن يسمع القول الذى كانت الفتاة تتأوه به لنفسها وهى ترقد متلوية فى فراشها ، لاعتوره الشك فى تأكيدات أمها . . . « لو أنه مات لاستطعت احتمال موته ، ولكنى أعجز عن احتمال هذا . »

الفرص تلوح

لدريمان

(٣٦)

ومضى الملاح كورنيك فى طريقه حينذاك حتى وصل إلى مفترق الطرق حيث التقى بفستوس دريمان سائراً على قدميه . واجتذب انتباه هـــذا الأخير رداء الملاح ، ورؤيته مقبلا من ناحية الطاحون . وخاض جيم فى الحديث معه بقبول كثير ، وقص عليه الحـكاية التى قصها فى الطاحون .

وكرر فستوس قول محدثاً :

ـــ بوب لفدى سيتزوج ؟

ـــ يبدو أن لهذا النبأ وقع شديد عليـكم جميعاً .

ـــ لا ، فأنا لم أسمع نبأ سرنى أكثر من ذلك .

وعند ذهاب كورنيك وقف فستوس عند الجسر الصغير بدلا من أن يمضى قدماً ، وأخذ يتدبر الأمر . فإن بوب لن يستاء ، على الأرجح ، من استيلاء غيره على قلب آن ، مادام أنه يهتم اليوم بغيرها . وعلى أية حال فإنه لن يظل هناك احتمال لوقوع المبارزة الماضية التى شتتت عقل الفارس المتطوع منذ «لعبة الحصان» التى جرت بينه وبين آن فى البيت الواقع فى ذلك السهل المقفر . وكان فى رأى البطل أن ذهابه إلى الطاحون ، وعرض خطبته لآن على السـيدة لفدى قبل أن يستيقظ اهتمام الفتاة بجون من جديد ، فـكرة رائعة .

وكان اليوم قد بدأ يظلم قبل دخوله . وأضاءت النار البهيجة ، بلونها الأحمر ، أرض الغرفة وحيطانها . واستقبلته السيدة لفدى بمفردها ، وسألته أن يتخذ له مكاناً بجوار المدفأة . وكانت لا تزال بنفسها بقية قليلة لا تنقطع من لهفتها القديمة على أن يصبح زوجاً لابنتها ... وقال لها :

ـــ أنا خادمك أيتها السيدة لفدى ! وسأفضى إليك على الفور بسبب مجيئى . وستقولين إنى نهاز للفرصة حين أخبرك أن قصدى هو التعجيل بتحقيق ما صبوت

إليه طويلا من الاقتران بابنتك، وذلك لما أعتقده من أنها أصبحت حرة التصرف من جديد .

وقالت الأم مسالمة :

— أشكرك ياسيد دريمان ، ولكنها مريضة الآن ، وسأذكر لها ذلك عندما تتحسن حالها .

— اسأليها أن تبدل ما اتخذته من قرارات قاسية جداً على حساب . . . على حساب حبي المهلك لها .

واستأنف فستوس قوله بعد أن اطرح لغة « الصالونات » مندفعاً فى حماسته :

— وأجمل الكلام فأقول لك يا سيدة لفدى إنى أريد الفتاة ، ولا بد أن أفوز بها .

وأجابت السيدة لفدى بأن قوله هذا صريح جداً :

— حسنا ، إنه كذلك ، ولكن بوب تخلى عنها ، وهو لم يقصد أن يتزوج بها قط . وسأخبرك يا سيدة لفدى بما لم أخبر به مخلوقاً من قبل . كنت أقف فى بودماوث على رصيف الميناء فى يوم من أيام سبتمبر الماضى ، وهو نفس اليوم الذى أبحر فيه بوب ، وسمعته يقول لأخيه جون إنه تخلى عن ابنتك .

وقالت السيدة لفدى فى حرارة :

— إن عبثه بها على هذا النحو كان إذن إمعاناً فى سوء الأدب . . . ولمن تخلى عنها ؟

وأجاب فستوس بعد تردد :

— تخلى عنها لجون .

— لجون ؟ ... كيف يمكن أن يتخلى عنها لرجل غرق من قبل إلى أذنيه فى حب تلك الممثلة ؟

— أوو ؟ .. إنك فاجأتنى بهذا . أية ممثلة تقصدين ؟

— تلك المدعوة « الآنســة جونسون » . لقد أخبرتنى آن أنه يحبها إلى حد اليأس .

ونهض فستوس وبدا لدى هذا التصريح أن الآنسة جونسون اكتسبت فجأة قيمة كبيرة بحسبانها امرأة محبوبة . فقد كان هو نفسه يشعر بميل لا يكاد يذكر

إليها . وحذا جون حذوه . لقد شق جون طريقه متوسلا بكل وسيلة ممكنة .

وفتح شخص الباب قبل أن يجيب الفارس المتطوع ، وسقط ضوء المدفئة على سترة عسكرية يرتديها الرجل الذى دار حوله النقاش . وأومأ فستوس إذ عرفه ، وتمنى للسيدة لفدى مساء طيباً ، وخرج على عجل .

وأبدت السيدة لفدى لجاويش البروجى الملاحظة التالية :

ـــ لقد أخبرك بوب إذن عند رحيله بأنه ينوى التخلى عن ابنتى آن؟ وددت لو أنى عرفت ذلك من قبل .

وبدا القلق على جون لدى مجابهته بهذه التهمة فجأة ، وغمغم قائلا إنه لا يستطيع ـ كارها . ثم غادر السيدة على عجل ، وتبع دريمان الذى رآه أمامه فوق الجسر . وصاح

ـــ دريمان !

وجفل فستوس وتلفت ، وقال متلطفاً :

ـــ نعم ، يا جاويش البروجى .

وسأله جون محتداً :

ـــ متى تعقل إلى حد عدم الاهتمام إلا بشؤونك ، وعدم المجىء إلى هنا ، والإفضاء بأشياء سمعتها عن طريق التجسس على الناس ؟ وإذا أنت لم تتعلم أن تسلك سلوكا آخر فسأضطر إلى شد أذنيك ثانية كما ضربتك فى ذلك اليوم !

ـــ « أنت » شددت أذنى ؟ كيف تفوه بهذه الفرية بينما أنت تعلم أن شخصاً آخر شدهما ؟

ـــ أوو ، لا . . . لا . أنا شددت أذنيك وضربتك ضرباً هيناً .

ـــ أتقسم على ذلك ؟ لقد كان رجلا آخر بالتأكيد ؟

ـــ وقع ذلك فى غرفة الجلوس بالحانة ، وكان المكان يكون معتما .

وأضاف جون بضع تفصيلات عن اللكمات الخاصة إلى حد أن صارت دليلا فى ذاتها . وصاح فستوس وهو يتقدم إليه مبتسما ابتسامة لطيفة :

ـــ أنى أسألك المغفرة إذن على قولى إنها كانت فرية . ولو أنى عرفت أنك كنت أنت ذلك الشخص لكان فى إنكارى لذلك إهانة لك .

ـــ أكان ذلك إذن هو الذى جعلك لا تدعونى إلى المبارزة ؟

هذا هو الأمر . وإنى ما كنت لأرضى ، نظير ثمن فى الوجود ، أن أجرح كرامتك الرقيقة بتركك دون أن أتحداك وأنا أعلم بتلك الحقيقة ! وأنت ترى أنى لا أستطيع الآن لسوء الحظ ، معالجة ذلك الخطأ ، فقد مضت مدة طويلة على الحادث إلى حد أن اتقاد غضبى قد خمد . وإنى لا أستطيع أن أوليك ذلك الجميل ، مهما بذلت فى سبيل ذلك من جهد ، لأنى ياجاويش البروجى ، لست بالرجل الذى يذبح خصمه وهو هادىء الأعصاب . . . لا فما أنا بذلك الرجل ، ولا أنت أيضاً ، حسبما أعرفه عنك . ولذلك لا محيص لنا عن أن نكتفى بترك الأمر يمر سواء أرضينا بذلك أم لم نرض ، هيه ؟

وقال جون وهو يبتسم ابتسامة صارمة :

— أحسب أنه لابد لنا من ذلك . ومن عساك ظننتنى تلك الليلة التى أوسعتك فيها لكما ؟ .

وأجاب الفارس المتطوع :

— لا ، لا تضيق على الخناق . أنا لا أستطيع الجهر بذلك . فإنه ليشيننى أن أظهر إلى أى مدى سحيق استطاعت الخمر أن تبعد بحواسى عن الحقيقة ، فلندفن الأمر فى « مقلب نفايات(١) » النسيان الأبدية .

وقال جاويش البروجى متشامخا :

— كما تشاء . ولكن إذا خطر ببالك يوما أنك عرفت أنى كنت ذلك الرجل فإنك تعرف بالطبع أين تجدنى ؟

ومضى لفدى إلى سبيله .

وفى لحظة رحيله هز فستوس قبضة يده ملتفتا إلى نجم المساء ، وكان ذلك النجم يقع فى نفس الاتجاه الذى سار فيه جندى فرقة الدراغون .

وحدث نفسه « هل ألجأ الآن إلى المبارزات ، أخذا بثأرى ؟ ليلحق بى العار طوال حياتى فيما إذا بارزت رجلا أدنى منى حسبا ونسبا ! وهناك وسائل علاج

---

(١) الأمكنة الذى تلقى فيه النفايات . ومن امثلة تلك النفايات الأمور التى فض أمرها ، ووجب نسيانها . (شرح الأصل) .

أخرى يتخذها أفراد الطبقة الأسمى ! . . . ماتيلدا . . . إنها هي وسيلتي . . .

وسار فستوس ، موسعا فى خطاه ، حتى وصل إلى « هول » حيث بدا « كريبلسترو » وهو يحدق فيه من تحت عقد البيت الذى يقطنه البواب . ودفع دريمان باب الوشيع بعنف شديد إلى حـــد أن سقط صف أعواده جميعها فى الطين .

وقال كريبلسترو :

— رحماك ياسيدى فستوس ! « لا شك » أن السيد فستوس يستشيط غيظا لأنه لم يعد هناك أمل فى مجيء العدو هذا العام بعد .

وأجاب دريمان مكفهر الجبين :

— كر ... ر ... ريبلسترو ! لقد أصبت بجرح فى صميم قلبي .

— ولا يزال المعتدى على قيد الحياة ! وأنت تطلب « غدارات سرجك » فى الحال ؟ .. سمعا وطاعة يا سيد فـ ...

— لا ، ياكريبلسترو ، لاأريد غدارتى ، ولكن ملابسى الجديدة ، وخواتمى الذهبية الثقيلة ، وعصاى ذات المقبض الفضى ، وأبازيمى التى كلفتنى قدرا من المال لم يره فى حياته . نعم ، لا بد أن أفضى بالأمر لأحد ما ، وسأفضى لك أنت به لأنى لا أجد معتوها غيرك قريباً من هنا . . إنه يعشقها قلبا وروحا . وهو فقير وهى مهذبة إلى أقصى حد ، وليست غنية . وأنا غنى بالقياس إليهما . وسأغازل ممثلة المسرح الجميلة وأفوز بها على مرأى منه .

— ممثلة مسرح ياسيد دريمان ؟

نعم . وقد رأيتها فىهذا اليوم بالذات . قابلتها مصادفة وحدثتها . وهى لا تزال فى البلدة ، ولعل السبب فى ذلك يرجع إليه . وفى استطاعتى أن أقابلها فى أية ساعة من ساعات اليوم . . . ولكنى لا أنوى الزواج بها ، فلست أنا الذى يقدم علىهذا . سأغازلها لأرفه عن نفسى ، وأضايقه .. وسيكون أقتل له أنى لا أريدها . ولعله سيقول لى عندئذ : « لقد أخذت منى نعجتى الصغيرة الوحيدة » .

وهذا يعنى أننى أنا الملك ، وهو الرجل الفقير ، وفقا لما هو وارد فى أناشيد الكنيسة . . . وسيسألنى الرحمة ... ويكون الآوان قد فات . . . إلا إذا كنت

فى هذه الأثناء قد مللت لعبتى الجديدة . أسرج لى الحصان يا كريبلسترو غداً فى العاشرة صباحا . .

وخرج فستوس فى الميعاد المحدد ، ممتلىء الجوانح بذلك التصميم على معاقبة جون دون إبطاء عن طريق تحطيم حب هذا الأخير للآنسة جونسون ، وقد لبس حذاءه ومهمازه ، وانطلق يجول جولته الصباحية على ظهر جواده .

وكان على الآنسة جونسون . التى انتهى ارتباطها بالعمل فى المسرح منذ زمن طويل ، كان عليها أن تغادر المصيف الملكى مع سائر زواره لولا أن عاقها عن ذلك أمل فى أن تتزوج . ولم يكن لهذا الأمل أقل ارتباط بجون لفدى كما قد يتبادر إلى الذهن ، وإنما كان مرتبطا برجل بدين رزين يقـوم ببناء السفن فى كوف رو بالميناء ، أبدى اهتماما كبيراً بتمثيلها على المسرح . ولسوء الحظ لم يبد ذلك الرجل الموسر ، منذ انتهاء الموسم ، اهتماما جدياً بها كما كانت تتوقع من مسلكه السابق . وسر السيدة سروراً كبيراً أن ترى دريمان متكئا على جسر الميناء ، محدقا فيها وهى تتمهل صوب ذلك المكان بعد أن قامت بجولة حول بيت الرجل الكبير السن ، المغرم بها .

وبدأ فستوس يقول :

— إنك ذهلت ياسيدتى فلم تخبرينى لدى التقائنا آخر مرة أن نافخ النفير الذى يرتدى السترة الزرقاء والأشرطة هو الذى وهب لك نفسه ؟

— من الذى تعنيه ؟

وكان جون لفدى ، فى نظر ماتيلدا ذات الاهتمامات العاطفية الدائمة التقلب ، شخصية مبتذلة لا فائدة فيها .

— ماذا ، إنه جاويش البروحى .

— أوو ! وما أمره ؟

— أفصحى ... إنه يحبك ، وأنت لا تجهلين ذلك ياسيدتى .

وكانت على أية حال تعلم كيف تجارى التيار عندما يفيدها ذلك . وعلى هذا تطلعت إلى فستوس ، وأطبقت شفتيها إطباقا ذا دلالة ، وأومأت :

— لقد أقدمت على قطع صلتى به .

وهزت رأسها ، فالكلام لا يكون مأمون العاقبة حتى تلم بقدر من الموضوع أكبر قليلا .

وقال فستوس وقد احمر وجهه :

— ماذا ! هل تعنين بقولك هذا أنك تفكرين فيه جديا . . . أنت التى يمكن أن تبدو أسمى منه إلى حد كبير ؟

— إن القطرات التى لا تنقطع تبل الحجر ، وكان يجدر بك أن تسمعه وهو يستعطفنى ! . إن وجهه الجميل ذو تأثير ، وأخلاقه . . . أوو ، لطيفة جدا ! إنى لست غنية ، ومجمل القول أنى سيدة فقيرة من أسرة أدركها الانحلال ، ولم يعد لها ما تفخر به غير حسبها ونسبها ، وهذا لا يكسو المرء . ولا يسمنه من جوع . إنى أنظر إلى الدنيا حسبما هى فى الواقع يا « دريمانيو » . . . مسرح لابد لكل إنسان أن يلعب دوراً فيه ، والدور الذى ألعبه محزن !

وأرخت بصرها مستغرقة فى التفكير ، وتنهدت .

وقال فستوس شديد التأثر :

— سنتحدث فى هذا الشأن ... ولنمض إلى « لوك — آوت » .

ولم تعترض . وقالت وهما يدوران إلى اتجاه ذلك المكان :

— ياسيد دريمان ، إنى وجدت منذ زمن طويل شيئاً يتعلق بك ، ولكنه لم يخطر ببالى قط إلى الآن أن أرده إليك .

واستلت من صدرها الورقة التى سقطت من آن فى الحقل حينما تملصت من قبضة فستوس فى ذلك اليوم من أيام الصيف .

وصاح فستوس عندما فكر فى الأمر :

— عجباً ! .. إنى أشم رائحة لحم غض ، فالورقة مكتوبة بخط عمى ، وتتضمن العبارات التى سمعته يغنى بها يوم لم يحضر الفرنسيون ، ورأيته بعد ذلك يخطها فى التراب . إنها تدل على شيء خبأه عن الأعين . أعطنى الورقة ، ها هو ذا شيء ثمين ، إنها تساوى جنيها من الذهب !

وقالت ماتيلدا فى رقة :

— لنقتسم المغنم إذن .

وأجاب فستوس ، وقد افتر ثغره عن ابتسامة ، لأنها بدت على أحسن ماتبدو في هيئتها الجديدة وقد وجدت أنه من المحتمل أن يستحق الظفر به :

— نعم ، والله ..؟ لك ما تشائين .

وصعدا فى درجات الهضبة إلى قمتها ، وتضاءلا وهما يقفان وراء صفحة السماء ؟

---

(٣٧)

ولم يرد خطاب من بوب برغم أن شهر ديسمبر قد انقضى ، وأصبح عمر العام الجديد أسبوعين . وكانت الصحف مع ذلك ، تسجل تنقلاته تسجيلا يكاد يكون منتظما ، ودأب جون على إحضار تلك الصحف التى لم تعــد آن تقرؤها . فنى خلال الأسبوع الثانى من شهر ديسمبر أبحرت السفينة « فيكتورى » إلى « شيرنيس » ، وفى اليوم التاسع من يناير التالى شيعت جنازة لورد نلسون فى « سانت بول » .

ثم جاءت منه كلمة مكتوبة قصيرة موجهة إلى الأسرة عموماً ، ولم يرد بها ذكر لعلاقته العاطفية فى بورتسماوث . ولكنه أنبأهم أنه كان من بين الملاحين الذين ساروا اثنين وراء اثنين فى موكب الجنازة ، وكان عددهم يبلغ ثمانية وأربعين بحاراً . وقد حمل كابتن هاردى علم الشعارات فى هذه المناسبة عينها . وتقرر تسريح الملاحين قريباً فى شاتام بعد دفع أجورهم . ورأى بوب من ثم أن يعود إلى بورتسموث ليرى صديقاً غالياً . ويقضى هناك بضعة أيام ، ثم يعود بعد ذلك إلى قريته .

ولكن أيام الربيع توالت دون أن تأتى به . وراقب جون كآبة آن وهو يزداد رغبة فى القيام بعمل ما لمواساتها . وكانت مشاعره القديمة التى كبح جماحها بإيمان قوى ، قد استثيرت إلى حد التمرد ، برغم أنها لم تتكشف إلى الآن على نحو مباشر .

ولوحظ فى هذه الأثناء أن صاحب الطاحون الذى لم يكن يتدخل فى مثل هذه الشؤون إلا نادراً ، لوحظ أنه ينظر متعمداً ، يوما بعد يوم ، إلى آن وجاويش البروجى . ثم حدث . شيئاً فشيئاً ، أن تحدث إلى جون على انفراد .

وكانت عباراته قصيرة نافذة إلى لب الموضوع مباشرة ... إن آن شديدة الاكتئاب ، وقد أطالت التفكير فى بوب . ووضح الآن أنهم فقدوه لمدة سنوات مقبلة . حسناً ، وقد شعر صاحب الطاحون دائماً بأنه يؤثر أن يتزوج جون الفتاة ، فإن جون يستطيع الآن أن يستقر هنا ، وأن ينجح فيما أخفق بوب فيه : « ... وعلى

ذلك فإنك إذا استطعت يا بنى أن تحملها على الإقلال من التفكير فى بوب ، والإكثار من التفكير فيك ، فإن ذلك يكون أمراً طيباً بالنسبة للجميع .

وجاش فى صدر جون انفعال باطنى ، ولكنه كبحه وقال فى حزم :

— الإخلاص لبوب فوق كل شئ .

— إنه نسيها ، والأمر انتهى .

— وهى لم تنسه .

— حسناً ، حسناً . فكر فى الأمر .

وأسفر هذا الحديث عن قيامه بكتابة خطاب إلى أخيه توسل إليه فيه أن يقرر فى وضوح أكان تنازله عن آن شفهيا على رصيف الميناء — كما ظن جون أولا — مجرد اندفاع وقتى صادر عن الصداقة بينهما ، ومن القسوة أن يؤخذ به حرفيا ، أم أن تنازله فى الواقع ، كما بدا الآن ، قد تحول من قرار متسرع إلى قصد أكيد واظب بوب عليه فى سبيل متعته الخاصة دون ما اهتمام بأثره فى نفس آن المسكينة ؟

وانتظر جون الرد قلقاً ، ولكن لم يرد أى رد ، وبدا الصمت أشد دلالة مما يمكن أن يكون عليه أى خطاب يتضمن توكيداً بتخلى بوب عن تمسكه بدعوى تتصل منها هو نفسه فى صراحة تامة . وهكذا حدث أن أخذ إلحاح أبيه ، وعدم مبالاة أخيه ، وخوالجه هو التى انطلقت . . . أخذ هذا كله يعمل عمله فى اتجاه واحد سار . وتقرب جاويش البروجى إلى آن مرة أخرى على نحو ما كان يحدث فى الزمن الغابر .

ولكن ذلك لم يتم قبل أن يترك آن لنفسها خمسة أشهر كاملة ، فهو لم يخاطبها مباشرة إلا عندما أخذت نباتات اللخنيس والجرس الأزرق الذى ازدهر فى العام التالى ، أخذت تشيع ثانية ، متجلية للعين المتجولة .. وكانت تثبت مجموعة من النباتات الطويلة المزهرة فى تربة الحديقة ، ولم تجهل أنه يقف خلفها ولكنها لم تتلفت . وقد هدأت وأصبحت ذات وقار لطيف يعينها — فيما إذا راقبها أحد — على تمثيل دور صغير فى رباطة جأش ظاهرة ... مختلفة فى ذلك اختلافاً كبيراً عما كانت عليه من رعونة أيام افتقارها إلى التجربة .

وقال لها آخر الأمر فى بشاشة :

— ألن تدورى إلى أبداً ؟

ودارت إليه عندئذ ،ونظرت إليه دقيقة دونأن تتكلم . وكانت ريبة ماتلوح فى عينيها ، وكأنما مبعثها قلقه الذى شعرت به ، وقالت :

— كم أخذ الجو يشعرنا بأنه كجو الصيف ! أليس كذلك ؟

وأقر جون بأن الجو أخذ يبدو كجو الصيف . وإذ انحنى بصره عليها فى جد لم يترك مجالا لأى شك فى الموضوع الذى سيطرقه . واصل قوله مستخبرا :

— ألم يخطر على بالك قط ، فى هذه الأسابيع الأخيرة ، كيف اعتادت أن تكون العلاقة بيننا ؟

وأجابت على عجل :

— أوو ، يا جون ، لا يجدر أن تبدأ طرق هذا الموضوع ثانية . فأنا أكاد أكون الآن امرأة أخرى !

— حسناً ، إن هذا أبعث لى على طرقه ، أليس كذلك ؟

ونظرت آن إلى الطرف الآخر من الحديقة وهى تفكر وتهز رأسها هزاً خفيفاً ، وأجابت :

— أنا لا أرى الأمر على هذا النحو تماماً .

— أنت تشعرين بأنك حرة تماماً ، أليس كذلك ؟

وقالت على الفور فى وضوح جلى :

— طليقة تماماً !

وانخفض بصرها . وكررت قولها على نحو أبطأ :

— طليقة تماماً .

ثم بدا أن أفكارها تحولت فى سرعة من دائرتها إلى دائرته :

— ولكنك لست كذلك ؟

— أنا لست كذلك ؟

— والآنسة جونسون !

— أوو ، هذه المرأة ! أنت تعلمين كما أعلم أن الأمر كله مصطنع ، وأنى لم أفكر فيها قط لحظة واحدة .

ـــ كانت تراودنى فكرة أنك تمثل ، ولكنى لم أكن واثقة من الأمر .

ـــ حسناً . إن هذا لم يعد له أهمية الآن ، فأنا أريد أن أخفف من أثقال حياتك ، وأبهجك على نحو ما ، وأصلح بعض الشيء من سلوك أخى السيء . وإذا كنت لا تستطيعين أن تحبينى ، فميلك إلى يكفينى . وقد فكرت فى هذا ، مقلباً الفكر على كل وجه ـــ وقضيت بضعة أشهر وأنا أفكر فيه ـــ وتأكدت فى النهاية أن من الصواب أن أعرض عليك الأمر بهذه الطريقة . وأنا مقتنع كل الاقتناع بأنى لا أتعدى على بوب . فإننا نحن الاثنين . . . على قدر ما يتعلق به ... طليقان . ولولا وثوقى من هذا لما طرقت الموضوع . ويريد منى أبى أن أتولى العمل فى الطاحون ، وسيسره إن يكون فى مقدورك بث قليل من الأمل فى نفسى . وستسير الأمور فى منزل الأسرة على نحو أفضل فيما إذا استطعت أن تفكرى فى .

وقالت وقد تكورت دمعة كبيرة وتحدرت مختلطة بوجهها وأشرطة قبعتها :

ـــ أنت كريم وطيب يا جون .

وقال دون أن ينظر إليها :

ـــ أنا لست كذلك . وأخشى أن أكون على نقيضه تماماً ، فهذا كله مكسب لى . ولكنك لم تجيبى على سؤالى .

ورفعت ناظريها ، وقالت وهى تبتسم ابتسامة كئيبة :

ـــ لا أستطيع ذلك يا جون ... لا أستطيع ذلك بالتأكيد . أتعدنى وعداً ؟

ـــ وما هو ؟

ـــ أريد أن تعدنى أولا . . . .

وأضافت فى حزن هادىء .

ـــ نعم ، إنه مطلب غير معقول إلى حد مفزع ، ولكن أرجو أن تعدنى .

وبدا أن جون شعر حينذاك بأن الأمر بينه وبينها انتهى تماما فى الوقت الراهن ، وقال مضعضع العزيمة :

ـــ أعدك .

وردت عليه فى إشفاق مؤثر :

ـــ أريد ألا تحدثنى فى ذلك الأمر ، مهما ، طال الزمن .

وأجابها :

ـــ حسناً جداً ، حسناً جداً . بيد أنك لا ترين يا عزيزتى آن أنى جانبت الشهامة واللطف بفتح هذا الموضوع من جديد ؟

وتطلعت آن إلى وجهه دون أن تبتسم . وغمغمت :

ـــ إنك كنت طبيعياً تماماً . وأظن أنى كنت كذلك أيضاً .

وقال جون مفجوعاً :

ـــ بيد أنك لن تتجنبينى أو تخشينى لهذا السبب . إنى لن أحنث بوعدى ، ولن أضايقك بعد ذلك أبداً .

ـــ أشكرك يا جون . ولم تكن بك حاجة إلى أن تقول ، لن أضايقك ، ، فالأمر ليس كذلك .

ـــ حسناً ... إنى شديد العمى والغباء . لقد كنت أوجع قلبك طوال هذه المدة دون أن أفطن إلى ذلك . وأظن أن هذه هى قسمتى . فالرجال الذين يحبون النساء حباً أصدق يقعون فى الخطأ دائماً ، ويؤلمونهن أكثر مما يؤلمهن الرجال الأقل حباً .

وأجابت آن فى لطف وهى تضع يداً على يد ، وتنظر إليهما :

ـــ ليس هناك من يحبنى كما تحبنى يا جون ، ولا أحد فى الدنيا جدير بأن يحب مثلك ، وأنا لا أستطيع ، مع ذلك ، أن أحبك بحق .

وأردفت وهى ترفع عينيها :

ـــ ولكنى أميل إليك كثيراً إلى حـــد أنى سأبذل ما وسعنى من جهد لأفكر فيك .

وقال مبتسما :

ـــ حسناً ، إن هذا شىء يذكر . لقد حظرت على أن أتحدث فى هذا الأمر ثانية مهما طال الزمن ، فإلى أى حد سيطول هذا الزمن ؟

وأجابت آن وهى توغل فى الحديقة ، وقد تركته بمفرده :

— إنك الآن لم تنصف .

ومر ما يقرب من أسبوع . ثم تقدم صاحب الطاحون إلى آن بعد ظهر أحد الأيام وهى داخل المنزل ، ونمت مشيته على أنه سيطرق موضوعاً ذا وزن. وبدأ يقول وعلى فمه ابتسامة المدرك للأمر :

— لقد سرنى جداً يا عزيزتى أن أرى ما رأيته من نافذة الطاحون فى الأسبوع الماضى .

وأومأ إيماءة متجهة إلى ناحية الحديقة .

وسألته آن فى براءة عما يكون الأمر ، فأردف يقول وهو يضع يده على كتفها ويربت عليها :

— أنت وجاك معاً فى الحديقة . إنه كان يسرنى سروراً كبيراً يا فتاتى الصغيرة العزيزة لو أنك استطعت أن تميلى إليه أكثر من ميلك إلى ذلك «السيد» المتقلب العاطفة المسمى بوب .

وهزت آن رأسها لا بقصد النفى القاطع ، ولكن للتدليل على نوع من الحياد ... وقال صاحب الطاحون :

— ألا تستطيعين ذلك ؟ تريثى الآن .

وألقت برأسها إلى الوراء وهى تبتسم ابتسامة بسيطة حزينة . وقالت محتجة :

— كم تضيقون على الخناق أنتم جميعاً ! ... وهذا يشعرنى بأنى شريرة إلى حد كبير لعدم إطاعتكم ، ولبقائى وفية ... وفية !...

ولكنها لم تركن فى هذا الجانب من الموضوع إلى الكلام ، وسألت :

— لماذا يسركم ذلك سروراً شديداً ؟ . . .

— إن جون أثبت وأشد إخلاصا من كل فتى نفخ فى نفير ، وقد رأيت دائماً أنه يمكنك أن ترتاحى إليه أكثر من ارتياحك إلى بوب . وإنى أقصد الآن أن ألحقه بالعمل معى فى الطاحون ، وتمكينه من قضاء وقت مريح بعد طول ترحاله ، ولكن الشىء الكثير يتوقف عليك إلى حد أنه ينبغى على انتظارك قليلا حتى أرى ما تنوينه بشأن ذلك المسكين. واعلمى ياعزيزتى أنى لا أريد إرغامك على شىء ، فكل ما فى الأمر أنى أسألك رأيك .

ونظرت آن متأملة إلى صاحب الطاحون من وراء جفونها الظليلة ، وكانت ، أصابع إحدى يديها توقع على صدرها لحن « نوبة الانصراف » العسكرية . وأجابت على حين فجأة :

— لست أدرى ما أقوله لك .

ومضت إلى سبيلها .

ولكن هذه الأحاديث لم تعدم أثرها فى ذهن آن اليقظة الضمير إلى أقصى حد. وفضلا عما تقدم قد أيدتها كثيراً ، حادثة وقعت فى أمسية من أمسيات خريف هذا العام إذ جاء جون لتناول الشاى . كانت آن تجلس أمام النار فى مقعد وطيء ويداها متشابكتان حول ركبتها . وجلس جون على التو فى مقعد يقع وراءها ولا يكاد يبعد عنها وكانت السيدة لفدى تقوم بصب الشاى فى الأبريق من القدر المعلقة فى المدفأة فوق رأس آن مباشرة . وأفلتت القدر مندفعة على حين فجأة . وقفز جون من مقعده عند ذاك ، ووضع يديه فى نفس الوقت فوق يدى آن ، وركبتها الغالية التى تمسكها يداها ، قاصداً وقايتها من رشاش الماء الحارق الذى كان يتجه إلى ذلك الموضع . وأوقفت السيدة لفدى هذا الفيض الطارىء على الفور ، ولكن جاويش البروجى المخلص كان قد تلقى ما تساقط منه على ظهر يديه.

وجفلت آن كمن استيقظ من سبات عميق ، وهى تكاد تكون غافلة عن وجوده خلفها . وصاحت وهى تتطلع إلى يديه :

— ماذا صنعت بنفسك لتجنبنى ذلك يا جون المسكين !

واحمر وجه جون تأثراً لدى سماع هذه الكلمات . وأجاب وهو يجرى بأحد أصابعه على ظهر يده وينزع بذلك جلدها .

— إنه حرق بسيط . هذا كل ما فى الأمر .

— إنك أصبت بحرق مؤلم ، وأنا لم أصب بشىء .

وتطلعت إلى وجهه الطيب على نحو لم يحدث قبل ذلك منها قط . وعندما عادت السيدة لفدى بالزيت وغيره من أدهان الجروح ، أبت آن أن يضمد الجرح أحد غيرها . وبدا كأن حياءها كله قد تبدد ، وبعد أن بذلت كل ما فى وسعها لعلاجه ظلت جالسة بالقرب منه وقالت له لدى رحيله ما لم تقــله له من قبل قط طوال حياتها :

— لا تبطىء فى العودة إلينا .

ويحمل القول إن صنيعه المنبعث بغير روية ، المنطوى على الإخلاص ، هو آخر حلقة فى سلسلة الأفعال المتشابهة الفحوى ، كانت القطرة المضافة التى أدارت العجلة أخيراً . فقد أثرت أخلاق جون فيها تأثيراً عميقاً ، واكتسب ثباته الحازم على عهد إعجابها ، لا سيما وأنها هى نفسها كانت ذلك النجم . وبدأت تسأل نفسها أكثر فأكثر كيف أمكنها أن تصر على الإعراض عن تودده إليها قبل أن يأتى بوب ليجدد ذكريات صبيانية كانت قد اضمحلت فى ذلك الوقت اضمحلالا كبيراً . ألا تستطيع ، برغم كل شىء ، أن ترضى صاحب الطاحون ، وتحاول أن تنصت إلى جون ؟ فهى بفعلها هذا تسعد رجلا يستحق التقدير ؛ ولن تكون الضحية ، على أسوأ حال ، إلا شخصها الذى لا يستحق التقـــدير ، والذى لم يعد مستقبله ذا قيمة . وفكرت مشمئزة : « أما عن بوب ، فالمرأة التى تحبه جديرة بالرثاء » . وأقنعت نفسها بأن هذه المرأة ، أياً كانت ، لن تكون آن جارلاند .

وظهر بعد ذلك شىء من عدم المبالاة ، وشىء من المرح ، فى سلوك الفتاة جعلاها مثالا لانتصار الكبرياء والتعقل على الذكريات والعواطف . وقد تلخص موقفها فى التجائها إلى العناء متحدية كلما وصل إلى علمها أن بوب غير مخلص وغير صادق . وعاد جون ، وكادت عودته تكون على الفور ، حيث أن ذلك لم يكن منه بد ، إذ جذبته إلى هناك أشعة ابتسامتها الأولى له ، وما صحب ذلك من كلمات . وقد بقيت الآن جالسة بقربه بدلا من انصرافها عنه إلى أعمالها الصغيرة فى علو البيت ، أو فى سفله ، أو عبر الغرفة ، أو فى أركانها ، أو فى أى مكان لم يتصادف وجوده فيه ، حسبما كان من عادتها قبل ذاك . وشرعت تجيبه على ملاحظاته العامة إجابات هامة ، وتشعره فى كل مناسبة بأنه وجد آخر الأمر حظوة فى عينيها .

كان اليوم بديعاً ، ومضيا إلى خارج البيت حيث حاولت أن تجلس على حافة النافذة الحجرية المنحدرة . وقال جون وهو يقف مشرفا عليها ، ويبتسم تحت أشعة الشمس المنعكسة متوهجة على الحائط :

— كم أصبحت لطيفة فى هذه الأيام الأخيرة ! يخيل إلى أنك بقيت فى البيت بعد ظهر اليوم بسببى .

وقالت فى بشاشة :

— لعل هذا صحيح ...

« لنعمل كل ما نستطيع فى سبيله يا سيدتى . . . »

« ولن نستطيع أن نعمل فوق ما يجب ! »

« لأنه أحد الذين ذادوا عن وطننا . »

وقد قام بأكثر من ذلك . فإنه أنقذ جلدى من ساق مفزع . إن ظهر يدك لن يشفى قبل مضى زمن طويل ، أليس كذلك يا جون ؟

وبسط يده ليتبين حالتها . وكانت الخطوة الطبيعية التالية أن يتناول يدها . وتوقد وجهه عندما فعل ذلك . لقد قطع نجمه شوطاً بعيداً صوب أوج مطافه بعد انحداره الطويل المنهك . وتستطيع أقل العيون إبصاراً أن تدرك عزم آن على أن تدعه يستهويها ، وقد تدعه يظفر بها فى حالة اندفاعها . ومهما يكن من أمر الحزن الصامت المكتوم طى جوانحها ، فإنه قد أبعد الآن إيما إبعاد عن جلوة النور .

قال وهو لا يزال يمسك بيدها :

— أريد أن أصحبك إلى مكان ما فيما إذا رضيت بذلك .

— نعم ؟ ... وأين ذلك المكان ؟

وأشار إلى سفح تل بعيد بدأت بقع بيض تشوب سطحه بعد أن كان إلى الآن أخضر يانعاً . وقال :

— فوق ، هناك .

— أرى قامات بعض الرجال هناك ، فماذا يصنعون ؟

— ينحتون فى أرض التل رسما ضخماً للملك ممتطياً صهوة جواده . وسيبلغ حجم رأس الملك حجم حوض طاحوننا ، وجسمه حجم هذه الحديقة ، وسيقع رسمه هو وجواده فى مساحة تبلغ فداناً ... متى نذهب إلى هناك ؟

وقالت :

ـــ وقتما تريد .

وصاحت السيدة لفدى من الباب الأمامى :

ـــ جون ! هنا صديق جاء ليلقاك .

وعرج جون على الدار ، ووجد فى انتظاره ملازم البروجى « باك » الذى يثق فيه . وكانت قد وردت رسالة إلى المعسكر باسم جون أثناء غيابه ، فجاء بها إليه ملازم البروجى الذى كان قد خرج للنزهة . ودخل « باك » الطاحون ليباحث صاحبها فى تناول كأس من خمر السنة الماضية ، إذا كان ذلك ممكناً . وشرع جون فى قراءة الرسالة بينما كانت آن لا تزال وراء ركن البيت حيث تركها ، وشحب وجهه لدى تلاوة كلمات قليلة منها حتى صار فى لون الورقة البيضاء . ولكنه لم يتحرك ، وواصل قراءة المكتوب حتى آخره .

وأسند مرفقه بعد ذلك إلى الحائط ، ووضع كفه على رأسه وهو يفكر ويصمم تصميا مؤلما . ثم سيطر على نفسه فى حزم ، وعاد إلى حالته الطبيعية بالتدريج . ولم تلاحظ عليه آن أى شيء غير طبيعى عندما فارقها ليعود إلى منزله مع باك .

وفى تلك الليلة قرأ الرسالة ثانية فى المعسكر . وكانت من بوب . وفيما يلى محتواها المقلق :

عزيزى جون :

لقد أمسكت عن الكتابة إلى اليوم لأنى لم أكن قد تبينت حقيقة مشاعرى . بيد أنى تبينتها أخيراً . وأصبحت أستطيع أن أقول ، دون أن يعتور قولى أى شك ، إنى أنوى ، على أية حال ، أن أخلص لعزيزتى آن . والأمر يا جون أنى وقعت فى مأزق صغير ، ولدى سر خاص بذلك أفضى به إليك (وينبغى لذلك السر ألا يتعدانا نحن الاثنين بحال من الأحوال .) لقد صادفت فتاة لدى نزولى إلى البر فى الخريف الماضى ، وتحمس كل منا للآخر كما يفعل الناس . ويجمل القول أن كلا منا مال للآخر ميلا كافيا فى فترة من الزمن . ولكنى خضت معها فى ماء ضحل ، ووجدت أنها خداعة رهيبة . وهى عاطلة من كل ميزة ، فلا إدراك ، ولا لطف . وكل ما فيها مشاكسة وطبل أجوف برغم أنها بدت فى أول الأمر ياجون بارعة إلى حد خطير . وعلى ذلك عاد قلبى إلى مرساته القديمة . وآمل ألا يحدث ارتدادى إلى سبيل الأمانة أى أثر فى نفسك .

ولكن نظرا لما أبديته لى بنظراتك يوم افتراقنا من أنك لم تقبل ماأعرضه عليك من تنازلى عنها — ذلك التنازل الذى تسرعت فيه كثيرا كما تبينت فيما بعد — فإنى أشعر بأنك لن تعبأ بعودتى إلى طريق الشرف. ولست أجسر بعد على الكتابة إلى آن، وأرجو ألا تدعها تعلم كلمة واحدة عن تلك الفتاة وإلا كان على أن أؤدى حسابا عسيرا. وسوف أحضر إلى الدار إن شاء الله، وأصحح الأمور كلها وإذا أحطت آن أنباء ذلك بعين الرعاية الأخوية، وحملتها على أن ترتد بخواطرها إلى فإنى سأعد ذلك تفضلا منك يا جون. وسأموت غما إذا ما استثارها أحد على، لأن آمالى أخذت تنعقد عليها من جديد، قوية كل القوة... وإذاً آمل أن تكون مرحا كما كنت فى العهود السابقة، فإنى لك الأخ الصادق الود.

روبرت

وعندما سقط ضوء النهار البادد على وجه جون، بينما هو يرتدى ملابسه فى الصباح التالى، كان التجعد الذى بدأ يظهر على جبينه أمس، قد أصبح محفورا هناك على نحو دائم. وفى سبيل أخيه الوحيد الذى رباه وهو طفل، وعلمه وهو غلام، وأحاطه دائما بحبه ورعايته، اعتزم فى الوقت الحاضر أن يتريث فى تصرفاته ويمتنع، على الأقل، عن صنع أى شى يعوق بوب عن استرداد حظوته، فيما إذا كان هناك حب حقيقى لايزال يربط هذا الأخير بآن، حتى برغم ما اعتور هذا الحب من خمود مؤقت. ولكن جون بدأ خلال ذلك اليوم، يسلك طريقه، كان قد اتفق مع آن على أن يصطحبها لمشاهدة رسم الملك المنحوت، وكأنما لم يقع شىء يعوق مجرى حبه الممهد.

موقف دقيق

(٣٨)

ما وصل حتى قالت له آن :

ــ أنا مستعدة للذهاب .

وتوقف وكأنما أخذ باستعدادها ، وأجاب وهو شديد التردد :

ــ ألا يكون . . . أليس من الأفضل أن نرجىء الذهاب إلى وقت تكون فيه الشمس أقل اتقادا ؟

وبدا عليها أقل أثر ممكن من الدهشة وهي تجيب :

ــ ولكن الجو قد يتبدل ، أو لعل من الأفضل ألا نذهب أبدا ؟

ــ أوو ، لا ! إنه ليس إلا خاطر خطر لي . لنمض على الفور .

وسارا على طول الوادي . وحافظ جون أثناء المسير على الابتعاد عن يمينها مسافة خطوة تقريبا . وعندما اجتازا الحقل الثالث وصلا إلى حيث يلعب ستة أطفال . وقال أكبرهم وأوقحهم :

ــ لماذا لا يضمها إلى جنبه كما يفعل الرجل ؟

ورد الأطفال الوقحاء الأصغر سنا في نفس واحد :

ــ لماذا لا يضمها إلى جنبه كما يفعل الرجل ؟

ودار جاويش البروجي ، واستطاع بعد شيء من الركض ، أن يضرب اثنين منهم بعصاه ، وعاد إلى آن مبهور الأنفاس ، وقال وقد احمر خجلا لما حل بها :

ــ يخجلني أن يكونوا قد أهانوك على هذا النحو .

وأجابت بلهجة تأنيب :

ــ إنهم لم يقولوا شيئا يسيء إلي ، هؤلاء الصبية المساكين .

وأخرس جون المسكين إدراكه لقصدها فهذا التلميح اللطيف الذي كان قمينا أن يجيب عليه متلهفا قبل مضي يوم واحد قريب، أصبح الآن كالنار تكوي جرحه

ووصلا أخيرا إلى أحجار قائمة عبر جدول للمرور عليها . واجتازها جون

أولا دون أن يدور برأسه ، واجتازتها آن وراءه وهى ترفع فقط طرف ثوبها . ولدى وصولها إلى الضفة الأخرى اقتربت إحدى القرويات وأحد الرعاة من حافة الجدول لعبوره ، وتوقفت آن وراقبتهما ، وأمسك الراعى كل يد من يدى الفتاة بإحدى يديه ، ومشى بظهره فوق الأحجار وهو يواجه الفتاة ويعينها بإمساكها على أن تنصب قامتها ، واستغرقا فى الضحك وهما يسيران على هذا النحو .

وسأل جون :

— ما الذى يدعوك إلى الوقوف يا آنسة جارلاند ؟

وقالت فى هدوء :

— كنت أفكر فى مبلغ سعادتهما .

ودارت وهى تحيل بصرها عن الرفيقين الرقيقين ، وتبعته دون أن تعلم أن الصوت الذى بدا كأنه طنين نحلة كبيرة عابرة كان أنة مكتومة صادرة من جون .

ووجدا لدى وصولهما إلى التل أربعين عاملا من عمال الحفر منهمكين فى إزالة التربة السمراء بقصد كشف الطبقة الطباشيرية الكامنة تحتها . ولم يكد الوجه الباسل الذى عملت معا ولهم على تكوينه ، لم يكد يتضح لجون وآن وقد أصبحا الآن على مقربة منه ، وقالت آن ، بعد أن تنقلت من رأس الحصان الى صدره ، ثم إلى حافره ! وارتدت من ناحية يد الملك الممسكة باللجام ، وعبرت جسر أنفه ، وتغلغلت إلى قبعته المنمقة ، قالت إنها نالت كفايتها من الفرجة ، وخطت إلى خارج الأرض الطباشيرية ، ماسحة قدميها فى الحشائش . وكان جاويش البروجى قد ظل طوال الوقت واقفاً وقفة مكتئبة عند حد المهماز الأيمن لصاحب الجلالة

وقالت آن وهما يعود أن أدراجهما ثانية :

— لقد جد الطباشير على حذائى .

وسحبت ذيل ثوبها لتنظر إليهما وأردفت :

— كيف أتوصل إلى تنظيفه ؟

وقال جون مشيراً إلى بقعة من الأرض كانت عيدان حشائشها طويلة كثيفة .

— تستطيعين ذلك إذا مسحته فى الحشائش الطويلة هناك .

ومشى بعد أن قال ذلك فى ثبات وورع .

ومسحت آن قدميها الصغيرتين من ناحيتهما اليمنى ، ومن ناحيتهما اليسرى ، ومن إبهاميها ، وكعبيها ، ولكن الطباشير العنيد ظل ثابتاً فى مكانه . واستسلمت لليأس بعد أن لهثت مما بذلت من جهد ولحقت برفيقها فى نهاية الأمر .

وقال جون وهو ينظر برفق من فوق كتفه :

— أرجو أن يكون حذاؤك قد نظف الآن .

فقالت :

— أبدا ! بالتأكيد . كنت أحتاج إلى معاونة . . . إلى أحد يحفظ توازنى ـ فمن العسير جدا أن يقف المرء على أحد قدميه ، وينظف الأخرى دون عون ـ لقد كنت معرضة لخطر الوقوع ، فأقلعت عن المحاولة .

وخطر على بال الفتى المسكين هذا الخاطر ، بينما هى تنتظر معاونته : « يانجوم السعد الرحيمة ، يالها من فرصة ! » ولكن شفتيه ظلتا مطبقتين ، وواصلت الفتاة سيرها وهى تبتسم ابتسامة مكظومة .

— يبدو أنك فى عجلة شديدة ! فلم كل هذه العجلة . . . أبعد كل العبارات الظريفة التى قلتها عن . . . عن اهتمامك الشديد بى . . . وما إلى ذلك ، تأبى التوقف لأى سبب من الأسباب ! . .

وكان ذلك فوق ما يطيقه جون بكثير . فبدأ يقول :

— قسما بحياتى وجنانى ، ياعزيز . . . .

وعندئذ خشخشت رسالة بوب فى جيب صداره منذرة وهو يضع يده على صدره تأكيداً لقسمه . وأصبح قيد البكم والتجهم فجأة على نحو ما كان من قبل .

وغاصت آن وقد أنهكتها الرحلة ، فى مقعد قائم خارج باب بيتها . وكان أول ما بدر منها أن حاولت خلع حذائها . . . وكانت العملية شاقة . ولكن جون وقف يضرب بعصاه أوراق الشجر المتسلق على الحائط .

وصاحت الفتاة آخر الأمر بصوت عال :

ـــ أمى . . . ديفيد . . . موللى . . . أو أى شخص آخر ! . ألا يعاونى أحد فى أى أمر ! .

وقال جون قادماً إليها فى بطء غير مصدق ، وفى هيئة تنم على هم يجل عن الوصف .

ـــ أنا آسف جدا .

وأجابت بينما كان الرجل الهرم يتقدم ويخلع لها حذاءها الشائه فى غمضة عين:

ـــ لا ، أنا أستطيع خلعه دون معاونتك . ديفيد أقدر على ذلك .

وأدهش آن ذلك التحول المفاجئ من الإخلاص إلى الإهمال الجاف .

وأسرعت إلى المرآة ، لدى دخولها غرفتها ، وهى تكاد تتوقع أن ترى تغييراً كبيراً طرأ على محياها الجميل يجعله لا يطاق أبدا . ولكنها وجدته ، إذا كان ثمة تغير طرأ عليه ، أشد نضارة من المعتاد ، نظراً للرياضة التى قامت بها . وقالت لنفسها وهى ترجع بذاكرتها إلى الوراء « حسنا ! » . فلقد شجعته هذا الأسبوع لأول مرة منذ عرف أحدهما الآخر . وأظهر هو ، لأول مرة ، أن هذا التشجيع عديم الجدوى . وأضافت هادئة النفس : « لعله لم يفهم الأمر فى وضوح » .

وعندما جاء فى المرة التالية أدهشها أن يكون مجيئه بقصد إحضار بعض الصحف إليها بعد أن كف عن ذلك وقتاً ما . وما وقعت عيناها على تلك الصحف حتى قالت :

ـــ أنا لا أهتم بالصحف .

ـــ إن أخبار تنقلات الصحف كثيرة اليوم ومستفيضة ، برغم أن حروف طباعتها دقيقة .

فأجابت فى وقار جاف :

ـــ أنا لم أعد أهتم بأنباء تنقلات السفن .

كانت تجلس وراء المنضدة ، بالقرب من النافذة ، ومن ثم لم يكد يسهل عليها أن تنهض وتغادر الغرفة عندما نشر الصحيفة فى حزم ، برغم إنكارها ذلك ، وأخذ يقرأ بياناً عن الأسطول الملكى . وواصل القراءة ، حازم السيماء ، حتى آخر البلاغ ، ذاكرا اسم سفينة بوب فى قوة هائلة .

وقالت له فى النهاية :

— لا ، لن أستمع إلى أكثر من هذا ! .. دعنى أقرأ أنا لك .

وجلس جاويش البروجى . وعرجت آن على الأنباء العسكرية ، وقرأت تفصيلاتها جميعاً فى حماسة شديدة ظاهرة ، وقالت متحمسة :

— هذا هو الموضوع الذى أميل إليه ، أنا » .

— ولكن ... ولكن بوب يعمل فى الأسطول الآن ، وأغلب الظن أنه سيرقى إلى رتبة ضابط ، وعندئذ ...

وقاطعته قائلة :

— وهل هناك شىء يضارع الجيش ؟ إن الملاحين لا يتحلون بأى حذق ، فهم يتبخترون تبختر البط ولا يخوضون إلا غمار معارك سخيفة لايستطيع الإنسان تكوين رأى عنها . فالمعارك البحرية لا تقوم على علم أو فن قيادى . . . فهى لا تزيد عما نراه من كبشين يتناطحان فى الميدان ليصرع أحدهما الآخر ، ولكن المعارك العسكرية تنطوى على فن أى فن ، وبهاء ، أى بهاء ، والرجال فيها بارعون أى براعة ، لا سيما الجنود الفرسان ، أوو ، أنى لن أنسى كم بدوتم رجالا ظرفاء جميعاً حين جئتم ونصبتم خيامكم فوق الهضبة ! وإنى أميل إلى الفرسان ... أكثر من ميلى إلى أى شىء آخر أعرفه . و « الدراغون » أحسن فرق الفرسان ...ورجال البروجى أحسن رجال الدراغون !

وتأوه جون مخاطباً نفسه : « أوو ، لو بدر ذلك منها قبل الآن بقليل ! » . وأجاب فور استرداده جأشه :

— إنى مغتبط لوجود بوب آخر الأمر فى الأسطول الحربى ... فهو لائق له أكثر مما هو لائق للبحرية التجارية ... إنه شجاع جداً بطبيعته ، مستعد لأى عمل جرىء . وقد سمعت الشىء الكثير المتزايد عن أفعاله على ظهر السفينة « فيكتورى » ، وقد لاحظ الكابتن هاردى ملاحظة خاصة عندما . . .

وقالت آن وقد نفذ صبرها :

— لا أريد أن أسمع شيئاً أكثر من ذلك . إن الملاحين يحاربون بالطبع ، فليس لهم مناص من ذلك على ظهر السفينة ما داموا لا يستطيعون الهرب ؟ ولا فرق هناك بين أن تحارب وتموت ، أو أن تموت دون أن تحارب .

ودافع جون عن أخيه :

— إن من خلقه ، مع ذلك ، ألا يهتم بنفسه حيثما يتعلق الأمر بشرف بلاده. ولو أنك عرفته فقط وهو صبي لسلمت بذلك ، فقدكان يجازف دائماً بحياته لينقذ حياة أي شخص آخر . وحدث مرة أن اقتحم كوخا في الدرب ، اشتعلت فيه النار ، لينقذ طفلا ، برغم أنه كان لا يزال هو نفسه صبيا ، ولم ينج يومئذ إلا بمعجزة . ونحن نحتفظ الآن بقبعته التي أحدثت النار بها ثقباً ، فهل أحضرها وأريك أياها ؟

— لا ، أنا لا أرغب في ذلك ، فهذا أمر لا شأن لي به .

ولكنه واصل سيره صوب الباب ، فأضافت قولها :

— آه ! أنت تغادر الغرفة لأني أعوق سبيلك ، فأنت تريد الاختلاء بنفسك أثناء قراءة الصحيفة ... سأنصرف على الفور . أنا لم أفطن إلى أني كنت أعكر عليك صفوك .

ونهضت كأنما تهم بالخروج :

— لا ، لا ! إني أوثر أن تكوني ، أنت ، التي تعكر صفوى على . . . أوو ، معذرة يا آنسة جارلاند ! سأتحدث إلى أبي في الطاحون بما أني هنا الآن .

إنه لا يكاد يكون ضرورياً أن نقرر أن آن (التي تردد خلال سياق هذه القصة مراراً ، وفي إصرار ، ذكر حسبها الأكيد البارز بين الأوساط المتضعة المحيطة بها .) كانت عادة نقيض المرأة التي شيمتها الخضوع ، ولكن حدث أنها لم تدع جون يخرج سواء أكان ذلك بسبب تألمها من سلوكه ، أو تشبثها العنيد بخطة صممت عليها دون روية ، أو بسبب مكايد الدلال التي هي رد فعل لحزنها الذي طال أمده ، أو بسبب أي شيء آخر .

قالت تستدعيه :

— يا جاويش البروجي .

فأجاب خجلا :

— نعم

— إن ربطة شريط قبعتى قد انحلت ، أليس كذلك ؟

ودارت فصوبت إليه نظرتها الساحرة .

وكان الرباط الحاول فوق جبينها مباشرة ، أو كان ، بتعبير أدق، عند الوضع الذى يمتزج فيه « جهاز التشبيه » « بجهاز الإحسان » طبقا لنظرية « جول » فى علم معرفة قوى النفس بالنظر إلى الجمجمة وشكلها (فرينولوغيا)(١) .

وحاول جون ، الذى أعيد على هذا النحو ، أن ينظر إلى الرباط فى سرعة الحجر المسطح حين يقذف به أفقياً فى الماء ، حتى يتحاشى التغلغل بنظرته إلى حيث تلتقى بسطح عين الفتاة المتسائلة .

وقال وهو يتراجع قليلا :

— إنه منحل .

وازدادت منه قرباً ، وسألته :

— هل تعقده لى ؟ . . . أرجوك . . .

ولما لم يكن من الأمر بد ، فقد أهاب بشجاعته وأذعن . وإذا لم يصل رأسها إلا إلى ارتفاع زرسترته الرابع اضطرت أن تنظر إلى أعلى لتمهد له الأمر . وبدأت يد جون تحوم حول الرباط . وبرغم بذله ما يستطيع من جهد، فقد استحال عليه أن يلمس الشريط دون أن تختلط أطراف أصابعه بجدائل الشعر فوق جبهتها .

قالت له .

— إن يدك ترتجف . . . آه ! . . لقد كنت تسرع فى المسير .

— نعم . . . . نعم .

واتجهت بنظرها ، متسائلة ، إلى أعلى من خلال أصابعه :

— هل كدت تنتهى من عقد الرباط ؟

---

(١) صاحب هذه النظرية هو فرانز جول (١٧٥٨ — ١٨٢٨) مؤسس علم القوى العقلية . وقد حاضر فى هذا الموضوع فى فيينا (١٧٩٦ — ١٨٠٢) حتى حظرت عليه الحكومة ذلك . وحاول أيضا أن يحاضر فى لندن . (شرح الأصل) .

وتلعثم وهو يتهدج تهدجاً دافئاً لذيذاً ، وخفق قلبه كدقة الحنطة :

— لا لم أنته بعد .

— أرجوك إذن أن تسرع .

— نعم سأفعـــل ذلك يا آنسة جارلاند ! . . . ب . . . ب . . . بوب فتى طيب حـ . . .

وقاطعته .

— لا تذكر لى اسم ذلك الرجل .

وصمت جون على الفور ولم يعد شىء يسمع غير حفيف الشريط وظل الأمر كذلك حتى ضلت يده ثانية بين جدائلها ، ثم لمست جبهتها . فتمتم جاويش البروجى فى همس :

— أوو ، يا إلهى الرحيم !

وارتد فى سرعة إلى ركن الصوان ، وأسند رأسه إلى يده .

وقالت له :

— ما الأمر ياجون ؟

— أنا لا أستطيع القيام بذلك !

— ماذا ؟

— بربط شريط قبعتك .

— ولمـــاذا ؟

— لأنك على قدر كبير من . . . لأنى أرعن ، ولا أستطيع ربط عقدة أبدا

وأجابت آن :

— أنت أرعن بالتأكيد .

وابتعدت عنه .

وشعرت بعد ذلك بأنها أوذيت فى كرامتها ، فقد بدا أن ما بدر منه يدل على أنه يضع سعادة بوب فوق سعادتها فى تقديره مادام أنه يتشبث فى تفكيره بإتاحة فرصة أخرى لبوب بينما أظهرت هى أنها ترغب فى غير ذلك ، فهل للآنسة جونسون أى دخل فى تشبثه هذا ؟ ولاحت لها بعد بضعة أيام فرصة اختباره فى هذا الصدد ، فقد كانت فى القرية ، وقابلت جون عند باب الطاحون :

ـــ أسمعت النبأ ؟ ستتزوج ماتيلدا جونسون بدريمان الأصغر .

وكانت آن تقف وظهرها إلى الشمس ، فتبدت ملامحه لعينيها المنقبتين وهو يواجهها ، ولم يطرأ على تلك الملامح أى تغيير إلا أن يكون ثمة شعاع معين من الاهتمام انبثق إثر سؤالها ، ثم تحول إلى عدم اكتراث واضح شامل .

وقال فى فتور يصعب أن يكون فتور محب :

ـــ حسنا . فما دام الزمن يمضى ، فهذه زيجة لا بأس لها بالنسبة لها

وبدأ جون يدرك من ناحيته أن هذه الإغراآت أفدح مما يستطيع احتماله ولكن وجود معسكره قريبا إلى هذا الحد من بيت أبيه جعل من غير الطبيعى ألا يقوم بزيارته ، .لاسيما وأن فرقته قد تؤمر فى أيه لحظة بالرحيل إلى الخارج ، ويعقب ذلك فراق سنوات طويلة . ومادام أنه يذهب إلى هناك فلا مفر له من رؤيتها .

وتغير لون فصول العام من أخضر إلى ذهبى ، ومن ذهبى إلى رمادى ، ولكن التغير الذى طرأ على بيت لفدى كان ضئيلا . وكانت الأنباء ترد عن بوب عرضا ، خلال الاثنى عشر شهرا الأخيرة ، بأنه يصون شرف بلاده فى الدنمارك ، وجزائر الهند الغربية ، وجبل طارق ، ومالطة وغيرها من بلاد تقع فى أرجاء الكرة الأرضية وظل الأمر كذلك حتى تلقت الأسرة رسالة قصيرة تشير إلى أنه وصل ثانية إلى بور تسماوث . وبدا أن بوب ميال للبقاء فى تلك المدينة ، فإن هذاالشهم المهذب لم يظهر قط فى أوفركمب مع أن بعض الوقت قد مر دون أن ترد أنباء جديدة ثم علم جون فجأة أن ترقية بوب التى طال الحديث عنها . نظير الخدمات المعروفة التى أداها ، قد أصبحت واقعة محققة . وسار جاويش البروجى ، على ذلك إلى أوفركمب ووصل إلى القرية إبان العصر . ولم يكن فى البيت أحد من أفراد الأسرة وقتذاك فواصل جون طوافه فوق التل صوب كاستربريدج دون أن يتبصر الاتجاه الذى يسير فيه ، وظل كذلك حتى رأى ، وهو يرفع عينيه ، آن جارلاند تتجول هناك . حاملة على ذراعها سلة صغيرة .

واحمر وجه جون أول الأمر لاغتباطه بهذه الرؤيا اللطيفة ،ولكن ضميره أهاب به ، فأهدر احرار الغبطة فجأة وقضى عليه ، وبحث عن وسيلة للانسحاب ولكن

الحقل كان مكشوفا ، والجندى لايخفى على العين . فليس هناك منها مهرب .

وقالت وعلى ثغرها ابتسامة جذابة :

ـــ كان شيئا لطيفا منك أن تحضر .

فأجاب وهو يضحك ضحكة تدل على عدم المبالاة :

ـــ وكان حضورى إلى هنا محض مصادفة ، وقد ظننتك فى البيت .

واحمر وجه آن ، ولاذت بالصمت . ومضيا يتجولان معا . وقام وسط الحقل جزء من سور حجرى على هيئة « جملون » وهو يعرف باسم « فانجتون روين »(١) وتوقف جون ، عندما وصلا إليها ، وسألها فى أدب هل تعبت بعض الشىء إذ قطعت هذه المسافة الطويلة . ولم ترد عليه الفتاة بقول معين ، ولكنهما توقفا سويا ، وجلست آن على حجر كان قد سقط من الأنقاض على الأرض .. ولاحظ جون بلهجة تقريرية :

ـــ كانت هنا كنيسة فى يوم من الأيام .

فأجابت :

ـــ نعم . وكثيرا ما كنت أصورها فى ذهنى . ولا بد أن هيكلها كان هنا حيث أجلس .

ـــ هذا صحيح ، وذلك الجزء الباقى من السور كان طرف الهيكل .

وكانت آن تجمع دراساتها القليلة عن خلق جاويش البروجى ، وأدهشها أن تجد كيف أن إشراق خلقه يزداد فى عينيها عند كل اختبار . ونمى بين جوانحها من جديد شعور رفيق لطيف . فهنا رجل باسل يكابد الإهمال . وهو إذ أحبها إلى حد تبلبل فكره ، قضى على نفسه معتمداً أن يلوذ بظل مشجٍ ليتفادى حتى الظهور بمظهر الوقوف عقبة فى طريق أخيه .

وقالت فى حزم هادىء وهى تقذف بحجر صغير إلى بقعة تبعد حوالى خطوة إلى الغرب :

---

(١) أى « أنقاض فارنجتون » ، وهى بقايا كنيسة « وينتربون كين » بالقرب من دروشيستر (شرح الأصل)

— إذا كان هذا هو موقع الهيكل فإن مئات من الناس يكونون قد زوجوا فى الأزمنة الخالية هنا بالضبط .

وكتم جون انطلاقاً عاطفياً آخر ، وأجاب :

— نعم ، وكان هذا الحقل فى الماضى قرية مأهولة . وجدى كان يستطيع أن يذكر الاوان الذى كانت تقوم فيه المنازل هنا . ولكن سيد هذه المقاطعة هدمها جميعاً لأن منظر الفقراء كان قذى فى عينيه.

واستأنفت القول وهى تدور بعينيها إليه دون أن تقبل انحرافه عن الموضوع :

— أتذكر يا جون ما سألتنى يوماً أن أفعله ؟

— فى أى ناحية من النواحى !

— فى أمر حياتى المستقبلة ، وحياتك .

— أخشى أن أكون غير متذكر .

— يا جون لفدى !

وأولاها ظهره لحظة لا ترى وجهه . وقال آخر الأمر بصوت يائس ضئيل مكبوت :

— آه ! ... إنى أتذكر .

— حسناً .هل أنا فى حاجة إلى أن أقول أكثر مما قلت؟ أليس ماقلته لك كافياً؟

وأجاب الرجل التعس :

— إنه يجدر أن يكون كافياً ، ولكن ...

ورفعت إليه بصرها وهى تبتسم ابتسامة عتاب وواصلت القول .

— إنك سألتنى خلال ذلك الصيف عشر مرات إذا كنت قد سألتنى مرة من المرات . وأنا اليوم أكبر سنا ، وأقرب إلى أن أكون امرأة كما ترى . وقد تغير رأيى فى بعض الناس ، لا سيما فى واحد منهم .

وانفجر بقوله :

— أوو ، آن ! .. آن !

واختطف يدها بينما كان يترنح بين الشرف والرغبة .وفى الدقيقة التالية سقطت

يدها ثقيلة على حجرها ، فقد تركها كلية وهي في منتصف طريقها إلى شفتيه . وقال في هدوء فجائي غير طبيعي :

— كنت أفكر أخيراً في أن الرجال الذين اتخذوا العسكرية حرفة لهم ينبغي ألا يتز ... أعني ينبغي أن يظلوا كالقديس بول .

وقالت عابسة :

— خسئت ياجون وأنت تدعي التقى ! إن الأمر ليس كذلك، ولكنه بوب !

وصاح جاويش البروجي الشقي :

— نعم . وقد تلقيت منه رسالة اليوم .

ونزع ورقة من تحت صداره ، وأردف :

— ها هي ذي . وقد فاز بالترقية ... وأصبح ملازماً ، وألحق بالعمل على ظهر سفينة ذات شراع واحد لا تمخر العباب إلا حول شواطئنا . وعلى ذلك سيقضي نصف وقته في اجازة ، مقيما في بيته ، وسيصبح في يوم من الأيام سيداً ، وجديراً بك .

وألقى بالرسالة في حجرها . وعاد أدراجه إلى الناحية الأخرى من السور ذي السطح الهرمي . وقفزت آن من مقعدها ، وقذفت بالرسالة دون أن تنظر إليها ، ومضت إلى سبيلها مسرعة . ولم يحاول جون اللحاق بها ، ومشى في أثرها بعد أن التقط الرسالة ، مبتعداً عنها مسافة مائة خطوة .

ولكن آن ، برغم انصرافها عنه على مثل هذا الوجه من السرعة ، لم ترفعه في تقديرها قط طوال حياتها كما فعلت بعد خمس دقائق من مغادرته عندما هدأ انفعالها الوقتي . لقد وضح لها الأمر كله جليا ... وأثرت فيها تضحيته بنفسه تأثيراً كبيراً إلى حد أن الأثر الذي تركته تلك التضحية كان نقيض ماتوخته الفتاة . فهو كلما ازداد دفاعاً عن بوب ازدادت مروءتها المتمردة عليه دفاعاً عنه . وقد وقعت الأزمة اليوم ... ولم تستطع الفتاة أن تتوقع ما ستسفر عنه من نتائج .

وما أن وصل جاويش البروجي إلى أقرب دواة وقلم حتى ارتمى على مقعد ، وكتب ما يأتي إلى بوب وهو في حالة عصبية :

عزيزى روبرت :

أ كتب إليك هذه الأسطر القليلة لأخبرك أنه إذا كنت تريد آن جارلاند فلا بد من مجيئك حالا ..، لا بد من مجيئك على الفور ، وبأسرع ما تستطيع ... وإلا أفلتت من يدك افهناك شخص آخر يريدها وهى تريده !.. هذه هى فرصتك الأخيرة فى رأى أخيك الوفى الذى يتمنى لك الخير .

جون .

حاشية : أسعدنى أن أسمع عن ترقيتك ، خبرنى عن يوم مجيئك حتى أنتظر عربة السفر .

بوب لفدى يخطر

صعوداً وهبوطاً

(٣٩)

وفى ذات ليلة ،بعد مرورأسبوع ، كان رجلان يسريان فى الظلام، سالكين طريق « بوابة المكوس » إلى أوفركمب ؛ وفى يد أحدهما حقيبة .

قال أطول الرجلين ، وكان استواء أعلى كتفيه يدل على أنه يحمل فوقهما « رمانة » السترة العسكرية :

ــ الآن ينبغى أن تساعد نفسك بقدر ما تستطيع يا بوب فقد قمت أنا بقدر ما استطعت .. ويمكننى أن أقول لك إنك اجتثثت ما بنيت .

وقال الآخر فى لهجة تدل على توبة صادقة :

ــ أنا ما كنت لأقدم على هذه المجازفة مقابل شىء فى الدنيا ، ولكنك ترى يا جاك أنه لم يخطر ببالى أن هناك خطراً ما ، لعلمى بأنك تعنى بها ، وتحافظ على مكانتى راسخة فى نفسها . فأنا لم أتعجل العودة ، هذا صحيح ، ولكنى اعتقدت أنى متى حصلت على الترقية ، فإنهم سيعدوننى بمنحى إجازة ، وهذا طبيعى، وعندئذ سأحضر وأرى الجميع . وأقسم أنى ما كنت لأحضر إلى هنا الآن لولا رسالتك !

وقال له أخوه :

ــ أنت تصغر من شأن المخاطرة التى أقدمت عليها . ومع ذلك حاول أن تعوض الوقت الذى فاتك .

ــ حسناً . ومهما يكن أمر ما ستفعله ، لا تذكر كلمة عن تلك الفتاة الأخرى ... سحقاً لها ! ... وإنى لأعلم أنى كنت أحمقا كبيراً ، ومع كل انتهى ذلك الآن ، وعاد إلى صوابى . وأظن أن نفحة من ريح ذلك النبأ لم تصل إلى آن؟

وقال جون فى جد :

ــ إنها تعلم عن الأمر كل شىء .

وقال بوب وقد وقف فى الطريق جامداً كالصنم، وكأنه قصد أن يظل هناك ليلته بطولها :

— تعلم ؟ .. إقسم إذن أنى هالكت !

وأجاب جون وهو على نفس هدوئه السابق :

— هذا هو ما عنيته بقولى إن المعركة أمامك ستكون عنيفة .

وتنهد بوب ، وواصل سيره ، وصاح مهتاج العاطفة ، ضاربا ضلوعه الثلاثة العليا بقبضة يده :

— أنا غير أهل لتلك المرأة !

ولاحظ جون بجفاء يكاد يكون صارماً :

— إنى كذلك أرى هذا الرأى ، ولكن الأمر يتوقف على كيفية تصرفك فى المستقبل .

وقال بوب وهو يتناول يد أخيه :

— جون ! سأصبح إنساناً جديداً . أقسم بنصبة المسافات هذه ، أقسم غير حانث بهذه النصبة الأبدية التى تحدق فى ، أنى لن أتطلع أبداً إلى امرأة أخرى بقصد زواجها ما دامت هذه العزيزة غير متزوجة ... لا حتى ولو كانت حورية بحرية من نور !.. وإنه لمن حسن حظى أنى مرقت إلى «السفينة الحربية العريضة». فقد يعيننى ذلك عندها ، هيه ؟

— قد يعينك ذلك عند أمها ولكنى لا أحسب أن اختلافاً كبيراً يترتب عليه عند آن ، وهو بعد أمر طيب ، وأرجو أن تصبح فى يوم ما ربانا لسفينة كبيرة .

وهز بوب رأسه :

— الضباط نادرون ، ولكنى أخشى ألا يصل بى حظى حتى تلك الغاية .

— ألم تخبرك قط أنها ذكرت للملك اسمك ؟

ووقف الملاح جامداً مرة أخرى ، وقال :

— أبداً ! كيف حدث مثل ذلك ، بحق السماء ؟

وشرح جون تفاصيل الأمر ، ثم سارا مسترسلين فى الحدس والتخمين .

وعلى أثر دخولهما البيت قوبل الضابط البحرى العائد إلى بلده بتهليل من أبيه وديفيد ، وبارتياح رقيق من السيدة لفدى ، ولم تقابله آن قط ، إذ كانت هذه الفتاة الفطنة قد حرصت على أن تأوى إلى غرفتها فى ساعة مبكرة من المساء ، ولم يجرؤ بوب على السؤال عنها بأية طريقة جازمة ، فاكتفى بالسؤال عن صحتها ، ولم يزد على ذلك .

وقال صاحب الطاحون محملقاً :

ــ عجباً ! ماذا جرى لوجهك يا ولدى ؟ ديفيد ! هات لى ضوءاً هنا .

وجىء بشمعة دفع بها تجاه وجنة جون حيث ظهر بها خط محفور مثلوم كأنه أشلاء جيولوجية لسرطان بحرى .

ــ أوو . . . هذا من أثر القنبلة اليدوية الفرنسية الخبيثة التى انطلقت من السفينة « ريدوتابل » وأصابتنى حسبما ذكرت لك فى خطابى .

ــ أنت لم تذكر عن ذلك كلمة !

ــ ماذا ، ألم أخبرك ؟ آه ، لا . لقد كنت أنوى ذلك ، ولكنى نسيت .

وقال صاحب الطاحون وهو يضع أصبعه فى شق محفور بجمجمة بوب :

ــ وها هو ذا أيضاً ما يشبه أثر ضربة فى جبينك ، فماذا يعنى ذلك ياولدى ؟

ــ حدث ذلك فى جزائر الهند . نعم ، وكان الجرح متعبا نوعاً . . . وقد أحدثه سيف قصير ، وكنت سأحدثك عنه ، ولكنى وجدت ذلك سيطيل رسالتى جدا فأرجأت الأمر ، ثم أرجأته ثانية . . . وأخيراً لم يستحق إضاعة الوقت فى الكتابة عنه .

ولم يلبث جون أن وقف ليستأذن فى الرحيل .

وقال له بوب خارج البيت :

ــ لقد انتهى الأمر بينى وبينها كما ترى ، فهى لن تقدم حتى على رؤيتى .

وقال جاويش البروجى :

ــ تمهل قليلا .

كان من السهل كثيرا على آن يوم وصول بوب ، ووسط الانفعال وتدفق الدم حاراً ، أن تثبت فى تجنب بوب لفدى ، ولكن العزم جدير فى الصباح أن يهن ، وتحقيق قواعد المشاكسة يصبح أشد صعوبة ، ويستولى على الروح الرقيقة شعور بأن على الإنسان أن يحي . ويدع غيره يحي . ولم تكن آن تنوى حتى أن تجلس مع بوب إلى مائدة إفطار واحدة . ولكنها دخلت الغرفة عندما اجتمع بها سائر أفراد الأسرة وتناولوا بعضاً من الوجبة الدسمة التى قدمت اليهم هذه الساعة فى بيت صاحب الطاحون . جاءت كالشبح ، صامتة ، مسبلة العينين ، شاحبة الوجنتين . وطالت عليها المسافة من الباب إلى المائدة ، وفحصها بوب فحصاً كاملا وهى تذهب إلى أقصى ركن تنفذ إليه أشعة الصباح مباشرة ، وهناك جلست خرساء .

وكان اللقاء يختلف كل الاختلاف عما توقعت ، فها هى ذى التى لم ترتكب شيئاً تشعر بالارتبــــاك كله بينما بوب الذى ارتكب الخطأ يبدو شاعراً بالراحة تماماً .

وقال صاحب الطاحون بعد فترة صمت :

ــ ستقولين شيئاً لبوب ، أليس كذلك ياعزيزتى ؟

فإن مقابلتها لبوب على هذا النحو بعد غيبته بدت فى عينيه غير طبيعية .

وأجابت متجهة إلى صاحب الطاحون على نحو حال دون انحراف أى جزء ، أو قطعة ، أو شعاع من نظرتها ، واتجاهه على مقربة من الرجل الذى تدور حوله الملاحظة :

ــ سأفعل إذا أراد منى ذلك .

وقالت الأم على نفس المنوال :

ــ اعلمى ياعزيزتى أنه ملازم ، وقد أصيب بجراح رهيبة .

وقالت آن وهى تنحرف قليلا إلى عكس الاتجاه :

ــ أوه ؟

وشعر بوب عندئذ أن الأوان قد آن ليتدخل معبرا عن نفسه ، فقال منكسرا :

ـــ أنا سعيد برؤيتك ، وكيف حالك ؟

ـــ حالى حسنة جدا . أشكرك .

ومد يده ، وأجازت له أن يتناول يدها ولكن بمقدار قيراط ضئيل منها فقط ، أو ما يقرب من ذلك . وفى نفس اللحظة رفعت بصرها إليه ، عندما تلاقت أعينهما ، ثم ردته عنه ثانية .

وهذا الموقف المعقد بين عضوى الأسرة الأصغرين أفضى إلى جعل جلسة الإفطار ثقيلة . وقد اكتأب بوب لمسلكها غير المتسامح إلى حد أنه لم يستطع أن يلقى ذلك اللألاء على حكاياته التى تحتاج بطبيعة الحال إليه . ومضى الجميع إلى إلى مشاغلهم المختلفة ، وقد شابه هذان الاثنان « الأخوين دروميوس »(١) فى عدم وجودهما معا قط ، أو وجودهما نادرا فى نفس المكان والزمان ، وذلك بفضل حيل آن الحاذقة .

وقد تكرر هذا النوع من التمثيل عدة أيام إلى أن عثر بوب أخيراً على خطة جديدة بعد أن تعقب الفتاة فى كل مكان ، متكئاً وهو مجعد الجبين على قوائم الأبواب ، ومسترقا النظر إلى الغرفة التى تكون فيها ، وملتقطا لها كرات خيوط الصوف دون أن يتلقى على ذلك شكراً ، وواضعا على مائدتها شظية من السفينة فيكتورى ، وعدة رصاصات من السفينه « ردوتابل » ، وقطعة قماش من العلم ، وغير ذلك من الآثار التى كان يرفق بها بيانات مكتوبة بعناية ، ولا يسمع عنها أكثر مما كان يسمعه لو أنها حصى ملتقطة من أقرب جدول . وكانت الفتاة تجلس غالبا إلى نافذة فى الدور العلوى ، مطلة على الحديقة ، لتتجنب لقاءه ، فارتدى الملازم لفدى بعناية حلة جديدة أوصى بإرسالها منذ بضعة أيام ليخطف بها بصر بعض الأصدقاء المعجبين به ، ولكنه لم يظهر بها أمام الملأ إلى الآن ، ولم يذكر شيئاً عنها لمخلوق . ودخل الحديقة المشمسة بعد ارتدائها ، وتمشى بخطوات بطيئة رائحا غاديا على نحو ما كان يرى نلسون وكابتن هاردى يمشيان على ظهر سفينة

---

(١) هما الأخوان التوأمان اللذان يعملان خادمين فى مسرحية شيكسبير « كوميديا الأخطاء » (شرح الأصل) .

القيادة . ولكنه ظل يتجه بكتفه اليسرى ، على قدر الإمكان ، إلى ناحية نافذة آن وهذه الكتف هى التى يحمل عليها رمانته العسكرية الوحيدة .

ولكن لم يظهر لها أثر برغم أنه لم يكن هناك أدنى شك فى أنها رأته . ودخل البيت بعد نصف ساعة ، وخلع ملابسه ، واسترسل فى شكوكه ، وفى تدخين أجود الطباق صنفا .

وكرر تنفيذ نفس البرنامج بعد ظهر اليوم التالى ، ثم بعد ظهر اليوم الذى يليه دون أن يذكر كلمة فى البيت عن أفعاله ، أوعن ملاحظاته .

ولكن النتائج التى حدثت فى غرفة آن ، خلال ذلك ، لم تكن غير ذات بال. فقد كانت تطل على الحديقة من أول يوم ودهشت على الفور لرؤية ضابط بحرى فى حلته الحربية الكاملة يتنزه فى الممر . وإذا وجدته بوب غادرت النافذة وقد خالجها شعور بأن المشهد لم يكن لها ، ثم اختلست النظر من وراء ستر النافذة مدفوعة بدافع الفضول ليس إلا . وسلمت بأن منظره كان جميلا وقد أظهرت حسن شكله كثيفة من سياج مشمس مشذب يتسلقه نبات الحرف فى غزارة مفرطة . ولو استطاعت آن أن تهتم به مثقال ذرة ، وهى لاتستطيع ذلك، لأمكن أن يكون شكله موضع دراسة لطيفة ، ولفاق فى الأهمية حتى أبهته فى اليوم المشهود الذى ذهبا فيه إلى مسرح البلدة . . . ونادت أمها فجاءت السيدة لفدى على الفور وقالت آن دون مبالاة :

— أوو ، لا شىء هنا لك إلا أن بوب يرتدى حلة الحربية .

وأطلت السيدة لفدى ، ورفعت يديها فى اغتباط :

— وهو لم يفه لنا بكلمه عنها ! يالها من رمانة بديعة ، لا بد أن أنادى أباه .

— لا ، أبدا ، فما دمت لا أهتم بأمره فأنا لن أدع الناس يدخلون غرفتى للإعجاب بمنظره .

وقالت أمها :

— حسنا ، فقد ناديتنى أنا .

— كان ذلك لأنى ظننتك تعجبين بالملابس البديعة ، وهى مالا أهتم به أنا .

وبرغم هذا التأكيد عادت فأطلت على بوب ثانية بعـــد ظهر اليوم التالى عندما خشخش وقع أقدامه على الحصباء ، وامتحنت هيئته من زواياها المختلفة وهى معرضة لضوء الشمس ، وكأنما لم تكن الملابس والحلل العسكرية مسألة لا تهمها بالمرة كما زعمت . ولا شك أنه كان من قمة رأسه إلى إخمص قدمه ملاحا رائعا مهذبا شهما . ولكن ما هى بعد قيمة المظهر الجسور ، والرتبة العسكرية البحرية ، وآثار الجروح ذات الدلالة إذا كان الرجل متقلب العاطفة ؟ وبرغم ذلك ظلت تطل خفية حتى اليوم الرابع ، ثم لم تعد تطل بعد ذلك . كانت النافذة مفتوحة ، وكانت هى ترسل طرفها إلى خارج النافذة جهراً ، وعلم بوب أن الطعم بدأ يجتذب الفريسة أخيراً . ولمس لها قبعته محييا ، وظل يحرص على تقديم كتفه اليمنى ناحيتها ، وقال وعلى ثغره ابتسامة :

ـــ سعدت صباحا يا آنسة جارلاند .

وأجابت آن فى وقار كئيب :

ـــ سعدت صباحا .

وأدى إحياء علاقة المعرفة بينهما من جديد على هذا النحو إلى تبادلهما بضع كلمات على مائدة العشاء ، وحينذاك أومأت السيدة لفدى إيماءة رضى . ولكن آن عنيت عناية خاصة بألا تتيح له الاختلاء بها أبدا ، ولم تنقطع مهارتها عن مزاولة تدربها لتكفل لها ذلك . ولكن كانت هناك زوايا وحنايا عديدة فى دار صاحب الطاحون المنفصلة الأجزاء إلى حد أن آن لم تكن تستطيع أن تثق أبداً من أنه لن يظهر على بعـــد قدم منها ، لا سيما وأن حذاءه الدقيق لا يكاد يحدث صوتا .

وفى عصر يوم رائق صحبت مولى فى البحث عن حب الخمان(١) بقصد صنع نبيذ منه للأسرة تشربه السيدة لفدى وآن وكل من لا يحتمل شرب الخمر الأشد قوة وعنفاً التى يقدمها صاحب الطاحون ، وبعد أن قطعتا من كثيب الرمل مسافه بعيدة نوعا وصلتا إلى منخفض معشوشب به دغل يبدو فيه نبات الخمان مكونا من فرعين أو ثلاثة ، صاعدا من جسر غير مستو ، متدليا بأعاليه صوب

---

(١) حب كالتوت .

الجنوب ، مسودا مثقلا بما يحمل من عناقيد الثمر . . . وابتهاج الفتيات بجمع الثمار يزداد فى حالة جمعهن حب الحنان لما تتميز به أوراقه وأغصانه ولحاءجذوعه من نعومة لاتؤذى ، ولأن ذلك يجعل التغلغل بين أفرعه سهلا لطيفا لأقل جامعيه اهتماما بالأمر . ولم تلبث آن ومولِلى أن جمعتا منه ملء سلة . وإذا أرسلت آن الخادم بالسلة الممتلئة إلى البيت بقيت هى فى الدغل مسترسلة فى جمع العناقيد ، وإلقائها على الحشائش عنقودا بعد عنقود . واستغرقت فيما كانت تضطلع به من جذب الأفرع إليها ، وملأ حفيف الأرواق سمعها إلى حد أنها فوجئت مفاجأة كبرى عندما دارت برأسها وشعرت بحركة مماثلة لحركتها تجرى بين أفرع الدغل المجاور .

ظنت أول الأمر أن الذى قلقلها هو اتصال من بعض النواحى بأفرع شجر دغلها ، ولكن وجه روبرت لفدى لاح بعد لحظة من بين الأشجار على بعد خطوة منها تقريباً . ونطقت آن فى حنق كلمة « حسنا ! » المقتضبة ، واستعادت رباطة جأشها ، واستمرت فى قطف الثمر . وأخذ بوب ، عندئذ ، يقطف الثمر مثلها . وقال الملازم آخر الامر فى ذلة :

— إنى أقطف لأمك حب الحنان .

— هذا ما أراه .

— واتفق إنى جئت إلى الدغل المجاور لك .

— هذا ما أراه ، ولكنى لا أرى سببه .

وكانت آن وقتئذ عند الأفرع الواقعة فى أقصى الدغل غربا ، بينما كان بوب ، وهو يقطف الثمار ، ينحنِى على الأفرع الواقعة فى غرب دغله ، ويميل صوب آن ، متقدما حينا ، ومرتدا حينا آخر . وقال إذ مال مرة ميلا أشد من العادة جعله يكاد يلامسها :

— أستميحك عذرا .

— لماذا فعلتها إذن ؟

— الريح تهز الأغصان ، والأغصان تهزنى .

وعبرت بنظرة عن رأيها فيما قرره وهى تواجه أرق نسيم . وواصل بوب قوله :

— أخشى أنْ يلطخ حب الخان يديك الجميلتين .

— إنى ألبس قفازا .

— آه ، هذه خطة لم تكن لتخطر ببالى قط . هل أستطيع مساعدتك ؟

— لا ، أبداً .

— إنى ضايقتك . هذا هو ما يعنيه ردك .

فقالت :

— لا .

— هل تصالحيننى إذن ؟

وترددت آن ، ثم مدت يدها فى بطء فتناولها على الأثر . وقالت إذ وجدت أنه لم يتركها فوراً .

— فى هذا الكفاية

ولكنها جذبت يدها إذ ظل ممسكا بها ، وترتب على ذلك أن جرت صوبها جسم بوب المترنح ، والغصن وما عداه ، وجرت نفسها كذلك صـــوبه . وقال الضابط :

— أخشى أن أترك يدك ، لأنى إذا فعلت ذلك فسيندفع جسمك بشدة إلى وراء . وستقعين على الأرض فى عنف شديد :

— أود أن تتركنى !

وعلى ذلك تركها ، فاندفعت إلى وراء ، ولكنها لم تقع بحال من الأحوال .

— هذا يذكرنى بالأوقات التى اعتدت أن أعتلى فيها عود شراع السفينة وسط المحيط الأطلسى ، متعلقاً بقضيب لا تزيد حجا عن جذع الشجرة هذا ، وأنا أفكر فيك . وكنت أستطيع أن أراك بخيالى كما أراك الآن .

وأجابت آن فى أنفة :

— ترانى أنا أم امرأة أخرى معينة !

وجاهر بوب بقوله وهو يهز الشجرة لتأكيده :

— لا ! أنا أعترض بأنى لم أفكر فى أحد غيرك طول المدة التى اجتزنا فيها « الخليج » ، والتى مكثناها خارج قادس ، والتى خضنا خلالها المعارك ، وتعرضنا

لوابل القنابل . وقد بدا لى أنى أراك وسط الدخان ، وتساءلت ماذا تراها تصنع لو ابتلعنى المحيط ؟

— إن ذلك لم يخطر ببالك عندما نزلت بأرض الوطن بعد موقعة الطرف الأغر.

وقال الملازم فى لهجة تعقل :

— حسناً ، ولكن ذلك الأمر كان شيئاً عجباً ، ولعله من الصعب أن تصدقيه. ولكن الرجل إذا ابتعد عن أحب امرأة إليه فى أحد الثغور . . . أقصد فى العالم كله . . . فيمكن له أن يشعر لغيرها بعاطفة مؤقتة دون أن يقلق عاطفته القديمة التى تظل تتدفق أبداً كما كانت .

— لا أستطيع أن أصدق ذلك ، ولن أصدقه .

وظهرت موللى عندئذ وهى تحمل السلة الفارغة ، وعادت آن معها إلى البيت بعد أن ملأت السلة بكومة الثمر الملقاة على الحشائش ،وودعت لفدى وداعاً فاترا

واقترح صاحب الطاحون فى نفس تلك الليلة ، بينما كان بوب متغيبا ، أن يصعد ثلاثتهم إلى نافذة البيت العليا حتى يطول مرمى نظرهم فيروا بعض صواريخ الزينة التى سيجرى عرضها فى البلدة وفى الميناء تكريما للملك الذى عاد هذا العام كعادته . وعلى ذلك صعدوا إلى الدور العلوى الخالى ، ووضعوا مقاعد تجاه النافذة وأطفأوا النور . وقد جلست آن فى الوسط ، وأمها إلى جانبها ، وجلس صاحب الطاحون إلى الخلف وهو يدخن . ولم تعد إلى الآن علامة تدل على ظهور أى عرض لصواريخ الزينة فى سماء الميناء . وأزجت السيدة لفدى الوقت بالتحدث إلى صاحب الطاحون الذى كان يجيبها فى اقتضاب شديد . وخيل إلى آن بينما كان ذلك يحدث ، أنها سمعت أحداً يقترب ،ولم تلبث أن تيقنت من أن بوب يدنو منها وسط الظلمة المحيطة بها ولكنها لم تفه بكلمة إذ لم يلاحظ الآخران شيئا .

وعلى حين فجأة تبدد الغبش الممتد فى السماء الجنوبية بنور عدة صواريخ انطلقت معا إلى أعلى من السفن الراسية فى المرافىء . وانسلت حول يد آن ، فى نفس اللحظة ، يد دافئة خفية ، وضمتها برفق .

وقالت آن فى فزع مباغت :

— آه ، يا ربى !

وقالت السيدة لفدى :

ـــ كم أنت عصبية يا ابنتى حتى تفزعك ألعاب نارية على مثل هذا البعد !

وغمغمت آن ، وقد أفاقت من دهشتها :

ـــ أنا لم أر صواريخ من قبل .

ولم تلبث السيدة لفدى أن عاودت الكلام :

ـــ إنى لأتساءل ماذا حدث لبوب ؟

ولم تجب آن لانهما كها فى محاولة تخليص يدها من اليد التى تقبض عليها . وأيا كان ما خطر ببال صاحب الطاحون فقد احتفظ به لنفسه . ذلك أن الكلام كان يعكر عليه صفو تدخينه .

وانطلق عدد آخر من الصواريخ إلى أعلى . وقالت آن فى صوت شبه مكتوم، واثبة من مقعدها :

ـــ أوو ، أنا لم أرها قط !

فقد وثبت يد أخرى متلفة حول خصرها وقتما انطلقت الصواريخ .

وقالت السيدة لفدى :

ـــ لا بد أنك تعانين الإرهاق من المنظر إلى هذا الحد أيتها الابنة المسكينة.

وغمغمت الابنة المطيعة .

ـــ أحسب أن ذلك لا بد حدث لى .

ولم يحدث شىء آخر يعكر هدوء آن مدة بضع دقائق . ثم تصاعدت من ظلام الغرفة نحنحة بطيئة هادئة . وسألت السيدة لفدى :

ـــ ماذا ؟ بوب ؟ منذ متى أنت هنا ؟

وقال الملازم دون اكتراث :

ـــ منذ قليل . سمعت أنكم هنا جميعاً فدلفت إليكم فى هدوء حتى لا أزعجكم .

ـــ لماذا لا تنتعل حذاء ذا كعب كما يفعل المسيحيون المؤمنون بدلا من أن تحوم زاحفاً هكذا كالقطط ؟

ـــ حسناً ، إن المشى بحذاء لا نعل له يحفظ لك نظافة أرض بيتك .

ـــ هذا صحيح .

وكانت آن ، خلال ذلك ، تحاول فى لطف ، ولكن فى حزم أيضاً ، أن تنزع

يد بوب من حول خصرها . والمشكلة الأليمة التى عانتها هى أن يدها كانت تقع فى أسره حين تنجح فى تخليص خصرها . ونهضت إذ وجدت ذلك الصراع غير مجد نظراً لخفاء خصمها ، ورغبتها فى إبقاء طبيعة الصراع سرا على الآخرين . وتحسست طريقها إلى سفل الدار إذ قالت إنها لا تحرص على متابعة المشاهدة . وتبعها بوب تاركا لفدى وزوجته لنفسيهما .

وبدأ يقول لها عندما نزل ورآها على ضوء شمعة الغرفة الكبيرة :

— يا عزيزتى آن .

ولكنها مرقت بلباقة من الباب الآخر ، فأخذ عندئذ شمعة مضاءة وتبعها إلى الغرفة الصغيرة ، وكرر قوله بمجرد أن كشف الضوء وجهها :

— يا عزيزتى آن ، أرجو أن تدعينى أتكلم .

ولكنها انتقلت إلى غرفة الخبازة قبل أن يزيد كلمة على ما قال ، ومن ثم حذا حذوها فى مثابرة ، وأخذ تبحث عنها فيما حوله فلمحها فى أقصى الغرفة حيث لم تكن هناك وسيلة للخروج .

وأنشا يقول من جديد وهو يضع الشمعة :

— يا عزيزتى آن ، لا بد أن تحاولى الصفح عنى . لا بد من ذلك حتماً . إن حبى لك يفوق حب أى مخلوق فى العالم الفسيح . حاولى أن تصفحى عنى . هيا !

وتناول يدها وهو يتوسل إليها .

وأخذ صدر آن يعلو وينخفض كأنه مد صغير ، وظل بصرها مسمراً فى الأرض . وظلت كذلك حتى انفجرت باكية عندما جذبها إليه لفدى جذباً خفيفاً . وصاحت تقول فجأة بين الزفرات :

— أنا لا أميل إليك يا لفدى ، أنا لا أميل إليك ! وقد ملت إليك مرة ، ولكنى لا أميل إليك الآن . أنا لا أستطيع الميل إليك ، لا أستطيع ذلك . إنك قسوت على قسوة شديدة .

ودارت عنه فى عنف وهى تبكى .

وأجاب بوب وقد أصابه حزنها بتأنيب الضمير :

— لقد كنت ... لقد كنت سيئا إلى حد شنيع . أنا لا أجهل ذلك ، ولكن إذا كان فى وسعك أن تصفحى عنى فقط ... فإنى أعدك ألا أرتكب شيئاً يحزنك بعد ذلك . أتصفحين عنى يا آن ؟

ولم تجبه آن إلا بالبكاء وهز رأسها .

— دعينا نصطلح . هيا قولى يا عزيزتى إننا اصطلحنا .

وسحبت يدها وقالت وهى لا تزال تدفن عينيها فى منديلها :

— لا .

وصاح بوب فى حزم مفاجىء :

— حسنا إذن ... لقد عرفت قسمتى الآن وأياً كان ما تسمين أنه وقع لى ، فاذكرى أيتها الفتاة القاسية أنك أنت سبب هذا كله !

وإذ قال ذلك أوسع فى خطاه مسرعاً عبر الغرفة إلى الممر ، ثم خرج إلى الباب مسرعاً وصفقه وراءه صفقاً مدوياً .

ورفعت آن بصرها عن المنديل فجأة ، وحملقت فى الباب الذى خرج منه بعينين مبتلتين ، وشفتين منفرجتين . وبعد أن ظلت على هـــذا النحو ، معلقة الأنفاس بضع دقائق ، دارت ومالت برأسها على المائدة ، وانفجرت باكية من جديد بكاء أشد من بكائها السابق ثلاثة أضعاف . وبدا حتماً كأن حزنها سيتغلب عليها ! إذ أن جميع العواطف التى كانت مكتومة ومختزنة ومخفاة منذ مجىء بوب ، وجدت آخر الأمر متنفساً لها .

ولكن مثل هذه الأمور لها نهايتها . وأخـــذت آن تهدأ فى المسكن القديم الواسع الخالى شيئاً فشيئاً إلى أن سكنت فى النهاية . وتناولت الشمعة بعد لأى ، وصعدت إلى مخدعها ، وغسلت عينيها ، ونظرت فى المرآة لترى هل أحالت نفسها إلى شىء مفزع . ووجدت أنها لم تصبح قبيحة كما توقعت . ونزلت إلى سفل البيت من جديد .

ولم يكن هناك أحد . وتساءلت ، بعد أن جلست ، عن حقيقة ما عناه بوب بما قال . وكان مما يفزع فزعاً شديداً أن يخطر ببالها أنه قصد الذهاب لركوب البحر مباشرة دون أن يراها . وانتظرت عودته مضطربة بعد أن أخافها ما ارتكبت .

زيارة

في مهمة

(٤٠)

قطع عليها حيرتها طرق خفيف جداً على الباب ، ثم سمع حفيف يد تزحف على سطحه وكأنها تبحث فى الظـــلام عن المزلاج . وفتح الباب مقدار بضعة قراريط ، وظهر من الفتحة وجه العم بنجى المرمرى .

ــ أوو ، يا سيد بنجى ، إنك تخيفنى !

وسألها هامساً :

ــ أتجلسين وحدك ؟

ــ أمى والسيد لفدى فى مكان ما بالبيت .

قال وهو يتقدم :

ــ هذا يفى بالغرض . إنى منتقل من الحياة ، وقد فكرت فيك ثانية . . . أنت ذاتك يا عزيزتى آن ، لا صاحب الطاحون . آه لو أنك تأخـــذين هذا ، وتوصدين عليه مدة بضعة أيام حتى أستطيع أن أجد له مكاناً أميناً آخر . آه لو أنك ترضين بذلك .

ووضع صندوقه الصفيح ، مبهور الأنفاس ، على المائدة .

ــ ما الذى حملك على أن تحفر وتخرجه من القبو ؟

ــ بلى ؛ إن ابن أخى أخذ يتشمم مكانه ... ولا أدرى كيف حدث ذلك ! ولكنه هو وامرأة التقى بها ، يبحثان فى كل مكان . وقد بذلت جهد « ساحب الأسلاك » لأنزعه من مخبئه ، وأبتعد به بينما هما يجرفان أرض القبو المجاور . والآن ، أين تستطعين حفظه يا عزيزتى ؟ إنه لا يشتمل إلا على بضعة مستندات وعلى وصيتى ، وما شابه ذلك كما تعلمين . مسكين أنا ، فقد أنهكنى الجرى والفزع.

قالت وهى ترفع الصندوق :

ــ سأحتفظ به هنا حتى أستطيع أن أهتدى إلى مكان أفضل . عجباً كم هو ثقيل الوزن ! .

وقال العم بنجى على عجل .

— نعم ، نعم . فهو من حـــديد كما ترين . واحرصى عليه ، مع ذلك ، لأنى سأجزيك على حرصك جزاء مجدياً . آه ، إنك فتاة طيبة يا آن . وأتمنى لو أنك كنت ابنتى !

ونظرت آن إلى العم بنجى ، وكانت تعلم منذ بعض الوقت أنها حصلت على محبته التى اضطر أن يخلعها عليها .

وقالت فى بساطة :

— لماذا تتمنى ذلك ؟

— والآن ، لاتجادلينى . أين ستضعين الصندوق ؟

وقالت آن وهى تتجه إلى قاعدة النافذة البارزة كلسان محبس ، المقفلة على فراغ تحتها كجوف الصندوق وفقاً لقواعد كثير من نوافذ البيوت القديمة :

— هنا .

فقال مرتاباً :

— هذا يصلح جداً مؤقتاً .

وأسقطا الصندوق هناك بينما أرتجت آن اللسان ، وأعطته المفتاح . وواصل الـكلام قائلا :

— لست أريد منك أن تبقى الآن إلى جانبى دون مقابل . وأنا لم أفعل ذلك قط ، أليس كذلك ؟ أجيبى الآن . خذى ، هذا لك .

وناولها رزمة مغلفة بورق جعلت آن تقلبها وتنظر إليها فى استغراب . واستطرد العم بنجى فى قوله وهو يحدق فى الرزمة المطروحة بين يديها وتنهد :

— كنت أنوى دائماً أن أفعل ذلك هيا ، افتحيها يا عزيزتى !.. كنت أنوى دائماً أن أفعل ذلك .

وفضت الغلاف ووجدت مبلغ عشرين جنيهاً محزوما فى عناية . وقال متنهداً من جديد :

— نعم ، إنه لك .. كنت أنوى دائما أن أفعل ذلك !

وأجابت آن وهى تمسك بالنقود :

ـــ ولكنك غير مدين لى فى شىء !

وصاح العم بنجى وهو يحجب عينيه بيديه :

ـــ لا تقولى ذلك . خبئيها . حسنا ، إذا كنت لا تريدينها . . . ولكن خبئيها يا عزيزتى آن . إنها لك لأنك نفذت نصيحتى . طاب مساؤك . نعم ، إنها لك .

وخطا بضع خطوات ، ولكنه عاد وأضاف فى لهفة :

ـــ إنك لن تنفقيها فى شراء ملابس ، أو تبدديها فى شراء هدايا أو حلى من أى نوع يا فتاتى العزيزة ؟

وقالت آن :

ـــ لن أفعل ذلك .. وأود لو أنك تأخذها .

وقال العم بنجى ، مندفعاً لينجو من إغراء تألقها :

ـــ لا ، لا .

ولكنه لم يصل إلى الممر حتى ارتد عائداً إليها :

ـــ وأنت لن تقرضيها أحداً ، ولن تودعيها مصرفاً ... فليس هناك مصرف مؤتمن فى مثل هذه الأيام المضطربة ؟ ولو أننى فى مكانك لتركتها « تماما » كما هى، دون أن أنفقها بأية حال . هل أحتفظ الك بها فى صندوقى المغلق ؟

فقالت :

ـــ بالتأكيد .

ورفع المزارع مزلاج قاعدة النافذة على عجل ، وفتح الصندوق ، ثم أغلقه عليها : وقال فى ارتياح شديد وهو يعيد المفاتيح إلى جيبه :

ـــ هذه الخطة أفضل من غيرها كثيراً . فالنقود ستظل هناك فى مأمن كما ترين ، وأنت لن تتعرضى للإغراء .

وبعد أن مرت بضع دقائق على انصراف الرجل الهرم دخل صاحب الطاحون وزوجته دون أن يدروا شيئاً قط عما حدث . وعاد قلق آن على بوب إلى أشده الآن ، ولم تقل إلا الأقل عن زيارة دريمان دون ذكر شىء عما تركه . وكانت تود أن تسألهما هل يعرفان أين يوجد بوب ، ولكنها أحجمت لأنها لم تشـــأ

أن تخبرهما عن القطيعة التى حدثت وقد اضطرت أن تسلم ، بينها وبين نفسها ،أنها أجهدت صبره ، وأن من المعروف عن الرجال السريعى التأثر أنهم يقدمون فى فى مثل هذه الأحوال على إيذاء أنفسهم .

وجلسوا إلى مائدة العشاء ، وأسرعت الساعة فى دقاتها ، وقال صاحب الطاحون آخر الأمر :

— تأخر بوب فى عودته عن العادة ، فأين يمكن أن يكون ؟

وإذ نظر كلاهما إليها عجزت عن الاحتفاظ بالسر أكثر من ذلك ، وصاحت:

— الخطأ خطئى ، فأنا دفعته إلى الرحيل ، ماذا أستطيع أن أفعل ؟

وحزر الأكبران طبيعة المشاحنة على الفور ، ولم يزيدا كلمة على ما قيل . ونهضت آن ، وتوجهت إلى الباب الأمامى حيث أنصتت ، خافقة القلب ، إلى كل نأمة . ثم دخلت . ثم عادت فخرجت . وأتيح لها مرة أن تسمع صاحب الطاحون يقول :

— إنى لأتساءل عما جرى بين بوب وآن ! أرجو أن يعود الفتى إلى البيت .

وفى هذا الوقت بالذات التقطت الآذان صوت أقدام تتردد فى الخارج ، ودب بوب بقدميه مخترقا الممر . وتبعته آن إلى الغرفة ، وكانت قد وقفت فى الظلام إلى الخلف أثناء مروره ، وهناك كان صاحب الطاحون وزوجته يهمان أن يأويا إلى مضجعهما ، وفى يد أحدهما شمعة .

وبدأ بوب يقول مبتهجاً بادياً كأنه لا يذكر أقل شىء عن انصرافه الفاجع من المنزل :

— أخشى أن أكون قد أسهرتكما ، ولكن حقيقة الأمر أنى قابلت فستوس دريمان فى « ديوك أوف يورك » بعد انصرافى من هنا . وظللنا نلعب هناك ، منذ ذلك الحين ، لعبة « بوت »(١) ، دون أن نشعر بمرور الوقت . وقد مرت سنوات بعد سنوات لم يجر لى مع هذا الفتى خلالها حديث طويل ، وإنه فى الحق رفيق طيب للغاية ، دائم الإخلاص ! . وقد أسىء إلى هذا المسكين ، وأنا لم أسمع

---

(١) لعبة ورق قديمة تشبه لعبة « ناب » ويأخذ كل لاعب فيها ثلاث ورقات . ويرجع الفضل فى الالمام بلعبة « هاوس » التى مارسها جنود جورج الخامس فى الخنادق الى جنود جورج الثالث .

حقيقة حكايته قط إلا الآن ، ولكن يبدو أن العم الهرم يسئ معاملته على نحو مخجل ، فقد أخفى ماله حتى لا ينال منه « فس » المسكين قرشاً . وظلت الحال كذلك حتى تحول الشاب فى النهاية إلى دودة منقبة كسائر الدود ، واعتزم الآن أن يستقصى الأمر ليعرف ماذا صنع بذلك المال . ولم يكن لدى الفتى مال موفور حتى أقرضته جنيهين ... وهذا ما لم أفعله فى حياتى وأنا أشد رضى ، ولكن الرجل كان شريفاً جداً ، فقال : « لا ، لا . لا تدعنى أحرمك من مالك . » إنه سيتزوج . فما دافعه إلى ذلك فى زعمكم ؟

قالت أم آن :

— الحب ، على ما أرجو .

وقال صاحب الطاحون :

— أحسب أنه المال ، ما دام المال يعوزه .

وقال بوب :

— لا ، بل « الحنق » لقد أساءت إليه امرأة ... أساءت إليه إساءة مفرطة . إنى لم أسمع بحالة أشد قسوة فى حياتى . والفتى المسكين لم يبح بأسماء ، ولكن يبدو أن تلك الفتاة عبثت به متوسلة بكل الطرق القاسية . . . دفعت به إلى النهر . . . وحاولت سرقة حصانه وقتما دعاه داعى الدفاع عن الوطن ... وبجمل القول إنه عومل معاملة منكرة . ولذلك منحته الجنيهين وقلت له : « لنشرب الآن نخب سقوط الفاجرة ! »

وقالت آن ، وقد اقتربت من خلفه .

— أوو !

والتفت بوب فرآها ، وانسحب السيد والسيدة لفدى آنذاك خفية من الباب الخلفى ... وقال لها فى رقة :

— هل تم الصلح بيننا ؟

وقالت مهتمة :

— أوو نعم . أنا ... لم أقصد أن أحملك على الظن بأنى لا قلب لى .

وعندئذ دار بوب بوجهه إليها ، فقالت مبتسمة من خلال دمعتين آخذتين فى الظهور ، بينما هى تتراجع :

— لا ، فإن عليك أن تبدى السلوك الحسن مدة ستة أشهر ، وينبغى أن تعدنى بأنك لن تخيفنى مرة ثانية بانطلاقك عندما ... أبدى لك إلى أى حد أسأت معاملتى .

وصاح بوب :

— إنى مطيع لك فى كل شىء . ولكن ، هل صفحت عنى ؟

إن الشباب أحمق . وهل اعتادت المرأة ، فى مثل هذه الأحوال ، أن يقف إيثاو عقلها للرجل الأفضل ، فى وجه تشبثها المتمرد بالرجل الأقل فضلا ؟ وغمغمت بعض العبارات الرقيقة التى انتهت بقولها :

— هل تبت ؟

ومن نفاية القول أن ننقل رد بوب .

وسمع وقع أقدام فى الخارج . وقال بوب :

— أوو ، قسما بالله لقد نسيت ، إنه ينتظر هناك ناراً لإشعال غليونه .

— من ؟

— صديق دريمان .

— ولكن لا بد أن أشرح لك الأمر يا بوب .

بيد أن فستوس دخل فى هذه اللحظة المغر ، وتوارت آن صاعدة إلى علو الدار بعد أن قالت على عجل :

— تخلص منه على الفور !

وانتظرت هناك ، وطال انتظارها ، ولكن لم يبد أن فستوس يميل إلى الانصراف . وفى النهاية ، إذ توجست تضارب للمصالح من صداقة بوب الأخيرة لهذا الرجل ، دلفت إلى المخزن الذى يقع فوق الغرفة التى توجه إليها لفدى وفستوس . وكان من السهل الإشراف من ثقب صغير بأرض ذلك المخزن على منظر من الغرفة الواقعة أسفله من خلال الدعائم والعوارض ، نظراً إلى أن الغرفة كانت غير مسقوفة .

وكان فستوس قد جلس على قاعدة النافذة المجوفة ، وأخذ يواصل ذكر أخطائه . وفكرت آن متوجسة : لو أنه علم فقط أى شىء يجلس عليه ! إذن لاستطاع فى سهولة كبيرة أن يحطم لسان قاعدة النافذة ، والقفل وكل شىء ، بذراعه القوية ! وأن يستولى على ما يملكه العم بنجى المسكين ! ولكن لم يبد عليه أنه يعلم ذلك إلا إذا كان يمثل دوراً ، وهذا ممكن تماماً . وقام بعد برهة ، واتجه

إلى المنضدة ؛ ورفع الشمعة ليشعل غليونه . ووقتما أخذت النار تغوص فى جوف الغليون ، انفتح الباب فى سكون ، ومرقت قامة إنسان عبر الغرفة إلى قاعدة النافذة ، وفتحت قفلها على عجل ، وأخذت الصندوق ، وارتدت منسحبة . وتبينت آن فى لحظة أن الذى اقتحم الغرفة كالشبح هو عم فستوس دريمان . ووضع فستوس الشمعة فى مكانها ، ودارقبل أن يتمكن عمه من الخروج ، وضحك فى صخب :

ـــ ماذا ! ... عمن بنجى ... ها ، ها ! أنت هنا فى هذه الساعة من الليل ؟

وشلت عينا العم بنجى عن الحركة . وأخذفمه يفتح ويقفل كفم الضفدع عند العطش ، دون أن يحدث صوتا

ـــ ما هذا الذى معك هناك ؟ صندوق من صفيح ؟ .. صندوق الصناديق ؟ كيف هذا ، إنى سأحمله لك ياعمى ؟ . . . فأنا عائد إلى البيت .

وقال مالك الأرض لاهثا .

ـــ ل . . . لا . . . لا ، شكر يافستوس . إنه ليس ؟ . . . ؟ . . . ثقيل أبدا ، . . شكرا .

وقال فستوس وهو يجذب الصندوق

ـــ أوو ، ولكن لابد لى من حمله .

وصاحت آن المنفعلة من خلال ثقب الثقف :

ـــ لاتدعه يأخذ الصندوق يابوب !

وصاح العم :

ـــ لاتدعه يأخذه ؟ . . ، إنها خطة مرسومة ، فهناك امرأة تنتظر بالقرب من النافذة لتعاونه .

وطارت آن ببصرها إلى النافذة ، ورأت وجه ماتيلدا ملتصقا بلوح الزجاج .

وبرغم أن بوب لم يدرك من أين صدر أمر آن فقد أطاعه فى نشاط ، وجذب الصندوق من أيدى العم وابن أخيه ، ووضعه على المنضدة بالقرب منه ، وقال:

ـــ خبرانى الآن أيها المتحمسان ، مامعنى هذا ؟

وصاح الرجل الهرم :

ـــ إنه يحاول سرقة كل ما أملك ! ويبدو أن أوتار قلبى تتمزق مقعقعة !

ودخل صاحب الطاحون الغرفة وقتذاك دون سترة أو صدار ، إذ كان قد وصل إلى هذا الشوط فى خلع ملابسه عندما سمع الضجيج. ودار بوب وفستوس إليه ليشرحا الأمر ، وعندما انتهى هذ الأخير من الإفضاء بما كان عليه أن يقول له ، أضاف بوب مايلى:

— حسنا ، كل ما أعرفه هو أن هذا الصندوق . . .

وهنا مد يده ليضعها على غطاء الصندوق بقصد توكيد قوله . ولكنه دار إذ لم تقابل يده إلا الهواء الخفيف حيث كان الصندوق موضوعا ، ووجد أن مايشير إليه لم يعد له وجود ، وقد توارى العم بنجى أيضا .

وأسرع فستوس إلى الباب وهو يسب ويلعن ، ولكن لم يظهر للمزارع دريمان ولحمله أثر برغم أن الليلة لم تكن معتمة . والتقى فستوس على الجسر بامرأة على هيئة ظل ، وسارا فى الطريق معا ، وتبعهما بوب على بعد خشية أن يقابلا الرجل الهرم ويؤذياه ولكن حيطته لم تكن ضرورية ، فلم يبد فى أية ناحية من الطريق أثر ماللمزارع دريمان ، أو للصندوق المختص به . وكانت آن والسيدة لفدى قد انضمتا إلى صاحب الطاحون فى سفل الدار عندما دخل بوب البيت ثانية . ثم عرف هذا الأخير ، لأول مرة ، من تكون بطلة قصة فستوس المحزنة ، وكذلك تفصيل سيرة هذا الفارس المتطوع ، وكان لا يعرف عنها شيئا قبل ذاك . وأقسم أنه لن يخاطب هذا الخائن ثانية . وأوى أفراد الأسرة إلى مضاجعهم .

إن فرار السيد دريمان الهرم من مضايقات ابن أخيه لم يصادفه التوفيق فى تلك الليلة فحسب ، بل فى الليلة التالية . . . وإلى الأبد . وفى اليوم التالى ، عقب الفجر مباشرة ، رأى أحد الأجراء ، وهو ماض إلى عمله ، رأى ذلك المزارع الهرم المالك للأرض يتكىء على حاجز فى أحد المروج القريبة من منزله مشتغلا على ما يبدو ، بتأمل الماء الجارى فى جدول باد أمامه . وحادثه الرجل عند اقترابه منه ، ولكن العم بنجى لم يجبه . كان رأسه يتدلى على نحو عجيب ، والذى أعان على بقائه فى ذلك الوضع المنتصب هو وجود الحاجز تحت كل من إبطيه . وقد ظهر من فحص العم بنجى بعد ذاك أن قلبه الذابل المسكين تصدع وتوقفت ضرباته بفعل الأضرار التى ابتلته بها استثارات حياته ، لاسيما استثارات الليلة السابقة . ولم تزد جثته الفاقدة الوعى عن قشرة خاوية جفت وتجردت من اللحم

بجثة بلشون ميت وجدوها بأرض سبخة فى زمهرير شهر يناير .

ولكن لم يجد أحد الصندوق معه أو فى مكان قريب منه ودار البحث عنه طوال الأسبوع ، وطوال الشهر ، فجرفوا الماء من حوض الطاحون ، وفتشوا المحاجر وسلكوا دروب الغابات ، وعرضوا المكافآت ، ولكن ذهب ذلك كله سدى .

وأخيرا ، فى يوم من أيام الربيع ، بينما هم يشرعون فى تنظيف بيت الطاحون تنظيفا شاملا . . . اقتضى الأمر إنزال لوح من مدخنة غرفة آن كان يغطى مدفئة مفتوحة ، وفى شق وراءه بدا صندوق وثائق المزارع دريمان المفقود .

وكثر الحدس والتخمين عن كيفية وصول الصندوق الى ذلك المكان ، ثم تذكرت آن أنها وهى تأوى إلى فراشها . ليلة الاصطدام بين فستوس وعمه فى الغرفة السفلى ، رأت بعض الطين عالقا ببساط غرفتها . وتذكر صاحب الطاحون أنه رأى آثار أقدام على السلم الخلفى . وبدا أن حل سر العم بنجى الفقيد ، هو أن هذا الأخير عاد ثانية بعد خروجه من البـــاب الأمامى ، وبدلا من أن يغادر بصندوقه البيت ركضا دخله من الباب الخلفى ، ووضع صندوقه فى غرفة آن حيث وجدوه أخيرا ، ثم واصل سيره إلى بيته على مهل فى أعقاب فستوس ، ناويا أن يخبر آن بحيلته فى اليوم التالى . . . وكانت نية أطاحت بها ضربة الموت إلى الأبد .

كان محامى السيد دريمان رجلا من كاستربريدج ، وقد وضعت آن الصندوق بين يديه . ووجدت وصية العم بنجى داخل ذلك الصندوق . وكان صديق آن القديم العجيب أقامها منفذة وحيدة لوصيته المذكورة . كذلك أوصى لها وورثها بالملكية العينية والشخصية لضيعته . ولم يستثن من توريثها ما يملك إلا خمسة منازل صغيرة فى شارع خلفى ببلدة بور سماوث ، فقد ورثها فستوس ، ابن أخيه ، لتكون له ملكا يدر عليه دخلا يحفظ كرامته دون أن يتجاوز ذلك حدود العيشة الخالية من البذخ ، أما « أوكسويل هول » بساحته المربعة المملوءة طينا ، « وبواكيه » ونوافذه ذات الفواصل ، وأسواره المصدعة ، وحديقته المشوبة بالحشائش ؛ فقد آلت ملكيته ؛ مع غيره من مال المتوفى ، إلى آن .

جون يمضى إلى

جوف الليل

(٤١)

لم يكن جون لفدى ، خلال ذلك الوقت المثير ، يحضر إلى الطاحون إلا نادرا ، أو لم يكن يحضر إطلاقا . وقد بدا أن مهمته تمت ، باستدعاء بوب ، وكان هو القائم الوحيد بهذه المهمة .

وفى ظهيرة يوم من الأيام ، قبل أن تدخل آن أى تغيير على سبل حياتها بعد الإرث الذى فازت به دون توقع ، حضر الملازم بوب ، وكان حضوره لجأة نوعاما، فقد جاء من بودماوث ، وأعلن للأسرة التى استحوذ على حواسها أن الأمر صدر لفرقة الدراغون رقم . . . با لانضمام إلى جيش سير أرثر ويلزلى فى شبه الجزيرة، وقد أحدث هذا النبأ تأثيراً شديد الوقع على أفراد الأسرة ، فإن جون أقام فى جوارهم مدة طويلة جداً ، سواء فى المعسكر أوفى الثكنات ، إلى حد أنهم كادوا ينسون احتمال إبعاده . وأخذوا الآن يفكرون فى غرابة ندرة زياراته لهم منذ عودة أخيه . ولم يكن هناك ، مع ذلك ، متسع من الوقت للتفكير فيما إذا أرادوا الإفادة ، بقدر الاستطاعة ، من زيارة جون لوداعهم . فهو سيقوم بها فى ذلك المساء نفسه نظرا إلى أنه قد تقرر رحيل فرقته فى اليوم التالى . وأعدوا عشاء وداع ، أثناء العصر ، على عجل . ووصل جون بعد ذلك بقليل .

وبدا أ كثر استغراقا فى التفكير من ذى قبل ، وازداد شحوبه قليلا ، ولكنه لم يبد أى علامة من علامات التجهم علاوة على تلك الآثار التى قد ترجع إلى فعل الزمن . وقد وقع له فى ذلك الصباح نفسه ، بينما كان يجتاز البلدة ، حادث صغير غريب . كان يمر بإحدى الكنائس وقتما خرجت منها جماعة تحتفل بعرس ، وإذا العروسان ماتيلدا وفستوس دريمان . وعندما رأى الفارس المتطوع ، جاويش البروجى ، سدد إليه نظرة انتصار . وغمزت له ماتيلدا فى خبث ، وكأنما أرادت أن تقول . . . . ولكن الله وحده يعرف ماعنته . ولم يزعج

جاويش البروجى نفسه بالتفكير فى هذا . ومر دون أن يجيبها على علامة الثقة التى خصته بها .

وعلى أثر وصول جون إلى الطاحون جاء كثيرون من أصدقائه لنفس الغرض، وهو توديعه . وكان أغلبهم من الرجال الذين استضيفوا فيما مضى بمناسبة مجيء فرقته وعسكرتها فى التل ، وقد جاملتهم آن وأمها عند ذاك باشتراكها السامى فى الحفل . وكان الجنود المدربون المهذبو السلوك على خلق جعلهم حينذاك ، كما كانوا فى كل وقت ، زوارا يثيرون الاهتمام . ذلك لأن الجو الخيالى العاطفى لم يكن قد تقلص عن الحياة العسكرية تقلصا كبيرا كما هو الواقع هذه الأيام التى قصرت فيها مدة الخدمة ، واختلط فيها الجند غير متجانسين ، وأصبحت حملاتها العسكرية قصيرة عابرة . كانت روح الجنـدية وقتذاك قوية ، والخبرة الطويلة تطبع حتى الجنود العاديين بطابع ذى خصائص عسكرية جديرة بالتنويه ، بينما امتاز زوار صاحب الطاحون بميزة إضافية وهى أنهم كانو رجالا مختارين .

ولم يستطع أولئك الزوار أن يمكثوا هذه الليلة مدة طويلة كما مكثوا فى ذلك الحفل الأسبق ذى المناسبة الأكثر بهجة . وتبودلت عبارات الوداع الأخيرة فى ساعة مبكرة . ولم يكونوا لدى رحيلهم مجرد عابثين على نحو ما كانوا عليه عندما ذهبوا إلى ثكنات إكزنبورى ، وطالت مصافحة بعضهم لبعض جميعاً فى حرارة . وقال بوب لآن التى لم تأت لهذا الغرض كالباقين :

ـــ ألا تودعين أولئك القوم المساكين ؟ فهم سينصرفون ويودون أن تشيعيهم بكلمة طيبة .

وتقدمت عندئذ خجلى، وشعر كل رجل منهم بأن عليه ، وهو يصافحها ، أن يلقى بضع كلمات لطيفه .

وقال الجاويش بريت :

ـــ استودعك الله ! يمكنك أن تذكرينا ما دام ذلك يسعدك ، وأن تنسينا وقتما يحزنك .

وقال الباشجاويش ويلز ، وهو يتناول يدها من بريت :

ـــ مساء الخير ! أتمنى لك الصحة والرخاء وطول العمر !

وقال جندى البروجى بوك :

— آمل أن أراك ثانية وأنت زوجة رجل كبير القدر .

وقال الجايش السروجى جونز وهو يرفع يدها إلى شفتيه :

— سنشرب نخبك دائماً خلال غزوتنا ، وعلى ذلك أستودعك الله .

وتبع هؤلاء ثلاثة آخرون تمنوا لها تمنيات مماثلة ، وأجابت آن على كل منها بأحسن ما استطاعت ، مصطبغة الوجه خجلا ، متمنية لهم بدورها رحلة موفقة ، وانتصاراً سهلا ، وعودا سريعاً .

ولكن ، أسفا على ذلك ! فالمعارك والمناوشات ، والكر والفر ، والأمراض والمتاعب أثرت تأثيرا بليغا فى أصدقاء آن الأفاضل خلال السنوات التالية . فمن بين الرجال السبعة الذين خصتهم آن بتلك التمنيات ، مات خمسة كان جاويش البروجى واحداً منهم ، وذلك خلال السنوات القليلة التالية ، وتركت عظامهم لتنخر فى أرض المعارك التى خاضوها .

وتريث جون متخلفا عن الباقين عندما خرجوا ، بعد أن أفضى بعبارات وداعه الأخير لأبيه ولبوب والسيدة لفدى ، جاء إلى آن التى ظلت فى الداخل .

قالت له فى رقة :

— ولكننى ظننتك ستطل علينا ثانية قبل رحيلك ؟

— لا ، فأنا أجد ذلك غير ممكن . أستودعك الله !

وقالت آن وهى تمسك يده بكلتى يديها :

— جون ! هناك شىء لا بد أن أفضى به إليك . لقد كنت حكيما حين لم تقيدنى بكلمتى فى ذلك اليوم ، فإنى لم أكن مدركة لحقيقة شعورى . فعرفان الجميل ليس حبا برغم أنى أردت أن أجعله كذلك بمرور الزمن . وأنت لن تصفنى بالطيش لما أقدمت عليه ؟

فقال جون وهو أميل إلى البشاشة منه إلى الصدق :

— ياعزيزتى آن ، لا تسلمى نفسك إلى الكدر ، فالذى حدث هو الأوفق . إن قلب الجندى يتنقل كل يوم من مكان إلى مكان . ومن يدريك أنك لن تسمعى عن اهتمامى بفتاة أسبانية قبل مرور شهر واحد ؟ إن هذه هى طريقتنا كما تعلمين

فقلب الجندى غير جدير بأن يطارد أسبوعا . . ها ، ها ! وداعا ، وداعا !

وشعرت آن بتدبير هذا الأسلوب ، وقبلت تصنعه على أنه حقيق ، وأجابته مبتسمة دون أن تعلم أن هذا الوداع هو الاخير . ثم خطا إلى خارج البيت وفى عينه دمعة . وودع هناك صاحب الطاحون ، والسيدة لفـــدى ، وبوب الذى قال له :

ـ لا بأس ياجاك ، ياصديق العزيز . فبعد مغازلات كانت كافية للفوز بثلاث فتيات إنجليزيات عاديات ، وخمس فرنسيات وعشر خلاسيات(١) ، رضيت بى زوجا فى نهاية ستة أشهر . وداعا ياجاك ، وداعا !

وألقت الشمعة على جون وسترته العسكرية نورها المرتعش وهى فى يد أبيه ، بينما كان ذلك الجندى يدور مغادرا عتبة الباب ، وعلى ثغره ابتسامه وداع ، وقام ظلام الليل من ورائه ، وبعد مرور دقيقة أخرى غاص فى الظلام ، وأخذ رنين خطواته النشطة يتبدد فوق الجسر وهو يلحق بزملائه فى السلاح . . ومضى لينفخ فى نفيره حتى صمت إلى الأبد فى إحدى المعارك الدامية فى إسبانيا ؟

﴿ تمت ﴾

(١) الخلاسية من كان أحد والديها أوربيا والآخر زنجيا (شرح الأصل)

الناشر
دار الفكر العربي



مطبعة الاستقلال الكبرى
٨ ش نجيب الريحانى ت : ٩٤٧٤٨٦